الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي

دراسة وتحقيقاً

د. أحمد عمر

د. محمد المهدي رفاعي • د. خالد خالد • د. إياس الرشيد

د. إسلام جانكير • د. عرابي عرابي • د. أنس صالح

الجزء الرابع



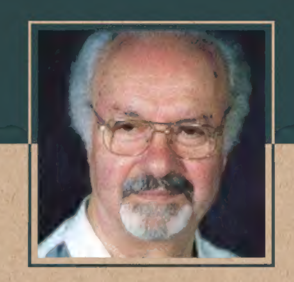
ية ال

سبا

وتحقي

الجزء الرابع

«إلى الأصدقاء.. الذين يقرؤون الخواطر التي أكتبها وأنشرها في صفحتي، يوميًا وعلى مدى سنوات، مؤرِّخًا الحالةَ التي يعيشها البلد، متابعًا الحراك الثقافي في الوطن الكبير، في تجلّياتٍ أَستوحيها من المجتمع بقِيَمه التليدة والمستحدثة، وبما أُوَشّي ذلك من ذكرياتٍ شخصية هي غيضٌ من فيضِ الذاكرة الجَمعية في بلاد الشام. أناشدكم الاهتمام بهذا الإرث، المتنوّع، الذي لا تُعوزه الصراحة والصدق ولا الدقة والموضوعية والنزاهة، ومساعدتي في أن أقدّمه للقراء في مجلدات بعددها... والعون الذي ألتمس أن يتولّى هذه المهمّة القادرون عليها من المثقفين الغيورين على الوطن والمجتمع والتاريخ والأدب والحقيقة...»



فاضل السباعي



+90 506 023 22 35 www.dar-ikdam.com

+90 212 671 62 48 dar-ikdam@gmail.com

www.facebook.com/dar-ikdam



4. cilt isbn

الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي

دراسة وتحقيقاً

الجزء الرابع

د.أحمد عمر
د.محمد المهدي رفاعي
د.خالد خالد
د.إياس الرشيد
د.إسلام جانكير
د.عرابي عرابي
د.أنس صالح

اسم الكتاب: الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي دراسة وتحقيقا
المؤلف: مجموعة مؤلفين
الناشر: دار إقدام للطباعة والنشر
الطبعة: الاولى
سنة النشر: 2023
مكان النشر: اسطنبول- تركيا
isbn: 978-625-6483-03-3
4. cilt isbn: 978-625-6483-07-1

١-شجرة توت عتيقة على ضفّة نهر "تورا"

[مقالة في حبّ الشجر]

(١من٥)

مقدمة:

ذهبنا اليوم لقضاء أمر في وسط العاصمة، وفي عودتنا مررنا بحيّ "سوق ساروجا"، فاشترينا حاجات من سوق الحيّ، منها "التوت"، وفي البيت غسلناه وأكلنا حبّاته، حُمْرًا، وبيضًا، و"خدّ وخدّ"!

وكان لابدّ من أن أتذكّر ذلك "البحث" الذي اشتغلت عليه قبل سنين، عن التوت، وعن حبّي للشجر، وفيه أطلقتُ بعض ما اختزنته الذاكرة من مشاهد ومعارف، جعلتْه جديرًا بالنشر [وقد نُشر في العام ٢٠١٠]، وسائغا لأن أقدّمه إليكم بعد أكلي توت الموسم، فجزّأته في حلقات خمس أَعُدّ هذه الكلمة أولاها، ثمّ أنشره على جداري كاملاً.

أقول: ذكرت "سوق ساروجا"، فأحببت أن أعرّف بنشأته بكلمتين: «في عهد المماليك، في مصر والشام، تزايد عدد سكان دمشق تزايدًا ملحوظا في ظلّ الأمن والازدهار الاقتصادي، واتّسعت المدينة اتّساعًا منقطع النظير، وظهرت في دمشق ضاحيتان جديدتان: أولاهما "السويقة"، في الجنوب الغربي من دمشق..... والأخرى في الشمال على طريق الصالحية وبيروت قريبا من الجبل، سمّيت "سويقة ساروجا"، نسبةً إلى الأمير "صارم الدين صاروجا"، وسكانُها غالبا من الضباط والجنود لقربها من القلعة» [يُنظر الاستطلاع المطوّل بقلمي «دمشق عبر التاريخ»، مجلة "الفيصل"، الرياض، العدد ٣٧، رجب ١٤٠٠، أيار/ حزيران ١٩٨٠].

دمشق الشام: الاثنين ١٥-٦-٢٠١٥ [نُشر متأخرا!]

٢-شجرة توت عتيقة على ضفّة نهر تورا

[مقالة في حبّ الشجر]

(٢من٥)

أوائل كلّ صيف، وفي موسم التوت، عندما أنزل من بيتي متّجهًا نحو ضفّة نهر تورا -التي تراءى لهم في عصرنا أن يُسمّوها شارع زهير بن أبي سُلمى- كنت أُحاذر، وأنا أسير على الرصيف المتاخم لجدارٍ عتيق، أن تطأ قدمي حبّات التوت المتساقطة نُضْجًا، على حين يكون قد سبقني مشاةٌ فداسوها، حتى غطّى هريسُها الأرض، وليس يُتاح للرصيف أن يستردّ نقاءه إلاّ بمَطْرةِ الخريف الأولى، هذا إنْ جاءت وابلاً.

فأمّا نهر تورا (والكلمة سُريانيّة، تُشير إلى معنى الارتفاع أو إلى الجَبَل)، فإنّ الناس بدمشق قد عمدوا من قديم الزمان إلى "تَفْريع" نهر بردى، قُبيل دخوله العاصمة عند ما يُسمى "خانق الرَّبْوَة"، إلى "نُهَيرات" أحدها تورا، الذي يتهادى في سفح جبل قاسيون، مارًّا بجوار بيتي، عبر مجرى حرصوا على أن يرصُفوا قاعَه بالحجارة -منعًا لتسرُّب مائه- وكذلك ضفَّتَيه، متابعًا إلى الجسر الأبيض... فإلى جوبَر والغُوطة الشرقية، مشكِّلاً هناك مع سائر الفروع ما يشبه "مِرْوَحةً" تروي الأراضي الزراعية، قبل أن يَغيض ماء النهر.

وأمّا شجرة التوت، التي تُطلّ من فوق ذلك الجدار، فإنها تنبثق من أرضٍ عَرَصَة لم يمتدّ إليها البناء حتى اليوم، وأحسب أنّ الأرض بقيّةٌ من بستان كان يُثَمَّر هنا قبل أن تزحف العمائر فتجعل من البساتين هنا حيًّا، لم يُبالغوا حين أطلقوا عليه اسم "الروضة"! وقد ظللتُ أتخيَّل الشجرة دوحةً عظيمة، تَنِمّ على ذلك الفروعُ المتدلّية، فما حال تلك

المحجوبة عنّي خلف الجدار الأصمّ؟ وأين مَن يأتي بقُلُوعٍ، فيمدّها على الرصيف هنا وعلى أرض البستان هناك، ويصعد يَهُزّ ويَدُقّ، فيكون تساقُطٌ ولـمٌّ، ويكون تسويقٌ، ويأكل الناس من حبّات التوت هنيئاً؟

كيف أحببت الشجر:

الشجر أحببتُه -ومن لا يُحبُ الشجر؟ - وأحببت سائر أصناف النبات، منذ كنت طفلاً، وأنا أرى جدّتي، في بيتنا في زقاق الزهراوي بحلب، تقعد القُرفُصاء، وتتنقّل بقعدتها هذه حول البِركة، التي تنتظم فوق حافّتها أُصُصُ الزَّرِيعة، في ربيع وفي صيف، تُفَلّيها مستبعدةً اليابس من الأوراق، وتُهيب بي أن أُبادر إلى سقي الزَّرعات، فإنها تكاد «تموت من العطش» -وما هي كذلك! - وبعد أن أستجيب تؤكّد لي جدّتي أنّ الزرعات الآن «تدعو لي بالخير»!

ولم تحمل الأسرة، من هذه الأُصُص، يوم انتقالنا إلى بيت طابقيّ إلاّ أقلّها... فسَكَنَني الحنينُ إلى الزرع، وإلى الزهر، وإلى الاستماع إلى تغريد العصافير والإنصات إلى حفيف الأغصان يُحرّكها الهواء العليل.

فلما قُدِّر لي أن أنتقل شابًّا بأُسرتي الصغيرة إلى العاصمة دمشق، وأسكن بيتاً أرضيًّا ذا حديقة يُظلِّلها الشجر، من نارِنْجٍ وأُتْرُجٍّ (كبّاد) وكرمةٍ وياسمينة وعسليّة، يملأ الفضاءَ عبيرُها، في الربيع والصيف، وجدت أنّ حُبَّ النبات عندي قد استَحكَم، حتى حبَّب إليّ تحصيل "الثقافة النباتية"!

الإبحار في عالم الأشجار!

أجل، في دراستي التي أَمْلَتْها عليّ هوايتي، ورجوعي إلى المصادر الزراعية، عرفت أنّ شجرة التوت، تلك التي أَمُرّ من تحت أغصانها وأُحاذر، تنتمي إلى العائلة النباتية

المسمّاة علميّاً Maraceae، وأنّ موطنها الأصلي الهند والصين، وقيل: بل منطقة "القفقاس" (شماليّ الديار الإسلامية)، ومن هناك انتقلت إلى المناطق المجاورة لها، ولم تبعُد كثيراً، وتُزرع في مساحات صغيرة، ذلك أنّ الجدوى الاقتصادية من نتاجها ضئيلة، مع ما في حبّة التوت من منافع غذائية ودوائية.

وشجرة التوت ذات حجم، وقد يصل قطر جِذعها إلى مترين اثنين، ويمتدّ قطر تاجها الظليل إلى ثمانية أمتار والارتفاع إلى عشرة. ولمتانة خشبها وجودته أمكن الاستفادة من جذوعها وفروعها في الصناعات الخشبية.

وأنواع التوت ثلاثة: أبيض وأحمر وأسود.

ويتميّز الأبيض والأحمر، بعد ثمارهما، غالباً بورق الشجر الكبير، الذي يُطعِمونه دودَ الحرير (دود القَزّ).

والأسود هو ما يُسمّى في بلاد الشام التوت الشامي، ويمتاز بثمرته الكبيرة الحجم، السوداء اللون، الكرويّة الشكل، ذات الطعم المُزّ (المائل إلى الحُموضة)، وعصيريّته.

واسم الشجرة العلمي Morus، والأصل -حسب الباحث التونسي إبراهيم بن مراد- من اللغة اليونانية Diâ morân، وحسب عالم النبات الدكتور أنور الخطيب (عضو مجمع اللغة العربية بدمشق)، أنّ الأصل من اللاتينية Morum.

وقد قرأت في كتاب "وصْف إفريقية"، أنه كان في مدينة فاس سوقٌ يُباع فيه خيطُ الكَتّان وتُحلَج أليافه، يقوم هذا السوق في بناء كبير تُحيط به أربعة أروقة، يبتدئ البيع فيه ظهرًا وينتهي عصرًا... وفي النصّ أنه «زُرع في وسط ساحة السوق عددٌ من أشجار التوت لنشر الظلّ، ويذهب الناس إليه أحيانًا بقصد التسلية»، وما يحسن ذكره أنّ ظِلال شجر التوت تمنح قدراً من الرطوبة.

التوت بالعربية: توث (بثلاث نقاط)!

اختلفت المصادر التاريخية العربية حول مصطلح التوت: في أصله، وفي رسم لفظه.

وقد استبعدوا أن تكون الكلمة عربية، وذهب أكثرهم -ومنهم الأصمعي- إلى أنها فارسية: توت، وبعضهم يرى أنها في الفارسية دخيلٌ من السُّريانية: توتا Tuta. ونَطَقَها العرب بالمثلّثة: توث، وإن جرت على الألسن بالمثنّاة: توت، وكذلك أوردها الفيروزآبادي (القرن الثامن للهجرة/ ق١٤م).

وتذكر المصادر أنهم يسمّونها في الحجاز: البشكل، وفي البصرة: الفِرصاد.

وتوت في اللغة التركية: طوت، وفي العبرية: توت، وفي الإنكليزية: Malberry، وفي الفرنسية: Mûrier.

وفي "معجم البلدان"، أنّ هنالك عدّة أماكن في الديار الإسلامية، يُسمّى كلٌّ منها "توث" بالمثلّثة.

دمشق الشام: الثلاثاء ١٦-٦-٢٠١٥

٣-شجرة توت عتيقة على ضفّة نهر تورا

[مقالة في حبّ الشجر]

(٣من٥)

التوت غذاء ودواء:

وفي ثمرة التوت أنواعٌ من الفيتامينات، في مقدّمها فيتامين(C).

وفي نفعه دواءً، ذكر ابن البَيْطار الأندلسي (وقد رسمها بالمثلّثة)، نقلاً عن الطبيب الإغريقي جالينوس (من أبناء القرن الثاني الميلادي): ثمار التوت «إذا كانت نَضِجةً

فهي تُطلِق البطن، وما لم ينضج منها فإنه -إذا جُفِّف- صار دواءً يحبِس البطن حبساً شديداً... وأما عُصارة التوت المُدْرِك (الناضج)، فالأمر فيها أنها نافعةٌ جدًّا لأدواء الفم، وليس في الناس أحدٌ لا يعرفها! ».

وفي دمشق خاصّةً يتّخذون من "التوت الشامي" رُبًّا مكثَّفًا، يتناولونه عصيراً ممدَّداً، ويَشيع في حلب بدلاً منه رُبُّ الكَرَز (المُزّ أيضاً)، يتناولون عصيره ممدَّداً.

أقول: وفي جريان كلمة "التوت" على الألسن، تغنَّت بالتوت مطربةٌ عربية شهيرة، فأبدت أسفها لأنها يوم نزلت لتبيع "كُبُوش التوت" ضيَّعتْ قلبَها في بيروت! و"الكَبْش" في شجرة التوت -حسب مَن فسَّر لي في السفارة اللبنانية المُحْدَثة بدمشق- بمنزلة العنقود في دالية العنب، يحمل كلُّ كبش عدداً من حبّات التوت.

التوت في الموروث الشعبي:

لتزايد حلاوة التوت كلما نضِج، فإنهم يقولون بالعامية في بلاد الشام، على التشبيه: «فلان متل التوت كلما كبر بِطيب وبيحلى! ».

ومن أمثالهم: «كل شي أول ما يجي غالي، إلاّ التوت».

ومن كناياتهم: «فلان بيقلع توتة! » (يقلع شجرة توت)، يريدون أنه قويّ جدًّا.

وعند اختتام الحكاية يقول الحكواتي: «توته توته، خلصت الحدّوته، مليحه إلاّ مفلوته؟ ».

وفي الجبّانات (المقابر) تُرى قُرب بعض القبور شجرةُ توت، تؤكل ثمرتها على روح الميّت.

ويذكر العلاّمة الأسدي م. خير الدين(المتوفى بحلب ١٩٧١) في موسوعته، أنه كان داخل مدينة حلب ثلاثُ شجرات توت شهيرة: "توتة باب النيرب" و"توتة ساحة بِزَة"

و"توتة بَحَسيتا"، كلّها أُزيلت إلاّ الأخيرة (على زمنه)!

التوت البرّي: الفريز، الفراولة:

ولابدّ من القول إنّ هناك صنفًا من التوت لا تَحمِل به الأشجارُ، بل شُجَيراتٌ عُشبيّة زاحفة، يُسمّى ثمره في بلاد الشام: فْريز، وفي مصر: فَراوْلة، والاسم العلمي Fragaria، تقول المراجع الزراعية أنّ موطنه الأصلي أمريكا الجنوبية، "الشيلي" خاصةً، وانتشر في مناطق كثيرة من العالم، باردةً ومعتدلة، لقدرته على التأقلُم مع الشروط البيئية.

ويُرجِّح الباحثون المعاصرون أنّ أجدادنا العرب لم يعرفوا هذا الصنف من التوت. وأميل إلى الاعتقاد بأنهم عرفوه، فقد وصفوا ما هو شديد الشبه به، وتوقّفوا طويلاً عند منافعه الطبية، ثمرًا وغُصَينات، وسمَّوه: توت الأرض، والتوت البرّي أو الوحشي. وتتبُّعُ ذلك يقتضي بحثًا، أُعِدّه.

النخيل، والرمّان:

إنّ حبّي للنبات دفعني إلى أن أكتب فيها بحوثًا تقدّمتُ بها إلى مؤتمرات وندوات عربية ودولية، منها بحثٌ عن شجرة النخيل -صديقة الإنسان العربي في حلّه وترحاله- وعن تلك التي ترعرعت في رُصافة قرطبة، فرجَّح المستعرب الكندي العالم بتاريخ النبات "آندريو واطسون"، أن تكون تلك الشجرة هي النخلة الأولى التي زُرعت في الأندلس على يد العرب، في القرن الثامن الميلادي (الثاني للهجرة).

ومما كتبت بحثٌ عن الرُّمّان، بدأته بتلك الرمّانة التي بعثتْ بها الأميرة "أمّ الأَصْبَغ" من رُصافة الشام إلى أخيها عبد الرحمن الداخل، الذي تربّع على سرير المُلك في الأندلس، فلما تلقّاها، وزّع أجزاءها على جلسائه -كما في "نفح الطيب"- فعمد أحدهم

إلى أن يستزرع نوى ما أصابه من الرمّانة، في جَنَّته (حديقته)، فأَثمرت، وجاء إلى الأمير بثمارها!

دمشق الشام: الأربعاء ١٧-٦-٢٠١٥

رسالة من طالب سوري في ألمانيا

مرحبا أستاذ فاضل

يوم أمس ونحن نتلقى درس اللغة الألمانية (في مدينة دورتموند Dortmund)، وكنا حوالي عشرة أشخاص كلنا سوريون متخرجون من الجامعات باختصاصات مختلفة، فاجأَنا المدرس الألماني بسؤاله عن "الكاتب السوري فاضل السباعي"، ومن المؤسف أن أحداً منا لم يسمع باسمك، وعجبت أن شهرتك وصلت إلى ألمانيا ونحن الطلاب السوريون العشرة ما حدا سامع باسمك!

مضى علي الآن ثلاث ساعات وأنا أقرأ عنك في النت وفي صفحتك على الفيس، فعرفت عنك ما يغني.

أرسلت لك طلب صداقة وأرجو أن تقبلني صديقاً.

دورتموند - ألمانيا، فجر الجمعة ١٥-٤-٢٠١٥

[دمشق- الشام: الأربعاء ٢٤ -٦- ٢٠١٥]

بس لا تقولوا لحدا.

هل تعلمون أنّ الفنانة القديرة "منى واصف" هي من أبناء الساحل (وأظنّ من مدينة جبلة)؟

وأنها من الطائفة الشيعية؟

وأنّ أسرتها كانت قد جاءت من العراق؟

أسرّ لي بذلك يوما الكاتب الدمشقي الراحل "صميم الشريف"، المتخصص بتاريخ فن الموسيقى، وأضاف: «بس لا تقول لحدا، لأنّ منى لا تريد أن يُشاع عنها هذا! ».

ولكنكم تعلمون أنها المتربّعة بجدارة على عرش فنّ الدراما السورية، وأنّ قلبها يخفق بحبّ الفنّ ودمشق والشعب.

دمشق الشام: الخميس ٢٥-٦-٢٠١٥

إضافة بعد خمس ساعات:

ما بالنا أصبحنا نتهيّب الإشارة إلى الأصول والأعراق، وشعبُنا مزيج من الأقليات الدينية والعرقية والإثنيّة، ليس في عصرنا وحسب بل عبر آلاف السنين!

لنعلم أنّ كثيرا من أبناء بلاد الشام هم من أصول "سُريانية"، كانوا بعد الاستعراب "يتأسلمون" تدريجيّا (كالحال في مصر بشأن الأقباط)، وأنه انضمّ إليهم -في ظلّ الحكم الإسلامي، كثيرٌ وكثيرٌ جدًا من التركمان والأكراد والشركس، والأتراك في العهد العثماني. ولنعلم أنّ بيننا اليوم ملايين من سلالة التركمان الذين كان أجدادهم قد جاؤوا بلادنا مستنفَرين لحرب الفرنجة المحتلّين، وأعدادهم اليوم تبلغ ثلاثة ملايين.

هل الحديث عن ذلك عيبٌ وعار!

بالنسبة لأسرتي "آل السباعي"، ما زال الحديث بينهم في حمص يتواتر عن أنّ جدودنا جاؤوا من بلاد المغرب، وإنّ هناك أسرة، أو قبيلة، كبيرة منهم. بالنسبة لي شخصيًا فإني

أسمع أنّ أسرة والدتي من أصول تركية، وأنّ جدتي لأبي من أصول كردية (مراد آغا بحماه) وأن أمّها شركسية، وأنّ جدة جدي السباعي بحمص مسيحية مخطوفة بحبّ من حلب، هذا إلى أنّ زوجة عمي الأكبر -التي عايشناها في بيتنا بحلب- كانت من بنات الأرمن الذين نزحوا لبلادنا عام ١٩١٥.

وأحسب أنّ ما بتنا نعانيه من التهيّب عند الإشارة إلى الأعراق والأديان والطوائف، قد فشا فينا في الآونة الأخيرة.

تصحيح أخطاء السفيرين

... وكان خبثًا من السفيرين، مارك سايكس وفرانسوا جورج بيكو، وهما يتبادلان الرسائل ويتفاهمان على تقسيم تركة "الرجل المريض"، أن تركا الشعب الكردي من غير كيان منتشرًا في أربع مناطق، كي تكون له "قضية" تبقى جرحًا مفتوحا يؤرّق الكيانات التي يستظلّون سماءها!

ما كان أهونَنا يوم تلقّينا ذلك!

وما أضعفَنا اليوم ونحن في دوّامة "الفوضى الخلاقة"، التي يريد الغرب بها أن "يصحّح" أخطاء السفيرين، معدّلا ما كانا رسما من حدود!

دمشق الشام: فجر السبت ٢٧-٦-٢٠١٥

لا للطائفية. لكن كيف؟

ليست الطائفية في أن أجيبك بأني مسلم وأني من أهل السُّنة، ولا أن تجيبني بأنك علوي، أو درزي، أو إسماعيلي، أو مسيحي كاثوليك أو سريان أرثوذكس، أو آشوري، كلداني، أو أنك تنتمي في أصولك العائلية إلى الأكراد، أو التركمان، أو الجركس، أو أنك

من أصول "أوروبيّة" كان قد انحدر أجدادك من رجال البعثات القنصلية الذين عملوا في حلب المزدهرة اقتصاديًا زمن العثمانيين ويوم انتهت المهامّ آثروا العيش بيننا حبًّا وكرامة.

إنّ تعريفي بنفسي على هذا النحو ليس لأحد أن يُعيّرني فيه بأني أتكلم طائفيًّا! إنه حديثٌ على غرار ذكري لك اسمي، وتعريفي بأسرتي، وبانتمائي إلى هذه المدينة أو تلك القرية، أو إلى الحيّ الذي أتنسّم رائحة أزقّته ودروبه.

ولكنّ الطائفية تتبدّى في أن تمارس فئةٌ، قد تملّكت وتمكّنت، السلطةَ على المجتمع، هذا المؤلفِ من فسيفساء بديعة من الطوائف والأعراق، فتنحاز بالتقريب والتبعيد، وبالتمييز والتهميش... ثمّ -بعد ذلك- تمنعك من أن يجري على لسانك ما يدلّ على انتمائك، وتتّهمك إن فعلت بأنك طائفيٌّ بغيض، على حين أنها تمارس الطائفية وتدّعي مناهضتها.

وأعذر نفرًا منّا يرفعون الصوت، اليوم، مندّدين بمن يذكر انتماءاته، غاضّين الطرْف، انسياقًا، عمّن يمارس الطائفية على أرض الواقع الأليم.

دمشق الشام: ضحى الأحد ٢٨-٦-٢٠١٥

حديث عن أكلة "اللحمة بالكرز"

تسلّمت، أمس الأول، من على باب بيتي، عبوةً من كرز "جبل الأربعين"، تَقْدمةً من صديق لم تره عيناي لكن عرفه خاطري على جدران الشابكة. ولم تكن حبّة الكرز بالكبيرة من ذاك الحلو الذي يتراوح لونه بين الورديّ والأحمر القاني، إنه من النوع الذي يستوطن "جبل الأربعين"، "جبل الزاوية"، أو "جبل السُّمّاق" حسب ياقوت الحموي

في معجمه.

ولهذا الكرز حكايةٌ في حلب، أرويها لكم شعبيًّا وعلميًّا!

أقول: الكرز فاكهة انتشرت زراعتها في بلاد الشام، وربما حُملت إليها من مواطنها الأصلية في أواسط آسيا، ذكرتْها كتبُ "المفردات الطبية" العربية باسم "المَحْلب" ("مفردات" ابن البَيْطار)، هذا الذي يسمّى في جبل السماق بـ"الوَشْنة"، وهو الكرز الصغيرُ حبُّه، المُزّ (الحامض)، الذي لا يغادره لونُه الأحمر القاني. وقد عمد زارعو الكرز، في جبل السماق وفي غيره من مزارع الوطن، إلى تطعيم الوشنة فتصبح كرزًا حلوًا مرغوبًا هو الشائع.

والكرز شجر من الفصيلة الوردية، اسمه العلمي Cerasus mahaleb. وكلمة "الكرز" مستمدّة من الفرنسية Cerise. وسمعتُهم في مصر يسمّونه "الكَريز". وتُشَبَّه بالكرز، لونًا ومنظرًا، شفاه العذارى!

ويطيب لي أن أضيف أني زرعت في حديقة بيتي بدمشق، قبل نحو عشرين سنة، غرسة كرز، قال مقدّمها إليّ إنها من محافظة إدلب. ثمّ إني لاحظت أنّ هذه الشجرة تُزهر في منتصف آذار/ مارس ثمّ لا يَعقد زهرها أبدًا، مردّ ذلك -كما بيّنوا- إلى أنّ في هذا الشجر مشكلةً تسمّى زراعيًّا "العُقم الذاتي"، تعاني منه شجرة الكرز إذا كانت وحيدة بعيدة عن مثيلاتها. وأضيف أني رأيت في الأخبار أنّ اليابانيين يحتفلون في أواخر هذا الشهر، بإزهار شجر الكرز، يتابعون خلال أسبوع عقد زهره المرافَق بتساقط بَتَلاته [يُنظر كتابي "في جبل السُّمّاق، من أدب النُّزهات" (وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١٢).

قلت: "لحمة بالكرز"، أكلة أهل حلب المحبوبة في موسم الكرز. أعدّتها أمس وطبختها ابنتي خلود. قطّعنا أرغفة الخبز "مثلّثات"، نَظَمناها في قاع جاطٍ كبير، وسكبنا

عليه مَرَق الكرز المحلّى بالسكر، المدعوم بكُرات من اللحم في داخل كلّ منها حبّات صنوبر، ورششنا على ذلك كله شيئًا من نثار القرفة، فوقه البقدونس المفروم، وإلى جوار هذا الفليفلة خضراء وحمراء، ولن أنسى الماء المبرّد!

وقد رأيتهم في دمشق لا يستسيغون أكل اللحم المطبوخ بالسكر! أقول لهم: لو تأكلون "اللحمة بالكرز" مرة تستطيبوها!

وشكرنا، بعد الإفطار، اليدين الكريمتين، وقد كان الدافع إلى الإهداء أنّ صاحبهما قرأ قبل أيام مناداتي: «آه، يا مشمش الغوطتين! ويا كرز جبل الأربعين! »، فكأنه أحبّ أن يواسيني فبعث إليّ ليس بالكرز وحده بل أيضا بغير قليل من مشمش الغوطتين، مِن جَنَى بستانه الملحق ببيته في "الصبّورة". له مني أجمل التحايا.

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢٩-٦-٢٠١٥

لا سير على الأرصفة

ساعة الضحى خرجت من بيتي. ولم أمشِ على رصيف "شارع نوري باشا"، وأنا في طريقي إلى "الصراف الآلي" لأقبض معاشي التقاعدي من الوظيفة الحكومية التي خدمت فيها خمسا وعشرين سنة، فأرصفة الشارع إمّا مشغولةٌ بالسيارات المتجاوِزة، وإمّا هي غير صالحة لأن يمشي عليها مَن هم في مثل سنّي، لاختلال بلاطها وعدم استواء أرضها.

لم أنزل إلى "شارع زهير بن أبي سُلمى" المحاذي لنهر "تورا" عبر أول منعطف يسارا، بل من الثاني الذي جمّلوه حين حمّلوه اسم "جادّة لسان الدين بن الخطيب"، واحدٍ من أشهر كتّاب الأندلس وسياسيّيها في "إمارة غرناطة"، وقد منحوه هذه الجادة

القصـــيرة وهو الذي منح التاريخ والأدب أعمالًا طِوالًا من أهمّها "الإحاطة في أخبار غرناطة" (أربعة مجلدات).

في نزولي إلى ضفّة النهر رأيت أناسا متجمّعين على الرصيف أمام الصراف الآلي، قال لي واحد منهم إن "الشبكة مقطوعة"!

فتابعت السير على الضفّة إلى "ساحة أبي العلاء المعري"، وهناك نزلت "شارع أبو رمانة"، إلى حيث مكتب الهاتف لوصـــل ما كنت قطعته من هاتفي الجوّال. وأبلغتني الموظفة اللطيفة -دون أن تُعنى بأن تنظر في وجهي، لا أدري لمه! - أنّ الخطّ ســيكون "مفعّلا" خلال اثنتي عشرة ساعة.

في عودتي لمحت من بعيد المتجمّعين أمام الصرـاف وقد زاد عددهم، فأدركت أنّ الشبكة ما زالت مقطوعة!

جئت الصرــاف عند المســاء، فرأيت بعضــهم يُقْبل ثمّ ينصرــف متجهّمًا، فجعبة الصرــاف فرغت، فعدت إلى البيت دون أن أقبض معاشي، الذي بات اليوم يعادل الســتين دولارًا، وعمّال العالم ما زالوا يحتفلون بعيدهم المجيد في الأول من شــهر أيار/ مايو من كل عام.

دمشق الشام: الأربعاء ١-٧-٢٠١٥

انتظارًا لبدر منير

من العجائب التي تتجلّى في حياة السوريين اليوم، أنهم يتحرّكون في مساكنهم وفي حاراتهم، ويتجوّلون في الأسواق عاملين ومتسوّقين، و... فجأة تسقط عليهم قذيفة، تقتل وتدمّر وتُبيد، فيُهرعون إلى رفع الأنقاض، وانتشال الجثث، وإنقاذ الذين ما زالوا

على قيد الحياة، ثم يمهّدون بين الحطام دربًا للسير فيها، ويغسلون الأرض والأيدي من الدماء، و... يعودون سيرتهم الأولى!

آمنت بأنّ شعبي هو الأشجع بين الشعوب، والأكثرُ صبرًا على تحمّل المكاره، انتظارًا لغدٍ لا تسقط فيه قذائف، وليس فيه انتشالٌ لجثث من تحت الأنقاض، ولا غسلٌ لدماء مسفوحة... ليومٍ تكون شمسُه أكثرَ اعتدالاً، وقمرُه بدرًا يَفيض بالنور.

دمشق الشام: مساء الإثنين ٦-٧-٢٠١٥

الشحرور القادم من الغابة

قصة للصغار والكبار

(القصة تامّةً)

تأليف: فاضل السباعي، رسوم حسام التهامي

١- مقدمة:

في قصة جعلت فيها الحيوان يعي ويفكر: الشحرور، البديع التكوين والتغريد، الذي يملؤه مع ذلك الاعتداد والغرور، والقطّ القويّ المسيطر على قطط الحارة والمتحكّم فيها.

أحبّت صبيّة الأسرة "هناء" الشحرور الذي يزور حديقة بيتهم، وأطلقت عليه اسم "غندور"، تخاطبه وهو على الشجر كما لو أنه يفهم لغتها، وتناغيه، وتحذّره من غدر القط الذي دأب على افتراس اليمام الوديع! على حين سَمّى القطُّ المتغطرس نفسه "عنتر"، وهو يمنع قطط الحارة من أن تصعد إلى "الحاوية" بحثًا عن قوتها إلا بعد أن يغادرها هو شبعانَ متخمًا!

كتبت القصــة في صــيف ٢٠٠٣ وأنا في حديقة بيتي ما أزال أصــغي إلى تغريد ذلك الشـحرور، الذي اعتاد أن يُقضّي-الأصياف عندي قادمًا من الغوطتين. وقد تماهلت في تقـديمها للنشرـ، إلى أن وجّهتهـا -وأنـا في مقـامي في "فلوريـدا"- إلى مجلـة "العربي الصــغير"، فظهرت في العـدد ٢٦٥ (اكتوبر/ تشرــين الأول ٢٠١٤)، مرافَقـةً بـأربع لوحات بارعات للفنان "حسام التهامي"، الذي أطلق لخياله تصوّرا متميّزًا لشكلِ كلّ من الشــحرور غندور والقط عنتر وسـائر المرئيات المُصـاحِبة، فضـلا عن لوحة حافلة بالتميّز نُشرت على غلاف العدد.

ثمّ أفاجأ أخيرًا، بعد عودتي إلى الوطن، بمدى اهتمام هذا الفنان بالقصـــة، عندما وقف حفيدي الفنان التشكيلي ماجد هنانو، المولع بالرسم لمجلات الأطفال، في موقع للفنان التهامي، على مزيد من لوحات خاصــة بقصــة "الشــحرور القادم من الغابة"، وعدّتها ثمانية وعشرون لوحة!

سوف أقدّم القصة على جداري في حلقات تزينها رسومٌ من الفنان التهامي، مبتدئا بنشرـ لوحة غلاف مجلة "العربي الصــغير"، التي تقدّم القط عنتر بتعبير مكتمل عن شــخصــيته، منتفخ الأوداج مكتنزًا لحمًا وشــحمًا، وهو الذي حاول افتراس الشــحرور غندور... ولكنّ الله سلّم.

٢- [حديث الشـحارير على قمة شـجرة في الغابة: مشـمش، وخوخ، وتعرُّف على سكان المدينة]

ذات مساء التأم شمل أسرة الشحارير بجوار عشّها على قمة شجرة.

قال شحرور:

ـ غداً عند الفجر، سأرحل إلى حقول المشمش، أنقر المشمشة وأتركها حتى تتخمّر،

ثمّ أعود إليها لأمتصّ رحيقها.

قال الشحرور الثاني:

ـ وأنا سأرحل إلى حقول الخوخ والدُّرّاق.

وقال الشحرور الثالث:

ـ وأمّا أنا، فسأدخل المدينة متعرّفًا على أهلها!

فسخر منه أخواه:

ـ أيها الساذّج! ليس في المدينة أشجار فاكهةٍ تتغذّى بها.

كان الوالدان يُصغيان إلى الحوار يتبادله أبناؤهما الثلاثة، قالت الأم بغريزتها:

ـ إنّ الغذاء موجودٌ في كلّ مكانٍ لمن يبحث عنه، يا صغاري!

وقال الأب:

ــــ وإنّ التجوُّل في المدينة يزيدنا معرفةً بالإنسان وبالأسلوب الذي يتّبعه في حياته اليومية.

قال الشحرور الأول:

ـ ولكنّ الإنسان يعمل على اقتناصنا.

فضحك الشحرور الثالث وقال واثقاً بنفسه:

ــــ يقتنصنا؟ أنا لا أدعُ إنسانًا، ولا حيوانًا، يقترب مني. إني أطير، أقفز، أثب، أنطّ، بلمح البصر.

قال الأب ناصحًا:

خفِّف من غرورك، يا بنيّ! مهما ظننتَ أنك سريع الحركة والطيران، فإنّ ذكاء

الإنسـان فوق ذلك، تذكَّر أنه اخترع البندقية، التي يأتينا بها ليتصـيّد العصـافير! تَحَلَّ بالحذر الشـديد، وأنت داخلٌ إلى المدينة، يا بنيّ... (ثمّ قال دامعَ العينَين) ولكن لا تنسوا زيارتنا، يا أولاد، صلةً بالرَّحِم وبرّاً بالوالدَين، كما يقول بنو البشر!

قال الشـحرور الصـغير في ذات نفسـه: حقّا، وكيف نسـيت؟ نعم، هناك بندقية الصيد!

وظلّ طوالَ الليل يفكّر، لكن لماذا يقتلوننا؟ أمن أجل لحمنا؟ إنّ كلاً منّا لا يزيد على لقمتَين من لُقم الإنسـان! وهم بعد ذلك يفتقدون أغانينا، لسـوف أُغرِّد تغريد الشـحارير كثيراً، في كلّ مكان في المدينة أحطّ فيه، في كل سـاعة، وأتفنّن فيه، كي أصرفهم عن اصطيادي!

وعند الفجر غادر مودِّعًا.

حلّق في الفضاء عاليًا، عاليًا جدًّا، في اتجاه المدينة... ودخلها من جانبها الغربيّ.

رأى أول ما رأى بيوتًا جميلةً، ذات أسقفٍ ملوّنة، تفصل بعضَها عن بعض حدائق، وقد سـقطت عليها شـمسُ الصـباح، وكان كلّما توغّل في المدينة وجد كثافةً في الأبنية وندرةً في الأشجار، فتساءلَ: كيف يعيش البشر دون شجر؟!

ووقع اختياره على حيٍّ، وجد فيه شـجرًا يتخلّل البيوت، ورأى في شـوارعه ودروبه أناسًـا يتحرّكون، يروحون ويجيئون، فأحبّ أن يقيم بينهم، يشـاركهم حياتهم ويُطربهم بأغانيه؟

واختار شـجرةً، شـجرة سَرْوٍ باسقة، تنتصب في ناصية شارع، فحطّ على قمّتها وقد أنهكه التعب، وبعد استراحةٍ قصيرةٍ ابتدأ في سرد أغانيه!

ويا للعجب!

إنه ما كاد يرســل أول تغريدةٍ من حنجرته، حتى لاحظ أنّ الناس تحت الشــجرة، يرفعون رؤوسهم ناظرين نحوه!

ولكنّ منهم من يتوقّف عن المســير يُصــغي، يتأمّل، منقِّلاً بصرــه من غصــنٍ إلى غصن... حتى إذا لمحه وهو في قمّة الشجرة يُغرِّد، ابتسم راضيًا، وتابع المسير؟

وهنا أدرك الشحرور الصغير ما في غنائه من سحر، ومدى حبّ البشر لفنّه الجميل، فنوى أن يُبادلهم الحبّ، وزايلتْه المخاوفُ من البندقية.

٣- [وسمّى القطّ الكمّونيّ نفسَه "عنتر"!]

اســتطاع القطّ الكمّونيّ اللون، أن يفرض ســيطرته على قِطَط الحارة، كلّما اجتمعوا حول "الحاوية" ليلاً على ناصــية الشــارع، فما من قطٍّ يجرؤ على أن يعتليها ما دام هو فوقها، يُعمِل مخالبه في تمزيق الأكياس السُّــود التي تُرمى فيها، يأكل منها ما يشــاء، وعيونُ القطط اللامعة تتطلّع إليه... حتى إذا هبط على أرض الشــارع ممتلئًا، أسرعوا يتواثبون إلى الحاوية ليأكلوا من "فضــلاته"، ولا يُغادرونها إلا لحظة يســمعون هدير السيارة قادمةً لتفريغ محتوياتها.

كان القطّ الكمّونيّ يسـير متبخترًا بين القطط، وهو يعلم جيّدًا أنّ قطا منها لا يمكنه أن يكون قويًّا مثله. وهو، من شــدّة خُيلائِه، يُســمّي نفســه "عنتر"! فقد رأى مرةً فتى يحمل قطًّا على ذراعه، يمسّد وبره، ويدلّله مخاطبًا إياه بــ"عنتر"! فتسمّى بهذا الاسـم، وفرض على القطط أن ينادوه به، ســواء أكان وإيّاهم يتجوّلون في الحارة، أو يتحلّقون حول الحاوية، أو إذا ما لمحوه يسير في الشوارع الفرعية متنزّهًا.

ثمّ تراءى له أن يزعُم أمام القطط، أنه سوف يأتيه يوم يغيب فيه عن أعينهم، ليعود إليهم في هيئة "نَمِر"، له قوة تلك الفصيلة من الحيوانات وإن كان حجمه لن يصل إلى

حجمها!

ـ وهل تعرفون ما سوف أفعله بكم!

قال قطّة وديعة:

ـ تحمينا من الأولاد الأشرار الذين يقذفوننا بالحجارة!

أجاب بسخرية:

ـ ما حزرتم، أيها البائسون!

قال قطٌّ ماكر:

ـ هل تنوي أن تجعلنا من "وجباتك"، يا عنتر؟

أجاب:

ـ القطّ لا يأكل قطّاً، أيّها البُلَهاء!

سألته قطّة مولودة في الربيع الفائت:

ـ إذن ما تنوي أن تفعل بنا إذا ما عدت إلينا نَمِرًا؟!

قال:

ـ أزدادُ خُيَلاء أمامكم، أيّتها القطط الوضيعة!

فضحكوا من هذه "النُّكتة" اللطيفة، على حين تابع هو يقول:

ـ هذا إن عدت إلى عالمكم! فإنّي قد أُفضّل أن أقيم في الغابة بين النُّمور، أيها الحقراء!

على أنّ أكثر ما كان يضايق القطّ الكمُّونيّ، أنّ تلك الأسرة، التي اعتاد أن يتسلل إلى حديقتهم، يكافحونه كلّما وقعت عينُ أحدهم عليه، بما يزعجه جدّاً، إنّهم يُطلقون عليه الماء، من خرطومٍ قد مدّوه في أرض الحديقة، يكون في متناول يد كلٍّ منهم متى أحسّوا

بوجوده بين أغصان الشجر!

لقد اعتاد أن يتسلّل إلى هذه الحديقة عبر "مَنْفَذٍ" ضيّق تكتنفه أغصانٌ كثيفة، بعضُها شائك من أشجار الكبّاد العتيقة، وقد برع في أن يتفادى الأشواك، عند دخوله المُخالِس، ولكنّ الصعوبة التي تواجهه تكون لحظة هروبه المباغتِ تحت سياط المياه التي تنهمر عليه من فم الخرطوم. أحيانًا تتخلّى عنه براعتهُ فتناله جراح، ولكنّ ذلك يهون أمام عودته وقد امتلأ بصيدٍ دَسِم من لحم "اليمام"، هذا الذي يتكاثر آمنًا في هذه الحديقة المغلقة، فيلتهم اليمامة في ركنٍ من أركانها، تاركًا لهم البقايا الدامية، من ريشٍ ورأسٍ ومخالب! وأحيانًا يحمل الفريسة بين فكّيه عائداً بها من حيث أتى، ليتلذّذ بأكلها أمام قطط الحارة، وعيونهم تبرق من الغَيرة والاشتهاء. وهم لم يستدلّوا حتى اليوم على موضع المنفذ، وإذا ما اكتشفوه يومًا، فالويل لهم إنْ عبره أحدهم، ذاتَ نهار، ذات مساء، ذات ليل بهيم!

ولكن ما بالُ هذا الطير الذي سكن في قمّة شجرة السَّرْو فوق الحاوية، يرسل تغريدا، ما يظنّ أنّ مثله تردّد في فضاء الحارة! حجمه -كما عاينه بنظره- متوسّطٌ بين اليمامة والعصفور، ولونه أسود حالك، وأمّا منقاره فبرتقاليّ اللون... تُرى ما مذاق لحمه! هل هو ألذّ من لحم اليمام، ومن عصافير الدُّوري التي يعزّ عليه صيدها؟

٤- [هاني ينادي بفرح: أمّاه! في حديقتنا شحرور!]

في الحديقة، كان "هاني" يسقي الأحواض. التقط سمعُه تغريدا شجيّا ترامى إليه من بعيد. أصغى بحواسّه كلها، إنه التغريد الذي كانت الأسرة قد أَلِفتْ سماعه، عندما سَكن شحرورٌ حديقةَ بيتهم في صيفٍ بعيد مضى.

عاد إليه التغريدُ أكثر وضوحا. نقَّل الخرطوم من حوضٍ إلى حوض. التغريد

يقترب. يبدو له الشحرورُ قد حطّ على غصنٍ قريب.

غادر الفتى الحديقة مسرعًا ليُبلغ أمَّه بفرح:

- أمّاه! في حديقتنا شحرور!

ما إنْ سمعت أختُه "هناء" ذلك حتى سألت:

- وأين هو الشحرور، الذي كثيراً ما تحدّثنا عنه؟

وخرجت إلى الحديقة، تتبع أمّها وأخاها، وأخذوا يُصغون.

قالت هناء:

- تغريدُه يختلف عن زقزقة العصافير. هل يسكن حديقتنا، في هذا الصيف، يا أمي؟

وراقت الحديقة للشحرور. وجد أشجارها المتكاثفة قد جعلتها تشبه الخيمة تظلّل ما دونها. وتحت "الخيمة" رأى بِركةً ينبثق من وسطها الماء، خُيوطًا ترتفع قبل أن تنفرط، مُتساقطةً على سطح البركة قطراتٍ كحبّات المطر.

تابع تغريده متواريًا والأسرة تُصغي إليه.

قالت الأمّ:

- لندخل البيت، يا أولاد، لعلّنا نمنحه إحساسًا بالأمان.

سُرّ الشحرور بما سمع، إنّه يفهم لغتَهم، ويعرف أنهم لا يفهمون من لغات الأطيار إلا تغريدها.

في مغادرتهم الحديقة أحسّ بالجوع، أخذ يلتقط ما يراه على الأغصان من هوامّ. نزل إلى الأحواض، يتغذّى بما يجد من حبوب. أكل، شبع، أحسّ بالعطش اقترب من البركة، ارتشف من مائها حتى الارتواء، وتحت القطرات المتساقطة اغتسل مرفرفًا

بجناحيه. طار معتليًا أحدَ الأغصان، رفع رأسه شاكراً ربَّه في تغريدةٍ مديدة.

كانت الأسرة قد توزّعت وراء النوافذ تراقب صنيع الشحرور. هناء الصغيرة، ترى الآن الشحرور لأول مرة في حياتها، راقبت جيّداً رشاقته في الاستحمام.

ـ سأُسمّي هذا الشحرور "غندور"!

علّق هاني:

ـ ما أشطركِ في تسمية الأشياء بأسماء "على القافية"!

خرجت الأسرة من مكمنها. الشحرور يُغرّد متواريًا خلف أوراق الشجر.

ألحّت هناء في سؤالها:

ـ هاني! أين "غندور"، يا هاني؟ أسمعه ولا أراه.

تراءى لـ "غندور" أن يداعب الصغيرة. التزم الصمت، وتسلّل إلى ركنٍ آخر بين الأغصان الكثيفة.

في هذه اللحظة حدث شيءٌ غريب، غريبٌ جدا، هناء تصرُخ بأعلى صوتها:

ـ هاني! القطّ الكمّوني بين الأغصان!

لم يفهم الشحرور ما يجري حوله، ولكنه رأى هاني يقفز إلى حيث أعمَل يده في شيءٍ ما، فاندفع في الحال الماءُ شديدًا من "حبلٍ" طويل أحمر اللون، أصْلَتَهُ على جهةٍ ما من الشجر.

قالت الأمّ:

ـ قد هرب القطّ، كفّ عن إغداق الماء، يا هاني.

ولكن الذي هرب أيضا الشحرورُ غندور. طار مرتفعًا بلمح البصر ـ إلى فضاء

الحديقة، ومن هناك رأى جسمًا ينسرب من جانب الحديقة وينقذف بخفّة إلى الشارع... إنه القط الكمّونيّ اللون!

وأما هو، الشحرور غندور، فدون أن يشعر بأي خوف، توجّه إلى شجرة السَّرْو في ناصية الشارع، التي اختارها سكناً له، وأخذ يسرد أناشيده البديعة.

٥- [هناء تحادث الشحرور، وتُناجيه، وتُحذّره من القطّ الكمّوني]

اعتاد الشحرور أن يزور الحديقة مراتٍ لا حصر لها في كلّ يومٍ، وأن يتنقّل، في غير ذلك من الأوقات، بين شوارع الحيّ وطرقاته، وما يصادفه من حدائق صغيرةٍ ملحقة بالبيوت.

وهو قد تعرّف، من فوق شجرة السَّرْو، على القطّ الكمونيّ، في اعتلائه سطح الحاوية وحيدًا، وفي إملائه سيطرته على القطط الأخرى أن تبقى بعيدةً عنه منتظرةً نزوله، رآها سيطرةً لم يجد لها مثيلاً في عالم الشحارير والطيور التي تربّى على العيش معها في المزارع والبساتين.

أحبّ الشحرور الطفلة هناء، وراق له الاسم الذي استحدثتْه له وما برحت تناديه به: "غندور! "، فيقترب منها، بحذر، أخذ يتضاءل يومًا بعد يوم، فيتناول من كفّها فُتات الخبز المرشوش بالسُّكر.

قالت له مرّةً:

ـ كم انتظرنا مجيئك إلينا، يا غندور! هل تعِدُنا بأن تقضي أيام الصيف في جُنينتنا؟

فيُجيبها بتغريدةٍ صغيرةٍ أنْ نعم.

ـ وتعود إلينا ثانيةً، في الصيف الآتي؟

وبتغريدةٍ أخرى أطول، أجاب:

ـ لا أعرف، حسب الظروف!

ــ كنت سألت أبي مساء أمس، أن يشتري لي قفصا جميلاً لأربّي فيه شحرورًا خاصًّا بي نشتريه من "سوق العصافير"، أستمع إلى غنائه طول يومي وأنا أقرأ القصص... أتعرف بماذا أجابني أبي؟

غرّد:

ـ وبماذا أجابك أبوك؟

ــ أنّ الشحارير تُغرِّد ما دامت طليقةً، فإذا فقد الشحرور حريته كفَّ عن الغناء، وامتنع عن الطعام أيضاً، حتى... حتى... قال أبي كلمةً لا أستطيع أن ألفظها أمامك، يا غندور!

غرّد:

ـ هذا ما لا أعرفه، لأنني لم أجرّبه، يا هناء!

ـ انتظر، أيها الشحرور، سآتيك بالبطاطا والشيكولا.

كانت هناء تقضي سويعاتٍ مع غندور، أحلاها عندما تفتح له نافورة البِركة، فيجري الماء مقداراً ما، فيستحمّ مُبلّلاً جسمه بقطرات من الماء المتساقطة، قبل أن ينفضها عنه برفرفاتٍ من جناحيه، وكانت حريصةً على ألا يشرب من ماء البركة، بل من فم النافورة ماءً زُلالاً.

ـ أُحذِّرك من القطّ الكمّوني، يا غندور!

ضحك غندور مغرّدا:

ـ من هذه الناحية اطمئني!

ــ لقد بذل أبي جهده في إحكام المنافذ إلى جنينتنا، سدّها كلّها، ومع ذلك نرى القطّ الكمّوني في جانب شجرةِ الكبّاد العالية.

ـ أنا لا أخاف القطط!

ـ إنّ الكمّوني قطٌّ غدّار، إن وقعت بين براثنه... فإنه...

وأشفقت أن تُكمل.

قال:

ـ اطمئنّي، يا هناء، أنا طير يحسن الطيران!

ــ يوم أمس سمعنا أبي يرفع صوته وهو في آخر الجُنينة: «ما هذا! هل تسود جنينتَنا "شريعةُ الغاب"! ». لقد وجد ريش يمامة مسكينةٍ، افترسها القطّ الكمُّوني، يا غندور... إنّه لا يشبع!

ــ ولكنّي لست مثل اليمام الأبله، الذي يمشي في جنينتكم متبخترًا، معرّضا نفسه لخطر أن ينقضّ عليه القطّ الكمّوني والزيتوني، والأشقر، والأسود، ها ها ها، والقططُ بمختلف ألوانها!

كانت هناء تُحاور غندور تُناجيه، تسكب في أذنيه الصغيرتين عبارات المحبة مقترنة بالخوف عليه، ولكن لم يكن بإمكانها أن تفهم المعاني التي ينطوي عليها تغريده الجميل... وهي لو فهمتُها لأدركت أنه شحرور يُغرّد بأعذب الألحان، ولكنه طيرٌ مغرور، لا يأبه بقولٍ ولا يصغي إلى نصيحة.

٦- [أيها القطّ، أنت لا تستطيع أن تنالني! أنا الشحرور، الذي سمّوني "غندور"،

سريع الحركات والقفزات!]

في أصيل يومٍ والأسرة متحلّقةً حول البِركة تستمتع بتغريد الشحرور، رأوه، على غير عادته يُغرّد ويؤدي في الوقت ذلك رقصا أو ما خُيّل إليهم أنه رقص! كان ذلك قريبًا من ذلك الركن في شجرة الكبّاد العتيقة، الذي تكاثفت فيه الأغصان، وإنه لينتقل يمنةً ويسرةً، بخفّةٍ ورشاقة، مستغرقًا في التغريد. والحقّ أنهم أُعجبوا بما يرون من الشحرور غندور، وإن كانوا قد عجِبوا من هذا الرقص الغريب!

ولكن ما لم يتبيّنوه إلا متأخْرين، أنّ غندور كان "يُداعب" القطّ الكمّونيّ، الذي رآه لاطئًا بين الأغصان الكثيفة! فكان يستثيره، بأن يقترب منه ثمّ يبتعد عنه، وكأنه يقول له:

ـــــ إيه، أيها القط الذي يغدر باليمام المسكين! أنت لا تستطيع أن تنالني! أنا الشحرور، الذي سمَّوني "غندور"، سريع الحركات، سريع القفزات، سريع الطيران! هيّا حاولْ أن تمسّ ريشةً من جناحي، إنْ كنت تقدر، يا قطّ الحاويات والبراميل!

أجل، كان الشحرور يلاعب القطّ لعبةَ الموت!

فجأة، حدث ما لم يكن الشحرور المغرور يتوقّعه: اشْرأَبَّ القطّ الكمّوني، واختطف الشحرور بإحدى قائمتِيه، فكفّ الشحرور عن الرقص والغناء، لأنّه كان قد وقع بين فكّي القطّ.

ودون أن يطلب أحد من هاني شيئًا، أسرع إلى الخرطوم، فاتحًا الماء على القطّ، والأب صفّق بيديه بقوة وهو يخبط برجله الأرض، وزعق[1]، والأمّ وَلوَلت، وهناء

---

(١) صاح

أَعْوَلَت... ذلك كلّه حدث في ثانيةٍ واحدة.

وجد القطّ الكمّوني نفسه محاصرًا: الماء المنهمر، ومضايقات، والمنفذ الضيّق ينتظر!

وكانت مفاجأة أخرى، أنّ الشحرور أُفْلِتَ من بين فكّي القطّ، وطار منقلبًا في الفضاء، دائخًا، معضوضًا، مجروحا، لا أحد يعرف مقدار ما حلّ به من الأذى!

والقطّ انسرب في منفذه، وغاب.

ولبثت الأسرة، منذ ذلك اليوم، تنتظر.

كانوا كلّما طلعت شمسٌ، والشحرور في غيابه لم يزل، ازدادوا يقينًا بأنّه قضى جريحا.

ولكنهم سمعوا، في أصيل يوم، تغريد شحرور يترامى إليهم من بعيد: أهو غندور أم شحرور آخر؟

وعاد التغريد في ظهيرة يومٍ آخر... عاد بعيدًا شجيّا فكأنه قادمٌ من عالم الغيب! أتُراهم يحلُمون؟

وذات صباح، بدا لهم التغريد أكثر قربًا هذه المرة... أيكون غندور سليمًا معافى؟ وإذن لِمَ لا يطرق جنينتنا، وفضاؤها مفتوحٌ له كما كان؟

قالت هناء:

ـ قد يكون غندور ندمان خجلان ممّا فعل أمام أعيننا!

قال أخوها هاني:

ـ هذا إن كان على قيد الحياة؟

قالت:

ـ قد تكون أنقذتَه أنت بالمياه التي قذفتها نحو القطّ؟

ولكنّ تغريد غندور، سُمِع مساء يوم، كان تغريدا صادحًا أقوى من كلّ مرة.

لم تصدّق الأسرة آذانَها، ولا عيونَها، وهم يرونه يعتلي أحد أغصان شجرة الكَبّاد!

ـ عدتُ إليكم، أيّها الأحبّة!

سألته هناء:

ـ لِمَ تأخرتَ علينا، يا غندور؟

ـ كنت عند أهلي، أُداوي جراحي النازفة، وأُداري خجلي منكم، أيها الأحباب!

ـ ظللتُ أحلُم بعودتك يا غندور.

ـ إني أعتذر.

ـ قد أعددتُ لك كثيراً من المآكل الشهيّة والأحاديث الشائقة.

غاب القط الكمونيّ عن الحارة، فسمحت القطط لنفسها بأن تعتلي الحاوية.

وعندما طال غيابه، زعمت إحدى القطط أنها لمحته يوما، وهو يمشي متعبا، ماضيًا في اتّجاه بعيد!

ـ إذن ذهب إلى الغابة، وسوف يعود إلينا نَمِرًا.

ـ وهل تُصدّقون، أيها البلهاء، أنّ القطّ يمكن أن يتحوّل إلى نمر؟

ثمّ حدَّثت في يوم آخر قطّة جوّالة، أنها مرت بحاويةٍ في شارعٍ ما، فرأت بين القطط حولها قطًّا كمّونيَّ اللون، هزيلاً... وعندما اقتربت منه عرفت أنه عنتر!!

سألته:

ـ هذا أنت، يا عنتر؟!

وقبل أن يُشيح بوجهه عنها، كانت قد تبيّنت أنه لا يملك إلا... عينًا واحدة!

إنّ ما لم تعرفه قططُ الحارة الكارهة لعنتر، ولا الأسرة المحبّة لغندور، أنّ القطّ الكمّوني اللون، المسمّي نفسه "عنتر"، في انسرابه من ذلك المنفذ الضيّق الشائك، قد فقد إحدى "كريمتَيه"!

وذهبت إليه قططُ الحارة، فمنهم من شَمِتَ، ومنهم من أشفق عليه، فإنّ في قلوب القطط أيضا موضعًا للرحمة والشفقة.

كتبت في صيف ٢٠٠٣

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٧-٧-٢٠١٥

وتكسّرت النصال...

كنّا نحوَ ثلاثين من طلاب "ثانوية المأمون" (التجهيز الأولى) بحلب، في أربعينيات القرن الماضي، لا يُفرِّق بيننا في الأعمار إلا سنواتٌ قليلات، اتفق وجودنا بدمشق، منّا مَن شغل منصب وزير (مصطفى، و"ع. و. ش")، ومنّا ضباطٌ مسرّحون، وأكاديميون، وإعلاميون، ولا أخفي أنّ بيننا مّن شَغَب في كتاباته فناله من النظام سخطٌ ولعله كاتبُ هذه السطور!

وقد جرينا على أن نجتمع في الشهر مرة في مطعم، اخترناه في "رابطة المحاربين القدماء"، ذي الإطلالة على حديقة "السِّبكي"، فلما تقدّم بنا العمر وصعُب على بعضنا صعود الدرج (قبل أن يركّبوا للمبنى مصعدا خارجيّا)، تحوّلنا إلى مطعم "نادي الصحفيين" في طلعة العفيف، بعنايةٍ من صديقنا الإعلامي "مظفّر". نتناول العشاء، صيفًا وشتاء، ثمّ دونما حرج نقتسم "الفاتورة"، إلا إذا تبرّع أحد الأغنياء منّا

بتســديدها. وغنيّ عن البيان أنّ الثلاثين صــديقا لم يجتمعوا مرة معًا، النصــف أو أقلّ وحسب، وإذا ما قلّ العدد صفا الجوّ، وطاب السمر باستذكار أيام الفتوّة الحميمة.

يتناقص عددنا، أجل. يرحل منّا واحد في كلّ حين، وكان أول الراحلين هو الذي شغل منصب وزير (م.)، وبعده بزمن ذاك الذي ظنّه "باتريك سيل" في كتابه الشهير علويّا من "اللواء" على حين أنه شركسيـ من شرقيّ محافظة حلب (عثمان ك.). وحين غادرتُ الوطن أواخر ٢٠١٣، كان قد تعجّل الرحيل في تلك السنة ثلاثة أصدقاء (إياد وبشير وطارق).

ضحى أمس قمت أتّصل: هل أسأل عن الصحة، وهي متراجعة وبعضهم دخل "الزهايمر"؟ أم أستفسر عن الوجود في البلد أو عن البقاء على قيد الحياة؟

واحد، اثنان، ثلاثة، بدا لي الهاتف أصـمّ أبكم. وجاءني في الاتصـال الرابع صـوتٌ أجشّ، يبدو أني أيقظته من نومه في ضحوة هذا اليوم الرمضاني: «مين؟ »، ثمّ «أنا ابنه، توفّي الوالد مطلع العام الماضي! ». والمعنيّ هو الصديق الإعلامي (م. ش) الذي دأب على الاهتمام بنا في نادي الصحفيين.

صـدّقوني، أيها الأصـدقاء، إن قلت لكم إني لم أشـعر بكبير حزن... وهل يفيض بنا الحزن إن مات -في هذه الأيام- أحدنا وهو على سرير في بيته، يحيط به الأبناء والأحفاد والأسباط... وقد تكسّرت النصال على النصال!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٨-٧-٢٠١٥

في دهاليز البنك!

في محبّتها للناس، ودأبها على تقديم المسـاعدة لمن يحتاجها من معوزين ومظلومين،

مســتعينةً بـذوي النفوس الطيبـة من أبنـاء المجتمع وبمن تعرف من ذوي النفوذ في السـلطة، ذهبت يومًا إلى البنك لتسـحب مبلغًا كانت قد أودعته باسـمها لصـالح أخيها الذي لا يتعامل مع البنوك...

رأتهم يضطربون وهم يُنهون إليها أنْ لا وديعة لها عندهم، وأنّ رصيدها مسحوبٌ من قِبلها، وأطلعوها على توقيعها الذي "زوّروه" والتاريخ الذي "زيّفوه"!

قالت: «ولكنّ دفتر الادخار الذي في يدي يثبت أني لم أسحب المليون الذي أودعته في حسابي قبل سنتين ولا اجتزت عتبة مقرّكم!».

قالوا وهم يُدارون حرجهم بالابتسامات الكاذبة: «الدفاتر بطلت من زمان!».

ولم يَجُل في خاطرها أن تطلب فتح تحقيق، وهي التي جرت على أن تدفع الأذى عن الناس... فكيف تسـوق إلى محاكمة مخزية موظفين تربطها بهم معرفة وإن كانوا من السارقين؟

دمشق الشام: فجر الخميس ٩-٧-٢٠١٥

أحزانُ العرب الآتية!

لو أنّ ما كُتب عن نزوح الفلسـطينيين، ولجوئهم، وتشرّـدهم في الآفاق، وما عانوه من تخاذل العرب وتواطؤ العالم، من يوم النكبة، وما قبلها، حتى الأمس القريب...

لو أنها جُمعت الأوراقُ والأسـفار تلك التي دُوّنت فيها الأيام السُـود، والدواوينُ وما بلّلها من دموع ورثاء وغناء... لما تعدّى المدادُ المسـفوح فيها غَرفةً من بحرِ ما يُعانيه اليوم السـوريون، الذين تآمرت عليهم أممُ الأرض، البعيدُ منها، والأقلّ بعدًا، والأكثر قربًا، والأقرب من القريب...

وما أوجعَ أن تدور الأيام دورة، فيذوقَ كلّ واحد من شــعوب الأمة ما ذقنا، أداءً لفصل جديد من فصول "لعبة الأمم" الكريهة!

دمشق الشام: السبت ١١-٧-٢٠١٥

هكذا تكلم هذا الرجل!

قبل أيام كتبت أسأل الأصدقاء مَن يدلّني على طريقة تمكّنني من أن أحذف بسهولة الألف الأخيرة من قائمة الأصدقاء غير الفعّالين لأُحِلّ محلهم أصدقاء جددًا.

فانبرى صــاحب قلم غامض، كنت تعرّفت عليه في أوائل الســبعينيات من القرن الماضي يتخفّى اليوم وراء اسم فضفاض (يبتدئ بكلمة "بداهة" ملحقًا بها وصفا يفيد سريانها بين الناس!)، يشير عليّ بفظاظة مستغربة: «احذف نفسك لتريح وتستريح»، ويصفني «بالانفصال»! و«الطائفية»! وبأني «أتباكى على راعش» (هكذا بالراء)!

فتراءى لي أن أصــف بداهتَه «بالمتجمّدة» لا الســارية بين النـاس، ووصــمته باضطراب «الرؤية والرؤيا».

فعاد يكتب متحسّرًـا: «كان لك في القلب والعقل أكثر من الاحترام» (ولا أراه في هذا صادقًا)، وبيّن أسباب "تراجعه" عن رأيه: «لكونك تبرهن لي كم هذه الأمة عقيمة وفاقدة لمعايير البداهة الكونية... نراك تخون منطقك الحيوي وأنت تبارك سفك الدماء وتتحسّر على قتلى أنت مَن حرّضهم»!

وكان هذا الرجل قد دخل بيتي، في ذلك اليوم البعيد، ضــيفًا طارئًا مرحّبًا به، وهو يرتدي البدلة الخاكي، وسبب ترحيبي أني كنت سمعت بأنّ له اجتهادا في الكتابة، ثمّ لم ألتق به بعد ذلك اليوم، إلا في صــفحتي، لا يُبدي رأيًا لكن ينزّل في التعليقات رابطا

يكرّره عن "البداهة" التي يُروّج لها، ما وجدت في نفسي ـ يومًا دافعًا لأن أفتح الرابط فأطلّ على بداهته البائسة.

أقدّم إليكم، أصدقائي، هذا "النموذج"... لتتأمّلوا وتتعجّبوا!

دمشق الشام: فجر الإثنين ١٢-٧-٢٠١٥

من اللحمة بالكرز.. إلى الحديث عن الهمّ الوطني

ها قد مضى ـ أسبوعان على نشر ـ الخاطرة، عن أكلة اللحمة بالكرز، وما زالت التعليقات تترى، من الحلبيّة وممّن ذاق هذه الأكلة التي لا تُنسى!

أعترف ثانية بأن الذي قدّم لي عبوة كرز "الوَشْنة" (المزّ) عند عودتي إلى الوطن، هو -كما ذكرتُ- مَن لم تكتحل عيناي بمرآه بعد، صديقٌ على الشابكة، حلبيّ، أصيلٌ بالتذوّق وبالأَرْيَحية معًا، مقيمٌ بدمشق، قد أحاط منزله ببستان جلب إليه شُتول الكرز من جبل الأربعين (الذي تتربّع فوقه مدينة أريحا، في محافظة إدلب) وشتولَ المشمش من الغوطة التي تزنّر عاصمتنا الجميلة. صدّقيني، يا سيدتي، أنا لا أمون عليه بأن يرسل إليك وأنت في الرياض، لا عبوة كرز ولا حبّة منه (هذه للمداعبة!).

وأما حماتك، الحلبيّة، التي تتقن إعداد أكلة اللحمة بالكرز، إعدادًا "يمصمص" الآكلُ -كما وصفتِ- أصابعه وهو على المائدة، أقول: رحمها الله، ونحن نذكر أناملها ويديها ونحيّي ذوقها الرفيع... ومن هنا صدح، يا "دكتورة هدى" يا بنت دير الزور، صباح فخري يوما بصوته البديع: «بدّي وحدة حلبيّة»، وأنت أخذت واحد حلبي ابن حلبية، فهنيئا لك وله.

هناك أمر آخر ورد في كلمتك النابضة بالذكريات السورية، أجدني حريصا على

الإشـــارة إليـه: الخبر عن ذلـك "المطعم الأرمني" في الريـاض الـذي يقـدّم "الكَبَـاب بالكرز"، هو يقينًا أرمني من حلب، فيها عاش واكتسب موهبة طبخ الكرز مع موهبته الأرمنية الأصيلة في صـنع الكَبَاب، ثمّ تأتّى له أن يحمل مواهبه إلى الرياض، يمارسـها ويتيح فرص التذوّق للمتذوّقين... أقول: أرأيت إلى شـعبنا، المتذوّق للقمة الطيبة، المرحّب بالنازلين فيه من أبناء الأديان والإثنيّات الأخرى، لا أقول: النازلين ضـيوفًا بيننا، بل الذين سرعان ما يصـبحون جزءًا من نسـيجه الاجتماعي الذي لا أروع... ثمّ يأتي، في آخر الزمان، مَن يتحدث عن أنّ شـعبنا الشـامي، الحضـاري، يريد أن يذبح الأقليّات!!!

ابتدأنا باللحمة بالكرز، ثمّ لم يكن بدّ من أن أنتهي إلى الحديث عن الهمّ الوطني، الذي يجثم على الصدور والرقاب.

ثم كوني، وأنت في الرياض، بألف خير.

- - - - - - - - - - - - - - - -

كتبت الخاطرة أعلاه، ردّا على هذا التعليق:

الأستاذ فاضل السباعي

مقالك [عن اللحمة بالكرز، ٢٩-٦-٢٠١٥] رائع... ولكنه حرّك عندي الرغبة في تناول مثل هـذا الطبق... لقـد كـانـت أم زوجي -رحمهـا الله- من حلـب... تطبخهـا وتتقنها أي إتقان... تمصّ يديك بعد كلّ لقمة...

وبقيت فترة لا أحظى بها... إلى أن أخبرتني صـديقـة أن فنـدق (فور سـيزن) [بدمشق] يقدمها في إفطار رمضـان ويقدم أيضـا "كبة بالسفرجليّة"... وفي اليوم التالي كنت أتناولها مع بعض الصـديقات... وهذا قبل عـامين... وهنا في الرياض مطعم

أرمني يقدم كَبَاب بالكرز... فكلما خطرت هذه الأكلة على بالي توجهت إلى هذا المطعم...

ولكنني لا أخفي عنك أني تمنيت لو أنّ صديقك، صاحب كرز جبل الأربعين، يهدي إليّ كم حبّة... تبلّ شوقي إلى حبيبتي... سوريتي..

سلمت أناملك... وجزاك الله خيرا...

١٢ يوليو، الساعة ٠٧: ٠٥ مساءً

- - - - - - - - - - - - - - - - -

أجل، أيها الأحباب.

نحن نأكل اللحمة بالكرز، نطبخه بما قدّمته لنا يدا أريحيّ، أو نتناوله في فندق "فور سيزن"، أو في مطعم الأرمني الحلبي بالرياض...

ولكن ما ذا يأكل أهلونا، نزلاء خيام الزعتري، والنائمون على الأرصفة في شوارع بيروت وكل لبنان القاسي، وأولئك الذين تُجهض أحلامهم فيتحوّلون بغمضة عين إلى وجبات لأسماك البحر المتوسط!!!

وابكي، يا عيون السوريين، بدموع لا تَرقأ!

دمشق الشام: ضحى الثلاثاء ١٤-٧-٢٠١٥

حلب العطشى

كلما هممتُ بسقاية حديقتي

بماء الفيجة

تراءت لي حلب العطشى

فأشفقت أن أبذل الماء

وودت لو أسقي أزهاري

بدموع العينين

دمشق الشام: فجر السبت ١٨-٧-٢٠١٥

بهذا القدر كانت أحلامي وأنا طفل صغير.

اليوم، وقد تجاوزتُ الثمانين، كبِرت أحلامي لتتّسع وطنًا أريده بلا جوع، بلا عطش، بلا تشرّد...

ماذا فعلنا بهذا الوطن؟

أتمنى أن أعود طفلاً!

دمشق الشام: الجمعة أول شوال ١٤٣٦، ١٧-٧-٢٠١٥

وزرت، قبل خمسين عامًا، جامعة حلب لأتعرّف..

تعليقًا على خاطرتي «حلب العطشى»، كتب في مجموعة «التجهيز الأولى ثانوية المأمون ومعاوية بحلب»، أحد أصدقاء الشابكة، مستمدًّا من ذكرى تعود إلى عقود من سنين، الكلمة التالية:

[كلمة للتاريخ مهداة إلى..... الأستاذ فاضل السباعي]

ذات يوم، وبينما كنت أستمع باهتمام إلى محاضرة في الحقوق المدنية على مدرج كلية الحقوق بجامعة حلب للأستاذ الدكتور انطوان قسيس، لاحت مني التفاتة فرأيت بالقرب مني رجلا مهيب الطلعة..... لا يبدو عليه أنه طالب في الكلية، وكان يكتب

في كراس أشياء يبدو أنها لا تتعلق بالمحاضرة، حيث كان يجول ببصره في أنحاء القاعة بهدوء ثم يسجّل ملاحظاته.

وفي فترة الاستراحة، التفت نحوي، وأخذ يطرح عليّ بعض الاسئلة: عن الأستاذ المحاضر، والمنهاج، والجو العلمي الذي يسود المحاضرات من نقاشات ومشاركات.

الحقيقة أنني تعجبت من أسئلته وأردت أن أعرف سببها، ولكن طرحه المستمرّ لها لم يكن ليعطيني الفرصة لمعرفة ذلك، وكأنه يغتنم كل لحظة في الاستراحة لمعرفة المزيد، وقبل أن تبلغ الشكوك مبلغها عرّفني بنفسه: فاضل السباعي.

وصعقت كيف أني لم أتعرف عليه، فلطالما قرأت قصصاً لهذا الأديب الكبير وشاهدت صوره تتصدر كتبه ومقالاته في الصحف والمجلات، فكيف فاتني التعرف عليه. فقد كان جيلنا يقدر الأدباء والعلماء ويحفظ لهم في قلبه أجمل الصور. وقدمت اعتذاري مبررا ذلك بالمفاجأة غير المتوقعة.

قبل الوداع أخبرني بأنه يعتزم كتابة قصة عن الدراسة في الجامعة والأجواء العلمية والثقافية السائدة فيها، وقد حضر ليستمدّ مادة القصة من الواقع العملي. ففهمت بعدها سر النجاح الذي وصل إليه أديبنا الكبير.

لقد مر على هذه القصة أكثر من خمسة وثلاثين عامًا ولا زالت حيّة في ذاكرتي وكأنها تحدث اليوم، ذلك لأنها اقترنت برجل..... أكنُّ له كل احترام وتقدير.

محمد غسان علبي

حلب: فجر السبت ١٨-٧-٢٠١٥

فكتبتُ:

يؤسفني أني، مع اعتدادي بذاكرتي، أفتقد تذكّر هذه الحادثة، التي تقول إنها وقعت

قبل ٣٥ عامًا، أي في العام الدراسي ١٩٨٠–٨١... هل طغت عليها عندي حادثةٌ أخرى؟

أني في الساعة ٣–٥ من مساء يوم الإثنين ٢٢–١٢–١٩٨٠، وقفت على منبر "مدرج المتنبي" بكلية الآداب بجامعة حلب في لقاء مع الطلاب يسألون فيه وأجيب، انتهى بإلقائي قصتي –التي باتت مشهورة– "الأشباح"، وفيها يُجْهز "الجلادون" في المعتقل على مثقف، فتصعد روحه إلى السماء ويعود إليهم شبحًا يعذّبهم، تشاركه في ذلك أرواح مَن سبقوه إلى عالم الحق... ثمّ، وأنا خارج من باب الجامعة، ألقوا القبض عليّ أنا كاتب هذه القصة!

لا تُراعوا، أصدقائي، فالقصة نزلت في كتابي "آه، يا وطني! " (دار إشبيلية، دمشق ١٩٩٦!). وفي أواخر ١٩٩٧ أعدّت طالبةٌ في الكلية، متفوّقة، حلقة بحث عن هذه القصة عينها، وغدت هذه الطالبة فيما بعد أستاذة للأدب المعاصر بجامعة حلب، إنها "الدكتورة شهلا العجيلي"!

وأما الطالب الواشي، الذي نقل مضمون القصة توًّا إلى فرع الحزب بالجامعة، ثمّ قاد السيارة التي أقلّتني إلى المعتقل، فقد كان مع الأسف ابنًا لأحد أصدقائي، لم يتورّع ونحن في السيارة عن أن يعرّفني بنفسه: اسمي "نضال بن... "، وهو يعيش اليوم عزلة مخزية!

دمشق الشام: فجر السبت ١٨–٧–٢٠١٥

- - - - - - - - - - - - - - -

لقد صحّح الصديق التاريخ، فقال إنه يعود إلى ما قبل خمسين سنة... وأذكر أني زرت جامعة حلب في يوم من أيام ذلك العام الدراسي ١٩٦٥–٦٦، للغرض الذي

بيّن. أحيّي ذاكرته النشطة، وأسلوبه الفصيح، ووفاءه للواقع.

دمشق الشام: ظهيرة السبت ١٨-٧-٢٠١٥

ما أنجزناه ليلة أمس!

لبثنا في البيت.

كتبتُ نصًّا سرديًّا في أدب الأسفار، رصدتُ فيه تفاصيل رحلة العودة من فلوريدا الخضراء إلى دمشق الفيحاء، ليظهر مطلع الشهر القادم آب/ أغسطس في إحدى المجلات الشهرية، وأنجزت ابنتي خلود رسم لوحة بالأكْريلِك بقياس ٥٠ﷺ٧٠، تضجّ باللون الأحمر ويفوح منها عبير الورد الشامي، تنوي أن تقدّمها إلى صديقة حميمة، وأما ابنها حفيدي "ماجد هنانو"، فقد فرغ بعد الجهد من رسم كلّ ما ترتّب عليه لمجلة الأطفال التي يتعامل معها عبر البريد الإلكتروني، وسمح لنفسه أن يأخذ "إجازة" يَقضيها بين أصدقاء الطفولة في "ضاحية دمّر"، يومًا بليلِه ونهاره، ويعود إلينا ونحن في اشتياق...

دمشق الشام: فجر الأحد ١٩-٧-٢٠١٥

من فلوريدا الخضراء إلى دمشق الفيحاء

استجابة لطلب بعض الأصدقاء، أدرج أدناه الصفحة الأولى من النص السرديّ (من أدب الأسفار) الذي كتبته عشية أمس الأول، وهو يعادل ربع المكتوب.

دمشق الشام: مساء الأحد ٢٠-٧-٢٠١٥

عند الساعة الثانية والنصف من فجر يوم الأحد (الثامن من حزيران/ يونيو ٢٠١٥)، كنت أهمّ بالخروج من بيتٍ، ما أظنّ أني عائدٌ إليه بعد يومي هذا أبدًا، تُرافقني

ابنتي "سـهير" وحفيدي "رامي"، في الطريق إلى "مطار اورلَنْدو". وما فاتني، وأنا أمام باب الدارة (الفيلا)، أن أمدّ يدي فأقطف ما تطوله من زهرات الياسـمين، تلك الشجيرة، التي كانت ابنتي "سوزان" قد جاءت بشَتْلتها في آخر رحلة لها ما بين الوطن وموطنها الجديد، قبل أن يعمّ شرُّ الاقتتال وشرارُه فتتعذّر الزيارة، وهي ذي "الياسـمينة" وقد نمت جذوعًا وأغصانًا، مستريحةً على عريشة خلفها، تزكو تحت شمس فلوريدا الدافئة وأمطارها الصيفية، وتعطي أزهارًا ترشح عطرًا شاميًّا يملأ الصدور ويُذكّر بالوطن البعيد... وعن ذلك كتبت غير مرة في الخواطر التي أرسلها عبر الشبكة العنكبوتية.

في الطريق إلى أورلندو، مسافرًا من بلدة Palm Bay، هذا الطريق الذي نعبره بستين دقيقة، لم يكن يُراودني شعور بالأسف لمغادرة هذه البلدة الخضراء الجميلة، التي أظلّتْني عشرين شهرًا كاملة، مقيمًا بين أفراد ذرّيّتي، من بنين وبنات، وأحفاد وأسباط، وكنائن وأصهار، ولكنّ ما كان يقلقني هو الخشية من مشقّة هذا السفر بطوله الزائد على ثلاثين ساعة، أترك فيه مطارا وأدخل آخر، تحلّق بي الطائرات وتحطّ، وأنا رجل، يا أصحابي، يدلف إلى التسعين غير متعثّر، لولا أنّ أبنائي الذين حجزوا لي للسفر، طلبوا خدمة "الكرسي المُدَوْلب" (Wheel chair)!

لحظة دخلنا مطار اورلندو، وعربة قد علتها حقائبي الثلاث يتولّى أمرها حفيدي، رأينا واحدًا من تلك الكراسي المُدَولبة، يدفعه خاليًا رجل أسمر البشرة، فاستوقفناه، ووجدتُني أجلس فيه مرتاحا، والرجل يدفع! وعند المضيفة الأرضية توقفنا، ونُقلت الحقيبتان، زنة كلّ واحدة خمسون باوند (٢٣ كيلو غرام لا تزيد دانقًا)، إلى الميزان، ولم تزد الصغيرة -التي ستبقى في يدي طوال الرحلة- على خمسة عشر. انتظرنا قليلاً، إلى

أن آن لي أن أتحرّك، وأُذِن لابنتي بمرافقتي إلى الداخل، فقد غدوت ابتداءً من هذه اللحظة من "ذوي الاحتياجات الخاصة"، ولدى المضيفة كنا أودعنا الحقيبتين، وودّعني حفيدي الحبيب رامي، ودفع الرجل الأسمر العربة وقد نفحته ابنتي "ما فيه النصيب"، ومضينا.

هل أقول إنّ الزحام كان ينفتح أمامي بين الراجلين، فاجتاز التفتيش في مراحله الأولى، والتالية أيضًا، فكأنّ مسؤولي الأمن هنا يقولون: وماذا في وُسع هذا الرجل الجالس على هذا الكرسي أن يفعل! وتركني الأسمر لشأني، ودخلت المكان راجلاً أحمل حقيبتي الصغيرة بحنان............

«اِجِتْ الكهربا»

كلمتان...

صرت أحسّ لهما وقعًا وأنا بدمشق، لم أكن أعرفه وأنا في فلوريدا.

دمشق الشام: الأربعاء ٢٢-٧-٢٠١٥

والله والله

كلما فتحت الماء لأسقي أزهار حديقتي

في شهر تمّوز اللاهب

تصوّرت أهالي حلب

وهم يلوبون بحثًا عن قطرة ماء

يبلّون بها عطشهم

فأهمّ بأن أمنع الماء عن أزهاري

وأنا أتخيّل مَلَكًا يهبط عليّ من السماء

فيحمل ما عندي من ماء الفيجة

يسقى به بعض الأفواه هناك

دمشق الشام: مساء الأربعاء ٢٢-٧-٢٠١٥

ثقافة الفراق.. ثقافة الموت!

ليلة السادس من حزيران/ يونيو الشهر الماضي، وأنا أستعدّ لمفارقة فلوريدا الجميلة التي قضيت في ربوعها عشرين شهرًا، حضرت أمسية وداع في أحد البيوت الخمسة التي يسكنها أبنائي في بلدة Palm Bay. وبعد تناول العشاء قمت أضمّ إلى صدري أحفادي، أعانق وأقبّل، وتراءى لي في ذلك أن أُلْفتَهم إلى أنّ لقاء الليلة هذا قد يكون آخر ما يجمعني وإياهم، فلا هم يستطيعون زيارة الوطن والقتالُ فيه دائر، ولا أنا أملك الهمّة للعودة إليهم في هذا البلد البعيد، وقد أفارق الحياة هناك فلا يكون لقاء بعد ليلتنا هذه! الذي وقع أنّ الصغار ذهبوا توًّا إلى أهلهم يحدثونهم عن الانطباعات التي تولّدت عندهم بعد الذي سمعوا مني، فهُرع إليّ كبارٌ منهم يسائلونني كيف أني تحدّثت عن ذلك أمام الصغار فأحدثتُ في نفوسهم الهلع، وليس في "ثقافتهم اليومية" حديث عن الموت! فقلت أخالفهم الرأي: «ولماذا نتجنّب الحديث عن الفراق واللوعة والموت، وفي الوطن كلّ يوم، وكلّ ساعة، فراقٌ وتشريد ودمار وسفكُ دم؟! ». صباح هذا اليوم، الجمعة، بعثت إليّ كبرى الأحفاد، زين السباعي، بصورة تجسّد "فاضل الصغير" و"جودي" وهما في الأحضان، وإلى الخلف الصبيّتان "زين" و"نايا"،

إحدى الصور التي التُقطت قبيل مغادرتي فلوريدا بسُويعات... صورة تُجمّد "اللحظة الزمنية" فتبقى ماثلة أمام العيون لزمن آت.

دمشق الشام: مساء الجمعة ٢٤-٧-٢٠١٥

من فلوريدا إلى دمشق على "كرسي مُدَولب"!

في فجر يوم الأحد (الثامن من حزيران/ يونيو ٢٠١٥)، كنت أهمّ بالخروج من بيتٍ ما ظننتُ أني عائدٌ إليه بعد يومي هذا أبدا، تُرافقني ابنتي "سهير" وحفيدي "رامي"، في الطريق إلى "مطار اورلَنْدو". وما فاتني، وأنا أمام باب الدارة (الفيلا)، أن أملأ كفّيّ من زهرات الياسمين، تلك الشجيرة التي كانت ابنتي "سوزان" قد جاءت بشَتْلتها في آخر رحلة لها ما بين الوطن وموطنها الجديد، قبل أن يعمّ شرُّ الاقتتال وشرارُه فتتعذّر الزيارة، وهي ذي "الياسمينة" وقد نمت جذوعًا وأغصانًا، مستريحةً على عريشة خلفها، تزكو تحت شمس فلوريدا الدافئة وأمطارها الصيِّبة، وتعطي أزهارًا ترشح عطرًا شاميًّا يملأ الصدور ويُذكّر بالوطن البعيد... وعن ذلك كتبت غير مرة في الخواطر التي أرسلها عبر الشبكة العنكبوتية.

في الطريق إلى اورلندو، مسافرًا من بلدة Palm Bay، هذا الطريق الذي نعبره بستين دقيقة، لم يكن يُراودني شعورٌ بالأسف لمغادرة هذه البلدة الخضراء الوديعة، التي أظلّتْني عشرين شهرا كاملة، مقيمًا بين أفراد ذُرّيّتي، من بنين وبنات، وأحفاد وأسباط، وكنائن وأصهار، ولكنّ ما كان يقلقني هو الخشية من مشقّة هذا السفر بطوله الزائد على ثلاثين ساعة، أترك فيه مطارًا وأدخل آخر، تحلّق بي الطائرات وتحطّ، وأنا رجل – يا أصحابي– يدلف إلى التسعين غير متعثّر، لولا أنّ أبنائي الذين حجزوا لي للسفر،

طلبوا خدمة "الكرسي المُدَوْلب" (Wheel chair)!

لحظة دخلنا مطار اورلندو، وعربة قد علتها حقائبي الثلاث يتولّى أمرها حفيدي، رأينا واحدًا من تلك الكراسي، يدفعه خاليًا رجلٌ أسمر البشرة، فاستوقفناه، ووجدتُني أجلس فيه مرتاحًا، والرجل يدفع! وعند المضيفة الأرضية توقّفنا، ونُقلت الحقيبتان، زنة كلّ واحدة خمسون باوند (٢٣ كيلو غراما لا تزيد دانقا)، إلى الميزان، ولم تزد الصغيرة -التي ستبقى في يدي طَوال الرحلة- على خمسة عشر. انتظرنا قليلاً، إلى أن آن لي أن أتحرّك، وأُذِن لابنتي بمرافقتي إلى الداخل، فقد غدوت -ابتداءً من هذه اللحظة- من "ذوي الاحتياجات الخاصة"، ولدى المضيفة كنا أودعنا الحقيبتين، وودّعني حفيدي الحبيب رامي، وأخذ الرجل الأسمر يدفع بي العربة، بعد أن نفحته ابنتي "ما فيه النصيب"، ومضينا.

هل أقول إنّ الزحام كان ينفسح أمامي بين الراجلين، فاجتاز التفتيش في مراحله الأولى، والتالية أيضًا، فكأنّ مسؤولي الأمن هنا يقولون: وماذا في وُسع هذا الرجل الجالس على كرسي مدولب أن يفعل! وتركني الأسمر لشأني، ودخلت المكان راجلاً أحمل حقيبتي الصغيرة بحنان.

والتقيت بابنتي، التي فارقتني لحظات، في الصالة حيث ينتشر على مقاعدها المسافرون، وخطر لها أن تملأ كفي بقدر من الدولارات الورقية، لأوزّعها -إكرامًا- على الذين يدفعون بي الكرسي في كلّ مراحل الانتقال. وتبادلنا من الحديث الوجاهي ما اعتقدت أنه آخر ما هنالك، فما أظنّ أننا سوف نلتقي، في مقبلات الأيام، في هذا الموطن المستعار أو في الوطن الأمّ، فالحرب تزداد استعارًا... إلى أن نودي علينا أن هَلُمّوا! فودّعت بآخر القبلات، وغبت في جوف الطائرة، وغُصت في مقعدي، أفكر

فيما مرّ بي من أيامي ههنا، التي بلغت ستمئة وعشرة، ما لي فيها وما عليّ، متصوّرًا أيامي الآتيات، وأنا أتنفّس أنسام الوطن، مستظلاً البيت، تعانق عيناي هناك أوراقي وأقلامي، عالمي ذاك الذي ينفتح على الدنيا ويرود بي كل مكان!

لم يطل لبثي في هذا المطار إلا سويعات، ومثلَها استغرق الطيران حتى الهبوط في "مطار فيلادلفيا" العظيم، وقد ولّى الليل فنحن في وضَح النهار، وعند مغادرتي الطائرة، كان كرسيّ مدولب آخر لكن مطويّ، في انتظاري، أسرع صاحبه ينشره متيحًا لي الجلوس، وخرج بي من المسلك "الأوكورديونيّ" إلى ردهة فسيحة، وتوقف عند "عربة كهربائية" تقوم عليها امرأة، يُنبي شكلها عن أنها من قارّتي الأسيوية -الهند خاصة- أسلمني لها ومضى.

لبثت دقائق في هذه العربة، التي تتّسع لغير واحد من الراكبين، وعينا المرأة تجولان وكأنهما تبحثان عن ركاب آخرين، وأنا أُجيل الطرف في الأرجاء، فأرى محلات تقدّم معروضاتها في لألاء من الأناقة والترف، والناس ماضون إلى أحوالهم مستعجلين، فلما افتقدتْ مَن ظننتُها "هندية" ركابًا يشاركونني اعتلاء عربتها، أعملت يديها، فسارت بي العربة، تتهادى فوق بلاط مرمري لامع، لا صوت، لا جلبة، إلا ما خيّل إليّ أنه حفيف أجنحة اليمام، تجتاز ردهة تُفضي بنا إلى أخرى، حتى توقفت عند "بساط متحرّك"، فتناولتْ حقيبتي اليدوية تحملها، ووطئنا البساط يسير بنا، ومنه انتقلنا إلى بساط آخر حيث ودّعتني، وصافحتْها يدي بالذي فيها، ثمّ سرت -غير هائم- إلى مكتب استعلامات، تتولاه شابة سوداء جميلة وأنيقة، أوعزت، بعد أن اطّلعت على بطاقة السفر، إلى رجل بجانبها، فنشر عربته، وأقلّني إلى مكتب الخطوط الجوية القطرية... وعلى المقاعد ههنا، صافح سمعي كلامٌ بالعربية، فاستأنست.

وما هي إلا هنيهة حتى تقدّمت مني مَن توسّمتُ فيها شخصية مديرة المحطة القطرية، شابةٌ ذات حجاب أنيق، بزيّها الرسمي، تطلب مني البطاقة وجواز السفر، لتعود إليّ وقد أنجزت كلّ شيء وأنا لم أغادر مقعدي... إلى أن أهابوا بنا أن نتوجّه إلى حيث الطائرة تنتظر، وأقلّني في هذا المطار الرائع كرسيٌّ مدولب رابع!

وبدأت الآن المرحلة الأطول من رحلتي، طائرةٌ تفارق قارّة، تمخر بنا الفضاء، مجتازةً بحارًا ومحيطات، محلقةً فوق قارّة أخرى، وصولًا إلى قارّتي الأسيوية.

أعترف بأني لم أعانِ مشقّةً كبيرة في احتمال الساعات الثلاث عشرة، المتواصلة، قبل أن تحين لحظة الهبوط. كنت أترك مقعدي، بين الفينة والأخرى، لأمشي ـ في الممرات المتاحة، كسرًا للرتابة وتحريكًا للجسد. وكم أفرحني أني نزلت أخيرًا في أرض عربية اسمها "الدوحة"، وإن كان كثير ممّن يتحرّكون فيها يرطنون بالعربية وبغيرها!

وما بال هذ الذي يودّع الركاب في باب طائرته، يلمح في يدي البطاقة فيوعز إلى منتظرٍ، فيفتح هذا عربته، ويعبر بي متّسَعًا من المكان، وينزل بي مِصعدا، ثمّ يمضي ـ يقطع المسافات، والناس أراهم يتحرّكون في استعجال، وألمح "قطارًا" لا صوت له ولا حسّ ولا خبر، يكرج على سكّته هناك فوقَ مرتفع، يحمل أناسا ويعود بآخرين، وأنا أتعجّب مثل بدويّ ينزل المدينة لأول مرة... وركنت أخيرا، حيث ينتظر المغادرون إلى بيروت ساعة السفر.

لم يكن من عادتي أن أبادر بالوقوف في ممرات الطائرة، ساعة تحطّ على الأرض، أزاحم الركاب المستعجلين في النزول. أظلّ جالسًا مسترخيًا، ولم الاستعجال؟ الآن، والطائرة الصغيرة، الصغيرة جدا، تتوقّف في مطار بيروت، تلبّثت، حتى بلغ الزحام نهايته، فقمت أطلب حقيبتي اليدوية من الخزائن العلوية، سحبتها بقوة، فهي تزن

سبعة كيلو، فتراءى لي أنها... أنها تغيّرت! هذه تُشبه حقيبتي، حجمًا ولونا، لكنها تفتقد "اليد" المخفيّة فيها التي إن سحبتها تمكّنت من جرّها. فتحت السحّاب، فبانت لي فيها أشياء "نسوية"، حذاء، جزمة ذات ساق مزركشة: لقد أخذت صاحبتها حقيبتي بالغلط... لم تنتهِ الرحلة على خير!

هُرعت، والمكان أوشك أن يكون خلويًا، إلى أحد المضيفين على باب الطائرة. تجاوب الرجل، بأن أخذ مني الحقيبة الملتبسة، وأعجلنا الخطا، لا كرسيًّا مدولبًا أرتاح فيه، ولا أسمر أو أسيويًا يدفع!

في الصالة، حيث وقف الناس أمام الكُوى المختلفة، هذه للسوريين وتلك لغيرهم، وخلف كلّ واحدة يقبع موظفُ أمن، يتناول جواز السفر، ويضرب على الحاسوب، ويختم، فهذا عابرٌ آمنٌ وأمين! درت أنا والمضيف القطري، بين المنتظمين صفوفًا: لا أثر لحقيبة تشبه هذه التي بين أيدينا! وتركني المضيف معتذرًا ومضى. هُرعت إلى رجل أمن يتجوّل. اجتهدت في أن أشرح مشكلتي:

أحدهم، إحداهنّ، أخذت بالغلط حقيبتي لحظة نزولها من الطائرة. قد تكون أنجزت الآن أمرها عند الأمن وخرجت إلى الصالة هناك لتأخذ حقائبها الكبيرة من البساط الدائر! اسمح لي بالذهاب، أرجوك!

تأمّلني الرجل قليلا... ثمّ طلب مني جواز سفري "رهنًا" وهو يقول: تفضّل!

زاغت عيناي هناك. بساط يستقبل حقائب من هذه الطائرة أو تلك، وهذا بساط لحقائب القادمين من الدوحة. ليس بين المنتظرين، المنتظرات، من تحمل "حقيبتي"! عدت -وحقيبتها في يدي- مخيّب الرجاء، أستردّ جواز سفري.

سوريٌّ من الواقفين، بدا أنه لاحظ ما يتبدّى عليّ من قلق، يتقدّم مني وقد آلى على

نفســه أن يســاعدني، ما أطيب الســوريين! جدّدت البحث في صــالة الأمن، وهو إلى جواري، يقول لي: «هذه؟ »، فأجيبه: «لا! »... إلى أن وقفنا إزاء عربة تعلوها حقيبة مشابهة! قلت للرجل: «لو تقرأ الاسم على البطاقة! »، تلك التي كانت ابنتي قد كتبتها بالإنكليزية ونحن في مطار اورلندو وعلّقتها، فأتاني منه صــوت رخيم: « Fadel Sibai... هل هذا اســمك؟ ». قلت للمرأة بقليل من الكياســة: «كيف تأخذين حقيبتي، وتَدَعين لي حقيبتك! »، وتركتها لحيرتها ومباغتتها وهي تتأمل ما ألقيت في عربتها، وعدت أشكر الصديق الذي أعانني.

وتذكّرت، بعد هذه المعاناة، الكرسيّ المدولب. سـألت أحد العاملين، فتنصّـل قبل أن يُحيلني إلى تلك الموظفة، المتصدّرة هناك، تُغيّب عينيها وراء نظارة سوداء، أجابت: «الأمر يحتاج إلى "طلب"، أنت تأخرت في تقديمه! »، ولما أخذت أشرح، تشــاغلتْ فألجأتني إلى الذهاب.

وقفت، أخيرا، أمام كوّة شـاغرة، بدا لي رجلُ الأمن وراءها "مُروّق" يتأمل. سـألته في أمري، فأحـالني إلى الكوّة التي مـا زال يصــطفّ أمامها "الســوريون"، فبيّنت له مشـكلتي وما عانيت من رَهق بحثًا عما افتقدت، فأشـفق، وأخذ يضرب في الحاسـوب اسـتدعاءً لاسـمي، ما إذا كنت "مطلوبا" أم أني أتمتّع بالبراءة! وفجأة رفع صـوته بنَزَقٍ لبنانيّ نعرفه: «ما شــفت أغرب من اســمك، أضرب فتطلع لي أشــياء عجيبة! »، فتبسّـمت له أحاسـنُه القول: «كيف؟ اسـمي ظريف. فاضـل السـباعي. ويقولون إني معدود بين الكتّاب. نشرــتُ بعض كتبي في بلدك، موطن الأرز، لبنان! »، فأخذ يتأمّلني صامتًا، ثمّ "طَجّ[1]" الختم على جواز السفر.

---

(١) ضَرَبَ

لم يطُل انتظاري عند البســاط الدائر، فالتقطت حقيبتيّ الاثنتين، غير مســتبدَلتين، وجعلتهما على ظهر عربة، ومضــيت أدفعها -ولا أحد يدفع بي الكرسي المدولب! - نحو باب الخروج.

وكان في انتظاري أمام باب المطار صديقٌ لابني، "أسامة"، سوريّ يعمل في لبنان، وبجواره سائق سيارة سوريّ يعمل "على الخط" اسمه "أبو عمر". تعارفٌ، وسؤال عن متاعب السفر. ودّعت، واتجه بي السائق نحو حدود الوطن.

في مدينة "شتورة" اللبنانية استأذن الرجل بالوقوف لحظةً أمام "سوبر ماركت"، ذهب وعاد مهرولاً. تراءى لي أن أسأله: «ماذا اشتريت، يا أبو عمر؟ »، قال: «بعضهم يفضّل المالبورو الأحمر، والبعض علب المتّة! »، فكنّا كلما مررنا بـ"حاجز" يلقي التحية على العسكريَّ فيه بقوله: «مرحبا، يا كبير! »، ثمّ يناوله "المعلوم".

وعلى أبواب دمشــق، في مطالع "اوتوســتراد المزّة"، كان ابني "فراس" ينتظرني، فليس لسيارات السفر أن تتجوّل في شوارع المدينة وصولا بي إلى بيتي. وآن لي أن أودّع آخر "رفاق الرحلة"، أبو عمر، الذي عرفت أنه "يتموّن" من المالبورو الأحمر وعلب المتّة قبل أن يدخل الحدود.

وهناك، كانت تنتظرني ابنتي خلود وابنُها الفنان التشكيلي "ماجد هنانو"، العائدان منذ قريبٍ من القاهرة، واللذان لولا وجودهما في بيتي لما عزمت على العودة إلى الوطن، وقد كنت كتبت وأنا فوق الأطلسي-ذاهبًا إلى المغترب، يوم السابع من تشرين الأول ٢٠١٣:

والله،

ما فارقتك، يا وطني، خوفًا من عيونهم المبثوثة

ولا رَهَبًا من سيوفهم المسلولة

ولكن

لأنّ الأسرة التي أنجبتها على مدى نصف قرن ويزيد

قد تفرّق أفرادُها في كلّ اتجاه

ولم يبقَ لي بدمشق من إذا انتابني وجعٌ يمدّ إليّ يده بكأس ماء.

والتُقِطت صور لي لحظة دخولي حديقة بيتي.

وأما حفنة الياسمين، التي كنت قطفتها هنالك، فقد نثرت أزهارها الذابلات فوق تربة الياسمينة - الأم، في أرض الوطن.

ودخلتُ، تعانق عيناي أنفاس "وطني الأول"، بيتي الحميم.

دمشق الشام: صباح الجمعة ١-٨-٢٠١٥

أرخص الأرواح

أصبح مؤكدًا

أنّ أرواح السوريين، اليوم، هي الأرخص في العالم

يذهبون إلى الموت بطَرفة عين

ثمّ ينفرد أهلُهم بالبكاء عليهم ومعاناة الأحزان

دمشق الشام: الإثنين ٣-٨-٢٠١٥

نومة أهل الكهف

مثلما يصعب على المرء أن يجلس في العتمة ساعات، تبينتُ أنه يصعب عليه كذلك

أن يجلس في وَضَح النهار دون كهرباء، فلا جهازَ يخفّف عنه الحرّ ولا فيسبوك يتيح له التواصل مع العالم.

وفي ذلك تلقيت من صديقة مرحة تساؤلَها: «بس بدّي أفهم ليش تركت أمريكا وجيت للبلد! »، فكتبت لها، جادّا ومجاريًا لها في المزاح: «شوقًا للوطن، ولمكتبتي، وإلى... بعضهم! ».

ثمّ كان أن تعايشت مع هذا الوضع. فكلما قطع وزير الكهرباء التيار عن حارتي، توجّهت إلى غرفتي تُراود عيناي النوم، وأنهض لحظة تصافح وجهي أنسامُ المروحة، ولا يطول ذلك، فإني محظوظ بأنّ بيتي قريب من مكاتب القصر.

ولكن... هل على أهل حلب، الذين تنقطع عنهم الكهرباء أيامًا وأسابيع. أن يناموا نومة "أهل الكهف"؟

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٤-٨-٢٠١٥

مروحة كرتونيّة في سقف المكان

في ثلاثينيّات القرن الماضي، وكنّا نسكن في "زقاق الزهراوي" في "حيّ وراء الجامع" بحلب، كان أهلنا يبعثوننا إلى حلاق الحارة، القريبِ محلُّه من الباب الشمالي للجامع الأموي الكبير، مجاورًا لصيدلية الكيالي الشهيرة في زمننا.

واتفق أن توجّهت يوما، وأنا في نحو العاشرة، إلى محلّ هذا الحلاق، وبرفقتي أخي الأصغر "عادل"، حيث تولى "المعلم" قصّ شعري وترك أمر أخي لأجيره المتدرّب.

وبينا أنا أتملّى النظر في المرآة أمامي من هيئتي، مغطّى الكتفين والصدر بتلك الفوطة البيضاء، رأيت المعلم -الذي كان يُلعّب المقصّ قريبًا من أذني- يتوقف فجأة، ملتفتًا

إلى أجيره، الذي بدا مرتبكًا ومنهمكًا، وقد أتى، في تلعيبه مقصّه، على جانب من أذن أخي ابن السادسة، فهو الآن يأخذ القطن ويمسح قطرات الدم. فما كان من المعلم إلا أن جعل يسبّه: «يا حيوان! قصّيت إدن الولد!»، ثمّ يترك ما في يديه من أدوات، وينهال عليه بالضرب، مختلسًا في ذلك النظر إليّ وكأنه يقول: «هأنذا أعاقبه، يمشي الحال!»، وأخي الصغير يقول مشفقًا: «معليش، معليش، ما وجعتني ادني!»، ذلك أنّ ما كان لا يعدو جرحًا طفيفًا.

إنّ ما استدعى هذه الحادثة إلى ذهني، وقد مضى عليها خمسة وسبعون عامًا ويزيد، أنه كان في محلّ هذا الحلاق وعند نظرائه من الحلاقين في البلد، "مروحة" كرتونية، هي لوح من المقوّى كبير، يُعلّق بالسقف، وقد رُبط أدناه بخيط، يمسك بنهايته تحت أجيرٌ يشدّ ويُرخي، فتتحرّك الكرتونة جيئة وذهابا، مثيرةً الهواء في المكان، مخففةً من حرّ الصيف.

في انقطاع الكهرباء في بلدي، اليوم... هل أركّب "مراوح كرتونية" في سقوف بيتي؟ ولكن من ذا الذي يحرّكها يمنة ويسرة، مثيرًا هواءً يخفّف من معاناتنا من حرّ شهر آب اللهّاب؟!

دمشق الشام: فجر الخميس ٦-٨-٢٠١٥

مصوّر المقهورين في "مونمارتر"!

هل كان من حُسن حظّ الفتى، الذي يُضمِر موهبةَ فنان تشكيلي، أن يكون أحبَّ الأصدقاء إلى مَن يشغَل أبوه منصبًا أمنيًّا مرموقًا!

أم أنّ من سوء حظّه أنه رافق الابنَ يومًا، في نزهة بالسيارة التي أخذها من وراء ظهر

أبيه، فوقعت لهما حادثة، لم يُصبهما فيها أذًى، ولكنّ الأب -الذي كان شديدًا على الناس يزجّهم في المعتقلات- أمر بحجز ابنه "المخالف" في زنزانة، شاء ألا ينفرد بها وحده، فاستضاف معه صديقَه الحميم الذي كان يجلس إلى يمينه في أثناء وقوع الحادثة المشؤومة!

وقد تجرّع الفتى، المرهف، الأمَرَّين، في تلك الليلة الليلاء، من ذلّ المهانة والانكسار ومن إحساسه بفقدان المنطق والعدل والأمان، ما بقي ثاويًا في نفسه لا تمحوه الأيام، وكان الصديق، الصدوق، في إشفاقه عليه وهما في الزنزانة، ينضو عن نفسه بعض ما يرتدي ويضعه عليه وقايةً له من البرد القارس، مرددًا على مسمعه كلّ عبارات الأسف والاعتذار.

من ذلك اليوم كره الفتى العسكر، وبذلاتهم، وبَذْلَهم الموعود للوطن، وزهد بالعيش على الأرض التي اكتحلت فيها عيناه بالنور! فلمّا أنهى تحصيله، وقد توافق ذلك مع بداية الأحداث في البلد، حمل مكوّنات فنّه، ورحل بعيدًا عن الوطن، وهو اليوم من أولئك المتسكّعين في "ساحة مونمارتر" يرسم، يُصوّر المقهورين، والسيّاح القادمين من كلّ أصقاع الأرض.

وأمّا صديقه الحميم ذاك، فقد اختار أبوه -الذي تقاعد- لنفسه ولأسرته العيش في أجمل عواصم الدنيا، يصادف أن يلتقي به في "الشانزليزيه" ولا يكلم أحدُهما الآخر، فقد أصبحا بعد أحداث الوطن مختلفين رأيًا.

دمشق الشام: فجر الأحد ٩-٨-٢٠١٥

بريد زمن الحرب

تلقّيت منذ قريب من صديق في دولة عربية، رسالة يسألني فيها أن أسمّي عملا أدبيّا لي ليقترحه نصّا روائيّا يُدرّس للطلاب في مدارس الحكومة التي يعمل فيها أستاذا للعربية وأنه عضو في اللجنة التي تنظر في هذه المقترحات.

نزلت أمس، ساعة الضحى، من بيتي إلى مركز المدينة، وكان هذا أول مرة منذ عودتي للوطن، مشتاقًا لأن أشاهد، ولو في هذا الحرّ اللاهب، حركة الحياة اليومية في عاصمة بلادي، وأتيح لي أن أشمّ رائحة النبات وعبير الأزهار، تلك التي تطلّ عليّ وأنا أسير على الرصيف تحت سور مباني رئاسة الجامعة، وفي يدي رزمة صغيرة أريد إيداعها البريدَ المركزي، لم أُحكِم إغلاقها تمكينًا لرقيب المطبوعات من أن يطّلع عليها ويختم بالإذن بالإرسال.

على باب مبنى البريد يسألني رجل الأمن، فأجيب، فيعْلمني بأنّ موظف الإعلام "علي" قد ذهب، ويوجّهني إلى حيث رئيسُه في الطابق العلوي. وهناك أعلمتني موظفتان بأنّ "علي" هنا -رئيس علي التحتاني- قد أنجز ما عليه من رقابة المطبوعات الواردة اليوم وانصرف، فأعلنت احتجاجي، كيف يغادر موظفان مقرّهما عند الثانية عشرة ويعطّلان أعمال المواطنين! فأشفقت عليّ إحداهما، وأخذت الهاتف، توصي بي موظف الإعلام، الثالث، الذي في "الطرود البريدية" تحت، وكان اسمه بالمصادفة "علي"! ومع سروري بالوساطة الخيّرة أحببت أن أمازحهما، وإني أعرف أنّ جنسهنّ يحبّ المزاح، فجعلت أقول: «واسمه أيضا "علي"؟ وأنت اسمك "عليّة"؟ وأنت "علياء"، وأنا... سوف أتسمّى "عليّ" منذ ضحى غد!».

ظننت أنّ "علي الطرود"، ينتظرني، ولكنه فاجأني بأنّ شغلتي عند علي الأول أو

الثاني، وأنّ عليّ أن آتي غدا! فوجدتني وقد ارتفع صوتي، أحتجّ وأندّد... بأن ينصرف اثنان من الموظفين قبل ساعة الانصراف، وتقول لي أنت: تعال غدا! بيتي بعيد... وفي هذا الحرّ... لا تراعي عمري... لم أعد أذكر ما قلت! وكان "علي" هذا ينظر إليّ مفترّ الثغر وكأنه مسرور بأن أثار انفعال مواطن في مثل حالي! ثمّ... رأيته يُخرج "العُدّة"، يملأ لصيقة، ويُثبتها على الرزمة، دون أن يفتحها، ويختم!

استقبلتني "موظفة المسجَّلات" من وراء الكوّة بابتسامة ودودة، فأنا زبون عندها قديم، وكان من بالغ لطفها أن استأذنت مَن يتقدّمونني، فلم يعترضوا على أن تتجاوز بي "الدور"، وترتّب عليّ أن أدفع الرسم عشرة أمثال ما كان، وآخر ما سمعت منها أنّ البعيثة سوف يتسلّمها المرسل إليه في غضون عشرين يومًا.

أعترف بأنّ لطف هذه الموظفة، وقبل ذلك عونَ الموظفتَين الأُوليَين، وتسامحَ المصطفّين بالدور، قد أنستْني هذه كلُّها حرَّ آب (أغسطس)، وانصرافَ العلَيّين قبل نهاية الدوام، وقولةَ علي الأخير أن آتي غدًا، وارتفاع رسوم البريد، وتباطؤَ وصول البعيثة!

دمشق الشام: فجر الإثنين ١٠-٨-٢٠١٥

لأنه الوطن

لا كهرباء عندي، ولا نِت

وأفاجأ، عند الصباح، بماء الفيجة مقطوعًا

ولكنهم رأفوا بحالي

إذ تركوا لي خطّ الهاتف موصولًا

لا أشعر بكثير من الاكتئاب

بل ببعض الراحة

لأنّ حالي أصبحت تقترب من أحوال أهلي في الوطن

ولست بنادم على أني تركت هنالك

الليلَ المنوَّر

والماءَ المبرّد

واللقمةَ المتاحة

والفراشَ الوثير

والأمن والأمان

فإنّ الوطن

على ظلمه وظلامه

وجوعه والعطش

هو الأحبّ

لأنه... الوطن

دمشق الشام: عصر الجمعة ١٤-٨-٢٠١٥

وتلقّى الغَرْبُ الفلسفة اليونانية من العَرَب!

لم "يُصدّر" العربُ الفلسفة اليونانية إلى الغرب، ولكنّ الغرب تلقّاها من العرب، يوم صحا على فكر الأندلسي ابن رشد المفسّر الكبير لفلسفة أرسطو.

ومع صحوة الكتّاب الغربيين، التي جاءت متأخرة قرونًا، تهمّموا وطلبوا الأصول لكتب هذه الفلسفة، فافتقدوها بلغتها الأصلية، لأنّ المسيحية في القرن الرابع الميلادي كانت قد وأدت مصنفاتها في الأديرة النائية. وعندما أشار المترجمون السريان على الخليفة العباسي أن يجعل في تبادل الأسرى مع دولة الروم كتبَ الفلسفة، تلك المدفونة في أقبية الأديرة، تردّد الروم البيزنطيون بادئ الأمر في الاستجابة، قبل أن ينتهوا إلى الموافقة ظنًّا منهم أنها تفسد الدين، فوصلت إلى "بيت الحكمة" ببغداد أحمالٌ من هذه الكتب على ظهور الجمال.

لقد سلكتَ، يا إلياس هيمو، في ملامستك المسألة طريقا تنقصه المعرفة والنزعة العلمية، وكانت فظّةً تلك العبارة «اسمعوا يا عربان، ليس لديكم أي فضل في تقدم الحضارات الأخرى». لك أو لغيرك، فكشفتْ عن "عنصرية" فيها تمّ إطلاق النار على الموضوعية العلمية!

وليتك تطلع على ذاك الكتاب الذي تولّيتُ نشره (بدمشق عام ١٩٩٧) وعنوانه "فضل الأندلس على ثقافة الغرب" تأليف عميد المستعربين الإسبان في أيامه البروفسور خوان بيرنيت[١]، وقد غمرتُه بتعليقاتي في الحواشي وفي المتن أيضًا!

دمشق الشام: مساء السبت ١٥-٨-٢٠١٥

يا أشرار العالم!

يا أشرار العالم!

ارفعوا أيديكم عن سورية...

---

(١) المؤرخ الكبير. توفي في برشلونة سنة ٢٠١١م.

دمشق الشام: صباح الأربعاء ١٩-٨-٢٠١٥

«الماعون» باللهجة الحمصيّة!

كنت أول الأحفاد لجدّي "سليم المفتي السباعي"، القادم من حمص أيام "السفر بَرْلِك[١]" عام ١٩١٥ إلى حلب مقيمًا فيها.

وممّا كنت أحظى به من محبّته أنه كان يناديني في بعض الصباحات، ولي من العمر أربع أو خمس سنوات، طالبًا مني أن ألحق به إلى باب الدار وفي يدي "الماعون"!

وكنت أقول له كالمعاتب وأنا الذي أتربّى على اللهجة الحلبية: «جدّو! ليش بتقول "ماعون"؟!».

فكان الجدّ الحمصي يضمّ إلى صدره حفيده الحلبي الصغير، وهو يردّد قولته التي سأظلّ أذكرها إلى يوم الممات: «أبوس حجر عينك!»، فممّا كان يزيد في محبّته لي أني أشبه -كما يقول- أباه!

وأما الماعون باللهجة الحمصية، فهو الإناء ذو السعة والعمق، يملؤه لنا الحلاب على الباب حليبًا من ضروع الأمْعُز اللواتي يسرح بهنّ في أزقة الحارة.

دمشق الشام: فجر الجمعة ٢١-٨-٢٠١٥

وتمرّ الصواريخ من فوق رؤوسنا

كنا جالسين منتصف الليل في الحديقة ننعم بالأنسام الرقيقة.

---

(١) وتعني بالتركية النفير العام والتأهب للحرب، وهو فرمان أصدره السلطان العثماني محمد رشاد عام ١٩١٤م، يعتبر كل شخص من مواليد ما بين (١٨٦٩. ١٨٨٢) في أراضي الدولة العثمانية من المسلمين وغير المسلمين، مطلوباً للخدمة العسكرية.

فجأة سمعنا أصوات قذائف تُطلق من بعيد. أرهف أحدنا سمعه، ثمّ قال: «المقاتلون يُطلِقون من "ضاحية جوبر"! ».

ولم نفاجأ بعدها بإطلاق صواريخ أقوى فهي أقرب إلينا. قال عارفٌ بالأمور آخر: «هذه تُطلق من ورائنا من قمّة "جبل قاسيون"، على جوبر! ». وتراءى لنا أنها تمرّ من فوق رؤوسنا!

ومن المؤلم أننا استأنفنا الحديث الذي كان.

في اليوم التالي عرفنا أنّ الحصيلة: عشرة قتلى في دمشق بفعل قذائف جوبر، وخمسة وثلاثون في جوبر بفعل قذائف قاسيون.

هل هو قَدَر أمّتنا، أم أنه قَدَر العالم!

دمشق الشام: مساء الأحد ٢٣-٨-٢٠١٥

اغمسْ قلمَك بالحبر واكتب

قرأت في الرسائل فجر اليوم:

كيف يتوقّعون مني الرضا بأن يحكمني مَن حصدوا الملايين وأودعوها بنوكَ العالم، وتركوني -أنا مَن يسمّونه الكاتبَ أو الفنان المبدع- على قارعة الوطن، أعاني العيش خارج حدود الأمان؟!

فكتبت له:

اغمسْ قلمَك بالحبر، وريشتَك بالألوان... ولسوف يكون صوتك أقوى، أيها المبدع النبيل!

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢٤-٨-٢٠١٥

من ميشيل وجوزفين ربّاط إلى فاضل السباعي

أستاذنا وكاتبنا العظيم، مرحبًا بك.

أنت الأديب الذي وجب أن تكون أخبارك على كلّ لسان من وقت طويل، من يوم خطّت أناملك رواية «ثم أزهر الحزن»، تلك الرواية كانت كافية لتجعلك في مرتبةٍ واحدة مع نجيب محفوظ، علمًا أنها أقوى من نصف مؤلفات نجيب محفوظ.

لقد كنا نتوقع منذ ستينات القرن الماضي، بعد قراءة «ثم أزهر الحزن»، أنّ الصحافة والدور الأدبية ستعطيك الاهتمام الذي تستحقّه، ولكن يبدو أنّ ما حصل معك هو نفس الشيء الذي حصل مع الشاعر أحمد رامي، الذي أضاع عمره موظفًا في دار الكتب المصرية مجهولًا، حتى جاءت شهرته على يدَي أم كلثوم وبعدها الصحافة الفنية وليست الصحافة الأدبية.

ندعو لك بالصحة وطول العمر يا أديبنا الكبير.........

(زيوريخ): الأربعاء ٢٦-٨-٢٠١٥ س ٦: ٠٠ مساءً

- -

شكرًا للصديقين الجميلين اللذين أسعد بالتعرّف عليهما.

وأرجو أن يعلما أنّ عودتي من الاغتراب القصير إلى الوطن الأمّ كان- بعد الشوق- العملَ على تجميع فصولِ كتب لي مغيّبة في الأدراج وإعدادِها للطباعة، وفي مقدمها الطبعة الرابعة لرواية "ثمّ أزهر الحزن"، ادعوَا لي بالتوفيق في هذه الظروف القاهرة.

شكرًا جزيلاً للزوجين السعيدين على حُسن الرأي والمبادرة إلى التعبير.

دمشق الشام: مساء الخميس ٢٧-٨-٢٠١٥

وممّا يجعل الناس في وطني

وممّا يجعل الناس في وطني

يتحرّكون في حياتهم اليومية

غير عابئين بخطر الموت

ولا متّخذين كثيرًا من أسباب الحيطة والحذر

أنّ القذائف والصواريخ

تأتيهم هائمةً على وجهها

غير مستهدِفةٍ فئةً معيّنة

ولا مكانًا محدّدًا...

دمشق الشام: فجر الجمعة ٢٨-٨-٢٠١٥

أفكار مؤجّلة!

حَلَمت بأني كنت أتحدّث إلى صديق من كتّاب السيناريو عن أفكار تراودني أنوي أن أجعل منها مسلسلاً تلفزيونيًّا، وطنيًّا سياسيًّا... وفجأة، وجدتُني أكفّ عن الحديث، خشيةَ أن يسرق مني الفكرة!

عند الاستيقاظ جعلت أحاور نفسي: طيّب، ماذا لو أنه أخذ الفكرة وصنع منها مسلسلاً يحمل اسمه، ما دامت الفكرة ستصل إلى الجمهور الذي أسعى لمخاطبته! ثمّ كم من السنين يُقَدَّر لي أن أعيش؟ وما النور الذي بقي في العينين؟

وعزمت على أن أهدي إليه كلّ أفكاري المؤجّلة.

ولكنه... كان... قد رحل!

دمشق الشام: فجر السبت ٢٩-٨-٢٠١٥

إلى الذين انتابهم الفرح

إلى الذين انتابهم الفرح لأنّ الاتحاد الأوروبي وسّع من مجال لمّ شمل المهاجرين السوريين إلى بلاد أوروبا...

إنّ ذلك سوف يؤدّي إلى أن يزداد فراغ سورية من سكانها!

دمشق الشام: مساء الأحد ٣٠-٨-٢٠١٥

إلى أصدقائي في الشبكة العنكبوتية

أحبّ أن أبيّن أني ما زلت، منذ بداية الانتفاضة، أكتب الخواطر حول الأوضاع وأنشرها في صفحتي، مثلما كنت بدأت -في ستينيات القرن الماضي- بكتابة القصص والروايات التي تتّسم في نقدها بالشفافيّة غالبًا، وأنشرها في الدوريات العربية وأحيانًا في المجلات المحلية، قبل أن أودِعها كتبًا تضمّ نتاجي الأدبي وأنشرها في الوطن على نفقتي.

وإنما أريد أن أذكّر الأصدقاء الكرام بأني أستظلّ سماء الوطن وإنْ أمطرتني، وأمشي على أرضه وإنْ تزلزلت تحت الأقدام، فلا يعنُفوا في تعليقاتهم عندي، وأن يتلطّفوا فيقتصدوا في القول والرأي والحميّة.

دمشق الشام: صباح الإثنين ٣١-٨-٢٠١٥

بطاقة (C V)

فاضل السباعي

• وُلد بحلب (عام ١٩٢٩) في حيّ وراء الجامع الأموي الكبير، وهو الابن الأول لـ"أبو السعود السباعي" الذي أنجب تسعة عشر من البنين والبنات.

• درس الحقوق بجامعة القاهرة.

• عمل محاميًا، فموظّفًا في وزارات الدولة، قبل أن يطلب إحالته على التقاعد (١٩٨٢) وهو مدير في وزارة التعليم العالي، ليتفرّغ للكتابة.

• أسّس بدمشق (١٩٨٧) دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، ولها جناح في المعرض الدولي للكتاب بالقاهرة.

• عضو مؤسّس في اتحاد الكتّاب العرب بدمشق (١٩٦٩)، ومقرّر جمعية القصة والرواية في الاتحاد لستّ دورات.

• له بضعة وثلاثون كتابًا، طُبع بعضها غير مرة.

• أصدر سلسلة "شهرزاد الـ٢١" قصصًا للصغار والكبار. ويُصدر سلسلة "الكتاب الأندلسي"، التي استهلّها بكتاب من تأليف شيخ المستشرقين الإسبان البروفسّور "خوان فيرنيت" بعنوان: "فضل الأندلس على ثقافة الغرب"، والكتاب الثاني "الأندلس في عصر بني عبّاد، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة والاقتصاد" تأليف الباحث المغربي د. أحمد الطاهري.

•تُرجمت بعض قصصه إلى عشر لغات، منها: الفرنسية والإنكليزية والألمانية والروسية والفارسية وغيرها.

• صدر كتابه "بدر الزمان" مترجمًا إلى الإسبانية (١٩٩٩)، وكتابه "حزن حتى الموت" مترجمًا إلى الفرنسية (٢٠٠٢) في باريس.

• أعدّت المستعربة البولونية "بياتا سكوروبا" أطروحة عن روايته "ثم أزهر الحزن" ونالت عليها درجة الماجستير من جامعة كْراكوف. وأعدّ المستعرب السويدي "فيليب سايار" أطروحة عن أدبه عنوانها "رسالة في فنّ الفانتازيا في قصص فاضل السباعي" نوقشت بجامعة استوكهولم.

• تحوّلت روايته "ثم أزهر الحزن" إلى مسلسل تلفزيوني تحت اسم "البيوت أسرار".

• يَعُد نفسه من أنصار حقوق الإنسان ومن المطالبين بعودة مؤسّسات المجتمع المدني، وهو واحد من المثقفين السوريين الألف الذين وقّعوا عريضة ما سُمّي "ربيع دمشق ٢٠٠١".

• اعتُقل في عام ١٩٨٠ إثر لقاء مع طلاب كلية الآداب بجامعة حلب، قرأ فيه قصته "الأشباح" (ضمّتْها فيما بعد مجموعته: "آه يا وطني! ").

•أنجب ثلاث بنات (سوزان، والفنانتين التشكيليتين سهير وخلود) وابنًا (فراس)، وهو جدّ لعشرة من الأحفاد والأسباط، أنجبوا ستة أبناء.

• غادر البلاد في تشرين الأول/ اكتوبر ٢٠١٣ إلى حيث معظم أفراد اسرته في فلوريدا/ الولايات المتحدة الأمريكية متجنّسين ومقيمين، متابعًا نشاطه في شبكة التواصل الاجتماعي، وعاد إلى حضن الوطن عصر الإثنين الثامن من حزيران/ يونيو ٢٠١٥.

دمشق الشام: الثلاثاء ١-٩-٢٠١٥

القذائف فوق رؤوسهم، وهم يتابعون أكل الصبّارة

قبل أيام كتبت قصة بعنوان "النوم تحت ظلال الياسمين" ورد فيها أنّ صاحب البيت، المضيف، تفقّد ضيفه الذي تأخر في العودة... تقول القصة على لسان راويها:

- - - - - - - - - - - - - - - - -

الذي وقع أني بدأت أسمع، بُعيد ذهابه، أصوات القذائف تترى في سماء العاصمة، فانتابني قلقٌ عليه، مع أنّ الخطر يتربّص بنا في الحدائق والشوارع والبيوت المحصّنة على حدّ سواء. فقمت أهتف إليه أستدعيه، ولكنّ الجوّال يجيبني بأنّ الخطّ خارج التغطية! فأين ذهب الرجل؟ وهل حملوه من روضة الشاعر أبي العلاء المعرّي، التي ذهب يتريّض فيها، إلى حيث ابنُه الموقوف أمنيًّا؟

فتوجّهت إلى روضة أبي العلاء (وهي مجاورة لبيتي)، فرأيت الناس فيها يحرسون بأنظارهم أطفالهم الذين يلعبون أمام أعينهم. وعلى الأرصفة هناك كراسي وطاولات، و"تين الصبّار" مقشّرًا منتظمًا صفوفًا فوق ألواح الثلج الأبيض... والناس لا يتوقفون عن أكل التين، وأنظارهم مرفوعة إلى السماء وكأنهم يشكرون الله لأنّ هذه القذيفة، أو تلك، لم تنزل فوق رؤوسهم!

الأربعاء ٩-٩-٢٠١٥

لم أُنزّل القصة في صفحتي بعد، انتظارًا لأن تُنشر أولا في تلك المجلة التي تصدر كل شهر بانتظام.

دمشق الشام: ليل الأحد ١٣-٩-٢٠١٥

أيها الغرب!

أيها الغرب!

هل أنت "غبيّ" إلى هذا الحدّ؟

أم أنك خبيث ماكر يتغابى؟

*برز الثعلب يوما = في ثياب الواعظينا

ومشى في الأرض يَهدي = ويسبّ الماكرينا!*

ولكنك... لا تسبّهم!

دمشق الشام: صباح الإثنين ١٤-٩-٢٠١٥

أنا لم أهجرك، يا شام!

أنا لم أهجرك، يا شام!

أنا سافرت حقًّا...

لكنْ إلى حيث يقيم أبنائي قبل الحوادث والأحداث...

وما انبسطت...

فعدت إليكِ

يُغرقني الحنين وتملأ صدري الأحلام...

أعدك بألا أفارق ثراك أبدًا...

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٥-٩-٢٠١٥

هم يعرفون!

وظلّ رئيس اتحادنا حريصًا على استبعادي من المشاركة في أيّ من المؤتمرات الأدبية التي تقام داخل القطر وخارجه، طوال الثماني والعشرين سنة التي تتابع فيها حكمه للاتحاد، على حين كانت العطايا والهدايا توزّع على كتّاب لا تصل قامات كثير منهم إلى كتفي!

وعندما رفعنا الصوت، الصوت السلميّ، نطالب بالعدل ونبذ التحيّز والتهميش، سارعوا إلى اتّهامنا: «نعرفكم، أيها المتآمرون كونيًّا، يا من تنوون قهر الأقليّات في الوطن! ».

دمشق الشام: عصر الأربعاء ١٦-٩-٢٠١٥

الشمس والحرية

بعد أن طالت معاناته من غياب الشمس، وهو مرميّ قريبًا من القطب، فإنْ ظهرت بدت شاحبةً لا تُدفئ جسدًا ولا تروق لعين،

ولحظة قُدّر له أن يجتمع بأهله، تحت الشمس في مدينة "مرسين" التركية، في "لمّ شملٍ" عابر،

أخذ يردّد وهو يعانقهم فردًا فردًا، بصوت عال وكأنه يخطب: «الشمس هي الحياة! »،

ناسيًا، إلى حين، قضيّة الحرية.

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢١-٩-٢٠١٥

مهندسة وأديبة في حلب... تعانق أناملها القلم... فتكتب في أدب الحرب، أدب الألم

الدامي!

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٢٢-٩-٢٠١٥

في بيت الكَنّة.. في بيت الصِّهْر

بعد أن قرأ، أمس، خاطرتي "الختيار الشغوب"، قام يهتف إليّ من مهجره البعيد، ليُحدّثني عن أنه حين غادر الوطن إلى حيث يقيم ابناه الاثنان، وقد ظنّ هو وزوجته أنّ العيش يطيب لهما، مدةً في بيت ابنه "عماد" مع الكنّة والأحفاد، ومدة بعدها في بيت ابنته "وداد" مع الصهر والأسباط...

يقول، و"المفردات" له: إنه رأى من "العَنْطزة" في بيت ابنه تحريضًا من الكنّة لزوجها عليهما، ومن "الغطرسة" في بيت ابنته ضِيقًا من الصهر بهما، ما جعله يبادر إلى شراء منزل في هذه المدينة التي كان قضى فيها أيام تخصصه العالي وتجنّس، مستعينًا في ذلك بقرض من بنك يسدّد قسطه الشهري بما لا يتجاوز أجرة بيت... وأخذ يستقبل فيه الجميع، ضامًّا إلى صدره الأحفاد والأسباط، وقد بات يراهم أغلى ما في المهجر والوطن وكلّ ما في الدنيا.

وذكّرني بما يقال من وصف شعبيّ طريف للكنّة: "فسفسة[1] المخدّة"، مبتدعًا من عنديّاته وصفًا للصهر "فسفوس الفراش"!

وتعالت قهقهاتنا تتردّد ما بين أمريكا والوطن، ساهين عن هدير القذائف... لكن إلى لحظات.

دمشق الشام: مساء الجمعة ٢٥-٩-٢٠١٥

---

(١) كناية عما توسوس به الكنة لزوجها، ويترك كلامها أثراً فيه.

حوار على إيقاع "كيس التفريك"!

بعد أن خرج من الخَلوة مغسولًا، وتناولت أمّه إخوته الصغار واحدًا بعد آخر، ثمّ أكلوا أرغفة الزيت والزعتر في "الوسطاني"، كان عليه أن يتلقّى عملية "التفريك" الصعبة في "الجوّاني"، ولم يكن بدّ من هذا الحوار تُجريه أمّه وهي تمرّ بالكيس الأسود اللعين على أعضائه كلها...

تقول وهي تنظر إلى كفّه:

- ما أوسخ يدك!

فيردّ معاندًا:

- ما لها يدي؟

- عليها قنطار وسخ!

- بدأنا، يامو!

- "المعلمة" ع الباب، ألله لا يعطيها العافية، قالت إنك كبرت ولازم تستحمّ مع الرجال! مَن يكيّسك[1] متلي؟

- أبي.

- فو! ليش الرجال بيعرفوا يتحمّموا! تبلّ أَلْيَتَيك وتأتيني بوسخك!

- أنت لا تعجبك نظافة أحد إلا نفسك! (يتوجّع) آخ، يا مو! دعي يدي، خذي يدي الأخرى!

- هاتها، يا أوسخ ولد. الله أعلم، إن ظللتَ على كرهك للنظافة فلن تجد بنت

(١) ينظفك بكيس الحمام المعروف.

تاخدك!

ـ لن أتزوج!

ـ أدر ظهرك.

ـ آخ، يا مو، هرأتِ لحمي!

ـ انظر إلى فتايل الوسخ تنزل منك!

ـ أمي، هادي مو فتايل وسخ، هادا لحمي، يامو!

\- - - - - - - - - - - -

فقرة مختصرة من قصة "حمّام النسوان" (صيف ١٩٦٣)

وكتابي "حياة جديدة" (ط٣، دمشق ١٩٩٢)

\- - - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٣٠-٩-٢٠١٥

\- - - - - - - - - - - -

إضافة:

أصدقائي الذين يتذوقون الأدب ويحنّون إلى الأيام الجميلة.

كتبت هذه القصة وقدّمتها بصوتي من إذاعة حلب عام ١٩٥٦. وقد تأتّى لي أن أعرف مدى إعجاب المستمعين بها فعلتُ، حتى إن سيدة متقدمة في السن قالت لمن حولها بعيد الاستماع إنه لابد من أن يكون الكاتب "امرأة"! ونزّلتُ القصة في كتابي الأول "الشوق واللقاء" (ط١، حلب ١٩٥٨) بعنوان مختلف "الجزاء"! وفي صيف ١٩٦٣ كانت قد توافرت عندي مادة للتوسع، فأعدت كتابتها أضعاف أضعاف صورتها

الأولى، ونزّلتها في الطبعة الثانية من كتابي "حياة جديدة" (بيروت ١٩٦٤) وفي الثالثة (دمشق ١٩٩٢) بعنوان "الحمّام".

همّت أديبة سورية تعيش في كندا بترجمتها إلى الفرنسية... ولكنها شكَت من افتقادها المقابل لبعض المصطلحات الشعبية الواردة في القصة، قالت: «دلّني، من أين آتي بالمقابل الفرنسي لـ"كيس التفريك"! »، وضحكنا في شبكة التواصل في صمت، وما تُرجمت القصة، التي يُقدّر أن تلقى من الابتهاج عند القراء الأجانب مثل ما تلقاه عند الأصدقاء الذين يحنّون إلى أيام "حمّام السوق": البقجة، اللكن وفيه البيلون[1] المنقوع... والخناقة وراء باب الحمام أن الولد كبر «اي روحي هاتي أبوه! »...

وآه، يا زمن!

الساعة ١٢: ٠٠ ظ الأربعاء ٣٠

مثلما تألف الزوجةُ مزايا زوجها

مثلما تألف الزوجةُ مزايا زوجها حتى تكاد لا تراها، ويألف الزوجُ مزايا زوجته فلا يبصرها...

كذلك يألف الأبناء ما يتمتّع به أبوهم من مزايا الفكر والإبداع فيَكُفّون عن أن يرَوا، ولكنهم لا ينسَون أن يتباهَوا بما جناه من سمعة وشهرة! ولعلّ أحسن المعجبين به هم البعيدون عنه مكانًا وزمانا.

---

(١) البيلون –أو ما يطلق عليه الترابة الحلبية– هو عبارة عن صخور ذات لون أحمر ورمادي تشتهر بها محافظة حلب، وكانت قديما تستخدم إلى جانب الصابون الغار في الاستحمام من أجل صحة الشعر وجماله، إضافة إلى فوائدها في تنظيف البشرة.

دمشق الشام: مساء الخميس ١-١٠-٢٠١٥

أتكون منابع النفط الغنيّة

أتكون منابع النفط الغنيّة

عند الدول الفقيرة

وبالاً عليها؟!

دمشق الشام: صباح الجمعة ٢-١٠-٢٠١٥

عندما يُضطهَد المواطن في وطنه الحبيب

عندما يُضطهَد المواطن في وطنه الحبيب

يكفّ الوطن عن أن يكون حبيبًا

يصبح بلدًا من البلدان ليس إلّا!

قصة "البحث عن وطن"

مجلة "العربي" الكويت، يوليو/ تموز ١٩٩٦

كتابي "آه، يا وطني!"، دمشق ١٩٩٦

دمشق الشام: فجر الإثنين ٥-١٠-٢٠١٥

عندما كنت أنتقد أمي!

في طفولتي الأولى كنت معجبًا بكلّ ما تقوله أمي.

لمّا كبِرتُ قليلاً بدأت أتحفّظ تجاه بعض أقوالها.

فلما مضيت في الدراسة، صرت أكتشف في كلامها أحيانًا منافاةً لما أتعلّم، فما تردّدت في تصحيح كلماتها، وأحيانًا أضيق بما تعبّر عنه من أفكار!

العجيب أني كنت أرى ابتسامات الرضا تُشرق في محيّاها الجميل، وأنا أنقدها، وأُفنّد أقوالها، وأبيّن وجه الصواب... وتراءى لي أن أفسِّر هذا بفرحها لأنّ ابنها أصبح يفوقها معرفةً، فهي سعيدة بهذا "المثقف" الصغير الذي ينمو في ظلّ رعايتها.

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ٦-١٠-٢٠١٥

القراءة زمن الحرب

دخلت مكتبة الحيّ أطلب مجلات ثقافية...

ولم أستغرب عندما أجابوني بأنّ المجلات العربية لم تعد تصل البلد، ولكني عجبت حين قالوا إنّ المجلات "السورية" لا تصل إليهم أيضًا، وفسّروا لي ذلك بأنها... الحرب!

لما خرجت تنبّهتُ إلى تلك الأوراق الملصقة على جدران المكتبة من الجانبين، تنعَى الذين يموتون من سكان الحيّ.

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ٨-١٠-٢٠١٥

نصيحتي، لا تعُد إلى الشام!

(من رسائل عام ٢٠١٤ ورسالة ٣-٦-٢٠١٥)

أخي الغالي، أعرف أنك تأخذ أحاديثي معك على محمل الطرافة والظرافة، لا بأس، ويسرّني قولك لي: «أنت خفيف الظلّ!»، وعندما أقول لك: «أنت المسيح صلبوك!»

تضحك من أعماقك وتنصحني: «خفّف اللعب، يا صديقي! ».

بعيدًا عن المزاح: خلّيك حيث أنت!

تقول لي متعلّلاً بأنك لم تتعرّض في كلّ ما كتبت "لقامات عالية"، وأنك نزّهت نفسك في وجودك البعيد عن التواصل مع "معارضة الخارج"، وأنّ ما تكتبه إنما هو نقد شفاف للظلم والفساد، وأنك قد بدأت "مشروعك" هذا منذ ستينات القرن الماضي وأنت تحت نظرهم وبصرهم... ولكنك لم توافقني على أنّ الذين سيحققون معك ليسوا في مستوى السنهوري باشا جهبذ القانون في العالم العربي ولا جان بول سارتر أبي الفلسفة الوجودية المندثرة، وأنّ الذين سوف يستقبلونك على الحدود ليسوا سوى مأمورين بائسين، لم يسمعوا باسمك وهم أيضا لن يقدّروا سنّك! ومع ذلك أراك تصرّ على العودة، قائلاً لي بعنادك وشفافيّتك: «طيّب، وكرامة الكاتب، كرامة الوطن! ».

إني أحترم مواقفك بقدر ما أخاف عليك، وأعلم إنّ أيّ كلام جميل يقال لا يوفّيك حقك بكلّ أنواع الكمال وأشكال التمام. إنك... إنك حتى شكلك شكل مسيح حقيقي!

دعني أستفيض فأقول: إني وأنا هنا في دمشق التي لم أغادرها منذ بدء الأحداث، فُرض عليّ أن أبتعد عن التعليق عمّا يكتبه إخوة لي وأحباب تجنّبًا لما أنت أعلم به. وإليك هذه السالفة: كنت أسوق سيارتي عند "طلعة الشامي" بسرعة ٦٠ كلم. أطلقوا رصاصة في الهواء لو لم أتوقف فورا لقُتلت. لم أنتبه إلى أنّ "أحدهم" كان عائدا إلى بيته وما نصبوا هذا "الحاجز الطيّار" إلا حماية له! أنت تعلم، يا صديقي، بأني لست من "المعارضة"، وأُعتبَر بشكل من الأشكال "صديقًا" لهم. ولكنهم ليس عندهم من الألوان ما نسمّيه "الرمادي"!

قرأت غير قليل ممّا نشرتَ على الورق منذ ستينات القرن الماضي، وأقرأ ما تخطه أناملك وتنشره علينا كلّ يوم في هذه الشبكة التي "عَنْكَبتْنا" فعَكْنَنَتْنا! أقرؤك فأتخيّل أني أستمع إليك وأنت تتحدث أمامي بصوتك العذب. ولكني لا أريد أن نكون جنبًا إلى جنب في هذه الأيام. هم صلبوك مرة بالتهميش، أخاف أن يصلبوك مرة ثانية.

يؤلمني أشدّ الألم أن أقول لك: ابقَ في مهجرك واتّخذ منه "وطنًا" ثانيًا إلى أن يشاء الله.

(ع. ش) دمشق الشام: الأربعاء ٣-٦-٢٠١٥

[وكانت سفرة العودة لدمشق في ٧ و٨-٦-٢٠١٥]

- - - - - - - - - - - - - -

(تُنشر بعد الاستئذان) دمشق الشام: الجمعة ٩-١٠-٢٠١٥

«هل وحدي.. الذي بقي! »

منذ منتصف ستينيّات القرن الماضي، وهم -رفاق "التجهيز الأولى" (ثانوية المأمون) بحلب مَن اتفق لهم أنهم يعملون في العاصمة- ما زالوا يجتمعون، مساء الثلاثاء الأول من كلّ شهر في مكان، استقرّوا على أن يكون مطعم نادي الصحفيين في "طلعة العفيف"، هم الذين قارب عددهم الثلاثين، ولكنّ مَن يتهمّم منهم للاستجابة لا يتجاوز البضعة عشر، عددًا ما زال يتقلّص بسبب التقدّم في السنّ ودنوّ الآجال!

لدى عودتي إلى الوطن، صابرت النفس قليلا، متحسّبًا متوجّسا... ثمّ بدأت الاتصال، أسأل عمّن بقي منهم يحضُر ذلك الاجتماع، فأستأنفَ وإياهم استرجاع الذكريات الحميمة في ليلة سمر نقتسم بعدها "الفاتورة"... وإذا الاستجابات صمتٌ

مطبق من الطرف الآخر على الهاتف، أو يطلع لي الابن يقول: «أنت الأستاذ فلان؟ كان الوالد يحدثنا عنك كثيرا! »، أو تجيبني الكَنّة: «قد خرج في مشوار! »، وأنا أعلم أنّ "الزهايمر" قد ضربه منذ مدة فهم يحتاطون عليه فلا يخرج إلا مرافَقًا وإلى طبيب!

ولكنّ الجديد أن أسمع بعضهم يقول إنه قد سافر إلى تلك الدولة أو ذيّاك البلد البعيد، عند هذا الابن أو عند تلك الابنة والصهر، تخلُّصًا من سماع إيقاع الهاون وسقوط البراميل!

فانزويتُ أسائل نفسي: أأكون وحدي مَن بقي!

دمشق الشام: عصر الأحد ١١-١٠-٢٠١٥

الذين ذهبوا

عودًا إلى خاطرة أمس "أأكون وحدي من بقي! "، أسجل هنا أسماء أصدقاء تلك السهرة الشهرية ممّن ارتحلوا:

د. مصطفى حداد (أول الراحلين مبكّرا ١٩٩٢)

العميد عثمان كنعان

د. عبد الله واثق شهيد

المحامي عقيل نجار

د. محمد خير فارس

العميد د. بسام اسخيطة

وفيق طريفي

المحامي بشير الموصلي

إياد حديدي

طارق الشهابي

الإعلامي مظفّر شاكر

وجلال مراد

رحمهم الله... ورحمنا.

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ١٢-١٠-٢٠١٥

. وداعش التي من العدم خرجت

ما زلت أتساءل: كيف استطاعت "داعش" أن تَخرج من العدم فجأةً، وقويةً إلى حدّ أن بات العالمُ كلُّه يتشاور في قهرها ويبدو عاجزًا!

ونحن نعلم مِن سَهَرِ النظام على أمنه، أنه إنْ هَجَس واحدٌ منّا في عتمة ليل بكلمة واحدة في حقّ النظام، وجد نفسه عند الفجر في أحضانهم!

ثمّ أسمح لنفسي بأن أتابع السؤال: أما كان على النظام أن يحمينا من داعش، كما دأب على أن يحمي نفسه منّا نحن معشر المواطنين الودعاء!

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٣-١٠-٢٠١٥

وكنت أستظلّ «علم الاحتلال» وأنا لا أدري!!

لست مع مَن رفع "علم الاستقلال"، الذي ظلّ يخفق في سماء البلاد حتى يوم الثامن من آذار ١٩٦٣، ولعله واحد من المعارضين تراءى له أن يفعل هذا فشاع ما فعل.

ولكني أكتشف أني، وأنا طفل في ثلاثينيّات القرن الماضي ثمّ في الأربعينيّات طالب

في الإعدادي والثانوي، كنت أستظلّ "علم الاحتلال" وأنا لا أدري!

كيف يتسنّى لي أن أمحو هذه الخطيئة الجسيمة!

وكيف يمحوها الزعيم الثائر إبراهيم هنانو، الذي كان أول من رفع هذا العلم مستعجلا العمل به بحلب قبل دمشق عام ١٩٣٢، يوم بدأت "الدويلات" -التي أحدثها الانتداب الفرنسي في الوطن- في التفكّك واحدة بعد أخرى؟

وكيف يمحوها الرئيس شكري القوتلي، الذي كان يستظلّه يوم الجلاء؟ ويمحوها نوّاب الشعب في البرلمانات الوطنية المتوالية؟ والوزراء، والمديرون، والموظفون، وطلاب المدارس والجامعات، والشعب كلّ الشعب في كل مكان في الوطن؟

بسخرية مرة أقول: متألم أنا... وسوف يظلّ ضميري يعذّبني إلى يوم الممات!

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ١٤-١٠-٢٠١٥

لقد بدا لي أني ذهبت بعيدًا بالسخرية الشفيفة في الخاطرة أعلاه، ما وَسَمها بالغموض الذي أُوحي إلى بعض أصدقائي بعكس ما قصدت.

وعليه أبيّن أنّ عَلَمنا هو العلم الذي رفعه يوما المجاهد إبراهيم هنانو بحلب، وأظلّنا في كفاحنا ضدّ الانتداب الفرنسي، وخفق فوق رؤوسنا... إلى أن غيّره النظام مرة ومرة بحسب مشاريع "الاتحاد" أو "الوحدة" التي عانيناها مع بعض الدول العربية في عقد السبعينيّات خاصة.

هذا وما كنت أرى داعيًا لأن يُستحضَر في أول الأحداث مثيرًا جدلًا لا طائل وراءه. اقتضى التنويه.

س ٤: ١٠ عصر الأربعاء ١٤-١٠

يتوقّع الأمريكان أن يكون تورُّط قيصر الكرملين

يتوقّع الأمريكان أن يكون تورُّط قيصر الكرملين في بلدنا مُفضيًا به إلى السقوط، كما وقع لهم هم في فييتنام، ووقع لأسلافِه السوفيات في أفغانستان...

ولكن يؤلمنا نحن أن تكون بلادنا مستنقعًا يتمرّغ في وحوله مَن يتسمَّون دولًا عظمى.

دمشق الشام: فجر الخميس ١٥-١٠-٢٠١٥

وممّا يُطمِع ساكنَ الكرملين بالتمدُّد

وممّا يُطمِع ساكنَ الكرملين بالتمدُّد... يقينُه بأنّ ساكن البيت الأبيض حريصٌ على أن يُنهي ولايتَه دون أن يخوض حربا.

ولو أنّ موضع أوباما كان "بوش الحفيد"، مثلا، لتغيّرت الحال والأحوال.

دمشق الشام: عصر الجمعة ١٦-١٠-٢٠١٥

أخبار الأهل

... وعمّاذا أحدّثك من أخبار الأهل، يا أخي!

"يمان" ابن أخينا رضوان صار في ألمانيا، ولحق به "رأفت" ابن عمّه نادر، الذي استطاع أن يوفّر من مخصّصاته هناك ويبعث بمئتي يورو إلى أمّه، التي كانت تركت تحت القصف بيتها في حيّ "سيف الدولة" وهربت بولديها إلى بيت في ريف حلب، وقالوا إنها بكت لحظة تلقت العون من ابنها، فرحًا بوضعه الآمن وسدًّا لحاجتها!

وانضمّ إليهما في ألمانيا -لكن في مدينة أخرى- "ساهر" ابن أخيك عادل، هو وزوجته وأولادهما، وهم يتلقّون جميعا دروسا في اللغة، ويضحك الوالدان عندما يتحدّثان عن أنّ أطفالهما الثلاثة يسبقونهما في التعلّم، وهما يستعينان بهم في استذكار الدروس!

ووصل "أسامة" حفيد أختك مليكة إلى هولندا، وأخبر أنهم يعطونه مع اللغة دروسًا في "الجنس"!

وأما "الدكتورة هالة" ابنة أختك بسمة، فقد كان من نصيبها أن نزلت في فنلندا الشماليّة جدًّا، وهي تتخصّص الآن في الطبّ النسائي، ولكنها تشكو من شدّة البرد ومن عَتمة النهار الطويلة! ومع ذلك عملت على استقدام أختها "ثروت" وأطفالها الثلاثة الذين سيتبعهم الزوج عما قريب.

وأحدّثك عن أخيك طبيب الأسنان "الدكتور وسام"، فهو وأسرته منذ أسابيع في تركيا، يفكرون في وسيلة مناسبة للتوجّه إلى الغرب!

وظلّ أخوك "حسام" بحلب لا يعرف ما يفعل، بعد أن نُهبت صيدليّته في المناطق المحرّرة، وقارب مدّخره على النفاد.

وأحدّثك أخيرا عن ابن أخينا "إياد"، الذي استقرّ في بيت حازم ابن بنت عمّه نوران، وطبعا فرحتُه بذلك لا تضاهي أبدًا حزنَه على خسارته محلّه في خطوط التماس، ولا ارتياعَ الأهل من نزول "جرّة غاز" على بيته في قذيفة عشوائية، وألله ستر ما كانوا في البيت تلك الساعة!

هذا موجز عن أخبار الأهل... وماذا عن أخبارك؟

دمشق الشام: مساء الأحد ١٨-١٠-٢٠١٥

وكان من حقّ هذه الخاطرة أن تظهر مساء أمس لولا توقف النت.

على هامش الحياة.

إن جاءت الكهرباء بعد انقطاع غاب النت

فإن وَصل النت انقطع الهاتف

فإن سرت الحرارة في الهاتف انقطع ورود الماء

فإن وصل الماء أو لم يصل... تذكّرنا غلاء الأسعار

والقصف

والموت

والتشريد!

أليس عجيبًا أنّا على هامش الحياة ما زلنا عايشين؟

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٢٠-١٠-٢٠١٥

ذهب الربيع

ذهب الربيع

وتلاه الصيف

وهو ذا الخريف يعبث بأوراق الشجر

وسوف يدهمنا الشتاء ببرده ومطره

السقوف تنهار

والدماء أنهار

ونحن

ما نزال ننتظر ذلك الربيع...

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢١-١٠-٢٠١٥

فكّري، يا «فكريّة»!

قالت الابنة البارّة لصديقتها الحميمة: تتزوّجين أبي، يا فكريّة؟

قالت فكريّة وهي تبتسم: وفارق السنّ!

الابنة: أنا وأنت لم نعد صغيرتين، نتقدّم نحو الأربعين، وأبي لا يشكو والحمد لله من أمراض.

فكريّة: أراه وهو يمشي منتصب القامة، رأيته مرة وهو يتناول عشاءه، أكابر!

الابنة: وأنت أكابر، يا فكريّة. صحيح أنت طُلّقتِ بسبب اختلاف الأمزجة، ولكنك -كما أعرفك من أيام الدراسة- طيّبة وودودة وحلوة وكربوجة، وأبي محبّ وحنون، وهو رجل فكر وأدب، وتعلمين أنّ مكتبته الخاصة فيها نوادر الكتب والأسفار والمخطوطات، وهو يعيش وحيدا في بيته، يحتاج إلى من يؤنسه ويدبّر أمور معاشه ويدير شؤونه الأدبية، وأنت جديرة بهذا... (وتضحك) إن شئت تستقلّين أنت بغرفة وينام أبي في غرفة!

فكريّة: وإذا هَفَت نفسه إليّ وجاءني في منتصف الليل؟

الابنة: عندئذ تضعين لنا طفلا يحمل اسمه الشخصي كما يُسمّي "العظماء" الابن الوحيد لهم، ويصبح كاتبا مرموقا! وأنت... أعرفك تحبّين المطالعة والأدب، قد يجعل منك كاتبة ذات شأن!

فكريّة (تفكّر): معقول، وأنا أدنو من الأربعين! "تضرسي" ما أحلي حكاياتك. ألمحه أحيانا وهو يكتب، كلُّه هيبة ووقار.

الابنة: فكّري في الموضوع، يا فكريّة!

دمشق الشام: ليل الخميس ٢٢-١٠-٢٠١٥

«عقدة الغُبن» عند فاضل السباعي!

حوار ثقافي مطوّل، أعدّه -قبل ما يزيد على ثلاثين عامًا- الإعلامي الشاعر وليد مشوِّح، ونشره أولًا مجتزَءًا في جريدة "البعث" (دمشق، العدد ٦٤٨٢، ٢٧-٥-١٩٨٤) وكان يحرّر في القسم الثقافي فيها، ثمّ نشره كاملاً في مجلة "البيان" (عن رابطة الأدباء في الكويت، العدد ٢٤٦ سبتمبر/ ايلول ١٩٨٦)، ثمّ لسنا ندري كيف ظهر كاملاً أيضا - كما أخبرني صديقي وليد- وعلى حلقتين اثنتين في إحدى الجرائد اللبنانية (ربما "الديار"!) منسوبًا إلى أحد الإعلاميين!

وبدا لي أنّ الحوار كان غنيًّا بما أثاره في الأسئلة العشرين الإعلاميّ المتميّز (الذي تسلّم فيها بعد رئاسة التحرير في مجلة "الموقف الأدبي"، كما حاز مؤهِّل الدكتوراه في الأدب العربي)، وقد وقفتُ في الحوار أمس -وأنا أجمع نصوصي تمهيدًا لإصدارها في أعمال كاملة- على هذا السؤال "المستفزّ"، فأحببت أن أقدّمه للأصدقاء جلاءً لأحوال الثقافة في بلدي.

السؤال التاسع:

على ذكر الغبن والاضطهاد، أرى أنّ فاضل السباعي يُضخّم "أناه" ويوحّد همّه

الذاتي بهموم المجتمع، فعُقدة الغبن والحيف تسيطر على أجواء عطاءاته.. لماذا؟

ـ يا عزيزي! إنّ الأدب أساسًا هو "نقد للحياة" وليس تكريسًا للأخطاء الفاشية فيها. الأديب، وأرى أنّ كلّ فنان خلاق، أنّ الفنانين عموما هم من فئة "النرجسيّين" مع تفاوت في الدرجة، وكلّ منهم يميل إلى الإعلاء من شأن ذاته عن طريق الإبداع الفني، وذلك نافع للمجتمعات على كلّ حال. في حين ينزع نرجسيون آخرون إلى تحقيق الذات بوسائل أخرى تتنافى نتائجها مع القيم التي ينهض عليها المجتمع!

فأنا أُوحّد همّي الذاتي بهموم المجتمع، وأكتب أدبًا مقبولًا عند القراء العرب، وعند القراء الأجانب بدليل ما يُترجم من قصصي إلى اللغات الأخرى، ذلك يعني أني أستفيد من "عقدة الغبن"، التي أرزح تحتها، في الحقيقة الواقعة أو بالوهم والخيال، وأحوّلها إلى عطاءات نافعة!

ولكن ليس صحيحًا، أيها الصديق، أن تَرُدّ توحيدي لهمّي الذاتي مع هموم المجتمع، إلى ما تسمّيه "عُقدة"، ذلك يكون حين "يتوهّم" أحدهم أنه يرزح تحت وطأة الغبن والحيف... أتراني كذلك؟ هل أنا متوهم؟

طيّب، بم يمكنك أن تفسّر أنّ وزارة الثقافة تعتذر عن نشر المخطوطة الوحيدة التي قدّمتها إليها، وهي "رحلة حنان"، على حين نشرتها بعدئذ أعرق دار للنشر في العالم العربي، دار المعارف بمصر، وأصدرتها في سلسلتها "اقرأ" (١٩٧٥)؟

وكيف تفسّر أنّ اتحاد الكتّاب العرب في وطني سورية، هذا الذي أنا عضو مؤسس فيه منذ عام ١٩٦٩، يعتذر عن نشر مخطوطة لي قدّمتها إليه عام ١٩٧١، وأخرى عام ١٩٧٦، وثالثة عام ١٩٧٨؟

وكيف تفسّر أنّ "الرقيب" في الاتحاد رفض عام ١٩٨١ الموافقة على نشر مخطوطة لي

على نفقتي الشخصية، وبالأحرى وافق على نشر قصتين ونصف القصة منها، واعترض على نشر نصف القصة إياها والقصص الثلاث الباقيات؟

وكيف تفسّر أنّ اسمي لم ينزل، لا ولا أشير إليه، في أي من الكتب المدرسية المقررة، على حين أنّ نصوصًا لي كانت قد تضمّنتها بعض الكتب المدرسية عهد الوحدة بين الإقليمين (منذ ربع قرن)، وآخر ما بقي منها في مقرراتنا السورية نصّ عنوانه "حلب الشهباء" كان قد أخذ من مجلة "العربي" ونشر في كتاب "القراءة المختارة" للصف الثاني في المدارس الثانوية ودور المعلمين (النسخة التي في حوزتي يعود تاريخ طبعها إلى ٦٧-١٩٦٨)؟

وكيف تفسّر أنه لم يُقدَّم أيّ نصّ تمثيليّ في الإذاعة ولا في التلفزيون العربي السوري؟ ولا ظهرتُ فيهما بمقابلة أو في حديث؟

وكيف تفسّر أنه لم يضمّني أيّ وفد من وفود الاتحاد المتوجّهة إلى المؤتمرات والمهرجانات شرقًا وغربًا، على حين شارك فيها كثير ممن لا تصل قاماتهم الأدبية إلى كتفي؟

ذات مرة، قلت في حوار بيني وبين الدكتور سمر روحي الفيصل:

«بمرارة أقول: إنه لا يَنبُهُ ذِكْرٌ لأديبٍ أو فنان في قومه إلّا إذا رعته مؤسسة ثقافية، أو تبنّته إحدى وسائل الإعلام، أو دعمه تنظيمٌ سياسي، أو سندتْه في صعوده "شلة" من المنتفعين... وإني لفقير في هذه كلّها! وأمضي، مع ذلك، سابحًا ضد تيارات باردة وساخنة. ذلك ما أراه، على كلّ حال، يضيف إلى معاناتي في الكتابة، معاناةً أخرى يفرضها تصارع الأهواء، في مجتمع قد اختلّت موازينه واضطربت قيمه».

كتب في نيسان ١٩٨٤

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر السبت ٢٤-١٠-٢٠١٥

البنايةُ - الوطن!!

(منعا للالتباس: أؤكد -كما ذيّلت هذه المقالة المتميّزة- أنها بقلم أختنا العزيزة المهندسة الأديبة الدكتورة بغداد عبد المنعم بحلب، وأنا شخصيًّا مقيم بدمشق)

- - - - - - - - - - -

في البناية التي أقطنُ فيها أربعةُ طوابق وعشرةُ بيوت.. هاجر معظمُ السكان خلال السنة الأخيرة، وحلَّتْ ثلاثُ عائلات هاجرتْ من مناطق منكوبة في ثلاثةٍ من بيوتها.. بقيتْ عائلتان من سكان البناية الأصليين.. والبنايةُ في شارعٍ أنيق، لها بابٌ جميل ومدخلٌ فارهٌ ودرجٌ رخامي ناصع...

إنْ هي إلا أيام حتى نشبَتْ شجاراتٌ بين سكان البناية تراوحَتْ ما بين تبادُل الشتائم والسباب والصراخ والتهديدات من جميع المستويات.. أمّا سببُ الشجارات.. فالنازحون البؤساء التعساء ذهبَتْ بيوتُهم وأثاثُهم وبعضُ أولادهم وإخوانهم.. وفقدوا الإحساس بأهمية أي شيء مثل النظافة وأبهة وأناقة البناية التي يقدسها سكانُ البناية الأصليون وهم أقرب إلى الثراء.. وأما هؤلاء البؤساء فهم أصلاً عاشوا في الأحياء العشوائية والمناطق الأشد فقراً، وأمسوا الآن في مستنقع النزوح البئيس.. فقرٌ ومرضٌ واكتئاب.. وسلةُ أمراضٍ نفسية وجسدية.. وشيئاً فشيئاً تبدى أنهُ صراع طبقي (وبالإذن من الرفيق ماركس).

أمّا أنا فأسكن في الطابق الأوسط فوقي القدماء الأثرياء.. وتحتي النازحون الذين

أصبحوا معلقين في هواءٍ ملوث.. وبعد كل شجار وأمطار الشتائم العميمة.. أصعدُ مرةً إلى جيراني القدماء فأحاورهم وأُعاتبهم.. ومرةً أزورُ المنكوبين فأحملُ في عيوني حقيقةً كبرى!!

عدتُ إلى بيتي بُعيد المغرب، فتحتُ بابَ البنايةِ الكبير.. ثمة قذيفة هائلة سقطتْ قريباً جداً.. ثم عبَرَ صاروخٌ أسطوري السماءَ فوقنا..

خلال ثوانٍ قفزَتْ جارتي النازحة الشهمة (أخت الرجال) أم حسن.. ركضَتْ نحوي وشدّتني إلى الداخل حتى لا تُدركني الشظايا أو قذيفةٌ تالية.. في نفس اللحظة اتصلَتْ بي صديقتي وجارتي أم إلياس التي تسكن الطابقَ الرابع: «طمنيني.. هل أنتِ بخير؟ هل وصلتِ إلى البيت؟».

دخلتُ بيتي وأنا أحسُ بطمأنينة تحلق في المكان.. المكتبةُ التي تحتلّ جدرانَ البيت ترمقني.. كأنها تتحداني.. انتابني صمتٌ طويل حين هطلتْ دموعي أخيراً..

د. بغداد عبد المنعم [ذاكرة اللحظة]

حلب: مساء السبت ٢٤-١٠-٢٠١٥

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٥-١٠-٢٠١٥

أنا ومجلة «الأديب» اللبنانية منذ الخمسينيّات

أجبت، ردًّا على سؤال الأديبة السورية "سها جلال جودت": «هل وجدت مَن شجعك على تنمية موهبتك؟ وهل ما زلت تذكره بالخير؟ من هو، وما عمله؟ »:

- - - - - - - - - - -

•• وجدتُه، أجل. وما كان منه نحوي تجاوزَ التشجيع على تنمية الموهبة، إلى أن أَوسَع لي مكانًا رحيبًا في مجلته الأدبية، فظهرتُ فيها كاتبًا ذا موهبة... إنه ألبير أديب، صاحب مجلة "الأديب" البيروتية (تأسّست عام ١٩٤٢).

بدأت حكايتي مع هذه المجلة قارئًا في مطلع ١٩٥٠.

وشدّ ما كانت فرحتي عظيمةً حين نشر لي أول مرة (١٩٥٣) قصةً، وأنا ما زلت طالبًا بجامعة القاهرة! فلمّا عدت إلى مدينتي حلب وامتهنت المحاماة، جعلت أوافيه بما تُسعفني به الموهبة من القصص، والمقالات، والتعليقات. كنت أجد عنده من التشجيع كلّ ما يأمله كاتبٌ ناشئ في مثل حالتي، بل أبعدَ ممّا يأمله الكُتّاب الناشئون عند أصحاب المجلات عادةً، ولم تكن تربطني به معرفةُ شخصية. كلّ ما بيننا أني أبعث إليه بالمادّة الأدبية بالبريد، فأراها منشورة بعد شهرين وأحيانًا بعد شهرٍ واحد!

ويسعدني أن أعترف بأني رأيتُ من تشجيعه ما عزّز ثقتي بنفسي وبأدبي، فكتبت عنده ما كتبت، حتى بلغ ما نُشِرَ من الموضوعات، لي وعني، في مجلته سنة ١٩٥٦ وحدها، خمس عشرة مادة، والمجلة شهرية!

فلمّا نزلت بيروت بعد ذلك، وزرته في مكتبه (غرفة في بيته الكائن في شارع "طريق الشام")، والتقيت به أول مرّة، ازددتُ إعجابًا بشخصه وبنظرته المتعمّقة إلى ما كانت تُعانيه الأمة العربية ذيّاك العهد من الهموم الوطنية، نافذًا بها إلى ما وراء الأحداث غير متوقّف عند السطح، ففتّح عينيّ على ما لم أكن أعرف.

ولابدَّ من الإشارة إلى أنه كان قد تخرّج، في مجلته، أدباءٌ وشعراء، كانوا شبابًا في الأربعينيات ثمّ ملؤوا الساحة الأدبية العربية إبداعًا، مثل: نازك الملائكة، وبدر شاكر السيّاب، وعبد الوهاب البياتي (عراقيون)، ونزار قبّاني. وأشير إلى أنّ من بين المتخرّجين

عنده -كاتبًا ومحرّرًا – كان سهيل إدريس، الذي أصدر مجلة "الآداب" في مطلع ١٩٥٣ بالتعاون مع دار العلم للملايين.

ولقد سجّلت اعترافي بفضل هذا الأديب الكريم على نشأتي الأدبية، في كلمة تُوّجتُ بها روايتي الكبيرة "رياح كانون" (بيروت ١٩٦٨)، قلت فيها: «تعهّدتَني غضَّ العود، وخلعتَ على بواكيري فضل اهتمامك فملأتني ثقةً وأملاً، ولقّنتَني معاني الصبر والدأب والإخلاص حتى ازددت حبًّا بعملي وصبرًا على معاناته... ».

الكتابة: آب/ اغسطس ٢٠٠١

النشر: مجلة "الرافد" الإماراتية، العدد ٧٤ سبتمبر ٢٠٠٣

دمشق الشام ليل الأحد ١-١١-٢٠١٥

[إضافة: البير أديب مولده عام ١٩٠٨ وفاته ٢٦-٩-١٩٨٣، وأصدر مجلته "الأديب" ببيروت في مطلع ١٩٤٢ واحتجبت في ١٩٨٣]

الأدباء يكتبون طفولتهم

منذ بضعة عشر عامًا، والأديبة السورية "سها جلال جودت" تعمل جاهدة في إعداد كتاب يتناول حياة الأدباء في مرحلة الطفولة ومكانة هذه المرحلة في إبداعهم الآتي، فهي تراسلهم، بصبر جميل، من مدينتها حلب، إلى أنحاء سورية والوطن العربي الكبير، تطرح عليهم أسئلتها في استبيان، وتتلقّى أجوبتهم حول نشأتهم الأولى، في البيت، والمدرسة، والحارة، والوطن، محاولةً التعرّف على بداياتهم في قراءتهم الأسطر الأولى في الأدب، وصولا إلى ما خطّته أناملهم من أسطر أولى في الإبداع.

ما تزال الأديبة "سها" تعكف على وضع دراسة، أو دراسات، نظريةٍ وميدانية، عن المستكتَبين، وهم يَعُدّون ستين من الأدباء والأديبات، يمتدّ التراب الذي يقفون عليه من الخليج إلى المحيط، في فصل أول من مشروعها هذا المتفرّد، مخصّصة الفصل الثاني من الكتاب لنصوص الإجابات التي تلقّت، ويتولّى دارسٌ متميّز كتابة "تحليل" مُسهب لهذه الإجابات في الفصل الثالث... فيجيء الكتاب في نحو أربعمئة صفحة، بات اليوم في مراحل تأليفه الأخيرة.

وأعترف هنا بما للأديبة الدارسة من المقدرة على تحريض الكاتب للبوح والاعتراف، فكنت -وأنا أجيب عن أسئلتها- أتلقى منها في كلّ مرة سؤالًا جديدًا تنسُله ممّا بيّنتُ وعبّرت، حتى زاد ما كتبت لها من المفردات على ستة آلاف كلمة. ثمّ بدا أنّ مجلة "الرافد" الإماراتية لم تزهد في نشر إجاباتي إلّا قليلا منها ضاقت به صفحاتها (العدد ٧٤، سبتمبر ٢٠٠٣)!

وفي تفرُّغي لتجميع ما كتبت في أيامي الماضيات، أملاً في أن أنشره في أيامي القادمات، تعاونني في هذه المهمّة كوكبة من الجامعيات المتنوّرات، وقفتُ على إجابة في هذا الاستبيان كنت تناولت فيها ما سبق أن حظيت به من رعاية أسبغتْها عليّ مجلة "الأديب" اللبنانية وأنا في فجر شبابي، رأيت أن أنشرها في صفحتي وفاءً لصاحب المجلة "ألبير أديب" طيّب الله ثراه: أنشر أسطري الأولى هذه فجر اليوم، وأدع للمساء نشر الإجابة تلك، دفعًا للسأم وإن كانت النفوس تزدان بمحبّتها للقراءة.

دمشق الشام: فجر الأحد ١-١١-٢٠١٥

مخيَّم صغير، سقفه من إسمنت!

في عام بعيد أكرمتْني صديقةٌ وأنا في زيارة لمدينتي حلب، بأن أَولمت لي وليمةً في بيتها، الذي كانت قد دفعت في سبيله ما ادّخرت متابعةً سداد ما يترتّب عليها من أقساط. وفي هذا البيت تعرّفتُ على أبنائها وبناتها، زهراتٍ فوّاحة بعطر العلم، يدرسون في الثانويات وفي الكليات الجامعية.

وقد سألتني بعد أن تناولنا الغداء، أن ألقي نظرة، من وراء النافذة العريضة، على المدينة المنبسطة أمامنا مثل كفّ. وكم هنّأتها على هذا البيت، الذي نالته بكدّ اليمين، يلمّ شمل أسرتها الصغيرة الكبيرة في غياب العائل!

ثمّ إنّ البنين والبنات أتمّوا الدراسة، وتخرّجوا، وعملوا، وتزوّجوا، وأنجبوا، وما انقطع التواصل بيني وبين أفراد هذه الأسرة الجميلة.

مع اشتداد الأحداث سألتُها على الهاتف، فأفاضت بأنها خرجت من البيت يومًا للتسوّق. وإذ عادت، وفي يدها شيء من الخضرة واللحم والفاكهة، لم تجد بيتًا، بل ركاما: قذيفة، تائهة أو قاصدة، هبطت على المبنى فسوّته بالأرض، وعادت بخضرتها تبحث عن مأوى.

اليوم... هي في حالة "لمّ شمل"، في بيت مستأجر، يتحلّقون حول مائدة واحدة، البنون والبنات، الكنائن والأصهار، الأحفاد والأسباط، ويتناوبون النوم في غرف البيت، تقول هي، أو أقول أنا، أو تقولون أنتم: إنه مخيَّم صغير، لكنّ سقفه مصبوبٌ من الإسمنت.

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٤-١١-٢٠١٥

نذكر وحيد صقر

نذكر وحيد صقر، العلوي الطيّب، وسوف نظل...

إلى جنان النعيم، يا صاحب الضمير اليقظ.

دمشق الشام: مساء الجمعة ٦-١١-٢٠١٥

زمن الحواجز

وهم في سيارة يقودها أحدهم في مشوار إلى بيت صديق،

كانوا يتحدّثون، يتبادلون الرأي للتعرُّف على أيّ الطرق يسلكون... تكون فيها "الحواجز" أقلّ عددًا...

دمشق الشام: صباح الإثنين ٩-١١-٢٠١٥

نكهةُ أدب مختلفة

إلى السيدة بادية

لم أحظ بمستحقّي من المؤسسات الثقافية في بلدي لاختلاف النكهة التي يقدمها أدبي، ولما توليت نشر أعمالي في دار أسستها بدمشق، جهدت في توزيعها. أعترف بأني تعبت عبر خمسين من عمر الزمان.

أعلمك أنّ في "دار إشبيلية" ما تستطيع تسويقه لك وللأصدقاء، إن أحببت فاطلبي مني على الخاص، وهنا تبرز مشكلة البريد الذي لم يعد منتظما بيننا وبين العالم، أو ترسلي إليّ من يحملها إليك باليد. تحاصرنا المتاعب والمعوّقات من كلّ جانب، ولكنّا نظلّ منتصبي القامات، يا سيدتي.

جزيل الشكر لك، لغيرتك الأدبية والوطنية، أيتها السورية المتّسمة بالأصالة والنقاء.

دمشق الشام: فجر الإثنين ٩-١١-٢٠١٥

نهاية اللقاء في اسطنبول

وجاء الوالدان من حلب

والابنةُ وزوجها من دبي

والابنةُ الأخرى من قطر

ومن السويد وافاهم الابن الأوحد، بعد سنوات غربة باردة... سأل عن الأطفال، مَن يعرف ومَن وُلد؟

لمّت شملَهم موائدُ الفطور، والغداء، والعشاء

تجوّلوا، تفرّجوا على معالم المدينة الأسطوريّة، والتقطوا الصور

وفي الليل

تحدّثوا عن الأهل والخلان، مَن هاجر منهم ومَن بقي؟ مَن مات أو عاش؟

عن البيوت المهدومة، وتلك التي ما زالت قائمة مرفوعة؟ عن الحارات، والشوارع، والمدن المنكوبة؟

واستحضروا الذكريات

ضحكوا كثيرًا كثيرًا، وحزنوا كثيرًا كثيرًا...

وحين أزف السفر

أدركوا أنهم مقبلون على فراق جديد

الابن قال: لسوف أعود إلى صقيع الغربة!

وقيل: كان أكثرهم بكاء.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء: ١٠-١١-٢٠١٥

رذاذ المطر

في أول المساء

وهم متحلّقون حول نارٍ وقودُها أعشابُ الحديقة الغضّة

تتناهي إليهم من ذلك رائحةٌ زكيّة...

لمحوا، في السماء، ما يُشبه الشُّهُب، تسري هنا وهناك

فأخذوا يتحرّرون أين يُقدَّر لهذه القذيفة أو تلك أن تسقط؟

فلما أرسلت السماء رذاذًا من مطر

نهضوا اتقاءً للبلل...

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ١١-١١-٢٠١٥

في ارتفاع أسعار اللحوم!

أذكر أني كنت أشتري كيلو اللحم، في سنوات الخمسينيّات، بليرتين اثنتين، وقد ظلّ سعره يرتفع حتى اشتريناه بخمس ليرات!

ولكنّ السعر وثب، في شتاء ١٩٦٨-٦٩، إلى حدّ أذكر معه أنّ زميلاً لنا في الوزارة، اسمه عبد الجليل يسكن في "شورى - المهاجرين"، حدّثنا أنه كان أمس عند لحّام الحارة، فدخلت سيدة "مُرَتّبة"، وطلبت خمسة كيلو من لحم العجل مرة واحدة،

وحدّدت للحّام الصفات، ثمّ نقدتْه... كم؟ أربعين ليرة سورية... وأذكر أني لاحظت بعضهم يَفْغَرون الأفواه!

اليوم، أيها الأصدقاء... تجاوز السعر ثلاثة آلاف ليرة، لا تفغروا أفواهكم!

هي شكوى من (ارتفاع) أسعار اللحوم التي تؤكل.

ولكنّ هناك شكوى من (ارتخاص) لحم البشر... تُمزِّق أجسادَهم طائراتٌ يقودها غرباء، وتَجُزّ أعناقَهم سيوفٌ يُشهِرها دخلاء.

دمشق الشام: ليل الخميس ١٢-١١-٢٠١٥

صناعة سورية في ظلال الحرب!

قدّم لي صديقي صاحبُ المحلّ، أمس، ألبسةً داخلية رفيعة المستوى، قلّبتها فتبيّنت أنها "صناعة سورية".

قال لي معتزًّا إنّ منتج هذه البضاعة نَقَلَ مصنعه من "مكان الضرب" إلى مكان آمن، ولّد الكهرباء، ويُنتج الأحسن، ويُصدّر!

تحشرج صوتي حبًّا وحزنًا وغمغمت: لهذا يستهدفونكم، أيها السوريون!!

وتذكّرت أنهم، في "عصور التأميم"، أسّسوا مصانعَ بديلةً في كلّ مكان نزلوا فيه... حتى طنجة والدار البيضاء.

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ١٧-١١-٢٠١٥

لا تريد إسرائيل أن يُعلن أحدٌ في العالم كلمة حق!

لأنّ وزيرة خارجية السويد "مارجوت وولستروم" قالت:

إنّ اضطهاد إسرائيل للفلسطينيين هو السبب لكلّ ما يجري في العالم من عنف...

... فإنّ اللوبي الصهيوني يسعى لإسقاطها!

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١٨-١١-٢٠١٥

على باب الجامع

ذات يوم، في تسعينيّات القرن الماضي، وجدتُني في منطقة "حديقة الجاحظ" بدمشق، أمرّ من أمام "جامع بدر" المطلّ على "نهر تورا"، فصادفت الشاب "شادي"، ابن صديقي الحميم المخرج السينمائي "جورج كنعان بدريّة"، واقفًا على باب الجامع كمَن ينتظر، فخطر لي أن أمازحه: «ليش ما بتدخل تصلّي لك ركعتين وتكسب ثواب! »، وضحكنا.

وعرفت أنه كان وصديقٌ له يتنزّهان ههنا، فحان وقت صلاة العصر، فدخل الصديق المسلم يؤدّي صلاته وعلى باب الجامع وقف الصديق المسيحي ينتظر.

و"شادي بدريّة" تخرّج في كلية الطبّ بجامعة دمشق متفوّقًا، وهو اليوم من الأطباء المرموقين العاملين في مشافي الولايات المتحدة.

دمشق الشام: صباح الخميس ١٩-١١-٢٠١٥

رئيس مخلوع

وإنّ للإنسان العربي أن يتساءل عاجبًا:

كيف يمكن لرئيسٍ، كان قد انفرد بحكم بلده ردحًا من الزمن

أن يمدّ يده، بعد إزاحته مرغمًا، إلى متمرّدين كان قد قاتلهم وأثخن فيهم

متحالفًا معهم، اليوم

ومتطلّعا إلى أن يُعيدوه إلى كرسي الحكم

ولا بأس في أن تُدمَّر البلاد

أو أن ينتحر هو من يأس وخذلان!

دمشق الشام: فجر الخميس ١٨-١١-٢٠١٥

تعريف بطريقة مختلفة!

أحببت، منذ نعومة الأظفار، الأدبَ و"قَرْزَمتُ[(١)]" الشعر وأنا ألبس الشورت، ونظمت "قصائد" على بحور الخليل، موزونة ومقفّاة، منها قصيدة في حبّ من طرف واحد، استعارها صديقٌ لي ونحن في صف الكفاءة، وغيّر "اسم" محبوبتي إلى اسم اشتقه من اسم محبوبته (رجاء) كي يستقيم الوزن، وإليكم المطلع مضمّنًا الاسم الدخيل:

أيـهـا الـقـلـب تحـطّـمْ لســـت أهـلا لـلـبـقـاءْ

ذهـبـت "ريـري" وغـابـت وخـبـا ذاك الضـــيـاءْ

ثمّ... هل كان لدراستي الحقوق بالجامعة دور في أني أُغرمت بالحرية غراما جعلني أصرف جانبًا من أدبي السردي في نقد القهر والفساد، وأثبت على اعتناق مقولتي «ليس هناك شعبٌ سيّئ، هناك حكوماتٌ فاسدة!». وأعترف لكم بأني اعتقلت مرة بسبب وقفة لي في مدرّج بالجامعة ألقيتُ فيها ما ساء النظام؟ عند التحقيق يسألني المحقق المحنّك: «قل لي ما العلاقة بين محاضرتك وبين المنشور الذي وزّعه الإخوان في اللحظة التي كنت تُلقي في المدرج؟»، فقلت له ببساطة: «حتى أجيبك أطلعْني على المنشور

---

(١) نظمتُه رديّاً.

لأرى العلاقة! »، فقال: «كلّه كلام عن الحرية وشي من هـ القبيل! »، فسألته: «وهل أنت ضدّ الحرية؟ »، فسكت وغضّ بصره ليس استحياءً ولكن ليسألني: «هل أنت شيوعي»! وبعد أن أطلقوا سراحي، رويت هذه التفاصيل أمام جمهور الكتّاب في اجتماعهم السنوي بدمشق، فضحكوا مثلما تضحكون أنتم الآن! وقد ظلّت المؤسسات الثقافية الرسمية تُعرِض عن نشر كتبي (التي بلغت الآن ٣٥)، لأنهم رأوا فيّ "مشاغبًا"، وهم لا يدرون أنّ هذه الصفة تشرّفني!

في دمشق (وأنا من أسرة حلبية) تسرّب أفراد أسرتي عبر السنين متفرّقين في الأقطار والأمصار، وبقيت بدمشق وحيدًا، خافوا عليّ وألحّوا في أن أسافر إليهم بأمريكا، وذريتي هناك من عشرين فردًا ولهم خمسة بيوت. ذهبت، وكتبت وأنا فوق الأطلسي جوا، ثمّ نشرت:

«واللهِ... ما فارقتُك، يا وطني، خوفًا من عيونهم المبثوثة ولا رَهَبًا من سيوفهم المسلولة

ولكن... لأنّ الأسرة التي أنجبتُها على مدى نصف قرن ويزيد، قد رحل أفرادُها في كلّ اتجاه، ولم يبقَ لي بدمشق مَن إذا انتابني وجعٌ يمّد يده إليّ بكأس ماء! ».

وبقيت في أمريكا سنتين اثنتين مغتربًا، فظنّ الشانئون أني هربت من الأحداث، ثمّ إنهم استغربوا يوم عرفوا أني عدت -في الصيف الماضي- إلى الوطن، وكانت أسباب العودة مزيجًا من الشوق إلى الوطن وإلى الحارة والبيت والغرفة والطاولة والأقلام، ولدواع أخرى: أني أريد أن أجمع موادّ كتبٍ لي ترقد أوراقها في عتمة أدراج مكتبتي، وقد بدأتُ تساعدني في سنّي العالية (٨٧ سنة ميلادية) طالباتُ دراسات عليا في الآداب.

أظن أن تعريفي بشخصي بهذا الأسلوب الذي جرت عليه مجموعة "قناديل الشام"، تديرها العزيزة صاحبة الاسم المُشْبَع بالرومنسية "مجدولين ميرزا"... قد راق لكم، ولم تأسفوا على الوقت الذي بذلتم في قراءته. عندي كثير مما يمكنني قوله في هذا الصدد.

تصبحون على خير، أحبّائي.

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢٣-١١-٢٠١٥

اللحمة من عند اللحّام

لحّام حارتنا، الذي نثق به جدّا، نهتف إليه بطلب اللحمة فتأتينا إلى البيت مفرومةً، ومشروحةً، ومقطّعةً "راس عصفور"، ومتبّلةً إذا أردنا... يعتذر لنا اليوم عن أن تصل اللحمة إلى بيتنا كالمعتاد...

لماذا؟

لأنّ الأجير عنده، الشابّ، الذي يوصل الطلبات إلى بيوت الزبائن في الحارة، قد أقعدته أمُّه في البيت، خوفًا من أن يُلقوا القبض عليه في الطرقات، ويُلحقوه بالجيش، مع أنه أدّى "خدمة العَلَم" قبل حين.

فلبستُ ثياب الخروج، وتوجّهت إلى الملحمة، وأتيت بما استطعنا أن نرفع به القِدر على النار.

دمشق الشام: مساء الأربعاء ٢٥-١١-٢٠١٥

الرفق بالشجر

بعد أن رأى أغصان الأشجار في حديقة منزله تنمو مصعِّدة إلى أعلى وأعلى، جاء بمَن يقصّ أعاليها تحريضًا لأن يُغذّي النسغُ الأغصان التحتيّة، فيكون للشجر ظلالٌ

وارفة ويسهُل كذلك قطفُ الثمر.

وأخذ يتملّى النظر من "الجنيناتي" ومساعده الفتى الصغير الجسم، ينشر المعلم الأغصان القريبة بالمنشار، على حين يتسلّق الفتى إلى الأعلى وبالمقصّ يخفّف عن الشجرة ما ذهب من أغصانها في الفضاء.

وساعة حملت سيارة النقل الأغصانَ المقطوعة لترحيلها، اعترضتها "الدوريّة" تسأل عن الإذن بقطع أشجار الوطن؟

وكم سرّه أنّ الدولة تهتمّ بالنبات وتَرْفِق بالشجر!

ولكنه تساءل كيف غاب عنها أنه -بالقصف- تُحرَق البيادر، ويُدمَّر الحيوان، ويُقتل البشر!

دمشق الشام: مساء السبت ٢٨-١١-٢٠١٥

[أمرّ على الديار

بيني وبين القانوني الكبير هيثم المالح]

أخي العزيز الأديب الأستاذ فاضل السباعي

كلما قرأت لك منشورًا في صفحة من صفحات شبكة التواصل الاجتماعي تذكرت زياراتك لي في مكتبي بدمشق، نتبادل فيها الأشواق إلى الحرية والأماني في تحقيقها، وتُهدي إليّ الجديد من روائعك الأدبية الهادفة، وأخصّ "اعترافات ناس طيبين" و"آه يا وطني" و"تقول الحكاية"، ولا أنسى طلّتك الجميلة ووجهك المشرق المبتسم المفعم بالأمل.

إنني أحنّ لتلك الأيام، وأحنّ إلى كلّ ذرّة من تراب وطننا الغالي الذي تكالبت عليه أمم الأرض.

سلّمك الله وجمعنا في الوطن، والسلام.

نزيل القاهرة: ليل الإثنين ٣٠-١١-٢٠١٥

- - - - - - - - - - -

أخي الحبيب الأستاذ هيثم المالح

تلقّيت توّا رسالتك المعطّرةَ بالودّ المطيّبةَ بحبّ الوطن.

وأودّ أن أقول إني ما زلت أذهب إلى "حيّ الحلبوني" بدمشق، قاصدًا أن أمرّ من أمام مكتبك المهجور، متذكرًا قول الشاعر عمر ابن أبي ربيعة: أمرّ على الديار ديار... هيثم المالح! وأستحضر في الخاطر وجوه الناس الذين كنت أراهم يلجؤون إليك، أملاً في أن تساعدهم في حَلّ مشاكلهم العالقة مع النظام، من أب طال اعتقاله، وابن مطارَد يُبدي لك أهلُه الاستعداد لتسليمه بأيديهم للنظام مع تطلّعهم إلى وعد "بعدم التعذيب"، بوساطة قانونية منك بما لك من "معرفة" برجاله -وليس من دالّة! - أولئك الذين كنتَ "نزلت ضيفًا عندهم" سنوات سبعًا في "معتقل الشيخ حسن"، هذا الذي كُتب عليّ أن أدخله لكن لم يَطُل لبثي فيه... أجل، يا لها من ذكريات أليمة، سكنت الفؤاد ولا تريد أن تبارحه!

وأما الأشواق إلى الوطن فقد عانيتُها، في غربة غير مديدة، مع أني كنت هناك في أحضان أبنائي وبين أحفادي، إلى أن عدت إلى الحضن الأكبر والأبقى: الوطن.

كلّ الودّ لك، يا عاشق العدل والحرية، مع التمنّي بعودتك إلى وطن تظلّلنا فيه المحبّة والتآخي والعمل معًا في البناء والإعمار.

دمشق الشام: ليل الإثنين ٣٠-١١-٢٠١٥

دمعة حزن

وقال لي "الجنيناتي"، بعد أن قصّ أغصانًا في حديقتي وقطع جذوعًا على نحو ما ينبغي، إنّ الشجر أصبح يحتاج بعد الكسح إلى سقاية... ومضى.

وما كان ليخطر له أن يُعبّر عن أنّ الحديقة تطلب ماءً لتغسل به أحزانها، أو لتجعله دموعًا تذرفها على أجزائها التي رحلت!

وتركني لأفكاري: إنّ الناس... الذين يموتون في وطني، والذين يرحلون إلى حيث لا أمل في العودة، لا يلقَون مَن يرأف بحالهم، أو يذرف من أجلهم دمعةً حزن واحدة، في هذا العالم الرحيب!

دمشق الشام: ضحى الإثنين ٣٠-١١-٢٠١٥

أمس مجزرة في سوق شعبي بأريحا

ولقد ادّعى أصحابُ المخترعات الذكيّة أنّ بصرهم الثاقب استطاع، يوم أمس الأحد، أن يلمح من الجوّ "الدواعشَ" وهم يتجوّلون في سوق شعبي(!)، فقصفوا، وحصدوا أرواح أربعة وأربعين من الآباء الأبرياء، الذين كانوا قد نزلوا يتسوّقون شيئًا من الخبز والجبن والزيتون ليُطعموا به أطفالهم تلاميذ المدارس، فماتوا على الفور... عدا الجرحى المُثخَنين الذين يتأهّبون للرحيل.

هل تعرفون كم يبعد هذا السوق الشعبيّ في مدينة أريحا الوادعة، عن الحاضرة "أوغاريت" المبدعةِ لأول أبجديّة في التاريخ؟

حقّا، إنها مؤامرةٌ كونيّة ضدّ بلد عُرف بأنه مهد الحضارات!

دمشق الشام: فجر الإثنين ٣٠-١١-٢٠١٥

هل التأخر والتقدم، مردّهما إلى أحوال الشعب

السؤال: هل التأخر والتقدم، مردّهما إلى أحوال الشعب أم لمسلك الحكومات؟

أقول دائمًا: ليس هناك شعب سيّئ، هناك حكومات فاسدة!

دمشق الشام: فجر الخميس ٣-١٢-٢٠١٥

كيف؟!

في هَدْأة الليل

أَرِقْتُ طويلاً

وأنا أفكر فيك، يا سيّدي النظام

تستعينُ على شعبك بالغرباء!

حتى بأحدث المخترعات!

كيف؟!

دمشق الشام فجر السبت ٥-١٢-٢٠١٥

يا مَلَك الموت!

أطَلتَ الإقامة بيننا...

سنواتٍ خمسا

أما ترحل؟

دمشق الشام: صباح الأحد ٦-١٢-٢٠١٥

وتذكرتُ تولستوي، مؤلّف بوليكوشكا!

في فجر شبابي، وأنا منغمرٌ في دنيا القراءة والكتابة، قرأت لتولستوي قصة، أذكر أنّ اسم بطلها "بوليكوشكا"، كان آخرُ ما رسم فيها الروائي العظيم، المنحازُ للفقراء والمسحوقين، من المشاهد الحزينة، أنّ الأسرة المنكودة، التي استوطن فيها البؤس والشقاء والموت، لما بلغ الأمَّ خبرُ آخر الفجائع، وهي "تحمّم" طفلها الصغير في طشت بعتبة البيت، قامت مذهولةً ونسيت الطفل حيث هو، فمات غرقًا! ستة عقود من السنين ولم يبرح هذا المشهد خاطري!

أمس التقيت، في وطني الجميل، أسرةُ هذه حالتها:

• الابن الأكبر لقي حتفه شهيدًا وهو يؤدّي خدمة العَلَم،

• الأب ضربته سيارةٌ "عربية" الجنسية وهي تعبر أحد شوارع العاصمة، وكان كلّ ما ناله من الحقوق والتعويضات، أنهم سدّدوا فاتورة المستشفى، الذي خرج منه معوّقًا عاجزًا عن متابعة عمله في القطاع الخاص،

• واجتاز الابن الثاني الحدود إلى تركيا خشية سوقه إلى الخدمة،

• والابنة، التي تتابع تحصيلها في إحدى الكليات الجامعية، هتفت إليّ أمس، على غير معرفة، تسألني إن كان عندي عمل تؤدّيه بالتنضيد الضوئي!

... فتذكّرت مؤلّف "بوليكوشكا"!

دمشق الشام: فجر الأحد ٦-١٢-٢٠١٥

الحريّة والحياة

في ثلاثينيّات القرن الماضي، وأنا طفلٌ صغير، تصورت معنى أن يكون الوطن مستقلاً،

في الخمسينيّات... تمنّيت أن نحظى بديمقراطيّة أفضل،

في مطالع القرن الحادي والعشرين... رأيت الناس يحلمون... بالحياة.

دمشق الشام: صباح الإثنين ٧-١٢-٢٠١٥

عن الذين يقبّلون الحذاء العسكري

بعضهم، اليوم، يقبّل الحذاء العسكري، حبًّا ووهًا، ويتباهى!

هل أقول: إني، في ذا، سوّلت لي نفسي، قبل خمسين سنة، أن أكتب قصة أقدّم فيها مواطنًا، مثقفًا، أُلجِئ -تحت وطأة الخوف والرهَب و"غَسْل الدماغ"- إلى أن يُقبّل "بُسْطار" السجّان ثمنًا لإطلاق سراحه؟ ولما خرج صحا وطفح قلبه حزنًا وندمًا، وأسرع يغادر إلى الصحراء، يعاني الذلّ والانكسار، ويبكي ويبكي... حتى سطوع شمس جديدة!

طالت القصة، وأنا أكتبها من نزف القلب في صيف ١٩٦٧ حتى قاربت أربعة آلاف مفردة (وما أظنّكم تملّون في أثناء قراءتها غدا!)، قدّمتها، بعد أن لبثتْ في مكتبي مدة، إلى مجلة "الموقف الأدبي"، حديثة الصدور آنذاك عن اتحاد الكتّاب (الذي أنا فيه عضو مؤسس)، وقد ولّوا رئاستها لـ"عبقري القصة القصيرة في سورية"، فجعل يُماطل ويسوّف إلى أن أعلنها اعتذارًا فجًّا بعد مضيّ اثني عشر شهرا كنت فيها أنتظر على أحرّ من الجمر. فبعثت بها إلى مجلة "الكاتب" المصرية، فنُشرت في عشرين صفحة من

صفحاتها مزدانة بثلاث رسوم (العدد ١٧١، يونيو/ حزيران ١٩٧٥)، ثمّ نزلت في كتابي "حزن حتى الموت"، بطبعاته الثلاث ببيروت، والرابعة في الدار التي أحدثتها بدمشق (فالقصة "آمنة"!)، وفي إصدار للكتاب بالفرنسية ظهر عام ٢٠٠٢ في باريس.

سوف أقسّمها إلى حلقات، أنشر واحدة كلّ صباح أو فجر، ابتداءً من غد الثلاثاء. تصبحون على خير. نسيت أن أبيّن لكم أنّ عنوانها "العينان في الأفق الشرقي"!

دمشق الشام: ليل الإثنين ٧-١٢-٢٠١٥

العينان في الأفق الشرقي-١

الحلقة الأولى: رجلُ يُباع في ساحة عامة!

الرجاء أن تقرأ أولا الخاطرة السابقة "عن الذين يُقبّلون الحذاء العسكري"!

- - - - - - - - - - -

انصرف (م) في تمام الثانية ظُهرًا، من الوزارة التي مضى عليه وهو موظفٌ فيها سنواتٌ عشر. وإذ دلف إلى "السّاحة القريبة، في طريقه إلى موقف الحافلة يستقلّها عائدًا إلى البيت، رأى في وسَطها جَمْعًا غفيرًا من المواطنين، يتحلّقون حول مِنَصّةٍ قد اعتلاها رجلان، يُنادي أحدُهما على بَيْعِ الآخر في مزاد عَلَنيّ!

اقترب من الجمع مأخوذًا، ليسمع المُنادي يُعلن:

ـ أَلْفٌ هنا! ألف، ألف... مَن يدفع فيه غيرَ هذا؟

فعَجِبَ (م) مُحدِّثًا نفسه: ولكنّ ما أعلمه أنّ عَهْد الرِّقّ قد وَلّى منذ زمنٍ بعيد!

وههنا... رأى إلى الرجل المعروض للبيع، وكَفٌّ من خلفه تَهْوي على قَفاه، فيتجَمّع الشّقيّ للصفعة على نحوٍ ذَكّره بشِعرٍ قديم يَحفظه مذ كان صغيرًا... فأحسّ نحو الرّجل

بالعطف والمحبّة!

صاح المُنادي:

ـ أَلْفٌ في هذا "المُتثائب"! مَن يدفع غيرَ هذا؟

صَعَّد (م) من أعماقه حَسرةً: ليتني أملك في جيبي، الآنَ، ما يُمكّنني من شرائه!

وعلا، من خلال الزِّحام، صوتٌ:

ـ تسعمئة عليّ!

فأعلن المُنادي بصوته الجَهْوَريّ:

ـ تسعمئة هنا. تسعمئة. مَن يدفع أقلّ؟

ازداد (م) عَجَبًا ممّا تسمع أُذناه: ما يعرفه أنّ البيع في المزاد يكون بأن "يزيد" المُشترون بعضُهم على بعض!

ـ مُواطنٌ ثَبَتَ فسادُه! تسعمئة. مَن يدفع أقلّ؟

ثمّ رأى إلى الشقيّ وهو يتلقّى صفعةً على قَفاه. فتملّكه عطفٌ عليه مُستثار. وتمنّى، بصدقٍ عميق، لو يشتريه!

ـ ثمانمئة عليّ!

فاندفع المُنادي يصيح:

ـ ثمانمئة هنا. ثمانمئة، في هذا الذي تثاءب أمام مَلأٍ من الناس!

ثمانمئة!! فكّر (م) مُخاطبًا نفسه: هأنتذا تُحبّه لأنه فتَحَ فمه وتثاءب! وعصفتْ به الرغبةُ في شرائه. فدسّ يده في جيبه يتحسّس ما فيه من نُقُود: خاوٍ، إنه خاوٍ، ليس فيه حتى ثمنُ التذكرة التي ستحمله إلى بيته! سَلّ يده من جيبه، بيضاء، وقد أَثقله غَمٌّ عظيم!

وعاد يُحدّث نفسه: ولكنّ في وُسْعي أن أشتريه ما دام الثمن في نُزُول، إنْ لم يسبِقْني إليه غيري! وقريبًا منه، في وسَط الزِّحام، واجهتْه عينان، يعرف صاحبَهما: صديقٌ قديمٌ من العاملين في سِلْك "الخصوصِيّات العامّة"، يعرفه جيّدًا منذ أعوام بعيدة.

هَمَّ بأن يُسَلّم عليه، ولكنّ وجهه -هو ذا- لم يَهَشّ له، فيه شيءٌ من غَضَب!

ـ ستمئة هنا. مَن يدفع أقلّ؟

ـ خمسمئة عليّ!

ـ خمسمئة هنا. خمسمئة. مَن يدفع أقلّ، في مُواطنٍ تَنَفّس بعُمق، تثاءب، أمام الناس؟!

ـ أربعمئة!

فكّر (م)، وقد غَمَرَتْه السّعادة: لسوف يظلّ الثّمن في تناقُصٍ، حتّى يبلغ "الصِّفْر"!

ورأى إلى الشّقيّ يتلقّى صفعةً جديدة. فكّر في حنان: لسوف أُنَجّيه من الصّفْع المُهين والعَذاب! سأُحبّه! سأَدَعُه يتثاءب، وأتثاءب وإيّاه! سأحقّق له إنسانيّته!... وإذا ضايقونا، حَصَلْتُ له بطريقةٍ ما على جوازِ سفر، وغادرْنا البلاد معا! أو لعلّنا نُسافر إلى "جمهوريّة نون"، فذلك أَيْسَر! ثمّ حانت منه التفاتةٌ، فرأى صديقَه القديم وقد غدا على مقرُبةٍ دانية يُسَدِّد إليه نظرًا عابسًا وهو مُقَطِّب الجبين! فاستدرك، وقد داخَلَه خوف: ولكنني لن أتثاءب وإيّاه أمام أحد.. أمام أحد!!

ـ مئتان عليّ.

ـ مئتان هنا. الرقم يقترب ممّا ينبغي. مئتان. مَن يدفع أقلّ؟

رأى (م) صديقَه القديم، يومئ بيده، إلى آخرين، إيماءةً ما. فأحسّ كما لو أنّ شَرَكًا يُنصَب له، وتمنّى لو يُتاح له أن ينسحب من زِحام السّاحة، ناجيا!

صوتٌ من الجَمْع:

ـ مئة عليّ!

الصّوت الجَهْوَرِيُّ يُردّد:

ـ مئة هنا. مئة. مئة. مئة... مَن يدفع أقلّ؟

فكّر (م)، وقد عاوده الأمل: ليتني أملِك، اللحظةَ، ورقةً واحدةً من ذات المئة! كيف خَلَوْتُ من النقود؟ دَسّ يده، من جديد، في جيبه... ولكنّ يدًا -يا للعجب! - تُمسِك بيده!! تَطَلّع: هي ذي يدٌ غريبةٌ تقبِض على يده في جيبه! صَعّد ناظريه إلى صاحبها: إنه صديقه القديم نفسه! أيّة قوّةٍ خَفِيّة نقلتْه، في لَمْحِ البصر، إلى ما وراءه؟! وَدَّ لو يتحبّب إليه، يُذكِّره بالصداقة القديمة، لو يُقْرِئُه السلام... لكنْ ردَّه عن قَصْده ما طالع في وجهه من عينَين تقدحان شَرَرا! فسأله في رِقّةٍ مُتَوَسِّلة:

ـ أَما تترك يدي، يا صديقي القديم؟

أَهاب به الصديق:

ـ هيّا اتبعْني!

فأدرك أنه وقع في الشَّرَك.

ـ إلى أين؟

ـ إلى مكانٍ غيرِ بعيد.

... والصّوت الجهوريُّ يُعلن في جَلَبَة:

ـ صِفْرٌ هنا! صِفْر! صِفْر! صِفْر! صِفْر!

هتف (م) في سِرّه، غافلاً عن الشَّرَك الذي وقع فيه: لقد غدا في وُسْعي، أخيرًا، أن

آخذه، فقد بلغ العَرْض ما تملِكه جُيُوبي! والتفت إلى صديقه القديم يترَجّاه:

ـ أَلا تَدَعُني، لحظةً، أدخل المُزاودة؟

– لا وقتَ عندنا.

ـ إلى أين تُريد أن تمضي بي؟

ـ إلى السجن القريب!

ـ السجن؟! وهل ارتكبتُ ذَنْبا؟

– لا!

والمُنادي يُحْدِث جلبةً عُظمى:

ـ ناقص مئة! ناقص مئة! مَن يَزيد ويتملّك هذا المُتثائب؟!

القبضة، حول مِعصمه، قَيْدُ حديد.

– دَعْني، يا صديقي، لحظةً واحدة، أرجوك!

– أُستاذ محمّد مأمون الشّريف! نحن "معرفة" من زمان، فلا تُثِرْ لي المتاعب. ولْتَثِقْ أنّ الأمر أَهْوَن ممّا تظنّ.

ـ أنا لا أظنّ شيئًا!

ـ إنها إجراءاتٌ شكليّة، لا أهميّةَ لها على الإطلاق! سيُطلِقون سَراحك فور أن تَصِل إليهم!

فكّر (م) بألمٍ كظيم: إنْ أَطلقوا سَراحي بعد قليل، فإنهم يكونون قد فَوّتوا عليّ فرصةً "أَخْذ" هذا المُواطن الذي أحببتُه! وأحسّ بقبضة الحديد تعصُر مِعصمه! كنتُ أنوي أن أتثاءب وإيّاه كثيرًا، حتّى نُعْدي مَن حولنا، ويُعْدُون هم مَن حولهم، وتعُمّ العَدوى

النّاسَ كلَّهم، فيكون بعد التّثاؤب التّمطّي، وبعد التّمطّي الـ....

اشتدّت القبضة على معصمه، حتى خُيِّل إليه أنّ يده تنسحق!

ـ تقول إنهم سيُطلقون سراحي فورَ وُصُولي إليهم؟

ـ دون شكّ.

– حَسَن.

وسار كالمُطمَئنّ.

– – – – – – – – – –

الكتابة: دمشق، آب ١٩٦٧. النشر: في مجلة "الكاتب" المصرية، العدد ١٧١، يونيو ١٩٧٥. وفي كتابي "حزن حتى الموت" بعد ذلك.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٨-١٢-٢٠١٥

العينان في الأفق الشرقي

٢ من ٥– سجين وسجّان!

– – – – – – – – – –

هبط (م)، برفقة صديقه، دَرَجًا في أسفل مبنى ضخم. فوجد نفسه في بَهْوٍ يتّصل بممرٍّ مُعتِم طويل، تنفتح عليه أبوابٌ من حديدٍ مُقَضّب. ولاح له، عن كَثَبٍ، رجلٌ قد جلس على كرسيّ وراء طاولة، وأَراح رجلَيه، ببُسْطاره الثّقيل، على سجِلٍّ كبيرٍ مفتوحٍ على الطاولة!

قال صديقُه القديم:

ـ دونَكَ هذا! (وأشار إليه)... أوصيك به خيرًا، فإنه مُواطنٌ صديقٌ طيّب!

سمع (م) ذلك، ثمّ رأى يدَ صديقه تمتدّ إليه مُصافِحةً، بحرارةٍ لم يكنْ لها أن تُذهِب عن نفسه قلقَها، أو تُعزّيه في ما فاتَهُ من فُرصةِ أخْذه المُتثائب!

تطلّع إلى السّجّان: قدماه لا تزالان فوق الطاولة، وقد ارتسمتْ على شفتَيه ابتسامةٌ ما. سمعه يُردِّد:

ـ هكذا! فأنت مُواطنٌ صديقٌ طيّب!

سأله (م) في وجل:

ـ لماذا دعوتموني إلى هنا؟

قال السّجّان:

ـ ألا تعلم؟

أجاب (م)، وهو يُعاين بنظره مجموعةً من الأزرار الكهربائيّة مُنتظمةً على لوحةٍ مُثْبَتَةٍ في زاويةٍ من الطّاولة:

ـ لا!

رفع السّجّان حاجبَيه في سُخريةٍ صغيرة:

ـ أَلا يُمكنك أن تُخمِّن؟

عبّر (م):

ـ إني رجلٌ مُسالمٌ وديع، لم أقترف في حياتي ذنبا.

رمقه السّجّان بعينَين ماكرتين:

ـ همْ مْ مْ!... أُصدُقْني القول: ماذا فعلتَ، السّاعةَ، فوق، حتّى تَسَجَّلَ اسمُك عندي، هنا، في هذا السّجِل؟!

تساءل (م) في عَجَب:

ـ الساعةَ؟! الساعةَ؟!

ـ نعم، السّاعة!

ـ لم أفعلْ شيئًا... (وجعل يتذكّر) سوى أني... انصرفتُ من عملي في وزارة الأبحاث الحيويّة... وعَبَرْتُ السّاحة، قاصدًا موقفَ الحافلة القريب، لأستقلّها... عائدًا إلى البيت!

– ومسألة جوازات السّفَر؟

– جوازات السّفَر؟

أكّد السّجّان هازئًا:

ـ تجهلها، ها! جوازات السّفَر، هذه التي لا عِلْمَ لك بها!

ـ لا علمَ لي، والله. (وفكّر لحظةً) جوازات السّفَر؟ وما حكاية جوازات السّفَر هذه؟!

– تلك التي تُريد أن تحصُل عليها بطريقةٍ ما، بتزويرها مثلاً، من أجل أن...

أدرك (م) أنه قد أُسقِط في يده! أسرع يتنصّل:

– لا علم لي. لا علم لي.

– من أجل أن "تُهرِّب" جماعةً إلى...

– جماعة؟!.. أُهَرِّبهم؟!.. وإلى أين؟!

– إلى "جمهورية نون"!

أعلن (م)، مُتشجِّعًا:

ـ ولكنّ السّفَر إلى "جمهوريّة نون" لا يحتاج إلى جواز سفر. إنه يتِمّ بـ"ورقة ترخيص" تُعطى بإجراءاتٍ غير مُعَقّدة!

وخَفَقَتْ، في البَهْو، دقّاتُ ساعةِ حائطٍ كبيرة.

– المُهِمّ... (تطلّع السجّان إلى الجدار المُواجه، مُتمتمًا: بَقِيَ رُبعُ ساعة!) المهمّ أنك فكّرتَ بتهريبهم إلى "جمهوريّة نون"!

انتاب (م) هَلَعٌ عظيم: كيف استيقن هذا الرّجل ممّا دار في خاطري لحظةَ كنتُ في السّاحة؟! وتراءى له أن يُنْكِر على نحوٍ قاطع:

ـ أنا لم أُفكّر بتهريب أحد... إلى أي بلد!

أَنزل السجّان قدمَيه من على الطاولة:

ـ فكيف تَسَجَّل اسمُك عندي، إذن؟ (وضرب بقبضته السّجلّ) هيّا، أَعطِني تفسيرًا.

تلعثم (م):

ـ سُجِّلَ خطأً... لا بُدَّ أنّ اسمي قد سُجِّل خطأً!

أعلن السجّان في يقين:

ـ اعلَمْ، يا هذا، أنّ أجهزتنا الراصدة لا تُخطِئ!

ـ أجهزتكم الراصدة؟!

ـ نعم، أجهزتنا لا تُخطئ!

ـ ولا مرّةً واحدة؟

ـ لا تُخطئ أبدًا!

ـ طيّب... وماذا قالت أجهزتُكم عنّي؟

ـ لم تقلْ شيئًا، سوى أنْ سَجَّلَت اسمَك، منذ حوالى نصف الساعة، بتُهمة اعتزامك تهريبَ جماعة إلى "جمهوريّة نون"!

أحسّ (م) بوَهَن.

ـ أجماعةٌ هم؟ أم هو "فَرْدٌ" واحد؟

ـ هو فردٌ واحد، ولكنه رَبُّ أُسرةٍ مُؤَلّفةٍ من جماعة.

ـ أَهو تهريبٌ إلى "جمهوريّة نون"؟ أم أَخْذُه، ذلك الفرد وحدَه، إلى بيتي؟

ـ قلتُ لك: تهريب جماعةٍ إلى "جمهوريّة نون"، بجوازات سفرٍ تستحصِل عليها بطريقةٍ ما. لا تُراوغ! إنّ أجهزتنا دقيقةٌ مئة بالمئة. انظُر اسمَك!

انعطف (م) على الطاولة، تتقرّى عيناه، بلهفةٍ، الاسمَ المسطور في السّجِلّ بين عديد الأسماء. أَلَمّتْ به عيناه، ثمّ ما ملك أن جَهَرَ بصوتٍ يضُجّ فرحًا:

ـ هذا ليس اسمي! إنه اسمٌ مُختلف! اسمُ شخصٍ آخر!

عبس السّجّان في امتعاض:

ـ غريب!

أكّد (م):

ـ هذا... "محمّد مأمون السّريع"!

ثمّ أخذتْ يده تعبَث، بعصبيّةٍ، بشريطِ جهاز الهاتف على الطاولة.

عاجله السّجّان يسأله:

ـ واسمك؟ ما اسمك أنت؟ إنّ أجهزتنا لا يُمكن أن تُقدِّم معلومات خاطئة! ما اسمك؟ قُلْ...

نشر (م) بطاقته الشخصيّة، مُعلنًا في ثقةٍ تامّة:

ـ اسمي محمد مأمون الشّريف... انظُر!

نظر السّجّان في البطاقة، ثمّ... هَدَرَتْ، بين شِدْقَيه، ضحكةٌ مُجَلجِلة:

ـ أيها الأبله! إنهما اسمٌ واحد!

ـ اسمٌ واحد؟ كيف؟!

ـ هما اسم واحد، أيها البليد!

ـ بل... إنّ هذا المواطن شخصٌ غيري، يا سيّدي. إنه من أُسرةٍ غير أُسرتي. أنا من أُسرةِ "الشريف"، وهو من أُسرة "السّريع". أنا لست إيّاه. أنا مُواطنٌ مُحترم، أشْغَل وظيفة رئيس دائرة الشُّؤون القانونيّة في وزارة الأبحاث الحيويّة، يا سيدي. أَلَم تَرَ إلى الرجل الذي صَحِبَني إليك ما قال بحقّي من شهادة؟

عاد السّجّان إلى ضِحْكه:

ـ بلى! "مواطنٌ صديقٌ طيّب"! لَكَم تُضحكني بلاهتُك! (وكفّ عن الضّحِك) أَلا فاعلمْ، يا هذا، أنّ الاختلاف في الاسم "بنصف حرف" أمرٌ لا نَعتدُّ به عادةً.

اعترض (م) مُجادلاً:

ـ ولكنهما حرفان كاملان، يا سيّدي، حرفان في اسمي، يُقابلهما حرفان في الاسم الآخر فهما أربعة!

تهكّم السّجّان، ماطًّا حَنكَه إلى ناحية:

ـ هكذا! حرفان، أربعة حروف!! حقًّا إنك مُخادعٌ مغرور، أو غبيٌّ جاهل! أَتراك تعرف الأحرف الأبجديّة، أوّلاً؟! ما مبلغ تعليمك، أَجِبْني!

فغضَّ (م) طَرْفَه:

ـ إجازة في الحقوق، يا سيّدي!

فعلا صوت السّجّان:

ـ ولكنني، أنا، حاصلٌ على شهادة الدراسة الابتدائيّة وحدَها، لم أُفسدها بدراسةٍ إضافيّة، فما تزال معلوماتي الأساسيّة في ذهني غيرَ مُخالطَة بسخافاتٍ، وما أزال أحفظ في صدري الأحرف الأبجديّة السّبعة والعشرين!

ـ عفوًا، سيّدي: الأبجدية العربيّة مؤلَّفةٌ من... ثمانيةٍ وعشرين حرفًا!

غضب السجان:

ـ اخرسْ، أيها الدَّعِيّ! لن تزيدني، أنت، عِلمًا! أَتحسبني بليدًا أو حمارًا؟!

ـ حاشا، يا سيّدي!

ـ إنّ مَنْ يجلس وراء هذه الطاولة، ويُمارس عملاً مثل عملي، لا يُمكن أن تنقصه المعرفة!!

ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ

الكتابة: دمشق آب/ ١٩٦٧

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٨-١٢-٢٠١٥

العينان في الأفق الشرقي ٣من٥

ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ

السّجّان:

ـ إنّ مَنْ يجلس وراء هذه الطّاولة، ويُمارس عملاً مثل عملي، لا يُمكن أن تنقصه المعرفة!! أَعطِني ذهنَك.

ـ حاضر، يا سيّدي!

ـ ما زلتُ قادرًا على أن أصبر عليك. إنّ السّين هي أخت الشّين... أَلم يُعلِّموك في المدرسة؟ تحطّ ثلاث نُقاط، تشيل ثلاث نُقاط، هذا غير مهمّ!

جاراه (م):

ـ طيّب... وماذا عن حَرْفَي العين والفاء؟ بينهما فرق كبير!

ـ أصْغِ إليّ: "ذيل" العين هذا، الذي تراه معطوفًا إلى اليمين، يُمكنك أن تُمسك به، برؤوس أصابعك، وبحركةٍ بسيطة تجعله سَوِيّا! ثمّ تروح تَلويه شيئًا فشيئًا نحو اليسار، فإلى أعلى، حتى يغدو ذيلَ فاء!!! (وشمخ بأنفه) ما رأيك؟

أجاب (م) مُتطامنًا:

ـ معقول!

اعترض السجّان:

ـ معقول بس؟!

ـ عظيم! (واستدرك) ولكن... "النقطة"، يا سيّدي؟ نقطة الفاء؟

انتهره السجّان:

ـ الظاهر أنك غبيّ جدًا! قلت لك: لا أهميّة للنقاط عندنا. ومع إلحاحك وسُخفك، تَقصّ من الذيل نقطةً للفاء، وثلاثًا للشين! كيف تراني معك؟ ها قد حللتُ لك آخر المشاكل! ثمّ لتكن عندك الثقة الكاملة بأجهزتنا، فإنها لا تقع في أخطاءٍ جوهريّة قط،

وقلّما تُخطئ في أنصاف الحروف. هذه أوّل مرّة نقع مع أحدكم في إشكال من هذا النوع. ولكن... (قال السجّان كمن فَطِن إلى شيء) ولكني أَراك مُجادلاً عريقًا، يا هذا! ما بالك أنت!!

قال (م) في إقرار:

ـ أمرك، يا سيّدي. أجهزتكم الراصدة تُسجّل الحقيقة. ولكن... مع احترامي لها، وإعجابي بمُنجزاتها الباهرة، أُعلن، بكلِّ أسف، يا سيّدي: أني بريء، بريء، بريء!

ههنا بدا السجّان وقد اتّجه وجهةً أخرى. فقد تَقطَّب جبينه، وأنشأ يقول بلهجةِ مَن نَفِدَ صبره:

ـ والآن... أَجبني عن أسئلتي، حتّى أستوفي البيانات المُتعلّقة بشخصك. (أخذ في يده قلمًا، وأكبَّ على السّل) أَجب دون إبطاء، فقد شغلتَني أكثر ممّا تستحقّ، فإنّ أجهزتنا ما تزال تُسجِّل أسماء المُتثائبين والمُتمطّين، وسوف يفِدون عليّ تباعًا. أجبني: كم عمرك؟ متى دخلت الوظيفة؟ أسماء أبنائك وإخوتك والأصهار والكنائن وأعمالهم؟ ما هي حقيقة مُعْتقداتك الفكريّة، أنت وكلّ واحد من هؤلاء؟

غَمْغَم (م) بينه وبين نفسه: آه، يا ربّ! إني لم أتثاءب! مُجرد تعاطفٍ أحسسته مع مُتَثائب! وأَيقن أنه قد سقط في الشَّرَك، في أعماقه البعيدة! كلّ جريمتي أنّ نفسي هَفَتْ، قبيل ساعة، إلى أن أصحب ذلك المُتثائب إلى بيتي، فأتثاءب وإيّاه، ونُعدي الـ...!!

هتف السجّان، فجأةً:

ـ اسمك يَتَصَحَّح! لقد حطّت، اللحظةَ، فوق السين نقاطٌ ثلاث! انظر: غدت "شينًا"، كما تَهوى! (ثمّ في فرح) وهو ذا، هو ذَيلُ العين يتحرّك، من تلقاء نفسه، من أدنى اليمين إلى... أوه، (وخَفَقَتْ، هنا، في البهو دقاتُ السّاعة) لقد استقام الذيل، الآن،

عموديًّا! إنه... إنه يُتابع انعطافَهُ نحو اليسار... توقَّفَ، توقَّف! ماذا تُدير في رأسك من الفِكَر، يا أستاذ "الشريف"؟!

اعترى (م)، من ذلك خوفٌ عظيم. وعرف أنه يَفضح نفسه! ما أدقّها من أجهزة!!

تابع السّجّان فَرِحًا، وعيناه في السجّل:

ـ الذيل يرتفع إلى أعلى قليلاً... هيّا، أَسْفِر عن أفكارك، أيها الخبيث!

أخذ (م) يفكر بمكر: أنا لا أحبّ المُتثائب الذي شاهدتُه في الساحة! أكره المتثائبين!

أعلن السّجّان ساخطًا:

ـ الذيل، يا للغرابة، عاد ذيل "عين"، بعد أن كاد يَغدو ذيل "فاء"!

ردَّد (م) في ذاتِ نفسه: أكرهُ المُتثائبين! التثاؤبُ جريمةٌ كبرى!

ـ... وغابت النقاط الثلاث من فوق السين!

قرّر (م) بينه وبين نفسه: التثاؤب جريمةٌ كبرى! وأمّا التمطّي؟ إنّ التمطّي...

ـ هو ذا مأمون، يا للعجب، يتحوَّل إلى مـ.. مـ.. ن!

أمعن (م): إنّ التمطّي خيانةٌ عُظمى! كلّ من يتمطى، أو يأتي بحركةٍ، فجزاؤه الإعدام شنقًا حتّى الموت!

أَهوى السجّان، هنا، بقبضته على السجلّ، مُزمجرًا:

ـ إنك لأغرب مَن مَرّ بي من الإنس والجنّ! هذا الرأس العجيب، المُركّب فوق جسدك، ما تُدير فيه من الخواطر، أيها المُخادع؟ قسمًا بشرفي لم أصادف، في حياتي كلّها، أخبثَ منك! (وبدا كمن يحدث نفسه) لا أنا أقدِر أن أرميه في الداخل، ولا أنا مستطيعٌ أن أُطلق سراحه! قلْ، يا هذا، ما تُدير في رأسك من الأفكار الشيطانيّة؟!

استرسل (م) في عناد، رانيًا إلى السجّان في هُدوء: كلُّ مَن يتمطّى، كلُّ مَن يتثاءب، كلُّ مَن يتنفّس، يستحقّ أن تُنصبَ له، في السّاحة العامّة هناك، مِشنقةٌ عاليةٌ جدًّا! نفسي تُقِرُّ ذلك عن قناعةٍ وإيمان، لا عن خداعٍ وتضليل!

هنا انتصب السجّان واقفًا خلف طاولته، ودقّ ببُسْطاره الأرضَ في غضبٍ:

ـ أقول لك؟! الأفضل أن تمكث في تلك الحُجرة، ريثما يأتي رئيسي. إنّ اسمك... لقد أمسى اسمُك في السجلّ، يا للغرابة، "م.. د.. م.. ن.. الـ.. "! يا له من اسم! ادخلْ هناك، هيّا ادخل! لقد أخّرتني عن شغلي.

ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ

الكتابة: دمشق آب ١٩٦٧.

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٨-١٢-٢٠١٥

العينان في الأفق الشرقي-٤

ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ

..... هنا انتصب السجّان واقفًا خلف طاولته، ودقّ ببُسْطاره الأرضَ في غضبٍ:

ـ أقول لك؟! أرى الأفضل أن تمكث في تلك الحُجرة، ريثما يأتي رئيسي. إنّ اسمك... لقد أمسى اسمُك في السجلّ، يا للغرابة، "م.. د.. م.. ن.. الـ.. "! يا له من اسم! ادخلْ هناك، هيّا ادخل! لقد أخّرتني عن شغلي.

قال السجّان ذلك، وهو يُصوّب ناظريه إلى ساعة الجدار... فإذا هو يصرُخ كالملسوع:

ـ إنها الثالثة والدقيقة السابعة! (وارتدّ إلى طاولته) أيها الكلب اللحوح! (وضغط

بأصابعه على عدد من الأزرار على الطاولة) لقد ألهيتَني عن القيام بعملي!

انبعثت، ههنا، من الممرّ الطويل المعتم، في أسرع من ارتداد الطَّرف، صرخاتٌ عالية وحادّة، امتلأ لها (م) ذعرا!! ثمّ رأى السجّان يضغط على كلّ الأزرار... فإذا الصراخ يشتدّ عنفًا حتى ليُمزّق قلبَه هلعا!!

ـ أنت أخّرتني عن عملي سبع دقائق. وهأنذا (وابتسم بتشفٍّ) إكرامًا لعينيك... (عاد إلى الأزرار يُمِرّ عليها أصابعه بتتابع سريع، حتى أشبه الصراخ عواء ذئاب جريحة!) هأنذا، إكرامًا لعينيك "أعتني بهم"! (وضغط الأزرار كرّةً أخرى) وأبذل جهدي في "إسعادهم"! (ثمّ رماه بنظرة ذات معنى) ما آمله، يا صاحبي، ألا تكون بينهم غدًا! (وقهقه عاليًا) والآن إلى الحجرة، فقضِّ فيها بقية يومك، إلى أن يُنظر في أمرك صباح غد.

أحسّ (م) بساقيه وقد تخاذلتا:

ـ أرجوك، يا سيدي.

انتفض السجّان:

ـ لا كلام! (وقام إليه) لا جدال! (ودفعه نحو الحجرة) إنّ مشكلتك يحلّها رئيسي.

فترجّى (م)، من خلال الصراخ الصادر من الممرّ المعتم:

ـ أرجوك، يا سيّدي. أنا لم أر في حياتي كلّها مواطنًا أكثر منك حِلْما.

ـ نعم؟

ـ ولا أنبلَ منك، يا سيّدي.

ـ.........

- ولا أصبرَ منك على تحمُّل أمثالي من الأغبياء!

ثمّ تشبّث، بكلتا يديه، بذراع السجّان. فصاح به:

- أوَتمنعني من تطبيق القانون؟!

- كلا، يا سيّدي. ما من قوة تقدر أن تمنعك، إلا ضميرك الحيّ!

بدا السجان مستفَزًّا:

- إنّ القانون يدوس رقبتك ببُسطاره!

- بُسطار القانون يسحق رأسي، يا سيّدي!

- إنّ القانون هو القانون، لا أحد يمنعني من تطبيقه غير رئيسي، إن شاء.

- وإني عبدٌ للقانون، يا سيّدي. لقد بيّنت لسيادتك، قبل قليل، أني أحمل إجازة في "الحقوق" من جامعة...

قاطعه السجّان بازدراء:

- لتعلمْ، يا هذا، أنّ كلّ ما لُقّنتَه من مبادئ القانون في جامعتك هُراء. لو كانوا عرّفوك "روح القانون"، لعذرتني في طلبي منك أن تنتظر في تلك الحجرة حتى صباح غد، فإنّ رئيسي هو صاحب الحقّ القانوني في الفصل في "الإشكالات" التي تعترض تطبيقي القانون. أترى إلى الحجرة؟ انظر إليها. هيّا ادخلها بأمان، وقضّ فيها ليلتك سعيدا!

وتلقّى منه دفعة، وهو ما يزال متشبّثًا بذراعه، والعواء الجريح يملأ سمعه.

- يا سيّدي، يا سيّدي، تمهَّلْ لحظة... إنّ لديّ حلا.

- لا مجال بعد للكلام.

وتلقّى منه دفعة أشدّ عنفًا، فإذا هو ملقًى على الأرض في باب الحجرة... وإذا طنينٌ

ينبعث من داخلها، وأصواتٌ أشبه بما يصدر من الآلات الكاتبة من جَلبة موصولة.

أعلن السجّان، وهو يقترب منه:

ـ لعطفي عليك، فإني أُودعك الحجرة التي تحتوي على أجهزتنا الراصدة!!

فكّر (م) في رعب عظيم: سأكون، وأنا في قلب هذه الأجهزة، أكثر عرضةً لافتضاح أفكاري الحقيقية! فتوسّل، وهو جاثٍ على ركبتيه:

ـ سيّدي! إنّ عندي حلاً "قانونيّا": ألتمس منك السماح لي بالاتصال الهاتفي برئيسك المبجّل، من أجل أن...

قاطعه السجّان:

ـ رئيسي تتّصل به هاتفيًّا؟! إنّ هذا مطلب صعب! أولا لقد انصرف رئيسي إلى بيته منذ ساعة.

تابع (م):

ـ تكرَّم عليّ، وأنت الحليم النبيل، بأن أهتف إلى سيادته في بيته العامر!

ـ وأيّ حلّ سليم هذا؟! (ضحك بسخرية) كيف تطلب مني أن أُمكّنك من إزعاج رئيسي في بيته، وهو في ساعة قيلولة؟!

ازداد (م) تضرُّعًا:

ـ لقد عرفنا أنه مواطنٌ واسع الصدر مثلك، وأنه يفتح أبوابه لسماع ظُلامات الرعيّة. وأعدك بشرفي أن لا أُطيل الحديث معه، وأن أكلّمه بالمنطق القانوني ليس إلّا، فربما أفلحت في أن ألامس قناعته وأنال عفوه الكريم. إنّ صنيعك هذا لن أنساه طَوال عمري، يا سيّدي الرحيم!

اعتصم السجّان بالصمت هنيهة يتفكّر، ثمّ انعطف يقول:

ـ اسمع، يا محمد مأمون الشريف!

ـ نعم، يا سيّدي.

ـ هل تبوس رجلي؟!

ردّد (م) غير مصدّق:

ـ أبوس رجلك؟!

ـ نعم... تبوس بُسْطاري هذا، العسكريّ!

ـ ولكن ألست ترى ذلك إجراء غير قانوني، يا سيّدي العادل؟!

انتهره السجّان:

ـ وهل تفهم، أيها الغبيّ، أكثر مني، بالقانون الذي أسهر على تطبيقه؟!

ـ حاشا، يا سيّدي!

ـ هيّا انحنِ، إذن، على رجلي! وقبِّلْ، بمحبّة، بُسطاريّ، فبفضلهما سيتمّ لك اتصالٌ هاتفي بمنزل "رئيس إدارة الخصوصيات العامة" العظيم! إنّ هذا، لو تعلم، تساهلٌ مني كبير!

رنا (م)، في جُثُوّه، إلى البُسطار الأول يتأمّله، ثمّ أدار ناظريه نحو البُسطار الآخر: إنهما ليسا قبيحين، كما يُظنّ! إنهما، على العكس... يراهما بديعين!

وأحسّ في صدره عاطفة دافقة.

انحنى على القدمين! وطبع، بمحبّةٍ، قبلةً على "خدّ" هذا البُسطار، وقبلةً على خدّ البُسطار الآخر! ما ألطفَهما!

- أتريد قبلات أكثر، يا سيّدي؟

بلغه الردّ بعد لحظات:

- قبلتين أخريين، لا بأس. تبدو لي، الآن، مواطنًا صالحًا!

قبّل (م) الخدّين ثانية، بشغف! ثمّ هتف بولاء صادق:

- أتطلب المزيد؟

- هذا القدر يكفي.

توسّل (م)، غيرَ مالك زمام نفسه أمام تيار العاطفة المتدفّق في صدره:

- اطلب المزيد، يا سيّدي!

- كفى! كفى!

- اطلب المزيد، أرجوك!

وأكبّ على البُسطارَين، يُعانقهما بهُيام، ويلثم خدّيهما بحبّ عميق، وقد هزّت العاطفة الدافقة فؤاده، فإذا هو... يبكي!

- ألا تطلب المزيد؟

وتضرّع من خلال دموعه:

- لا بدّ من أن تطلب المزيد، يا سيدي!

وانهمر دمعه سخيًّا.

- أنا عبدٌ لك ولأسيادك، يا سيّدي!

بلّل الدمع خدّيه، وتهاطل على الخدّين المكتنزين سِمَنًا!

أعلن السجّان من فوق، منتشيًا:

ـ لقد غدوت مواطنًا صالحًا جدًا.

ـ.........

ـ قد "غُسل دماغك" جيدًا!

ثمّ وهو يتراجع إلى الوراء:

ـ دونك جهاز الهاتف، فتكلّم.

وظلّ (م)، في باب الحجرة، ينتحب... وعيناه وجبهته إلى الأرض.

\- - - - - - - - - - -

الكتابة: دمشق آب/ أغسطس ١٩٦٧

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٩-١٢-٢٠١٥

العينان في الأفق الشرقي ٥من٥

\- - - - - - - - - - -

وظلّ (م)، في باب الحجرة، ينتحب... وعيناه وجبهته إلى الأرض.

قال السجّان:

ـ أما آن لك أن تنتهي من البكاء؟

فَطِن (م) إلى أنّ "الذئاب الجريحة" قد كفّت عن العُواء.

نهض متثاقلا. أخذ يكفكف دموعه، وينفض الغبار عن ثيابه. جرّ خطواته جرًّا، بعيدًا عن الطنين.

ـ هو ذا الهاتف (السجّان يبتسم مظفّرًا، ورجلاه فوق الطاولة) تكلّم مع رئيسي،

بمنطقك القانوني السليم!

اقترب (م)، وتناول السماعة بيد ترتعش:

ـ آلو... (وازدرد ريقه) صِلني بـ... بسيادة رئيس إدارة الخصوصيات العامة، من فضلك.

ـ لقد انصرف من زمن!

ـ صلني بمنزله.

ـ معك.

ثمّ تلقّت أذناه صوتًا رقيقًا:

ـ نعم، مين؟

ـ سيادة البيك، من فضلك، يا خانم.

ـ من يطلبه؟

ـ أنا المواطن "محمد مأمون الشريف"، رئيس دائرة الشؤون القانونية في وزارة الأبحاث الحيوية.

ـ أهلاً أهلا... لم يأتِ بعد... مدعوّ، الآن، إلى مائدة عظيم من رفاقه!

ـ.........

ـ ماذا تريد منه؟

ـ أودّ.. أن أحدّثه في شأن خاص.

ـ أراك ملهوفا، أيها السيد! هل تُمكّنني من أن أؤدّي لك المعونة التي تريد؟ مُرني!

ـ...!...!...!

ـ تكلّم!

ـ عفوًا، يا خانم، مين جناب حضرتك؟

ـ احزر!

ـ ألسيدة عقيلته؟

ـ أنا عقيلته؟! (وصلّت في أذنه ضحكةٌ طريّة)... أنا "زهرة"!

ـ كريمته، الآنسة زهرة؟

ـ كريمته؟! أنا مَن تعتني به. أعددت لسيدي طعام الغداء، فهتف إليّ يعتذر بسبب الدعوة.

ـ طيّب، وماذا يُمكنك أن تفعلي من أجلي، أيتها الملك الكريم؟

ـ قُصَّ عليّ حكايتك لأرى.

ـ أُوقفتُ، هنا، بطريق الخطأ، يا آنستي العزيزة!

ـ وكيف يجوز هذا؟

بَغَت قلبَه شعورٌ عذب:

ـ أوقفوني خطأً، يا زهرة، وأنا بريء.

ـ أريد أن أعرف (أعلنت بحميّة) كيف يجوز توقيف شابّ مهذّب مثلك!!

أحسّ بعينيه تخضلان بالدمع:

ـ زهرة! اصغيّ إليّ لحظة، أيها العزيزة... إني... إني محبّ لـ... لسيّدك ولك، يا زهرة!

ـ تحبّني؟! تحبّني أنا؟! هذا لطف منك. هذا شرفٌ لي. أين أنت الآن، أيها المحترم؟

ـ أنا هنا، هنا... في السجن المعتم، هنا.

ـ أين هو السجّان؟

ـ بجواري.

ـ قل له: بيت رئيسك يطلبك!

توجّه إلى السجّان:

ـ كلّم، بيت الرئيس يطلبك.

ثمّ... تنحّى جانبًا، وقد ملأت رأسه صورةُ حذاء أسطوري!

ـ أجهزتنا الراصدة سجّلت أنه من المتثائ...

بدا له الحذاء الأسطوري فاتنًا!

ـ نعم، مع شيء من الشكّ، ومن أجل ذلك...

تمنّى لو أنّ الخُفّين، اللذين في خاطره، أمامه اللحظة!

ـ ولكن... كيف عرفتِ، يا آنسة، أنه رجلٌ مهذّب... وعظيم... وأنت لم تريه؟!

فكّر (م): مهذّب!! عظيم!! لو أنهما تلقائي، الآن، إذن لجثوت على ركبتيّ...

ـ حاضر، يا سيدتي!

... وأُغرقهما، خُفَّي سندريلا الفاتنين، بطُوفان دمع، حبًّا حقيقيّا وعرفانَ جميل.

ـ أمرُك مطاع! فورًا، أجل، فورًا، دون إبطاء!

أعاد السجّان سماعة الهاتف إلى موضعها، محنقًا:

ـ انطلقْ! وإياك أن يأتوا بك إليّ ثانيةً!

ـ...!...!...!

ـ إن سجّلت الأجهزة اسمك، بعد اليوم، ساء مصيرك عندي. هيّا اغرب عن

وجهي!

...

وقف (م) في ركن من الساحة العامة، يُجيل ناظريه في أرجائها: الجَمْع الغفير تفرّق، والمتثائب بيع.

بادر يهتف من أعماقه:

ـ أكره التثاؤب والمتثائبين!

ما أصفى قلب زهرة! مَلَكٌ هبط عليّ من السماء. وأولئك... واستدرك: أولئك، أيضا، قومٌ طيبون. قلوبهم مترعةٌ بالرحمة والعدل. وأجهزتهم، آه، يا لها من خارقة!

ـ أكره التثاؤب والتمطّي!

اجتاز الساحة. قدماه لا تقودانه باتجاه البيت.

أعماقه تُغنّي: أحبّ زهرة... وسيّدي السجّان...

وجد نفسه يغادر المدينة. راحةٌ تنزّلت على قلبه.

ـ كم أكره المدينة!

واستشعر في أعماقه خجلاً. في المدينة... آه! لقد قبّل، في المدينة، بُسطار السجّان!

امتلأ قلبه بندم عظيم. قدماه تسيران به نحو الصحراء الوسيعة. الخِزي يُدمي قلبه.

ـ لقد انهَلتَ على البُسطار، تقبيلاً ومعانقة!!

يُغِذّ السير في قلب الصحراء.

الشمس في الأفق الغربيّ تميل نحو الغروب.

ـ كيف أتيتُ ذلك؟!

أحسّ فؤاده يَفيض ألمًا. أيّ هوان! عيناه تنهلاّن بالدمع. أيّ مذلّة!

- إلى أيّ حضيض انحدرتْ إنسانيّتي؟

غابت الشمس، وهو يبكي...

وظلّ طَوال الليل، يبكي، وعيناه إلى الأفق الشرقي.....

- - - - - - - - - - -

الكتابة في آب ١٩٦٧. النشر: في مجلة "الكاتب" المصرية، العدد ١٧١ يونيو ١٩٧٥. ونزلت القصة في كتابي "حزن حتى الموت".

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٩-١٢-٢٠١٥

مدينة بلا شباب

في المطعم، الذي اعتدنا نحن الأصدقاء السبعة أن نتحلّق فيه حول مائدة نتناول "الفَتّة بلحم الدجاج"، و"الجَدْي بالزيت" مرافَقًا بالمَرَق المتوّم، و"السَّجَقات[١]" الرفيعة المحشوّة رزًّا ولحمًا وحبّات حِمّص، وما شابَهَ من الأكلات الشعبية التي ما فارقَتنا مع امتداد العمر ولعُنا بها... لاحظنا، بالأمس، تأفّفًا واضحًا من صاحب المطعم، الكهل، الذي بات يتولّى بنفسه خدمة الزبائن، لحظة التمسنا منه، ثمّ استعجلناه بلطف مُتناهٍ، أن يأتي لنا بإناءِ "العَيْران" المُملّح المطيّب بذرور النعناع اليابس ولا بأس بالغَضّ الأخضر، نُبَلّع به لُقَيماتنا... وقد رأيناه تأففًا لم يبقَ إلا أن يقول لنا فيه، أو يقول شريكُه الذي يناهزه عمرًا ويقوم مثله بتقديم الصِّحاف لروّاد مطعمهما الذي يرتاده الذوّاقون: «قوموا انتو للمطبخ واعملوا العيران! ».

---

(١) أمعاء الخروف تُحشى وتُطبَخ.

ذلك أنّ "الشغّيلة" عندهما، الشابّين أحمد ومحمود اللذين نعرف من استجابتهما في الخدمة ما يُزيّن لنا الزيادة في "الإكراميّة"، قد أُخِذ أحدهما -وهو متوجّه لعمله- إلى "الاحتياط"، واختبأ الآخر في البيت لا يغادره، متأهّبًا للسفر إلى تركيا.

وتذكّرت الصورة التي شاهدتها قبل أيام، تلك المأخوذة لمدرّج في الجامعة، بدا فيه كلّ الحاضرين طالباتٍ ليس بينهنّ شابّ واحد.

وحدّثت الأصدقاء بأني، وأنا في الحافلة الصغيرة عائد إلى بيتي قبل أيام، بدوت لنفسي الرجلَ الوحيد، والطاعن في السنّ، بين النسوة والفتيات الأربع عشرة اللواتي أشاركهنّ ركوب الحافلة!

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ١٠-١٢-٢٠١٥

رئيس اتحاد الكتّاب.. ٢٨ سنة

كان قد مضى على "الأستاذ ع. ع. عرسان" رئيسًا لاتحاد الكتّاب العرب في الوطن الحبيب، بضعة عشر عاما متوالية وهو يُرشّح نفسه لولاية بعد أخرى، والمدة في كلّ مرة سنتان اثنتان، ويتكلّل ترشيحه بالنجاح.

مرة، في أوائل التسعينيات من القرن الماضي، اقترح على أعضاء الاتحاد في المؤتمر السنوي الذي يُعقد مطلع كلّ عام، أن تُرفع المدة إلى أربع سنوات، ربما توفيرًا للجهود التي يبذلها تحضيرًا لانتخابات مجلس الاتحاد ومن ثمّ المكتب التنفيذي، قبل أن تنقاد إليه رئاسة الاتحاد غيرَ منازَع من منافسين. وقد حظي اقتراحه بالموافقة.

ثمّ إنه ما لبث أن نازعته النفس لأن يقترح زيادة سنة أخرى فتكون المدة رقمًا تستحسنه الآذان، مدوّرًا، هو خمسة، أمانًا له من غدرات الزمان.

في ذلك المؤتمر، وبعد تقديم هذا الاقتراح الجديد، استأذن أحدُ الأعضاء الظرفاء، هو الكاتب "محمد المصري" طيّب الله ثراه، ليقول بصوت هادئ يتصنّع الجدّ «أستاذ علي، ليش ما بتخلّيها مدى العمر فرد مرة! »، وعمّ المكان ضحكٌ وهرج ومرج... قبل أن يحظى الاقتراح بالموافقة كالمعتاد!

تقول الحكاية: إنّ الزميل عرسان استمرّ رئيسًا لاتحاد الكتّاب لولايتين جديدتين مديدتين، ولم يترك بعدهما الرئاسة إلّا بتوجيه من النظام بألا يلبث المسؤول، أيّ مسؤول، في المنصب أكثر من ولايتين متعاقبتين، فكان مجموع السنين التي حكم فيها عرسان اتحادنا -كما حسَب الحاسبون- ثماني وعشرين سنة متوالية، وذلك ما لم يقع لأيّ رمز أدبي في بلاد العرب وفي بلاد العجم.

دمشق الشام: ضحى الاثنين ١٤-١٢-٢٠١٥

"أبو علي بوتين"

أرجوك

خلّينا نتصارح:

أنت جيت لتضرب "داعش"

ولكنك تفعل شيئًا آخر!

دمشق الشام: ضحى الأحد ١٣-١٢-٢٠١٥

وآه، يا وطني!

ويخرج بعض فلذات الأكباد، من تحت الأنقاض، أحياء، معفّرين بالتراب... وآه، يا وطني!

دمشق الشام: صباح السبت ١٩-١٢-٢٠١٥

خمس قُطَب في مشفى الطلياني

أمسِ، كان موعدُ غداء أصدقائه الستة في حديقة بيته[1]، يأتون من مطبخ "نور الدين" في "الجسر الأبيض" بأرغفة "الأُوزي"، عجينتها شبيهة برقائق البقلاوة، وحشوُها لحمٌ متبّل، مصحوبة باللبن المُتوّم المغشّى بذُرورُ النعنع اليابس، يتناولونه تحت شجرة الياسمين الآيلة مع إقبال هذا الشتاء للذبول.

قاموا في ساعة الضحى، هو وابنته وحفيده، يُحضّرون المكان، الطاولة والكراسي، والصحون وما يتبع هذا، وكان عليهم قبل ذلك أن يَشْطفوا (يغسلوا) بلاط الحديقة في موضع الجلوس، فأخذوا يرشّون الماء فيه، ثمّ تركوا الخرطوم ينبثق ماؤه تبليلاً وتسهيلاً للغسل.

ثمّ ليس يدري كيف زلّت قدمُه فوق البلاط المبلول، فهوى جسده بلمح البصر على الأرض، وجاء مؤخّر الرأس على حافة درجة العتبة، وانبثق دم، ومن عجبٍ أنه، لما استوعب ما حدث، تساءل لسانه بفصيح العبارة، كما ذكّرته ابنته فيما بعد: «كيف ما متّ! ».

واستدعَوا ابنه، الذي كان قد غادر قبل قليل، فحملوه والدم ما زال ينزف إلى "مشفى الطلياني" القريب... ثمّ عادوا به، وخمس قُطَب في مؤخّر الرأس المعصوب بشاشيّة بيضاء.

في نكسته هذه ما خاف إلّا أن يفقد شيئًا من ذاكرته التي تُسعفه بـ"تغريداته" اليوميّة.

---

(١) الكاتب يقصد نفسه في هذه الخاطرة

قدّم يوم أمس خاطرتين استحضرَهما من يوم مرّ قبل عام، واليوم يبدأ بالكتابة من جديد.

دمشق الشام: مساء الإثنين ٢١-١٢-٢٠١٥

لماذا بكى الرجل في حضرة الصغار؟

في "التغريبة السورية"، حيث يرحل الناس متفرّقين في كلّ اتجاه، ذهب، أمس، إلى بيت أحد أقاربه من الشباب، يستمع إليه، عن حديث المصنع الذي كان يعيش من دخله، وسقط في أول الأحداث بيد المقاتلين. وكان قد أتيح له أن يفرّغه من كلّ ما أودعه فيه من منتجات، جعل يسوّقها وينفق من ثمنها على شؤون حياته، فلمّا آن لها أن تَنْفد امتدّت يده إلى أساور زوجته وأطواقها، يبيعها قطعةً قطعة، حتى قاربت النفاد أيضا...

وهو يحلف الأيمان الآن أنه مستعدٌ لأن "يقطع من لحم أكتافه" يقدّمه لأولاده المتفوّقين في دراستهم حتى يتابعوا.

تماسك وهو يستمع.

فلمّا حضر الصغار بين يديه، انحنى يعانقهم، ويغسل وجوههم بعَبَراته السخيّة!

ولم يرِفّ لأبيهم جفن، فقد كان العزم عنده أقوى.

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٢٢-١٢-٢٠١٥

لا تدقّقوا مع الأصدقاء في مواعيدهم معكم

لا تدقّقوا مع الأصدقاء في مواعيدهم معكم

فإنّ الصديق يجتاز كثيرًا من "الحواجز" قبل أن يصل إليك ويأخذك بالأحضان.

دمشق الشام: ليل الإثنين ٢٨-١٢-٢٠١٥

جسّ الطبيب نبضي، ومشّاني على أصابعي والكعبين!

كان الطبيب، الذي عادني أمس لأول مرة، في نحو الستين من العمر، ولكنه بدا لي، مع قليل من المبالغة، أنه يمتلك مرحَ ابن ثلاثين قد عركته الحياة.

لم يُضيّع وقتًا: جسّ النبض، وأخذ الحرارة، ولما قاس الضغط صدر منه صوت مريح: «عال العال... ٧-١٤... نموذجي!».

ثمّ سألني عن "ثلاثيّ الشحوم"؟ تمام. عن القلب؟ العمود الفقري؟ السكّري... حُزتُ في ذلك كلّه الإعجاب.

سألني ما إذا كنت أدخّن؟ أؤركل[١]؟ أشرب؟ وكان الجواب: لا.

«هل أجريتَ قبل اليوم جراحة في المرارة؟ الزائدة؟ اللوزتين؟»، لا.

قال مازحا: «فلماذا دعوتموني، إذن؟!».

في ضجعتي على الديوانة، طلب مني أن أنهض، وأمشي على رؤوس أصابع القدمين، جيئة وذهابا. وشاء ألا يهتمّ بترنُّحي. ثمّ أن أمشي على الكعبين! وضحكنا أنا وابنتي خلود، من مشيتي المترنّحة، وهو -صراحةً- لم يبتسم.

في عودتي إلى الديوانة، رأيته يتّجه إلى "مغالبتي" في لعبة "أصابع اليدين": عارَض بأصبع منه أصابعَ يدي، أن أضغط، ثمّ أن يضغط هو فقاومت، فعبّر عن رضاه. وأصابع القدمين كذلك. قلت له: «أنت، يا دكتور معن، تدخلني في مصارعة معك!»، أسرع

---

(١) يشرب النركيلة.

يجيب: «بس أنا مو قدّك! ». موهمًا إياي بقوتي، وضحكنا.

عند الوداع تراءى لي أن ألفِظ على مسمع منه كلمة "ذوقان"، فسألني: «تعرفه؟ إنه أبي! »، وتعانقنا. لقد انضاف إلى التعارف الطبي، آخرُ أدبي، فالأستاذ "ذوقان قرقوط" من كتّاب سورية، عرفته معرفة شخصية، وآلمني أنه رحل عن دنيانا قبل شهرين، رحمه الله.

قلت له: «وهذا الصُّداع الذي يجتاح الجمجمة بين الثانية والأخرى؟ »، قال: «يعود إلى الجرح في الرأس».

ـ والاضمحلال في الجسد الذي ما زال في ازدياد؟

ـ مردُّه إلى عدم الحركة، عليك أن تمشي، وأن تجلس في الشمس كلّ يوم نصف ساعة».

وما زال الحوار مستمرّا...

دمشق الشام: مساء الأربعاء ٣٠-١٢-٢٠١٥

هل نودِّع العام؟

أم نودِّع العالم؟...

يا لبؤس السوريين!

دمشق الشام: ليل الخميس ٣١-١٢-٢٠١٥

الجزء الخامس

٢٠١٦

أربعة أعوام قبل الرحيل

يعرف القَدْر.. ويهمل!

سأل الابن المثقف أباه:

ولماذا كنت تهمله، وهو الأديب المثقف، في عام عاصمة حلب الإسلامية؟

أجاب الأب:

إني أعرف منزلته جيدًا، وكنت أدرك أنّ استضافته سوف تجلب لي كثيرًا من المتاعب!

دمشق الشام، ضحى الجمعة ١-١-٢٠١٦

لا مقابر بحلب!

سألت، أنا المقيم بدمشق، أهلي بحلب: «هل ترون أن أُوارى في "الدحداح" بدمشق، أم يُنقل جثماني إلى حلب؟».

فقالوا: «بعيد الشرّ عنك! ابقَ بدمشق، لا مقابر بحلب!».

على هذا المنوال تجري أحاديثنا اليومية.

دمشق الشام: ليل الجمعة ٨-١-٢٠١٦

عندما يعانقني كلّ هذا الحبّ

عندما يعانقني كلّ هذا الحبّ

أرحَل بسلام

دمشق الشام: ضحى السبت ٩-١-٢٠١٦

هل تعرفون الكلمة التي يتصايح بها السوريون فرحًا؟

إنها «اجت الكهربا».

يا لبؤس السوريين!

دمشق الشام: السبت ٩-١-٢٠١٦

الزمن الجميل!

زميلة قديمة اسمها "إزدهار"، تتصل بي ضحى اليوم هاتفيًّا، وتسألني: «هل تتذكّرني؟»، قلت: «من خمسين سنة، في وزارة...»، ونجحتُ في الاختبار!

سألتني عن الصحة، وهي تقرؤني بعينَي زوجها، وقالت إن لها بنتًا طبيبة في إسبانيا، مستشارة يُرجع إليها حتى عن... بُعد، وسألتني أسئلة، ثمّ استأذنت بغياب قصير، لتعود تقول لي إنها سألت ابنتها، ووصفت لي ما تقترح.

سألتها عما عندها من أولاد؟ قالت: «خمس بنات وابن وحيد، وكلهم جامعيون ذوو اختصاصات، متوزّعون في أرجاء الكرة الأرضية؟»، وعندما سألتها عن الأحفاد والأسباط أجابت: «ستة عشر...»، فمنحتني وقتًا للفرح.

إنه زمن الحرب...

إنه زمن الحبّ...

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ١٠-١-٢٠١٦

في بلدي سورية

حربٌ، وبردٌ، وعتمة...

دمشق الشام: مساء الإثنين ١١-١-٢٠١٦

ليس للطبيب، وإن كان نَطاسيّا

ليس للطبيب، وإن كان نَطاسيّا

أن يُعلّم المريض...

كيف يتألّم

فإنّ لكلّ مريض

طريقتَه... في الأنين!

دمشق الشام: فجر الخميس ١٤-١-٢٠١٦

بائع الزيتون

كان الشابّ، وحيد والدَيه

يبيع في محلّه الزيتون

أخضرَ، وأسودَ، وعَطّونًا

بِنَواه، ومفرّغًا من النّوى

مضيفًا إليه شيئا من مفروم الجزر

تجميلاً وتزويقا

مزيِّنَا الجيوبَ بباقات النعنع الزاهي

وكان يبيع الزيت معبّأً في القوارير أيضًا

يصفّها على الرفوف بكثير من العناية

ضحى يوم

نزلت قذيفةٌ على دكانه

فاختلط دمُه القاني بالزيت والزيتون

وأمسى في السوق حكاية تُروى

دمشق الشام: عصر السبت ١٦-١-٢٠١٦

ومن النبات ما رحل

ومن النبات ما رحل

ومنه ما يستعدّ للرحيل

وهناك ما يعتزم البقاء للموسم الآتي

يا شام!

يا أيتها الأخّاذة!

يا جنّة الله في أرضه!

أنت التي يعمل "العالم المرائي" على تدميرك!

دمشق الشام: ليل الأحد ١٧-١-٢٠١٦

في ظلال الياسمين(١)

قبل سنوات جاءني يطرق باب بيتي يبثّني شكواه من أنه تلقّى، الساعة، من "الرقابة"

---

(١) نُشرت الخاطرة في مجلة رؤية سورية، عدد تشرين الأول ٢٠١٥.

اعتذارها عن الموافقة على أن ينشر "أشعاره" في ديوان، وإن كان ذلك على نفقته الخاصة، فاستمعت إليه بأذن صاغية، مثل استماعي إليه وهو يلقي عليّ بعض مقطوعاته الشعرية بأسلوب مسرف في الفخامة! وقد عبّرتُ له عن شجبي لما ارتأته الرقابة من منع نشر نصوصٍ لشاعر أو كاتب، فإنّ لصاحبها الحقّ في أن يطبع وينشر كلامه في أضيق دائرة بين الأهل والأصدقاء. ومع تعاطفي معه، في ذلك المساء، دعوته للمبيت عندي وأنا المقيم في بيتي وحيدًا بدمشق، أجاذب الحديث كاتبًا يحسّ ظلمًا، وأذكر أني اشترطت عليه أن يُخفف من إسماعي مزيدًا من أشعاره... وقد ضحك وضحكت، ونام سعيدًا، وفي الصباح انطلق عائدًا إلى موطنه في الشمال.

وقد ظللنا على تواصل عبر المكالمات الهاتفية... إلى أن زارني، قبل أيام، ليحدّثني عن همّ له آخر: ابنه، الذي يؤدّي "خدمة العَلم"، موقوفٌ بمحاولته الفرار، وقد وصل هو اليوم إلى العاصمة في مسعى للإفراج عنه وعودته إلى كتيبته، وأضاف أنه حاول، في هذه الساعات الصعبة، أن يجد فندقًا متواضعًا يُؤويه ليلته وعبثًا ما حاول، ومع أنّ ظروفي تغيّرت، ففي بيتي اليوم أسرتي مضافًا إليها زوارٌ من حلب فالغرف كلّها مشغولة، فإني رحّبت به ضيفًا، وسألته عمّا إذا كان يطيب له أن ينام، في هذه الليلة الصيفيّة، في الحديقة مستظلا السماء ومستنشقًا عطر الياسمين، فطرب، وعبّر عن أنّ هذا أجمل ما يتمنّى، ثمّ شاء تخفيفًا للعبء، أن يترك البيت متوجّهًا إلى "روضة أبي العلاء" القريبة من بيتي، يغيب فيها سويعاتٍ إلى أن يقترب موعد النوم.

الذي وقع أني بدأت أسمع، بُعيد انصرافه، أصواتَ القذائف تتوالى في سماء العاصمة، فانتابني قلقٌ عليه، مع أنّ الخطر يتربّص بنا في الحدائق والشوارع كما في البيوت المحصّنة على حدّ سواء. فقمت أهتف إليه أستدعيه، ولكنّ الجوّال يجيبني بأنّ الخطّ خارج التغطية! فأين

ذهب الرجل؟ وهل حملوه من روضة الشاعر أبي العلاء المعرّي إلى حيث ابنُه الموقوف، لا سمح الله!

فتوجّهت إلى روضة أبي العلاء... وهناك رأيت الناس يحرسون بأنظارهم أطفالهم الذين يلعبون أمام أعينهم. وعلى الأرصفة هناك كراسي وطاولات، و"تين الصبّار" مقشّرًا منتظمًا صفوفًا فوق ألواح الثلج الأبيض، ونباتٌ أخضر وأزهار بألوان... والناس لا يتوقفون عن أكل التّين، وأنظارهم مرفوعة إلى السماء وكأنهم يشكرون الله لأنّ هذه القذيفة، أو تلك، لم تنزل على رؤوسهم!

ذلك كلّه لم ينفِ عني القلق من أنّ جوّال صاحبي "خارج التغطية". ومع ما انتابني من الهواجس البغيضة، تراءى لي أن أتصل بأسرته في حلب، فكأنني باتصالي أشعت القلق في صدورهم التي يسكنها الخوف ابتداءً، وتصوّرت المكالمات تنهال على جوّاله الملتبس!

و... يُطلّ عليّ، باسم الثغر طلق المحيا: لقد ابتعد إلى "حديقة الجاحظ" ترويحًا عن نفسه وتفريجًا لهمّه، وقال إنه أكل صندويشتَين اثنتين من لحم الفراريج مدعومتين بعبوتَين من الكولا! ولم أجد تفسيرًا عنده لصمت هاتفه عن الإجابة، ولكني سألته في انتقاله من روضة الشاعر إلى حديقة إمام الناثرين العرب، الجاحظ، ما إذا كان قد ملّ نظم "الشعر" فهو ينوي التحوّل إلى كتابة "النثر"؟

في عودته إليّ تعيّن أن ننجز معًا عملا. طلبت منه أن يساعدني في شطف ذلك الجانب من الحديقة تمهيدًا لمدّ الفراش ينام عليه. ولله كم أبدى أسفًا على المياه المسفوحة، وهم في حلب يتلهّفون على كأس من الماء العذب! فكان كلما سفحنا سطل ماء، نغترفه من البِركة (البَحرة)، يقول لي: «حرام، والله حرام»!

وفيما أخذ يكشط، بالمسّاحة المطاطية، البلاط المغسول تسريعًا لتجفيفه، كان يحدّثني،

ويستفيض، عن أنّ ابنه ما كان ليفكر في الفرار، وكلّ ما هنالك أنه، في أثناء إجازته، حرص على أن يلتقي بجدّته، المحبّة له، والساكنة في ضيعة باتت في قبضة "داعش"، فما أذنوا لها هناك بالسفر عندما أعلمتهم أنها تريد لقاء حفيدها الذي يؤدّي الخدمة، فطال انتظاره لها، واستأذن بالهاتف رئيسه الذي يعزّه، إلا أنّ هذا الضابط قُتل في قذيفة طالته، فجاء الخلفُ "يكتب" فيه... فكان ما كان!

ونحن نمدّ السجادة على البلاط، ثمّ الفراش والملاءة وأخرى غطاء، خطر لي أن أمازحه، فأقول بأنه قد تأتيه، في أثناء الليل، قطّة "تُشمشم" رائحة الفراريج المنبعثة من فمه، فليقم يغسل فمه! وضحكنا كثيرًا، قبل أن يُخلِد إلى النوم، يستمع إلى خرير الماء في البركة، ويتمتّع بالأنسام الرقيقة تأتيه من المروحة المنتصبة قرب رأسه.

في الصباح رأيت الفراش خاويًا خاليًا، فقد غادر الضيف الحديقة في وقت مبكّر ضمانًا للحجز في رحلة العودة إلى بلده.

وقد هتف لي بجوّاله – ذي التغطية! – يبشّرني بأنّ الحافلة قد خرجت اللحظة من حدود العاصمة، وحدّثني مرحًا بأنه لمح عند الفجر، في آخر الحديقة هناك، "جسمًا" غريبا يتحرّك، فراوده ظنٌّ بأن يكون في "حديقة بيت الأستاذ" شيء من تلك الكائنات الداكنة اللون! ثمّ سرعان ما تبيّن أنها قطّة صغيرة أليفة سوداء، جاءت إليه مستأنسةً، وأخذ يداعبها!

وما فاته أن يعبّر عن شكره، وعن سعادته بأنه نام أحلى نومة في حياته، في حديقة، تحت ظلال الياسمين، يسمع طول الليل ثرثرة الماء، والمروحة ترسل إليه أنساما تدغدغ وجهه وصدره وذراعيه... وسألني ما إذا كنت أرحّب به في زيارته المقبلة للعاصمة للسؤال عن حكم المحكمة!

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ١٩-١-٢٠١٦

عندما تأتي الكهرباء

يتجمّعون أمام "الإبريقُ الكهربائي"

يأخذ كلّ نصيبه من الماء الساخن

يملأ به "كيسه المطاطي"

يحتضنه بشغف

يُدفّئ به كفّيه والأنامل الباردة

قبل أن يجعله بين قدميه المتجمّدتين!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢٠-١-٢٠١٦

دموع ابنة أختي "دانية"!

• "جوّال" كأنه يُغنّي:

طَوال الرحلة من دمشق إلى حلب، كان يُخيّل إليّ أنّ جهاز "الجوّال" في يد جارتي الشابّة، عندما يرنّ يبدو لي وكأنه يُغَنّي، وحين يتحدّث أسمع مناغاةً، وأرى الأضواء تنبعث من أزراره وأرقامه وخلاياه كلِّها، وقد سألتها عن حصولها على هذا الجهاز السحري؟ فأجابتني بأنها أوصت عليه صديقةً حميمة فأتت لها به من انكلترا! فهنّأتها من صميم قلبي، دون أن تُخامرني رغبةٌ في أن أتملّك جهازًا مثله، فجوّالي، المتواضع، يقضي حاجتي وزيادة.

ومع تواصل الرنين، والغناء، والأضواء المنبعثة في عَتَمة الحافلة التي تقطع طريق السفر بنا ليلاً، خطر لي أن أقول، ونحن نمرّ في "الطريق السريع" قرب "معرّة النعمان"، أنّ جوّالها يُذكّرني

ببيت من الشعر لحكيمِ المعرّة: «ليلتي هذه عروسٌ من الزِّنْج، عليها قلائدٌ من جُمان»... وضحكنا.

إنها "دانية"، قُطوفٌ دانية، ابنةُ إحدى شقيقاتي، وهي واحدةٌ ممّن يقترب عددُهم من المئة، أحفادًا وأسباطًا، كان أبي سببًا في مجيئهم إلى هذه الدنيا الجميلة! وقد زارتني بدمشق، كي تُقابل مسؤولا في إحدى الجامعات الخاصة - وما أكثرها في زمننا! - في شأن متابعة دراسة الماجستير في العلوم الاقتصادية، لدعم مركزها في البنك الأجنبي الذي تعمل فيه، وما أُتيح لها خلال اليومَين الماضيَين أن تقابله، فقرّرت العودة خائبةً، وشئت أن أُرافقها في زيارة للأهل بحلب.

• و"محفظة يد" في العتمة تَبْرُق:

وفي الواقع لم يكن الجوّال وحده ما استرعى انتباهي، ولكن أيضًا "المحفظة" السوداء التي تحملها ابنة أختي في يدها وتضمّ الجوّال، والهُوِيّةَ، والمبلغ الذي لم يُقدَّر له أن يُدفَع قسطًا أول، وأشياء أخرى ممّا تُودِعها السيدات، وخاصّةً الفتيات المتأنّقات، في المحافظ التي لا تكاد تُفارق اليد. وكانت المحفظة، التي امتزج في صنعها الجلد والمخمل، تبرُق وتُعطي شعاعًا من أينما نظرت إليها!

لماذا أُسرف في ذكر هذه التفصيلات، التي أتت على نصف المقالة التي أنا بصدد كتابتها؟

لأنّ ذلك كلَّه قد ضاع، نسيناه في سيارة الأجرة التي أقلّتْنا من "كراج هنانو" بحلب إلى البيت!

• «هل تركت التكسي، يا خالي؟»:

بعد أن ودّعتُ دانية أمام بيت أمّها، وتابعتُ بالتكسي إلى بيت شقيقةٍ أخرى يحلو لي أن أنزل عندها، وما إن دخلتُ البيت، حتى كان الجوّال، المتواضع في جيبي ينبعث منه سؤالٌ لهيف

كأشدّ ما تكون اللهفة: «هل تركتَ التكسي، يا خالي؟»... ولكن الخال كان قد حاسب، وغادر، ودخل بيت الخالةِ الأخرى.

لقد نسيت دانية أن تأخذ محفظتها، البالغةَ الأناقة، بكلّ ما حوت. تركتها في السيارة، في المقعد الخلفي حيث كنّا نجلس جنبًا إلى جنب، ونزلتْ ونزلتُ.

أعترف بأنه انتابني شعورٌ بالذنب، تراءى لي معه أني قد أكون ألهيتُ دانية بأحاديثي "الشائقة"، بالتكسي بعد البولمان! ضاع الجوّال الذي سمعته يُغنّي، والمحفظة التي استمتعت ببرقها ولألائها، والقسط الذي أعرفه جاهزًا للدفع، وابنة شقيقتي لا تعدو أن تكون موظفةً مستجدَّة، تعمل، تدّخر، وتحدوها الآمال في الاستزادة من التحصيل العلمي.

وتقلّبتُ، في سرير الليل، قلقًا.

• وسائق التكسي تقلّب قلقًا:

هل كان سائق التكسي أمينًا إلى هذا الحدّ؟ فقد تبيَّن أنه، الآخر، تقلّب في فراشه، أو فوق الحصير، قلقًا!

كان من عادته أن يتفقّد سيارته لحظة يغادرها آخر الليل. لمح، في موطئ الأقدام في المقعد الخلفي، شيئًا قاتما ينبعث منه لمعان، وقد داسته أقدام ركاب، صعِدوا جماعةً ونزلوا، وما عرفوا أنّ ما داسوه كان محفظةً من جلد ومخمل أنيقَين، وأنّ فيها جوّالاً قد أُوصِي عليه من انكلترا، وقسطًا لاستئناف الدراسة!

• «هل تعرفين صاحبة هذا الرقم؟»:

طلب السائق عبر الجوّال أول رقم صادفه في القائمة. استيقظت "صاحبة الرقم" المطلوب مذعورةً، لتستمع إلى كلام غير مألوف: «هذا الرقم الذي يظهر عندك، صاحبتُه نسيت محفظتها في السيارة عندي!».

في وهلة صحوها, ظنّت في المتكلّم بعد منتصف الليل "معاكسًا"، فأخذت تتقلّب في سريرها أيضًا.

وفي الصباح هتفتْ إلى دانية.

فذهبنا إلى عنوانه، في مزرعةٍ شماليّ حلب على طريق "المسلميّة": كوخ، وحصير، و"تطبيقة فرش"... هل أرادنا أن نكون شهداء على حالته، وعلى أمانته؟

ـ انظري! المحفظة على حالها، بدوساتها، فقط سحبت منها الجوّال. عدّي المصاري، ما مددنا أيدينا إليها، الله وكيلك... تفقّدي أغراضك.

• دموع "دانية":

دانية، التي لم أسمعها تبكي لحظة أبلغتني بالفقدان، رأيت الآن الدموع تتحدّر من عينَيها. لماذا، يا دانية؟ لأنها لمست في الكوخ، وقرأت في عيون الأولاد اللامعة، وفي هذا الصغير الذي يخطو وذاك الذي يحبو فوق الحصير... حكاية فقر تدعمه أمانة مثاليّة!

مجلة "الأزمنة" الأسبوعية السورية: ٣١-٥-٢٠١٠

- - - - - - - - - -

(معاد)، دمشق الشام: فجر الخميس ٢٨-١-٢٠١٦

سؤال بريء

لو أنّ أحدًا يسأله:

عن عدد مَن قَتل وأسر في الجنوب؟

وعمّن، في شرق بلده، قَتل؟

لنعرف مدى جهاده في سبيل الله دمشق الشام: فجر الجمعة ٢٩-١-٢٠١٦

تربية.. سبع نجوم!!

كان "عامر" أكبر تلاميذ الصفّ عمرًا، وأشدّهم بنيةً، وأقلّهم دراسةً، وأكثرهم شغبًا، وكان دائم المعاندة لأستاذ الرسم، هذا الذي كانت أقلّ الكلمات بذاءةً يخاطب بها التلاميذ: «بعدين بعطيكن صَبّاطي[١] ترسموه ها!». فهل كان هذا الأستاذ من "أشقياء الأساتذة" مثلما هو عامر من "أشقياء التلاميذ"!

ذات يوم... قَرع بابَ الصفّ مدير المدرسة، و"سلّم" باليد للمعلم الشقيَّ عامر، الهارب من درس "الفنون الجميلة"، والمتواري في ناحية من مبنى المدرسة!

المعلم وجدها سانحة ليعاقب هذا التلميذ الشقي. أمر اثنين من جلاوزة الصفّ بأن يرفعاه. اجتهدا في خلع حذائه (صبّاطه) ولم يكن ذلك سهلاً، ثمّ انفرد كلّ منهما بقدم، ورفعا... والأستاذ يوالي شتائمه المقذعة. ولحظة أنزل الضربة الأولى على القدمَين الفوّاحتَين، تراءى له أن يرافقها بشتيمة من "الوزن الثقيل"، الثقيل جدا الذي لا يهضمه المواطنون الطيّبون عادة! وإذا التلميذ، الذي بدا الآن غيورًا على القيم، ينتفض انتفاضةً حرّرت القدمين، أو ربما "تواطأ" القابضان عليهما مع صاحبهما فأفلتاهما... انتصارًا للقيم!

الآن عامر ينهض، وهو يشتم المعلم، دفاعًا عن "القيم المهانة"، ومندفعًا نحوه.

المعلم بدا وكأنما انتابه خوف من تلميذه المتطوّر الشقاوة. قذفه بالعصا، آخر أسلحته، وفتح الباب وهرب.

لما رأى عامر معلمَه يولّي هاربًا منه، كفّ عنه، والتفت يوزّع النظرات والبسمات على

---

(١) بعطيكن صبّاطي: أعطيكم حذائي

زملائه، متمتّعًا بلذّة الانتصار، وعصا المعلم مرفوعة في يده.

ما وقع بعد هنيهة أنّ مدير المدرسة قرع الباب مرة أخرى، متيحًا للمعلم أن يدخل بعنايته وحمايته... فلا التلميذ الشقيّ عوقب، ولا عوقب الأستاذ: واحدة بواحدة!

الجميل أنّ هذه المدرسة اسمها "إعدادية ابن زيدون"، باسم الشاعر الأندلسي الرومنسي صاحب القصيدة التي مطلعها «أضحى التنائي بديلا عن تدانينا...»[١]، والأكثر مفارَقةً أنّ مديرها كان يردّد أنّ مدرسته هي الأرقى بين مدارس البلد.

وقع ذلك... في زمن بعيد... بعيد جدًّا!

دمشق الشام: فجر السبت ٣٠-١-٢٠١٦

كيف الحال؟

ردًّا على سؤال جاءه من صديقه «كيف الحال عندكم؟»، كتب يقول:

«ما زلنا، في هذه الأيام الباردة، نلتحف بالحرامات الصغيرة على الأكتاف، ونضع أكياس الماء الساخن في أحضاننا قبل أن نَزْلقها إلى ما بين القدمَين!».

فردّ الصديق، المغترب في أمريكا:

«ليتني ما سألتك، زدتَني وجعًا!»

دمشق الشام: صباح السبت ٣٠-١-٢٠١٦

«حوار مع فاضل السباعي».. قديم!

في عام ١٩٨١ نشرت مجلة "الموقف الأدبي" (يصدرها "اتحاد الكتّاب العرب" بدمشق)

---

(١) تمامه: وَنابَ عَن طيبِ لُقيانا تَجافينا

حوارا أعدّه الكاتب السوري "الشاب" المتميّز منذ ذلك الحين "سمر روحي الفيصل" (وهو اليوم أستاذ في إحدى جامعات الإمارات)، أقدم اليوم إجابتي عن السؤال الثاني.

- - - - - - - - - - -

• ما الموضوعات التي طرقتَها في رواياتك: تطوّرها منذ البدايات، ودلالة هذا التطوّر في رأيك، ومنحاه، وأسبابه الاجتماعية؟ هل هناك تكامل في معالجة موضوعات محددة؟ وهل هناك انفصال بين عالمَي الرواية والقصة لديك؟ لقد لاحظت أنّ عندك قصصًا قصيرة حوَّلتها إلى روايات أو قصص طويلة، فما هو مسوّغ هذا التحويل؟

•• أحيانًا، يُخيَّل إليّ أني روائي أكثر مما أنا قصصي. يوم كنت طالبًا في المرحلة الثانوية، شرعت أكتب رواية، يعلم الله كم كان سيجيء طولها! وقد كرّرت المحاولة عُقيب ذلك ثلاث مرات، دون أن يحالفني التوفيق، وكان من الطبيعي أن يأتي مشروع روايتي الأولى وثيق الصلة بالحبّ، ويظهر، في الثانية والثالثة، عنصر الأسرة، الذي ازداد بروزًا في مشروع الرواية الرابعة.

خلال محاولاتي الروائية تلك، كنت أكتب القصص القصيرة، وأنشر بعضها. إلا أنني ظللت أرنو بعينيّ إلى الرواية. وبعد أن نشرت لي مجلة "الأديب" البيروتية قصتي "الناس" (كانون الأول ١٩٥٦)، تراءى لي أن أعود إليها فأكتبها مطوّلة، وهكذا ولدت بين يدي القصة المطوّلة "مواطن أمام القضاء".

إنّ اختياري بعض قصصي القديمة التي أعتقد نجاحها وإعادة تأليفها مطوّلة، كان يُمدّني بثقة تجعلني أشعر بأني أقف على أرض صلبة.

وقد كرّرت هذه التجربة، في تلك المرحلة من عمري الأدبي، حين كتبت من جديد: "ثريا" (٢٢٢ صفحة)، و"الحمّام" (٤٦ صفحة)، و"الظمأ والينبوع" (١٤٤ صفحة).

وأعتقد أنه تَخْرج عن نطاق "التطويل" هذا، روايتي "ثم أزهر الحزن" (٤٠٠ صفحة)،

فقصتي التي اقتبستُ منها هذه الرواية لا تعدو أن تكون قصة قصيرة جدًا بالقياس إليها، وقد كنت أتطلّع، من يوم كتبتُ القصيرة، إلى كتابة موضوعها رواية! وغنيّ عن البيان أن ليس كل قصة قصيرة هي ممّا يصلح أن يحوّل إلى رواية.

مبدئيًّا، القصة القصيرة شكل فني محكم البناء، لا يصح أن يتنزّل إلا في قالب قصة قصيرة، ما دامت هذه تقوم، غالبًا، على حادثة صغيرة أو لحظة نفسيّة، ولكن يقع للكاتب أن تخطر له فكرة لقصة قصيرة ليست هي، بالضرورة، لحظةً نفسية مفعمة بالتوتّر ولا هي حادثة صغيرة، تكون شيئًا آخر، يتدبّره الكاتب بأحد الأساليب الفنية، كأنْ يبدأ القصة من نهايتها ثمّ يدع البطل يرتدّ بذاكرته القهقرى، أو يرويها على لسان البطل بضمير المتكلم (رسالة أو اعتراف)، مُضْفيًا على ذلك شحنات من التوتّر، أو لعله يكتبها بالتسلسل الميكانيكي للزمن... مثل تلك القصة - كما أرى - هي القابلة للتطويل، بعد إغنائها بالحوادث والشخصيات والمواقف. وفي هذا التصور، يساورني اعتقاد بأنّ العالم القصصي، في مضمار الاقتباس أو التحويل الذي قمت به، يقترب أو يتداخل في العالم الروائي، فليس بينهما انفصال.

دارت قصصي المطوّلة ورواياتي، حول حبّ متعثّر بين طالب وطالبة يدرسان في الجامعة (رواية "ثريا")؛ خلاف بين مواطنين ينتقل إلى المحاكم "مواطن أمام القضاء"؛ ومرافقة طفل، يبدأ ينمو، لأمّه إلى حمّام النسوان "الحمّام"؛ مواجهة، في دولة أجنبية، بين فتًى عربي تُعوزه التجربة وبين امرأة أجنبية محنّكة "الظمأ والينبوع"؛ أمّ وبناتها الخمس يواجهنَ الحياة فجأة دون معيل أو مال مدّخر "ثمّ أزهر الحزن"؛ النخبة، الأدباء، في إبداعهم ونجاحهم وزللهم "رياح كانون"!

من نفسي أستوحي، ومن ذكرياتي، ومن الدوائر الاجتماعية المحيطة بي (الأسرة، الجامعة، المهنة والوظيفة، دنيا الأدب والأدباء)، وكذلك ممّا قد يقصّ عليّ الآخرون.

وموضوعاتي، تراوِح بين البساطة والطرافة والإشكال، ولكنها تلتزم العفوي غير المحدد.

إني، على الدوام، مع الفقير المستضعف ضدّ مستغلّيه، ومع المضطهَد ضدّ مضطهديه.

ولعلّ الدارس يلاحظ التنوّع في الموضوعات التي أطرقها، بدءًا ممّا هو خاص إلى العام، مرورًا بالعلاقات بين الأدباء، تلك الفئة من المجتمع التي أخذ عليّ بعضهم أنها نامية محدودة العدد، لم تصبح بعد جديرة بأن تُفْرَد لها رواية تزيد صفحاتها على أربعمئة!

\- - - - - - - - - - -

المحاوِر: الدكتور سمر روحي الفيصل

مجلة "الموقف الأدبي" العدد الثلاثي (١٢٣-١٢٤-١٢٥، أيلول ١٩٨١) عدد خاص بالقصة القصيرة في سورية

\- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٣-٢-٢٠١٦

العودة إلى زمن الطفولة

في ثلاثينيّات القرن الماضي، وأنا طفل، نسكن في الدار العربية، أرض حوش، تتوسّطها بِركةُ ماء، وعرائشُ ياسمين، ودالية، وعسليّة، تزنّرها الحجرات، والليوان، والمربّع العالي..

تلك الأيام... لم نكن نعرف من وسائل التدفئة إلا المنقل، "نُصيّر" ناره في الصباحات الباردة، وندخل به الغرفة، لتنتشر فوقه أيادينا الصغيرة، وتتزاحم.

لقد ظللت أتساءل كيف أننا لم نكن نحسّ بوطأة البرد في تلك الشتاءات الحلبيّة!

في هذه السنوات، وقد عزّت التدفئة وأنا في شيخوختي البيضاء، عرفت.

دمشق الشام، صباح الخميس ٤-٢-٢٠١٦

الفنان التشكيلي الراحل «لؤي كيالي» في سطور

نظرا لاعتزام "دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع بدمشق" إصدار كتاب موثق عن الفنان لؤي كيالي، الرجاء من الأصدقاء الذين يرون خطأ في السطور التالية أن يتلطفوا في إمدادنا بالتصحيح على الخاص.

\- - - - - - - - - - -

• ١٩٣٤، ولد بحلب في ٢١ كانون الثاني. / يناير

• ١٩٤٥، بدأ هوايته للرسم.

• ١٩٥٢، كانون أول، عرض للوحاته في مدرسة "التجهيز الأولى" بحلب (ثانوية المأمون).

• ١٩٥٤، حصل على الثانوية العامة، وانتسب إلى كلية الحقوق بالجامعة السورية بدمشق.

• ١٩٥٥ اشترك في معرض تعهدته الجامعة، وفاز فيه بالجائزة الثانية.

انصرف عن دراسة الحقوق، وتوظف كاتبًا بسيطا في إحدى الهيئات العسكرية بحلب المعتمدية.

• ١٩٥٦، نجح في مسابقة أجرتها وزارة المعارف – التربية حاليًا – فأوفد إلى إيطاليا لدراسة الرسم في أكاديمية الفنون الجميلة في روما.

• ١٩٥٨، تفجرت طاقته الإبداعية وهو يدرس الفنون في روما، وأخذ يشترك في معارض ومسابقات.

نال الجائزة الأولى في مسابقة "سيسيليا"، التي تعهدها مركز "العلاقات الإيطالية – العربية" في روما.

• ١٩٥٩، نال عدة جوائز منها الميدالية الذهبية للأجانب في مسابقة "رافينا".

أقام معرضه الشخصي الأول في "لافونتا نيللا".

انتقل وهو يتابع دراسته الأكاديمية، من قسم الرسم إلى قسم الزخرفة.

• ١٩٦٠، مثّل، مع زميله الفنان "فاتح المدرس"، سوريا في معرض "البيناله" في مدينة البندقية.

أقام معرضه الثاني في صالة قصر المعارض في روما.

نال الجائزة الثالثة في مسابقة مدينة "غوبيو"، التي اشتركت فيها ٢١ دولة.

نال الجائزة الثانية في مسابقة مدينة "ألاتري".

أعوامه الذهبية:

• ١٩٦١ تخرج من أكاديمية الفنون الجميلة في روما، قسم الزخرفة

باشر عمله مدرسًا للتربية الفنية، في ثانويات دمشق.

أقام معرضه الثالث في صالة الفن الحديث العالمي في دمشق، حيث قدم ٢٨ لوحة زيتية و٣٠ رسمًا تخطيطيًا، فاستلفت على نحو غير عادي أنظار الفنانين والكتّاب والجمهور، وأكدّ مكانة الفن التشكيلي في حياة الناس.

• ١٩٦٢، انتقل بعمله من التدريس في الثانويات الرسمية إلى تدريس الرسم والزخرفة في المعهد العالي للفنون الجميلة (كلية الفنون الجميلة).

٥ نيسان: معرضه الرابع في صالة الفن الحديث في دمشق.

• ١٩٦٤، أقام معرضه الخامس في صالة "كايرولا" في ميلانو.

أقام معرضه السادس في صالة "الكاربينيه" في روما.

• ١٩٦٥، رسم في إبداع رفيع، لوحته "ثم ماذا؟ "، التي عبرت فيها عن مأساة اللاجئين الفلسطينيين العرب. وكان قد رسم خلال هذه الفترة الذهبية من عمره الفني، عشرات اللوحات الشخصية (البورترية).

أزمته النفسية:

• ١٩٦٦، بدأت تظهر عليه في خريف ١٩٦٦، بوادر أزمة نفسية، وأخذ يرسم في ظلها بالفحم لوحات صارخة تمثل عذاب الإنسان ونضاله،

• ١٩٦٧، ٢٤ نيسان: معرضه السابع في "المركز الثقافي العربي" بدمشق، تحت عنوان «في سبيل القضية»، قدّم فيه ٣٠ لوحة فنية من تلك اللوحات الصارخة المنفذة بالفحم، وتنقل المعرض بين حمص وحماه وحلب واللاذقية.

جوبه، في معرضه هذا، بانتقادات تهجمية من قبل فئة من الفنانين والكتّاب.

مزق في أعقاب المعرض لوحاته هذه كلها. وقد استطعت أستنقذ من بين يديه لوحة صغيرة هي دراسة للوحة «الإنسان في الساح» (الدراسة المستنقذة معروضة في هذا المعرض).

توقف عن مزاولة الرسم.

• ١٩٦٨، تفاقمت أزمته النفسية، وانقطع عن التدريس، واعتكف وحيدًا في بيته بحي العفيف بدمشق.

• ١٩٦٩، كانون الثاني، صحبه بعض أهله من حلب إلى بيروت لمعالجته عند الطبيب السوري الأستاذ بالجامعة الأمريكية الدكتور "علاء الدين الدروبي" فاسترد صحته النفسية.

في مطلع العام الدراسي ٦٩- ٧٠: عاد إلى التدريس في كلية الفنون الجميلة بدمشق، ثم ما لبثت صحته النفسية أن تردت.

• ١٩٧٠، ١٠ كانون الثاني: توفي أبوه في حلب.

٢٨ كانون الثاني صحبته من دمشق إلى بيروت لمعالجته عند طبيبه الخاص.

عاد إلى مزاولة الرسم، وهو في مسقط رأسه حلب.

• ١٩٧١، ٢٦ شباط: أحيل على التقاعد لأسباب صحية، وترتب له معاش من الدولة مقداره ١٤٢,٥٠ ليرة سورية.

أخذ يشارك في المعارض التي تقيمها نقابة الفنون الجميلة التي كانت قد أُسِّست حديثًا.

نيسان: قدم من تلقاء نفسه هدية: لوحتين إلى مجلس الشعب، ولوحتين إلى الاتحاد العام النسائي.

• ١٩٧٢، عاودته الأزمة النفسية.

كتب إلي في ١٦ حزيران: «لتمزيق الدراسة السريعة بالأبيض والأسود للوحة «الإنسان في الساح» المهداة مني إليكم».

كتب إلي، في ٣٠ آب وقد استرد عافيته: «إنني أرسم بحماس جيد وباستمرار» ثم كتب في ٢٥ أيلول معربًا لي عن شكه في مقدرته على أن يرسم البورترية بسبب انقطاعه السابق عن الرسم.

تشرين الثاني: معرضه الثامن في منزل طبيبه في بيروت الدكتور "علاء الدين الدروبي".

الفترة الذهبية الثانية:

• ١٩٧٣، استطاع أن يقتني، لأول مرة في حياته، بيتًا صغيرا في حلب، اشتراه من حصيلة معرضه مضافًا إليها قرض من المصرف العقاري.

• ١٩٧٤، ١١ حزيران: معرضه التاسع في صالة "الشعب" للفنون الجميلة في دمشق.

ألف زميله الفنان "ممدوح قشلان" نقيب الفنون الجميلة كتابًا بعنوان "لؤي الكيالي".

• ١٩٧٥، ٤ آذار: معرضه العاشر في "غاليري واحد" في بيروت.

• ١٩٧٦، كانون الثاني: أسهمت مجلة "العالم العربي في كندا" باشتراكها ب ٤٢ لوحة لـ"لؤي الكيالي" و"فاتح المدرس" (هي من مقتنيات صاحب المجلة، السوري المهاجر) في «الأسبوعين للثقافة العربية» الذي نظمته "مؤسسة الأوبلف" في مونتريال.

في الربيع: رسم "من وحي أرواد" للمتحف الوطني بدمشق (٤٠٠×١٢٥سم)

٢٢ نيسان: أقام هو وزميله "فاتح المدرس" معرضًا مشتركًا في صالة العرض في المتحف الوطني بحلب تعهدته نقابة الفنون الجميلة.

الأول من حزيران: معرضه الحادي عشر في صالة الشعب للفنون الجميلة بدمشق، قدم فيه ٤٥ لوحة (كانت كلها مباعة في حلب قبل افتتاح المعرض).

الانتكاسة.. والموت احتراقًا:

• ١٩٧٧، في الربيع: رسم "من الريف" للمتحف الوطني بحلب (٣٠٠×١٨٠سم).

٧ أيار: سافر إلى العاصمة الأردنية ومعه لوحات لعرضها في "غاليري عاليه"، ولكن المعرض لم يتم لخطأ في الإجراءات، فكان هذا الحادث شديد الوطأة عليه.

الأول من حزيران: معرضه الثاني عشر في صالة الشعب للفنون الجميلة برعاية وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

تعرض لهجمات من قبل فنانين وكتاب في حلب.

قرر الهجرة إلى إيطاليا، فباع بيته وما يملك، وغادر البلاد في كانون الأول وهو يحلم بأن يزاول الرسم في روما في مناخ أفضل.

• ١٩٧٨، شباط: عاد إلى حلب مخيب الرجاء.

اعتزل الناس. أدمن على تعاطي حبوب مهدئة مخدرة. فكان بذلك كمن ينتحر رويدًا رويدًا على مشهد من عارفيه!

ليل ٩ – ١٠ أيلول: احترق وهو في سريره، نقل بطائرة عمودية من مستشفى جامعة حلب إلى المستشفى العسكري في حرستا (شمالي دمشق).

الثلاثاء ٢٦ كانون الأول: وافته المنية في مستشفى حرستا، وفي اليوم التالي ووري الثرى في "مقبرة الصالحين" في حلب.

– – – – – – – – – – –

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٥-٢-٢٠١٦

كبّاد، وفنجان قهوة، وصُوَر!

ويزورني الأصدقاء في بيتي، ولا يتمالكون من التقاط الصُّوَر، عند شجرة الياسمين المستغرقة في سُباتها إلى أن يوقظها الربيع، وفي ظلال أشجار الكبّاد (الأُتْرُجّ)، تتدلّى من أغصانها الثمار الصُّفْر، يتأمّلونها بالنظر، أو يلامسونها بالأيدي تحبُّبًا وأنا أناديهم: لا تجوروا عليها باللمس، فإني أريدها حتى أيام الصيف!

وتتحّدث الصديقات طالباتُ الدراسات العليا في الآداب، يساعدنني في إعداد كتبي المستحِقّة للنشر، أنّ صاحبة ذلك البيت، القائم فوق مرتفع في جبال اللاذقية، بعد أن فرغوا من تصوير مسلسلهم الأخّاذ، الذي شاهده الناس وامتلأت قلوبهم إعجابًا، أخذ الهواة منهم يمرّون بالبيت، وقد أمست له في الذاكرة الجمَعيّة منزلة، ليلتقطوا الصور، في غُرَفِه وما حوله.

وأنا وأصدقائي، نرتشف – بعد صور الكبّاد – القهوة، سادة وبسكّر زيادة، حول البركة

(البَحْرة)، التي تنبثق من ثناياها خيوطٌ من ماء، تتساقط قطراته على سطحها... في أغنية، في موال لا ينتهي... ويلتقطون الصور!

دمشق الشام: صباح السبت ٦-٢-٢٠١٦

لم أكن أعرف

لم أكن أعرف، من قبل، صباح حواصلي، ولا زوجته الأديبة التشكيلية فريال دياب، ولا الابنة المتميّزة فرح، أو الحفيد الصغير صاحب الأسئلة الذكية، إلى أن أتيح لي أن أعرف - عبر شبكة التواصل - شيئا من ملامحهم الشخصية الجميلة وبعض تفاصيل الحياة... ومنذئذ ما تخلّيت عن حضّ عميدهم صباح، الأديب المكتشَف مني في السنوات الأخيرة من عمر الزمان، على أن يكتب ويكتب، وألا "يتقاعس" (عفوا من اللفظ) كما ظلّ يفعل فيما مضى، وأن يبادر إلى نشر نفثات قلمه وزفرات روحه، الجديد منها والقديم، في كتب أنيقة يذيعها بين الناس بأسرع ما يكون.

ويفاجئني، صباحَ يوم، فرعٌ آخر من هذه الأسرة، شقيقته "سحر"، وقد عادت للتو من هنالك، محمّلةً بتوصية من أخيها بأن تزور هذا المقيم في "شارع نوري باشا" بدمشق. فتأتّى لي أن ألمس من لطفها ما توقعت، وقد أغرقتني بالصور تلتقطها لي وأنا أتحرّك في بيتي وحديقتي، أو أكتب كلمات الإهداء على كتبي.

الطريف أني سألتها - بفضول كاتب روائي - عن الأشقاء، وأنا أعرف أنّ الأب كان قد تعرف وهو يدرس الطب في ألمانيا قبل منتصف القرن الماضي على رفيقة العمر، وعاشا في الوطن ما بين دمشق وحماه، عن عدد من أنجبت الأم، أجابت باسمة: ستة، ثلاثة وثلاث، فلم أردّ بابتسامة ولكن بضحكة صدرت من القلب: سيدة ألمانية تستجيب للموروث الاجتماعي

في بلدنا!

وسوف أظل أذكر ما كان كتب لنا صباح، أنه لاحظ أمّه يوما وقد استغرقها التفكير، فأجابته بأنها تتذكر البيت الذي ولدت فيه، والآن يهزها الشوق إليه!

إنه الوطن، مسقط الرأس، ملعب الطفولة، يا ناس!

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٧-٢-٢٠١٦

نعرف أنّ العالم متواطئ علينا

نعرف أنّ العالم متواطئ علينا، أو أقلّه ملتزمٌ الصمتَ تجاهنا

ولكن... لماذا يتركون الدبّ الروسي يعبث بنا ويقتّلنا بدم بارد!

دمشق الشام: مساء الإثنين ٨-٢-٢٠١٦

هل هي أُمنية تاريخيّة

هل هي أُمنية تاريخيّة

يحلُمون بها من زمان

يعتقدون أنهم ظفروا بها

ولن يدعوها تُفلِت من أياديهم!

دمشق الشام: فجر الإثنين ٨-٢-٢٠١٦

كلما تذكّرت

كلما تذكّرت

ما ارتكبت في حياتي من أخطاء

تمنّيت لو أني أعود أُولد من جديد

وكلما فكّرت فيما حققت من إنجاز

تمنّيت لو أعيش طويلاً

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٩-٢-٢٠١٦

ما خاب ظنّي بإعلاميٍّ انتقل من موقف إلى نقيضه

ما خاب ظنّي بإعلاميٍّ انتقل من موقف إلى نقيضه

كما خاب بتلك الإعلاميّة، التي عرفناها في مقابلاتها التلفزيونية تُعنى بالثقافة وتتغنّى بالإبداع

ثمّ فوجئنا بها تقبّل البوط العسكري، تقديرًا منها للحكم الفردي الذي ترى فيه محقّقًا للآمال والأحلام.

دمشق الشام: عصر الأربعاء ١٠-٢-٢٠١٦

فاضل السباعي لـجريدة «الوطن» الدمشقية:

يقولون لي: قصصك إن نشرناها تُدخلنا السجن و"تفوّتنا بالحيط"! [١]

(الحوار كاملاً، وقد نشر هنا على حلقات أربع في الأيام من ١ إلى ٤ شباط ٢٠١٥)

تقديم من المحرر:

---

(١) عبارة عامية تعني في هذا السياق: تُضيّعنا وتخلق لنا مشاكل.

إلى جوار أشجار الكبّاد[1] والنارنج وتحت ظلالها، وقبالة بحرة صغيرة مزدانة الألوان، في منزله الدمشقي، يعيش «فاضل السباعي» وحيدًا وقد غازل الثمانين، بقامة فارعة لا تشوبها انحناءةٌ أو تثاقل، متواصلاً متفاعلا مع كلّ ما يجري.

لا يُخفي شوقًا، مغلّفًا بالعتب تارة وبالحنان تارة أخرى، إلى أبناء له وأحفاد يقيمون في بلاد الاغتراب.

كثيرا ما يجنح إلى "الفانتازيا" في الكتابة طريقًا رحبا للتعبير و"اجتنابًا للمساءلة" وهو القانوني الذي يمارس الأدب كتابةً ونشرا منذ ما يزيد على نصف قرن، يكتب عن الفقر والفساد وعن "المغلوب على أمرهم" بحدّة وجرأة، ويُتّهم بأنه برجوازي.

- - - - - - - - - - - - - -

(إدمان وحوار وصراخ)

* أستاذ فاضل السباعي، أنت تغازل الثمانين من عمرك المديد، ومع ذلك نراك في كامل بهائك تبزّ الشباب عطاءً وحيوية ونقدًا صارمًا لما لا يروق لك من الأمور... ما السرّ في ذلك؟

** "إطراؤك" هذا الذي بدأت به حديثك، يجعلني عاجزًا عن القول! ومع ذلك أتلمّس ما أعتقد أنه السرّ فيما تقول.

إنه الصدق مع الذات. الثقة بالنفس والثبات على الموقف. القراءة المعمّقة لأوراق الزمن الماضي والحاضر والآتي أيضًا. وأنت تلاحظ أني لا أدخّن. أحاول أن أمشي كلّ يوم. أكتب ما ينسجم مع مواقفي في الحياة لا مع ما أرتجي منه النفع القريب. أدمن مشاهدة الندوات في الشاشة الصغيرة. أحاور بمنطق يقولون إنه "قانوني" مثلما أُحسِن الإصغاء. ولكني – وهذا ما

---

(١) الكبّاد في الفصحى:الأُتْرُجّ.

يُستغرب - أنام وأصحو دون نظام، فقد ألبث وراء الطاولة أو الحاسوب حتى موهن(١) من الليل.

* ظلّت أعمالك القصصية والروائية تتناول هموم الفقراء والمرأة والأطفال، ثمّ المثقفين المضطهدين حتى إنّ أحد النقاد سمّاك "أديب المثقفين"، هل استطعت أن تنتصر في أدبك لهؤلاء بالصورة التي تتمنّاها؟

** إن كنت تقصد "بالتناول" الاهتمام بهم والوقوف إلى جانبهم والدفاع عنهم، فإنّ هذا متحقق فيما كتبت طوال مسيرتي الأدبية، فأنا ناصرت الفقراء والبسطاء والشعبيين منذ بدأت رحلة الكتابة أوائل الخمسينيات، فلما رأيت سماء الحرية تَغيم، وتغيب في ذلك أسباب الحرية، ظهر في أدبي القصصي "نموذج" المثقف المُعاني.

فإن كنت تسألني ما إذا تأتّى لي أن أرفع الظلم عنهم، فإنّ ذلك يخرج عن نطاق الأديب. الكاتب يُعبّر، يُصرِّح، يصرُخ، وأما تحقيق الغاية من الأدب فمرهونٌ بظروف أخرى.

* في قصتك "العينان في الأفق الشرقي" مثقفٌ يحنّ إلى الحرية، فيقع في قبضتهم لحظة أخذ يفكر في الحرية، فأجهِزتهم «ترصد الأفكار»، وهناك عانى، وتجرّع الإهانات، وتمّ «غسل دماغه» حتى إنه قَبّل بسطار الجلاّد... لماذا ينتهي أبطالك في هذه القصص إلى الخيبة الأليمة التي تعادل الموت؟

** ذلك كي أستنهض همّتك وأُجيّشك، حتى نقف أنت وأنا في صفّ المظلومين، ولا يَعنيني أن أرسم البسمة على شفتَي القارئ وأجعله ينعم بمباهج النصر، إنّ النصر، في مثل هذه القصص، حلمٌ يُنشَد. وهذه القصة التي أشرتَ إليها، ظلّت عند رئيس تحرير مجلة "الموقف

---

(١) نحوٌ من نصف الليل، أو بعد ساعةٍ منه.

الأدبي" العامَ ١٩٧٣ كلّه (زكريا تامر)، وهو يُسوّف في نشرها إلى أن أعلن رفضه لها صراحةً، فنُشرت في مجلة "الكاتب" المصرية في عشرين صفحة رافقتها ثلاث لوحات (اسكتشات) معبّرة.

(استبعاد وعتاب و"طَجّ" ختم)

* إنها الرقابة إذا؟

** قل "الرقابات" بالجمع، فثمة رقابة تمارسها الدوريّة (الجريدة والمجلة) قبل رقيب الكتاب.

فأما رقيب الكتاب، أعني وزارة الإعلام ومَن تُحيل إليهم مِن جهات مختلفة حسب التخصّص، فأمرها بات أيسر ممّا كان. أعترف بهذا. إنّ كتابي الأخير "تقول الحكاية"، مع شدّة النقد في قصصه العشر، وكنت كتبت نصفها في العام ٢٠٠٤ وأنا في لوس أنجلوس ويعود النصف الآخر إلى ما قبل عشر سنين أو عشرين، أُذِنَ بطباعتها دون الاعتراض على كلمة واحدة فيها.

وفي الدوريّات... إنهم يرفضون خائفين، وكم سمعت من مسؤولي المجلات مثل هذا القول: «إنْ أنا نشرت قصتك دخلتُ السجن!»، أو «قصتك هذه تُفَوّتني في الحيط!». وعندي من ذلك نكات.

* مثلاً؟

** مثلاً قصة سمّيتُها "أحلام العاشقين" تُشيد بمؤسسات المجتمع المدني توصُّلاً إلى الحرية، تسلّمها رئيس تحرير "المعرفة" (عبد الكريم ناصيف)، فوافق على نشرها بعد تحفّظ، فلما آن دورها للنشر كان الرجل قد ترك المجلة وجاء آخر (حسين حموي)، عندما قرأها الخلف ارتجف، وحمل القصة إلى وزيرته (د. نجوة قصاب حسن) التي وافقته على استبعادها. عاتبتُه،

فقال: «دع الأمر لي، سأعرضها ثانية على الوزيرة حين تكون مرَوَّقة!»، فبعثت بالقصة إلى أشهر مجلة عربية، نُشرت، ودخلت.

الحكاية لم تنتهِ. إحدى الكاتبات السوريات المبدعات، عبير إسماعيل، صار لها صفحة في جريدة "الثقافة الأسبوعية" بدمشق بعنوان "أوراق لا تذبل"، تَنشر فيها بكلّ عدد نصا أعجبها، عربيًا كان أو مترجمًا، وصل إليها كتابي، فاختارت بالمصادفة منها للنشر "أحلام العاشقين"، عُرضت موادّ العدد على وزارة الإعلام، التي "طجّت الختم" بالموافقة، وظهرت القصة في سورية في مجلة غير مجلة "المعرفة".

أقول: إنه اختلاف في المعايير وفي الأمزجة! والآن إن شئت فانسلْ مِن "تقول الحكاية" قصة عنوانها "في قصر المرايا"، وانشرها في "الوطن"، أظنّها تُمتع القراء دون أن تُغضب الرقابة!

(وا خجلة الأدب!)

* أستاذ فاضل، أنت عضو مؤسس في اتحاد الكتّاب العرب ١٩٦٨-١٩٦٩، وكنت من بين المؤسسين الذين كُرّموا في الشتاء الماضي في حفل كبير... كيف تنظر إلى أداء الاتحاد على صعيد الأدب والنشر؟

** لا نظر لي، ولا رأي! أنا مغيّبٌ وهم "الصاعدون". إنّ من يدخل منهم "عالم الأدب" تُفتح له الأبواب على مصاريعها، بدءًا من الانتساب حتى البروز والإيفاد، بعضهم لم يدع بلدًا، ممّا يَعقد الاتحاد معه اتفاقًا ثقافيًا أو لا يعقد، إلّا زاره موفدًا أو سائحًا متفرّجًا!

أقول: إنّ من تَقْصُر قامته الأدبية عن أن تبلغ كتفي، نشر له الاتحاد كتبه، كثيرا من كتبه، تلك التي ترقد في المستودعات مدة، قبل أن تَحمل كثيرا منها "الكميونات" إلى معامل الكرتون!

وأنا، يا علي يا حسن... لماذا طرحت هذا السؤال فنكأت[١]؟ إني، وأنا العضو المؤسس في الاتحاد قبل أربعين من الأعوام، ما قدّمت إلى الاتحاد مخطوطة كتاب أملاً في ظهورها ضمن منشوراته، إلّا رفضها. أول الرفض أني قدّمت مخطوطة فاعتذروا "لعدم الجدارة"، وا خجلة الأدب! وحقيقة الأمر أنّ من سعى إلى ردّها هو "عبقريّ القصة السورية"، لأنه وجد أنّ ما في هذا الكتاب من أدب يضاهي أدبه الذي يتباهى به، ثمّ نُشر الكتاب في بيروت بثلاث طبعات، متلاحقة، وبعد الرابعة ظهر الكتاب في باريس مترجمًا إلى الفرنسية... فتأمّل!

* من تقصد بعبقريّ القصة السورية؟

** لا أريد ذكر اسمه، لكنها ثقافة الإقصاء والإزراء، والكراهية والأنانية. اللقمة الطيبة لهم وحدهم، نعم، «أيتام على مأدبة لئام»، هجرتُهم، وأنشأت مؤسسة خاصة بنشر أعمالي، الجديد منها وما سبق طبعه، أقترض من مصرف التسليف الشعبي، أطبع، ثمّ أسدّد، ويشتمونني بأني "برجوازي"!

(التصفيق للأنظمة، وانتقادها)

* بصفتك صاحب قلم جاذ[٢] وحادّ (بنقطة ودونها) كيف تنظر إلى الإعلام؟

** دعني أقول: أولًا ليس عندنا إعلام خالص من التحيّز. إنّ من يُعْلِم، من يوصل المعلومة إلى الجمهور، لا بدّ من أن "يُطعّمها" بنكهة من عنده، هي التحيّز، مدّعيًا أنه ينحو نحو الحقيقة، طبعًا كما يراها.

ولكن للتحيّز درجات، آخرها، أمرّها، ما يمارسه الإعلام الرسمي العربي في ظلّ

---

(١) أي أثرتَ مسألةً قديمة مؤلمة، تشبيهاً بالجرح القديم إذا نكَأْته.

(٢) يصلح في هذا السياق: جاذ وجاد، فتلك تعني: القطع والتكسير، وهذه تعني: الرَصِين، الرَزِين، المُجْتَهِد، وتعني كذلك: الذي يأتي بالجديد ويبدع ويبتكر.

الحكومات الاستبدادية، وفيه يتناهى التحيّز، والطامّة أن يبلغ النهاية: كلّ من ليس معنا فهو ضدّنا! ومن حسن الحظّ أنّ في حياتنا اليوم إعلاما غير رسمي، يمنح مجال القول لكثير من أصحاب الرأي الموصدة أبواب التعبير الحرّ أمامهم.

* إنّ دراسات عربية كتبت حول أدبك، وإنّ مستشرقين اهتمّوا... ماذا عن ذلك المستعرب الذي استرعى انتباهه نمطٌ من القصص التي تكتب؟

** قرأ مستعرب بجامعة استوكهولم، اسمه "فيليب سايار"، كتابي "آه يا وطني! " مستعيرًا إياه من أستاذه المشرف، فهتفوا إليّ من هناك بالنيّة لإعداد أطروحة عن "الفانتازيا السياسية" في قصصي، وحضر المستعرب الشاب إلى دمشق، واستفسرني بأسئلة، ثمّ وضع أطروحته بالإنكليزية، ونال عليها المؤهّل، وهي تُنقل الآن إلى العربية لتُطبع بكتاب بدمشق.

تقول إني كاتب رائج في وطني، أقول لك: ولكنّ خريجي آداب دمشق يجهلون حتى اسمي! وغير قليل من المثقفين والأدباء في الوطن يسمعون باسمي ولم يقرؤوا لي! الطريف أني، في كلّ حين، أتعرّف على من "يكتشف" فجأة أني كاتب يجيد الكتابة، آخرهم زميلاي في اتحاد الكتّاب، عبود كاسوحة وقاسم عزاوي، وقبلهما "الدكتور..... " (أحد المديرين في مكتبة الأسد)، هذا المثقف الباحث الذي أدهشه - كما عبّر لي بصراحة - ما وجد في قصصي المكتوبة ما بين ١٩٦٦- ١٩٧٢ (الخمس عشرة قصة التي ضمّها كتابي "حزن حتى الموت") من معرفة بمواطن الخلل والفساد والقهر في الوطن العربي في وقت مبكّر، يقول: يوم كنت أصفّق للأنظمة كنت أنت تنقدها بشدّة، كنت متنبّئا! قلت: لا تنبّؤ ولا نبوءة! إني رجل ذو بصر وبصيرة ليس إلّا.

في كلّ يوم ألتقي مَن "يكتشفني"، كأنني أرض مجهولة! وهذا يسعدني وإن كان يأتي وأنا أغازل الثمانين، كما تقول!

* في عبارة الإهداء من كتابك الأخير "تقول الحكاية"، كتبتَ: «قصص تدقّ باب الحرية بيد غير مضرّجة»... ماذا تعني؟

** (يضحك) إنّ اليد، إنّ الأنامل التي كتبت، كانت مضرّجة ليس بالدم، بل بالحبر الأسود، هذا "التضريج" - إن صحّ على الانتفاض على كلّ ما هو متخلّف، وفاسد، وعَفِنٍ عَطِنٍ، بكلّ وسيلة يملكها الكاتب.

علي حسن (من أبناء الحسكة)

جريدة «الوطن»، دمشق، العدد ١٦٨، ٢ تموز/ يوليو ٢٠٠٧

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٠-٢-٢٠١٥

(معاد) دمشق الشام: صباح الأربعاء ١٠-٢-٢٠١٦

أولى رسائلي (١٩٥٣) إلى مجلة "الأديب" اللبنانية أعرض نشر قصة لي!

سيدي الأستاذ ألبير أديب

تحية طيبة، وبعد،

لقد مضت عليّ سنوات، منذ أن سرقتني المطالعة، وأنا أترقب في مطلع كل شهر مجلة الأديب، لأمضي إلى جانبها ساعات عِذاب قارئًا، متقصيًّا.. وكنت أتمنى حينها لو أسهمت في تحريرها، ولكني كنت أرى أن كتابتي أقل من أن تنشر في مثلها...

على أنني، بعد مضي تلك السنوات الطوال، أعتقد جازمًا بأن في قصصي ما يستحق أن يتبوأ مكانة على صفحات الأديب.

ويسعدني اليوم أن أسهم في تحرير مجلتكم، وأغدو في عداد كتابها النحارير، ولكن مجرد رغبتي هذه واعتقادي، ليسا يجديان نفعا، إذا لم يصادفا منكم الأذن الصاغية، والتأييد

والتشجيع.

وهذه قصة كتبتها وأنا في مصر منذ شهور، وأملي شديد في أن تحوز إعجابكم، وألا يحول طولها (ثلاث صفحات من الأديب) دون نشرها.. وإنه ليسعدني كل السعادة أن أقرأها في عدد من الأديب قريب.

وتفضلوا بقبول فائق الشكر والامتنان سلفا سيدي.

حلب ٣-١٠-١٩٥٣ التوقيع

عنواني حتى آخر الشهر الجاري: حلب – ٤١ شارع الزهراوي بالجميلية

وابتداء من أول الشهر التالي: القاهرة – ٢٢ شارع الدقي، شقة ١٢

– – – – – – – – – – –

تعليقي اليوم:

في عودتي، بعد ستين سنة تقضّت وزيادة، إلى هذه الرسالة التي وجّهتها إلى رئيس تحرير مجلة "الأديب" الثقافية الشهرية، المرموقة في عصرها والمذكور دورها الريادي حتى يوم الناس هذا، آملاً في أن يتلطّف بنشر قصة لي، أرى أنّ نصّها كان متوازنًا في التعبير عن الإعجاب بالمجلة وفي تبيان المطلوب، وأنا في سنّي تلك (الرابعة والعشرين)؛ كما ألاحظ اتّباعي أسلوب "الإملاء المصري" – إن صحّ التعبير – في إغفال تنقيط الياء المتطرّفة وأنا طالب بجامعة القاهرة، وكذلك إهمالي لتهميز الألف الليّنة! (١)

الذي كان أنّ الأستاذ ألبير أديب – رحمه الله – بادر إلى نشر القصة (التي أغفلت ذكر اسمها

---

(١) صحّحنا ذلك أثناء الإعداد للطباعة.

وهو "بعد الإعصار"، إمّا سهوًا مني وإما تعويلاً على أنّ ورقها مرافِق للرسالة!) في أول الأعداد المعدة للنشر (كانون الأول ١٩٥٣)، فأمدّني ذلك بمزيد من الثقة بالنفس، قبل أن أغدو واحدا من كتّابها المكثرين في النشر بها، وهي التي كان قد تخرّج فيها قبلي السيّاب والبياتي ونازك الملائكة ونزار قباني!

الطريف أخيرًا أنّ صديقي في شبكة التواصل الاجتماعي، مهنّد الكاطع الراصد لتاريخنا المعاصر، دأب منذ مدة على أن يزوّدني أحيانًا بأريحيته الطيبة على الخاص بصور لنصوص مما نُشر لي في "الأديب" في خمسينيّات القرن الماضي خاصة.

وأما القصة موضوع الرسالة فقد بدا أني تريّثت في نشرها إلى الطبعة الثانية من كتابي الأول "الشوق واللقاء" (دار إشبيلية للدراسات والنشر، دمشق ١٩٩٢).

لروح صاحب مجلة الأديب، الشاعر البير أديب (١٩٠٨-١٩٨٥) السكينة ولذكره الديمومة، وقد تخرّجت في مجلته أفواجٌ من الكتاب العرب.

دمشق الشام: صباح الخميس ١١-٢-٢٠١٦

«عفوًا، أيها الزملاء.. مقالاتكم وصلتني متأخرة!»

في شأن رئيس اتحاد الكتّاب، الذي عَمَّر في الرئاسة ثمانيَ وعشرين سنة تقدّمها عامان كان فيهما نائبًا للرئيس حافظ الجمالي،

أشهد أنّ الرجل كان بارعًا في إنشاء المجلات الثقافية التي تصدر عن الاتحاد، فبعد "الموقف الأدبي" الشهرية (١٩٧١)، عمل على إصدار "التراث العربي" و"الآداب الأجنبية" (وهما فصليتان)، و"الأسبوع الأدبي" (أسبوعية كما يتّضح)، وأتْبع ذلك كله فصليةً اسمها "الموقف السياسي"، وأخيرتين - أظنّ - فصليتين بالفرنسية والإنكليزية، وبدا ذلك كله مرحّبًا

به من قبل المثقفين في القطر وغيره، وكنا نراه يكتب في كلّ هذه الدوريات بدأب ملحوظ.

ما أودّ الوقوف عنده أني لاحظته يزوّد جريدتنا الأسبوعية بالمقالة الافتتاحية تلو المقالة، ولكلّ منها مكافأة مجزية.

وقد خطر لي يومًا أن أسأل زميلتنا "قمر كيلاني"، وكانت عضوا في "المكتب التنفيذي"، لم لا يُسهمون هم أيضا في التعبير عن آرائهم في هذه الافتتاحيات؟ فأجابتني: «هو يقول لنا "تعالوا اكتبوا"، وعندما نكتب يقول لنا مرة بأنّ المقالة غير مناسبة للظرف، أو أنها وصلت إليه متأخرة، أو أنها طويلة أو قصيرة... حتى مللنا فانصرفنا عن المحاولة!»، أو كلامًا بهذا المعنى.

وكان رئيس الاتحاد يجمع هذه الكلمات وغيرها من المقالات، في كتب تصدر ضمن منشورات الاتحاد، جزءا من خمسمئة صفحة بعد جزء. وقد اتفق أن أخذت مرة إلى "المعرض الدولي للكتاب بالقاهرة" (بصفتي ناشرا ولي في هذا المعرض جناح) نسختين من كل من جزأين من هذه الأجزاء، فما امتدّت علم الله يدٌ إلى النسخ الأربع على الرفوف، وإنها من يومئذ في مستودع بالقاهرة تشكو الوحشة وتعاني من الغبار.

وللعلم، أيها الأصدقاء، ليس لي بين آلاف الكتب التي أصدرها الاتحاد في أعوامه المديدة، كتاب واحد... يبدو أنّ مخطوطاتها كانت تصل متأخرة!

وللحديث... صلة.

دمشق الشام: فجر الجمعة ١٢-٢-٢٠١٦

لسّه بتمشي؟ ١من٣

من أصدقائي مَن سبقني إلى جنان النعيم، ومنهم من اصطلحت عليه الأمراض والعلل، أو غابت عنه ذاكرة الأيام، ومنهم...

صباح اليوم أتاني صوت صديق قديم توالت علينا سنواتٌ دون أن نلتقي، يهتف إليّ من بيته – الذي قال إنه لم يعد يستطيع أن يغادره – يسألني بصوت كليل: «لسّه بتمشي!».

فلما أجبته بنعم، أسرع يقول: «مشان الله تعال زورني، اشتقت لك كتير!».

(أعترف لكم، أيها الأصدقاء، أني كنت أنهيت الخاطرة بـ«وذهبت إلى بيته غير البعيد سيرا على الأقدام»، ولكني حذفتها في اللحظة الأخيرة استبعادًا للتباهي)

دمشق الشام: مساء السبت ١٣-٢-٢٠١٦

وقال في نفسه: وبيتذكّر كمان! ٢من٣

لم يكن الطريق طويلاً إلى بيت صديقي، فلما وطئتُ عتبتَه ظننتُني "زعيمًا" يدخل بيت الأمّة، وما كانت "الأمّة" إلا الصديق "أبو خالد"، وزوجته التي بدت لي أقوى منه بنيةً وأصلب عودًا.

ـ كيف الصحة؟ كيف الأولاد؟...

كان صديقي، قبل ما يقارب نصف قرن من عمر الزمان، يشغل وظيفة "معاون مدير" في الدائرة الرسمية التي كنت فيها مديرًا. ذكّرتها بما اقترح عليّ يومًا، من أن نمضي، بموظفي الدائرة في يوم عطلة، بحافلة صغيرة نستأجرها تقلّنا ذهابًا وإيابًا، إلى أحد المُتَنَزّهات في مصيف "بلودان".

تحدّثت، وأفضت:

ـ وكنت أنت، يا "أم خالد"، التي اخترتِ لنا مقهى كان يومئذ متواضعا، نزلنا إليه عبر منحدر عريض ترابيّ، وداست أقدامنا ونحن حول الموائد أرضًا من تراب، وقد عرفت أنك أنت مَن وجّه قبل ذلك على أكلة "الصْفيحة" (أقراص اللحم بالعجين) وملحقاتها من المسبّحة والمتبّل واللبن والبصل والنعنع، ولم تكن قد ظهرت بعد مياه "بقّين" المعبّأة بالقناني. أكلنا،

تظلّلنا أغصانُ أشجار ذات حفيف، واستقينا الماء من حنفيّة المطعم. وفي العودة سويعة الأصيل، لله كم تضاحك الشباب في الحافلة وغنّوا وأطلقوا الشدّيّات... ذلك المتنزّه الذي كان، هو اليوم "مطعم أبو زاد" الشهير، ينزلون اليوم ذلك المنحدر على أدراج من رخام، وأرضه الترابية – هذا قبل استعار الحرب والآن لا أعرف! – باتت شرفاتٍ ومطلات... هل تذكر هذا، يا أبو خالد؟

كان صديقي يصغي إليّ وكأنه يستمع إلى قصة فنية، ولكنّ محيّا أمّ خالد كان يزداد إشراقًا... وسمعتها تقول:

ـ أنا أذكر هذا كله، يا صديقنا العزيز، نعم، أنا التي اقترحت النزهة عليكم، وأوصيت على الصْفيحة، وطربت للأغاني... سقى الله تلك الأيام!

وأما صديقي أبو خالد، فقد خيّل إليّ أنه يحدّث نفسه بارتياح: صديقي بيمشي، وبيتذكّر كمان!

دمشق الشام: ضحى الأحد ١٤-٢-٢٠١٦

قولكُنْ... ممكن يكون النظام

قولكُنْ(١)...

ممكن يكون النظام متفق مع الغرب على أن يورّد له العقول النيّرة واليد العاملة الخيّرة، فيبعث هؤلاء بمداخيلهم إلى الوطن؟

ولكنّ كثيرًا منهم ضلّوا الطريق فذهبوا إلى الخيام العربية!

---

(١) برأيكم

دمشق الشام: ضحى الاثنين ١٥-٢-٢٠١٦ (عيد الحب!)

وشاركت صديقي.. فرحته ٣من٣

بعد أن حدّثتُ صديقي بحكاية النزهة في "أبو زاد" صيف ١٩٧١، تذكّرتْها أم خالد وما تذكّر هو منها شيئا أيّ شيء...

استفاض في حديثه، والزوجة قامت لفنجان القهوة، عن "توزّع ذريته في الآفاق"، من بنت تعيش وزوجها في الدوحة، وأخرى في العاصمة السعودية، وابن في جدّة، وصهرٌ في ليبيا - التي تحاول استعادة العافية ولا تكاد تستطيع - غامر الصهر - وأعترف بأني خفت لمّا صرّح - بأنْ رحّل أسرته، الزوجة والأولاد، في "قوارب الموت"، إلى أوربة فإلى بلاد السويد الهنيّة... يا للسوريين وما يفعلون!

وما هي إلا أن هتفت أم خالد من حيث هي، تقول مبشّرةً: «تمّ الحجز، يا أبو خالد!»، وجاءتنا وصينية القهوة في يدها..

الحجز؟ نعم، ولكنه ليس الحجز عند "الحواجز"، التي تتوضّع في الطرقات وتُضاعف المسافات وتُرهق المتنقّلين من هنا إلى هنا.

وكان لا بدّ من أن يبيّن لي أبو خالد أنه يُقضّي فصل الشتاء من كل عام عند واحد من أبنائه أو بناته في تلك العواصم. هذا الشتاء تأخّر الإذن له بالسفر يأتيه من أمن تلك الدولة، فلما جاءه قبل أيام وتهمّم للسفر الفوري، لم يكن ثمة مكان في "الطيران السوري"، إلا أنّ جارتهم "أمّ توفيق"، الموظفة في الشركة، منحتهم الأمل في توفير مقعد من مقاعد "اللحظة الأخيرة" التي تُخبّأ لمن يباغتهم من "المسؤولين"، اليوم أُطلقت تلك المقاعد، فتأمّن السفر لأبو خالد. وأُحضرت رُزم الليرات السورية، بالألوف، ودون عدّ - فهي معدودة من قبل - غادرتنا أم

خالد لتدفع، والسفر فجر غد!

وكان لا بدّ من أن يسري الفرح إليّ... فرحٌ أنساني تعب السير على الأقدام، وزاد فيما راودني من متعة التحدّث عن تلك الذكرى في تناول الصْفيحة، بتوجيه من أم خالد، في مطعم أبو زاد، يوم كان في حالة التواضع.

دمشق الشام: ليل الإثنين ١٥-٢-٢٠١٦

المستعربة البولونية "بياتا سكوروبا" ورواية "ثم أزهر الحزن" ١من٣

في العام الدراسي ١٩٩١-٩٢ قَدِمت إلى دمشق الطالبة البولونية الشابة "بياتا سكوروبا" المتخرّجة في قسم اللغة العربية بجامعة "ياجيللونسكي" بمدينة كْراكوف في بولونيا، تريد أن تقضي عامًا دراسيًّا في معهد تعليم العربية لغير الناطقين بها (الذي توسّع اليوم وحمل اسم "المعهد العالي للغات")، تُحسّن خلاله لغتها العربية وتتعرّف على المجتمع بدمشق كما تقول.

نزلت الطالبة "بياتا" في المدينة الجامعية، مستفيدة من "منحة" تقدمها الاتفاقيات الثقافية المعقودة ما بين بلدها وبين سورية، وأتفق لها أن لمحت كتابا في يد إحدى الطالبات هو رواية "ثم أزهر الحزن"، فأخذتها وقلبتها. ثمّ إنها ارتأت أن تنتقل بإقامتها إلى "دار السلام" (في ساحة النجمة وسط دمشق)، فلمحت هذه الرواية مرة ثانية في يد الطالبة "فلك"، فتصفحتها، واقتنت نسخة لنفسها، وقرأتها، وكتبت إلى أستاذتها في الجامعة البولونية "البروفسورة كريستينا سْكارجينْسكا" تسألها في أن تُدير أطروحة الماجستير التي تزمع عملها على هذه الرواية من تأليف السوري "فاضل السباعي"، فأذنت الأستاذة المشرفة لها بذلك ما دام المرجع في اللغة البولونية "الأدب العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين" (الذي ألفه أربعة من كبار المتخصصين) تناول أدب القصة الوطنية في المجموعة القصصية لهذا الكاتب "الشوق

واللقاء"، وذلك ما جعل الطالبة تشرع في ترجمة فصول أولى من الرواية ثم تبدأ بدراستها.

وقبل أن تغادر دمشق مطلع صيف ١٩٩٢، تلطّفت بزيارتي في بيتي تصحبها رفيقتها في الإقامة بالدير فلك إسماعيل.

وهنا دعوت إعلاميا شابا كان قد تخرّج حديثا من قسم الإعلام بجامعة دمشق، "جمال مشاعل"، فأجرى مع بياتا مقابلة صحفية بدت متميّزة وطويلة بها تناولته من حديث عن ظروف دراستها واختلاطها مع الناس في المجتمع الدمشقي... وبعث بها إلى جريدة "الشرق الأوسط" بلندن، فنشرت جانبا منها لطولها دون سائرها، ما دعاه إلى أن يوجّه نص المقابلة ثانية إلى مجلة "المرأة العربية" (التي يصدرها الاتحاد العام النسائي بدمشق)، فنشرت هذه المجلة ما راق لها من المقابلة وتركت الباقي، وكان جمال مشاعل قد التحق بالكويت محررا في مجلة "العربي"، فنشر المقابلة في إحدى الصحف هناك... وكتب إليّ مازحا: حتى اليوم نشرتُ المقابلة ثلاث مرات، وأظنّ أني سأجعل منها أطروحة ماجستير!

وسوف ننشر حالا ما اجتزأتْه جريدة "الشرق الأوسط" من هذه المقابلة تحت عنوان:

المستعربة البولونية بياتا سكوروبا ترسم صورة لدمشق

خيال يجري نحو الشرق

دمشق الشام: صباح الجمعة ١٩-٢-٢٠١٦

المستعربة البولونية "بياتا سكوروبا" ترسم صورة لدمشق ٢من٣ خيال يجري نحو الشرق

نشرت جريدة "الشرق الأوسط" حوارا أعده "جمال مشاعل":

وطنها (جامعة "ياجيللونسكي"، في مدينة "كْراكوف")، ولأنها كانت من المتفوقين في

دراسة المرحلة الجامعية الأولى، فقد أوفدت إلى دمشق في منحة دراسية لتقوية لغتها العربية نطقًا وثقافة.

حول الأسباب التي دفعتها إلى دراسة العربية والأدب العربي، والانطباعات التي كوّنتها عن العرب وآدابهم، كان هذا الحوار:

- ما الذي حبب إليك دراسة الأدب العربي؟

- في الخامسة عشرة من عمري أغرمت بقراءة قصص "ألف ليلة وليلة" بلغتي البولونية، فامتلأت ذاكرتي بالخيال الشرقي وصور الحياة العربية. وبعد سنة من ذلك صادف أن ذهب أبي للعمل في الكويت، وعندما كان يزورنا في الأعياد كان يحدثنا عن ذلك البلد العربي، والحياة الاجتماعية فيه، ويصف لنا المرأة المتحجبة، التي لا نعرف نظيرًا لحجابها في بلادنا، إلا عند بعض النسوة اللواتي يضعن الغطاء على رؤوسهنّ بغرض الزينة، وحفزني حبي للعرب على أن أنتسب إلى معهد اللغات الشرقية، وهذا يتطلب الدخول في امتحان قبول ثلاث لغات هي البولونية والروسية والانجليزية، نجحت فيه عام ١٩٨٩، وتخصّصت في الأدب العربي الذي درسته عبر اللغة البولونية فضلاً عن تعلّمي اللغة العربية بطبيعة الحال. ويضم القسم العربي في المعهد في "كْراكوف"، في سنواته الأربع الأولى، من ٥٠ – ٦٠ طالبًا معظمهم من الإناث.

في سنوات الدراسة الأربع حصلت لحسن الحظ على معدل ٩٠٪، فجعلني هذا مؤهلة لأن أستفيد من منحة دراسية مدتها عشرة أشهر لأتقن العربية السبعة: المغرب، الجزائر، تونس، مصر، الكويت، الأردن وسورية.

وقد أصبحت لي، بعد دراستي العربية في دمشق، القدرة على التحدث بالعربية الفصحى والعاميّة الشامية، إلى حد معين. ولكني أقرأ العربية وأفهمها بشكل أفضل.

ـ وما هو الانطباع الذي تركته عندك دمشق؟

ـ أعجبتني دمشق بأجوائها العربية الإسلامية، وفيها تمثلت في خاطري أجواء ألف ليلة وليلة.

زرت كثيرًا من معالمها، كالجامع الأموي الذي مضى على إنشائه أكثر من ألف عام، وزرت قلعة دمشق. كما زرت متحف التقاليد الشعبية في قصر العظم، أعجبت بهندسة بنائه وزخارفه، وأكثر ما استرعى انتباهي فيه هو الحمام، والمجسدات الشمعية للمستحمّين والعاملين فيه.

ـ من الملاحظ أن لغة "فاضل السباعي" في رواية "ثمّ أزهر الحزن" هي لغة أدبية رفيعة المستوى، بالرغم من أنه كتبها وهو في الثلاثين من عمره. هل وجدت صعوبة في ترجمة الفصول المقرر نقلها إلى اللغة البولونية ضمن أطروحة الماجستير التي تشتغلين عليها؟

ـ على العكس! أحسُّ أني أتعامل مع هذه الرواية بفهم ومتعة، وأترجم لغتها دون صعوبات. إن أسلوب "فاضل السباعي" جميل، والتركيب اللغوي فيه سهل يجعله مفهومًا مع القارئ، وأذكر أني عندما قرأت قصة للأديبة "ليلى العثمان" وجدت صعوبة في استيعاب مضمونها!

ولاحظت أن لغة "السباعي" غنية بمفرداتها، ولكن ذلك لم يسبب لي متاعب، وأنا أعود في الترجمة إلى المعجمات العربية بالدرجة الأولى لفهم معاني ما يصعب عليّ من مفردات هذه الرواية، وأحيانًا ألجأ إلى معجمات وسيطة بين العربية والبولونية، لأنه ليس عندنا لحد اليوم معجم عربي – بولوني أو بولوني – عربي! ولأنني أجيد اللغة الروسية فإني أتعرف أحيانًا، على المقابل المحدد للكلمة بالبولونية عن طريق اللغة الروسية، واعتمد أيضًا الانجليزية لغة وسيطة، وبذلك تنتفي صعوبة الترجمة عندي إلى حد ما.

ـ ما رأيك بشخصيات "ثمّ أزهر الحزن"؟

ـ إن هذه الرواية تصوّر الحياة في المجتمع السوري العربي الإسلامي، في الطبقة المتوسطة،

وتعتمد في تصويرها على جزئيات الحياة اليومية الحميمة، في حلب (موطن الرواية)، وفي بلاد الشام، وفي المجتمع العربي كلّه، لأنّ بطلة الرواية "الفتاة هالة" خرجت من حلب إلى دمشق ثمّ إلى القاهرة.

تعاطفت كثيرًا مع أسرة "ثمّ أزهر الحزن" وأنا أرى الأب المحبوب يموت في نهاية الفصل الأول، حتى ترقرقت الدموع في عينيّ، وفرحت جدًا وأنا أرى الأمّ تضع جنينها بعد خمس بنات، وقد جاء صبيًا وكنت أتوقع ذلك! أعجبتني شخصية "الأمّ كوثر" في كل مراحل كفاحها، وشخصية البنت "هالة" في حزنها وطموحها وحبها وفشلها، وفي فرحها الأخير، ودهشت لأن المؤلف جعل من مقابلة "هالة" لحبيبها "سمير" في المكتبة، أو في الحديقة العامة، أمرًا فيه جرأة، بينما يتم مثل ذلك عندنا في غاية البساطة!

إن الشهادات الخمسين في الرواية، المختلفة والمتفقة، المنشورة في آخر الكتاب، تعطي ضوءًا ساطعًا ينير جوانب الرواية، وتبيّن مدى انتشارها في الأوساط العربية.

جمال مشاعل، دمشق، ١٩٩٢

"الشرق الأوسط"، العدد ٥٩٨٦ يوم ١٩-٤-١٩٩٥

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: عصر الجمعة ١٩-٢-٢٠١٦

«قَطَفَ جان زهرةً»

في العالم، الذي يسمّونه متحضّرًا، يُجمّلون المدينة، ويُكثرون من إنشاء الحدائق العامة، حريصين على أن تكون الأزاهير البديعة تحت الأنظار في كل مكان... قالوا: حتى يتربّى المواطن على التمتّع بالجمال، فترقّ حواشيه ويزدادَ لطفا و... إبداعًا.

وعندنا... تُغِير الطائرات الحربية من أحدث طراز، في علوّ وفي انخفاض، ونصحو... فنرى... ويعجز اللسان عن الوصف والكلام.

وليس مَن صَنع آلات الدمار هذه، وطوّرها وحسّنها، إلا الذين امتلأت صدورهم بروائح الأزهار، وقد كان المثال الأول عندهم في تعلّم قواعد اللغة: «قطَف جان زهرةً»، ويَعيبون علينا مثالنا في الإعراب: «ضربَ زيدٌ عَمْرًا»!

دمشق الشام: ضحى السبت ٢٠-٢-٢٠١٦

المستعربة البولونية الشابّة ٣من٣ واليمام الذي يمشي أمامها مطمئنًا!

قلت إنّ الحوار، الذي أجراه الإعلامي المتخرّج من الجامعة حديثا "جمال مشاعل" بدمشق صيف ١٩٩٢ مع المستعربة البولونية، الذي تفنّن في طرحه الأسئلة وفي تجويد الإجابة بالعربية، قد جاء طويلاً... حتى إنّ الدوريات التي بعث إليها بالحوار كانت تقتطف منه ما يروق لها وتدع الباقي!

وقد نشرتُ قبل أيام النصّ الذي كانت قد اجتزأتْه جريدة "الشرق الأوسط" اللندنية، وهو الأقصر بين حالات النشر الثلاث، ورأيت اليوم أن أنشر، في هذه الحلقة الثالثة والأخيرة، الإجابة التي تتعلق بانطباعات المستعربة الشابة عن شخص المؤلف ووصفها لبيته... قالت مسترسلة:

أعترف بأني كنت أشعر بالتهيّب قبل لقائي الأول بالأستاذ "فاضل السباعي"، لأني سأقابل كاتبًا كبيرًا، ولكني حين التقيت به في بيته بدمشق، برفقة صديقتي "فلك"، أحسست بلطفه وتواضعه وانزاحت عني كلّ مشاعر التهيّب والخوف.

رأيته واضحًا وعفويًّا وبعيدًا عن الغرور الذي يظهر على بعض الكتّاب المعروفين. أسلوبه في التعامل مع الآخرين يشبه أسلوبَه في الكتابة، شعرت وكأنني أمام صديق أعرفه من زمان. وقد شدّني إليه حديثه الجذاب، ولفظه الفصيح، وكلماته المأنوسة، وعباراته الواضحة. وهو يتحدّث إليّ بهدوء، وبعربية فصيحة دائمًا حتى إني أفهم كلّ كلمة ينطق بها تقريبًا. إنّ أناقته في الحديث تماثل أناقتَه في الكتابة.

وفي إحدى زياراتي لبيته، وبعد أن رويت له حديث الحمّام (العامّ الذي ذهبت إليه للاستحمام) حدّثني هو عن قصته الطريفة المسمّاة "الحمّام".

أعجبت بمكتبته المليئة بالكتب المتنوّعة، وبحديقة بيته التي تتوزّع فيها أشجار الكبّاد المثمرة، ومن الكبّاد ما هو أخضر صغير ومنه الكبير الأصفر المتبقّي من الموسم الماضي كما قال. وشرح لي وقال إنّ كلمة "كَبّاد" كلمة شاميّة وليست عربية في الأساس، واللفظ العربي المأخوذ من اللغة الفارسية هو "الأُتْرُجّ" أو الطُّرُنْج!

وراقني منظر البَحْرة (البِرْكة)، والماء يتدفّق إليها من النافورة... وكان اليمام الأليف يمشي أمامنا آمنًا مطمئنًّا!

سألت الأستاذ فاضل السباعي عن حلب، وعن الوسط الشعبي الذي استوحى منه حوادث روايته "ثمّ أزهر الحزن" (ط ١٩٦٣)، وكم تمنّيت لو أن عندي فرصة أزور فيها حلب موطن الرواية، وأختلط بالناس هناك، وأشاهد البيت العربي القديم الذي نشأ فيه المؤلف واستعاره بيتا لشخوص روايته، التي أكّد لي أنها متخيّلة بالرغم من كلّ ما فيها من حرارة الواقع.

دمشق الشام: ليل الأحد ٢١-٢-٢٠١٦

وزيرُ عدلٍ.. يستقيل!

في الأخبار أمس:

أنّ وزير العدل في لبنان يستقيل... لفسادٍ في القضاء يعانيه، ولاختلالٍ في ميزان العدالة لم يعد يستطيع الصبر عليه.

فقط... لو أنّ في حكوماتنا وزراء... يستقيلون!

دمشق الشام: صباح الإثنين ٢٢-٢-٢٠١٦

برسم اتحاد كتّاب بلدي

تمنّيت لو يخطر على بال المسؤولين في الاتحاد أن يَدْعوني، مرة واحدة، لأشارك في تمثيله مع الآخرين في المؤتمرات الأدبية، في القطر أو خارجه.

تمنّيت لو أنهم يوافقون، مرة واحدة، على أن ينشروا لي مخطوطة كتاب بين سيل منشوراتهم الغثّ منها والسمين.

تمنّيت، يوم اقترح عضوٌ طيّب من أعضاء المكتب التنفيذي - قبل عشر سنين وهم يتهمّمون لإقامة حفل لتكريم الأدباء المؤسِّسين (١٩٦٨-٦٩) - أن يعهدوا إليّ بأن أُلقي الكلمة باسمهم وأنا واحد من الباقين منهم على قيد الحياة... لو أنه ما ارتفعت ثلاثة أصوات تعترض بشدة شديدة على هذا الاقتراح، وكأنني قاتل أبيهم!

تمنّيت لو أنّ المقالة الصغيرة، التي كتبها بالأمس أحدُ شُداة الأدب وكانت في طريقها لأن تنشر في إحدى دوريات الاتحاد، ما سحبها، مرة ومرة، المسؤولُ الكبير في هذه المنظمة الشعبية، لشَجَنٍ بينه وبيني، وهو في عمر أولادي أو أحفادي...

... ولو تُرك القَطا لما طار! (١)

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢٢-٢-٢٠١٦

رحيل الفنان المبدع "نذير نبعة"

وتسقط سنديانة أخرى... تاركة في الفن التشكيلي السوري أمجادًا.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٢٣-٢-٢٠١٦

حديثنا اليومي، وحدثنا اليومي... يا لحلب ما أثخن جراحك!

دمشق الشام: مساء الخميس ٢٥-٢-٢٠١٦

تربية، وإيفاد، وابن عيلة!

ذات يوم ضجّ أبناء النظام أنفسُهم من استشراء الفساد.

واتفق أن مسّت الحاجة، في ذلك الحين، إلى تعيين كبير على رأس مؤسسة متميّزة، فجاؤوا بواحد منهم كانوا قد تعهّدوه منذ أيام فتوته، بأن أوفدوه، ودلّلوه، وبذلوا في تربيته كلّ العناية.

لمّا أصبح في السُّدّة تقرّب منه "سماسرة الزمان" وما تقرّب هو منهم: في تلك الدولة الأجنبية، يا مولانا، "صفقة" أدوية قاربت مدة صلاحيتها على الانتهاء، تُمكّننا - إن سمحت - من "تمريرها"، و... لك... الأجر والثواب! ولمّا كان قلبه من ذهب ويحبّ الفقراء، فقد تسنّى لتلك الأدوية أن تنتشر في البلد بالسعر الرخيص.

ثمّ كان ما بدا عليه من الثراء أكبر من أن يُصَدَّق قوله: هذا من رواتبي!

---

(١) مثَلٌ. أصله: لو تُرك القطا ليلاً لنام. يُضرَب لمن حُمل على مكروه من غير إرادته.

وانتهت مدة الصلاحيّة قبل أن تنفَد الكميّة.

فضربوا كفّا بكفّ وهم يقولون: لَكْ العمى! جبْناه تربية! وإيفاد! وابن عيلة!

دمشق الشام: ضحى الخميس ٢٥-٢-٢٠١٦

«من على سرير المرض أكتب إليك»

رسالة قديمة من إعلامي مغربي.. في المعتقل

أخي الأستاذ فاضل السباعي

وصلتني من دمشق رسالتك الأخيرة المؤرخة في ٢٢-٢-١٩٧٥ إلى مشفى "ابن رشد" هنا في الدار البيضاء، حيث أقيم منذ أشهر أنا والرفيق "سعد الله صالح"، وتحت حراسة دورية من رجال الشرطة، وقد اضطرّت إدارة السجن لنقلي إلى المستشفى إذ أني أعاني من ضيق في التنفس، مع ازدياد ملحوظ في نبضات القلب.

نعم، أكتب إليك وأنا على سرير المرض، ومع ذلك فأنا سعيد جدًّا بذلك، إذ أني هنا أنعم بحريتي دون عوائق، مع من يأتي إليّ من أفراد عائلتي وبعض رفاق حزبنا "الاتحاد الاشتراكي" الذين يسمح لهم بزيارتي، بالإضافة إلى إمكانية الاستماع إلى الإذاعة ومطالعة الصحف التي أحرص أشدّ الحرص على قراءتها، وبالأخصّ صحيفة حزبنا "المحرر" والتي تصدر يوميًا عدا يوم الاثنين الذي يصادف عطلتها الأسبوعية.

ولست أدري، أيها الأخ العزيز، ما إذا كان قسم التوزيع في الجريدة ما يزال يوافيك بأعدادها إلى عنوانك بدمشق؟ غير أني أعدك بالسؤال عن ذلك متى أتيح لي لقاء أحد الرفاق العاملين في جريدتنا.

وينبع حرصي على موافاتك بها من كونها أصبحت تخصِّص أسبوعيّا صفحتين لشؤون

الفكر والثقافة.

ومن المواضيع التي شملتها هذه الصفحة في الأيام الأخيرة مناقشة هامة لكتاب الأستاذ عبد الله العروي: "الثقافة العربية المعاصرة". والأستاذ العروي من الأدباء المغاربة الذين تلقّوا تعليمهم باللغة الفرنسية، إلا أنّ هذا لا يحول بينه وبين الكتابة بلغتنا القومية، وله بهذا الصدد رواية صدرت سنة ٦٧ تحمل اسم "الغربة".

....

عبد الله أبو هلال، الدار البيضاء ١٠-٣-١٩٧٥،

دمشق الشام: ضحى الإثنين ٢٩-٢-٢٠١٦

ما فيه مشكلة!

أنت ملكت الحكم

بالحقّ أو بالغَلَبة...

طيّب

احكم عادلاً أمينًا منصفًا

وابقَ مالكًا مدى العمر

مدى الدهر...

ما في الأمر مشكلة!

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٢-٣-٢٠١٦

في الاشتراكيّة...

أنت دع النخبة تعمل

وقمْ بمراقبتها، بالشروط العالمية

ثمّ انظر إلى جميل إبداعها...

ولكن... إياك إياك أن تلتمس منهم "خُوّة"(١)

فإن فعلتَ رميت بهم في دَرَك الرأسمالية الرثّة

وغدوت أنت حديث المجالس...

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٢-٣-٢٠١٦

أيها الأسمر الساكن في البيت الأبيض

أيها الأسمر(٢) الساكن في البيت الأبيض

يعني...

جبت لنا كيري(٣) وزيرًا للخارجية

حتى يبصم مع لافروف على آخر أوراق التقسيم!

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٤-٣-٢٠١٦

---

(١) المال المأخوذ غصبا، أو تحت الابتزاز

(٢) يقصد باراك أوباما.

(٣) وزير خارجية أمريكا في عهد أوباما

الجرح الذي أراده الغرب.. مفتوحًا

يوم رأى الغرب الضعف يحلّ في جسد الدولة العثمانية، كلّف السفيرين الإنكليزي "مارك سايكس" والفرنسي "جورج بيكو"، أن يرسما حدودا لدول ودويلات يُنشئانها في المنطقة، فأخذ السفيران، بدءًا من العام ١٩١٥، يتبادلان الرسائل في شأن تقسيم "التركة" المستباحة، فاتفقا على حدود كيان يقيمانه لما سمّي "سورية" (التي تتمزّق اليوم)، منتزعين منها كيان "لبنان"، وجاعلين من جنوب بلاد الشام دولتَين (فلسطين و"إمارة شرق الأردن")، وكان أن عمد الفرنسيون، منذ دخلوا بلدنا، إلى تقسيمها لأربع دويلات (دمشق وحلب وجبل العلويين وجبل الدروز)، لولا إرادة الوطنين الأحرار التي أبت تجزيء المجزّأ، فكان أن أخذت هذه الدويلات تتساقط واحدة بعد أخرى، ويذكر التاريخ شجاعة الزعيم "إبراهيم هنانو" يوم رفع العلم السوري الموحّد - الذي نعرف - في سماء الدويلة الذاهبة ريحها في حلب قبل أن يُرفع في سماء العاصمة دمشق، وما زلت أذكر، وأنا طفل في السابعة، هتاف الجماهير في حلب «بدنا الوحدة السورية، إسلام ومسيحية».

أقول: إنّ السفيرين الواغلين في هذه "اللعبة الأممية"... لو أنهما كانا يعطفان على الأكراد حقًّا، لرسما لهم حدودًا يقتطعون لُحْمتَها وسَدَاها من جسد بلاد الشام التي مزّقوها، ومن العراق، ومن جسد الدولة التي سمّوها "الرجل المريض"، ما يُقِيم دولة لهم، ولكنّ الغرب الماكر أراد للأكراد التشتّت والتبعثر، ثمّ بعد ذلك يُظهر لهم ودًّا كذوبًا، يحرضونهم فيه على أنظمة البلاد التي هم فيها فلا يدعونها تنعم بالراحة.

فباتت هموم الأكراد، هنا وهناك، جرحًا مفتوحًا، ينزّ فيهم - هم - ألمًا، ويهدّد استقرار البلاد والمنطقة بأسرها.

وأضيف: إنّ انتفاضة اليوم ما إنْ لاحت في الأفق، حتى بادر النظام إلى أن يردّ للأكراد جنسيتهم المسلوبة[١]، ويمنحهم[٢] فوق ذلك مِزَقًا من كبد الوطن تُطلق فيها أياديهم.

دمشق الشام: ظهيرة السبت ٥-٣-٢٠١٦

وكان أبي.. مزواجا ٢من٣

كان أبي "أبو السعود" طيّبا ولطيفا، ما أذكر أنه "رفع يده عليّ" يوما وأنا طفل أو ولد. ولكنه كان "مزواجا". تزوج من أمي وهو في العشرين وأمي في الرابعة عشرة، ماذا يعمل؟ هو يشتغل في الدكان مع أخيه الأكبر "رئيف"، وجدّي "الحاج سليم السباعي" القادم من موطنه حمص، ما زال يتاجر بالعُقْل الفاخرة التي يحوكها في بيتنا بحلب، أراه يعمل فيها وأنا طفل ألعب في أرض الحوش، يحملها إلى مصر، ليسوّقها عند "عرب الطحاويّة" في "مديرية الشرقية" كما كنت أسمعه يقول.

يبدو أنّ أبي أدرك جيدا، بعد أن أنجبت له أمي على التوالي (سعاد، فاضل، ملك، عادل،

---

(١) جُرِّد أكثر من ١٢٠ ألف كردي من الجنسية السورية، أواخر عام ١٩٦٢، واستمر الأمر في عهد جمال عبد الناصر عبوراً بعهد حكم حافظ الأسد وصولاً لبشار الأسد. ومن المضحك المبكي أن بعضهم حُرم من الجنسية بينما أخوه من أمه وأبيه نالها، ذلك أن الإحصاء كان عشوائيًّا لأهداف سياسية خبيثة. ولما قامت الثورة قام النظام بمنح الجنسية للكثير من الأكراد الذين هم سوريون في الأصل، نوعاً من الترضية والتهدئة للثائرين.

(٢) لا يقصد الكاتب هنا المحرومين الذين جنّسهم النظام في بداية الثورة، إنما يقصد حزب الاتحاد الديمقراطي الجناح السياسي لحزب العمال الكردستاني PKKk، الذي تحالف مع النظام بمباركة روسية بداية ثم بتبعية للأمريكان لاحقا. وكان أن تحالفت معه عشائر عربية وانضوى شبابهم في ميليشياته المسلحة التي عاثت فسادًا واضطهدت الكرد قبل العرب.

مالك، سهام)، مقدرته على الإنجاب، فطلب لنفسه الزواج الثاني، فأنجبت له خالتنا (نادر، زهير، عفاف، حسّان، ابتسام، ضَحوك، ماهر، سليم، نجوى، عصام، غُصون)، وما كان لأمي أن "تتقاعد" فأضافت (طارق وزياد)، وهكذا أصبحنا تسعة عشر من البنين والبنات.

في شبابي الأول، في خمسينيات القرن الماضي، كنت أمزح وأغالي في المزاح أمام أصدقائي الأدباء (فيما أنشأناه بحلب وسمّيناه "رابطة الأصدقاء")، فأقول: «في بيتنا زوجتان، تلد إحداهما في الضحى وفي الليل تحمل الأخرى!»، وكان الأكثر ضحكا لهذه المقولة "علي بدّور" الذي كان عَزَبا ما يزال، ويتحفّظ عميدنا "خليل الهنداوي" لأنه متزوج مرتين، وأما "جورج سالم" فكانت تطفح على وجهه أمارات الاستغراب.. وقد رحل هؤلاء الثلاثة رحمهم الله، وبقيت.

بعد الأحد عشر من الأبناء رحلت خالتنا. هل أضناها الإنجاب؟ وبقيت لأبي أمي التي بلغت من العمر مبلغا، وكأنه هو لم يبلغه، فأغلقت دونه باب بيتها، فحظي بفتاة – في مثل عمري أنا – من بنات العمومة في بلد أجدادنا "السباعية" بحمص – وعاش معها في "ثبات ونبات" اثني عشر عاما قبل أن يمضي إلى عالم الخلود (١٩٨٤)، ولم تنجب، وأظن القصور كان منها!

لعلكم توّاقون إلى أن تعرفوا شيئا عن التسعة عشر، ما أحوالهم؟ أقول لكم.

منهم كاتبان (فاضل ونادر)، وصيدلاني (حسّان) ودكتور مهندس (ماهر) وطبيب أسنان (عصام)، ومدرّسة لغة إنكليزية (ضَحوك)، ورجال أعمال (عادل وزهير وطارق وسليم)، ولن أتحدث عن الأحفاد والأسباط، الذين ينحو عددهم نحو المئة، فهذا حديث يطول، لكن فقط أشير إلى ابنتيّ الفنانتين التشكيليتين سهير وخلود.

نعم، كان أبي مزواجًا، وكان منجبًا، رحمه الله، ورحم الآباء والأجداد.

دمشق الشام: صباح الإثنين ٧-٣-٢٠١٦

أبي.. في "حديقة العشّاق"! ٣من٣

في عام ١٩٨٠ وما حوله، وكان قد مضى عليّ بضعة عشر عاما وأنا مقيم في العاصمة دمشق، كنت أزور أبي في بيته في "حيّ المحافظة" كلما جئت مسقط رأسي حلب. مرة قالت لي خالتي الحمصية "منتهى" إنه في الحديقة القريبة مع أصحابه، فتوجّهت إليه.

رأيت أبي، رأيتهم - ولم يسبق لي معرفتهم عدا واحدًا هو "ناجي الخانجي" الذي كان معلمي في "ابتدائية الملك فيصل" - يشغلون مقعدين متقاربين تظللهم الأشجار في أحد شِعاب الحديقة التي تشبه "مثلثا متساوي الأضلاع"، وقد أطلق أهل الحيّ عليها تلطّفًا اسم "حديقة العشّاق"، لما يرتادها من الطلاب والطالبات القادمين من الجامعة القريبة... سلّمت واتخذت مكانا لي بينهم.

ما أذكره أني رأيتهم يضحكون على نكتة ما زالوا يردّدونها، يدّعون فيها متمازحين أنّ أحدهم، ذلك الذي يغترف من النحافة والهزال ما جعل رأسه أشبه بجمجمة، مقدمٌ على الزواج، وأنّ عروسه من بلدة "ريحا" (أي أريحا السورية في محافظة إدلب)، وهي تملك هناك "مدجنة" يتربّى فيها كثيرٌ من الدجاج، فهو سينعم بأكل الفراريج فيزول عنه هزاله... ولكنهم يضيفون: بأنها «من ريحا، لكن لها ريحة!»، فيزداد ضحكهم وترتفع قهقهاتهم، يجاريهم في ذلك "الختْيار المقصود بالمزحة. ختايْرة يتسلّون!

وذات مرة أخبرني أبي: تذكر أستاذك ناجي الخانجي؟ قلت: ولا أنساه! قال: قبل أيام ذهب وقبض معاشه التقاعدي، في عودته، عندما نزل من الباص، هنا قريبا من الحديقة، وافته المنية

على الرصيف، وحملوه. تحسّر أبي، وترحّمت على أستاذي.

توفي والدي، الحمصي المولد، في صيف العام ١٩٨٤، وهو بين بناته وبنيه، وكانت قد سبقته زوجتاه، الثانية فالأولى، وعادت الثالثة بعد وفاته إلى بيت أهلها في حمص.

في حياة أبي فَقَدَ آخر العنقود، الطفلة عُصون وهي في الخامسة من عمرها بخطأ طبيّ، فحزن عليها كثيرا، وقد استغرب بعض المعارف من شديد حزنه قائلين إنّ عنده كثيرا من الأبناء! فكان قولهم هذا في منتهى الغلط! وبعد رحيله، بدأ عِقد أبنائه ينفرط: رحل أخي "مالك" عام ١٩٩٧، و"نادر" في ٢٠٠٩، والباقون - أمدّ الله في أعمارهم - متوزعون اليوم، في حلب ودمشق، وفي فرنسا من زمان، وفي الوقت الراهن في ألمانيا (طارق وعصام)، وفي تركيا (سعاد وسهام وضحوك)... وأما الأحفاد والأسباط فهم في الشتات الأكبر.

دمشق الشام: مساء الاثنين ٧-٣-٢٠١٦

بيني وبين «عزيزة هارون».. وراء الميكرفون

في العام ١٩٦٨ أو ما حوله، دعتني الشاعرة الشهيرة "عزيزة هارون" لتسجيل حوار في إذاعة دمشق، وأعلمتني بأنها اتفقت مع المسؤولين في الإذاعة أن يحتفظوا بأشرطة هذه المقابلات للزمن الآني.

في استرسالي في الحديث قلت إني نظمت الشعر، وأنا في مرحلة الطلَب في ثانوية المأمون بحلب، وعالجت الرسم بالفحم بإشراف أستاذنا الفنان غالب سالم، قبل أن أنتهي وأنا طالب بالجامعة إلى كتابة القصة والرواية.... فسألتني، وهي الشاعرة التي ترنو إليها العيون وتهفو القلوب في وِقفتها على المنابر، أن أسمعها شيئا من شعري؟

فأنشدتها (من بحر البسيط):

خذ هذه الناي، واعزفْ في جوانبها

..... لحنًا حزينا، فما يُشجيك يُشجيني

أفنيتُ عمري بأوهام تُراودني

..... حينًا، وحينًا تُلاقيني فتُشقيني

خذ دونك العود، فاضربْ فيه لحنَ منًى

..... ذابت كما ذاب عمري، ثمّ عزّيني

وانظر عيوني، فما في الوقت سامحةٌ

..... إني أنادي المنايا كي تُنجّيني!

فأوقفت التسجيل قائلة إنّ هناك خطأ نحويًّا: «عزّيني»، بحذف الياء المتوسطة وعندئذ يختلّ الوزن، وأوعزت بإلغاء هذه الفقرة من التسجيل، فحرمتني من أن أُعَرف - في ذلك الشريط - بأني نظمت الشعر يومًا!

رحم الله الشاعرة عزيزة هارون، التي لم يُطبع ديوانها الوحيد إلّا بعد رحيلها.

دمشق الشام: فجر الجمعة ١١-٣-٢٠١٦

وهجاني بقصيدة.. قبل خمسين سنة

أشهد أنّ ما تلقّيته من الأذى والإجحاف، في ظلّ نظام حكمني خمسين سنة ويزيد، كان غيرُ قليل منه يأتيني من أناس ليسوا منتسبين إليه، لكن ارتبطتْ مصالحهم به ارتباطا مؤثّرا، وقد كنت أراهم وهم يسدّدون إليّ قبضاتِهم، كأنّ أبصارهم تتّجه إلى هناك وهم يقولون: انظروا! إننا نسيء إليه من أجل عيونكم!

هل أقدّم إليكم نموذجًا؟

أحد هؤلاء، وكان يكتب في الصحافة كثيرا ويؤلف القصص ويقرزم الشعر غير مقصّر فيه، دأب على الإساءة إليّ في الزوايا الصحفية التي يكتبها. كانت بدايته في ذلك من يوم زرت دمشق لأراجع في أمر في الوزارة التي أنتمي إليها بوظيفتي وأنا في حلب، فدخلت مكتبه في الوزارة ظانًّا أني سوف أسعد بلقائه.

هل أخطأت بأن قدّمت له، في ذلك اليوم من أيام العام ١٩٦٥، عملا روائيا كان قد صدر لي في بيروت آنذاك، ولم تكن لدمشق يدٌ في النشر طولى؟ ورأيته يقرأ عليّ مقالة كتبها عن ذهابه يومًا إلى "ناشر" في البلد يعرض عليه مخطوطة له، وما تلقى من إعراض، بأسلوب الفكاهة والضحك.

منذئذ حلّ عليّ غضبه البغيض. لقد كان ما بيني وبينه من حديث في تلك الزيارة، من قبيل ما يكون بين الكتّاب، عن نشري مخطوطاتي في بيروت والقاهرة (حتى إنّ أعرق دار عربية للنشر في مصر نشرت لي في سلسلتها الشهرية "اقرأ"، كتابي "مواطن أمام القضاء" وكنت في العشرينيات من عمري لم أزل)... كتب هذا الحديث - وما كان له الحقّ في كتابته - لاويًا أعناق الكلمات مغيّرًا مواضعها ومزوّرًا معانيها! فكتبت ردًا ساءه ما فيه من منطق الجدل (ولهذا مقالة سوف أكتبها)، ثمّ بعد هذا دأب على النيل مني بمقالات، والصحافة تنشر له غير ممتنعة ولا معتذرة!

إليكم هذه الحكاية.

في تلك الآونة "هجاني" بقصيدة نشرها في أسبوعية "المضحك المبكي" (دون ذكر الاسم طبعًا). وقد عاتبت برسالة مني المسؤول الثقافي فيها، الأستاذ الجليل عبد الكريم الكرمي، فاعتذر الرجل المهذب لي برسالة، ووعد.

ثمّ.... بعد عشرين سنة أو يزيد، رويت، في وِقفة لي على أحد منابر المراكز الثقافية، للحاضرين خبر تلك القصيدة، واكتفيت بأن تلوت عليهم البيتين الأولين... اسمعوا:

قال لي: سبَّني، لعلّيَ أُشْهَرْ

..... قلت: لبّيك، ألف سبّ وأكثرْ!

أنا لا أتقن السّباب ولكنّك

..... أهلٌ له، جديرٌ، فأبشرْ!

ثمّ قلت للجمهور، الذي جاء يحتفي بصدور الطبعة الثالثة من ذلك العمل الروائي الذي كنت قدّمته للشاعر: «والله أنا لم أقل له: سبّني..»، فضجّ الحاضرون بالضحك!

السؤال: ما الذي يحمل كاتبًا متمرّسًا على التفرّغ لنظم قصيدة من عشرين بيتًا، يهجو فيها كاتبًا؟!

أقول: إنه بعد أن بلغ السنّ، وعزم على الرحيل إلى الخليج للعمل هناك، زارني في بيتي. وآمل ألا يمنعني ذلك من أن أروي لكم، في مرة قادمة، كيف رددت عليه في مقالته المسيئة، وما سلك في سبيل الحيلولة دون نشرها.

دمشق الشام: فجر الأحد ١٣-٣-٢٠١٦

الدبّ الروسي.. يسعى!

صحيح...

فرنسا، القادمة من الغرب، سلخت من بلاد الشام الشمالية دولة ما تزال تعصف بها الرياح، إلّا أنها عَجَزت، وهي المحتلّة، عن أن تُبقي على قيد الحياة الدويلات الأربع التي جزّأت بها المجزّأ (دمشق، حلب، جبل العلويين، جبل الدروز)...

اليوم...

يأتينا الدبّ الروسي، من صقيع الشمال، يريد أن يحقق ما تبقّى من بنود السايكس!

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ١٤-٣-٢٠١٦

بلاد العُرب أوطاني

في ثلاثينيّات القرن الماضي

كنت أُنشِد، في روضة الأطفال وفي المدرسة الابتدائية مع أندادي من التلاميذ، بحماسة أودعوها في قلوبنا، نشيد "بلادُ العُرْب أوطاني"، ونحلُم منذ تلك الأيام بأن تتوحّد أوطاننا العربية المقسّمة...

اليوم

وأنا في الثامنة والثمانين، أصغي، بسمعي المتواضع، إلى أنّ وطني الصغير هذا سوف يُقسّم...

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ١٥-٣-٢٠١٦

العودة إلى العبوديّة

"انطوان تشيخوف" كان أجدادُه من رقيق الأرض، وأمسى كاتبًا إنسانيًّا عظيمًا...

"فلاديمير بوتن" كان أجداده كذلك، ولكنه عاد عبدًا لأهوائه.

دمشق الشام: صباح الخميس ١٧-٣-٢٠١٦

العالم كلّه

العالم كلّه

يتركنا

في عَراء الموت!

دمشق الشام: عصر الجمعة ١٨-٣-٢٠١٦

لم يستطع رئيس المخابرات

لم يستطع رئيس المخابرات السابق أن يكون في حجم رئيس دولة لها مكانتها في العالم المتمدّن!

دمشق الشام: عصر الجمعة ١٨-٣-٢٠١٦

مقطوعة.. نظمتها قبل سبعين عامًا!

كان يدرّسنا في صفّ الشهادة الثانوية (البكالوريا) في ثانوية المأمون بحلب، مقرّرَ الأدب العربي، الشاعر عمر يحيى[١]، وبدا لي أنّ ما أملك من "مواهب أدبية" مبكّرة قد استلفته، فاغتنمت ذلك ودخلت عليه أقترح أن تمكّننا إدارة المدرسة من إصدار "مجلة" يحررها الطلاب، فوافق، وصرت فيها "أمين التحرير" وسمّى مدرّس العربيةَ العائد من دراسته في العراق الشاعر سليمان العيسى مشرفًا على المجلة.

كتبت للنشر في العدد الأول (كانون الثاني/ يناير ١٩٥٠) مقالة عنونتها "الخلفاء الشعراء"، ووضعت "ديوان أشعاري" بين يدي المشرف، فاختار منه مقطوعتين للنشر، إحداهما "صبابة"

---

(١) عمر يحيى الفرجي (ت ١٩٧٩) شاعر سوري من حماة.

هذه، تلطّفوا واقرؤوها:

صبابة

أسوقها ألحانْ ... في روضك الزاهرْ

لسحرك الفتّانْ ... من دمعيَ الحائرْ

كم فيك من إلهامْ ... في غصنك الميّاس

يُفتّح الأكمامْ ... ويسحر (الجُلّاسْ)

أنتِ المنى والأملْ

أنت الهوى والقُبل

**

قد ولّت الأحلامْ ... وفاتت السنونْ

أطاحت الأيامْ ... بحبّيَ الحنونْ

كم طِفتُ في الخيال ... ببيتك المعمورْ

فخابت الآمالْ ... وساءت الأمورْ

ردّي على الولهانْ

عهدَ الهوى الريّانْ

النظم: حلب ١٩٤٧

النشر: العدد الأول من مجلة "صوت الطالب"، كانون الثاني/ يناير ١٩٥٠

- - - - - - - - - -

أمس...

بعثت بهذه المقطوعة إلى صديقة في التواصل بأمريكا، فأسرعت تسألني عن معنى كلمة "الجلاس"، فأجبت: اخترعتها لضرورة الشعر، كما كان يفعل شعراء الجاهلية الذين أرهقونا بمفرداتهم، وأعني بها "الجلساء"! فثنّت بسؤال آخر قليل البراءة: «وهل ردّت المحبوبة؟»، فتريّثت في الإجابة!

دمشق الشام: ضحى الجمعة ١٨-٣-٢٠١٦

ظلّ يُضحكنا خمسين سنة[١]

إلى أن عرفنا أنه بتهريجه كان يضحك علينا

وأنه...

وأنّ مشاعره تنتمي إلى غير هذا الوطن!

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ٢٤-٣-٢٠١٦

الإبداع بالقلم والريشة.. والإبداع في السياسة

قبل أعوام دخل بيتي صديقٌ عزيز دون موعد وأنا "أَشْطُف[٢]" بلاط الحديقة، خرطوم الماء في يد والمكنسة في اليد الأخرى... فاستغرب: «أنت تشطف!».

قلت: وأطبخ الفاصوليا الخضرا باللحمة، والباذنجان أعرف أقوّره[٣]، وأطبخ

(١) لعلّه يقصد دريد لحّام الفنان السوري في مسرحية كاسك يا وطن

(٢) أغسل. فصيحة.

(٣) قوّر الباذنجان: حفرَ جوفه وأخرج لُبَّه.

"اليَلَنْجي[١]"، وأغسل الصحون والطناجر، ما دمت أعيش في بيتي وحيدًا، وصغيرًا كنت أساعد أمي في شطف أرض الحوش العربية، وأشفق عليها وعندها ثمانية أولاد أنا أكبرهم، فأقوم "بعَجْن العجين" وأجعله أقراصا مكوّرة أصفّها على "الدفّة" ثمّ أذهب إلى فران الحارة "أواديس" أطلب منه أن يبعث أجيره ليأخذ العجين!

وقلت لصديقي إننا نحن الكتّاب لسنا بأغنياء، ومثلنا الفنانون التشكيليون، إلا من عصم ربّك. وحدّثته بأنّ إحدى بنتَيّ التشكيليتين باعت، في معرض بباريس شاركت فيه، لوحة بخمسة آلاف دولار، فأسرعت تهتف لي بفرح: «أبي، بإمكانك أن تستقدم غدا "مساعدة" لك في البيت من أندونيسيا»!

وإني لأعلم أنّ صديقي عمل في السياسة، وتبوّأ مناصب، وتملّك، وحرسٌ على الباب، وسيارات... ولكني لا أحسب أنه يُكتَب للسياسيين الخلود الجميل على ما أذاقوا شعوبهم من مرارة. كان "حافظ إبراهيم" موظفًا فقيرًا "مُعَتّرًا[٢]"، وقصائده تُدرّس اليوم في المدارس العربية من الخليج إلى المحيط!

دمشق الشام: صباح الجمعة ٢٥-٣-٢٠١٦

لله كم أحببت "تيم"... ابن حفيدي "مازن سعود"!

(معاد) دمشق الشام: فجر السبت ٢٦-٣-٢٠١٦

---

(١) يلنجي: كلمة تركية تعني كذّاب، هو عبارة عن ورق عنب محشيٍ لكن بغير لحم.

(٢) مسكينٌ فقير

رذاذ المطر

(كنا نتفرج على القذائف تمرّ من فوق رؤوسنا

ونحن في حديقة الدارة نتسامر

وما ألجأنا للدخول إلى الغرف إلا... رذاذ المطر!)

أكّد لي "الدكتور مروان"، عبر الهاتف، ضرورة أن أكون، في الساعة الواحدة وخمس دقائق، عند "إشارة المرور" في "ساحة الجسر الأبيض"، على الرصيف أمام بيّاع العسل! فسألته مستفهمًا: «ببيّاع عسل هنا؟»، فقال: «حارتك ولا تعرف أنه أصبح فيها بيّاع عسل!». ولحظة وصلت إلى الرصيف، وبينا أنا أتلفّت تبحث عيناي عن هذا العسّال الذي لم أفطن إلى وجوده قرب بيتي، ترامى إلى سمعي صوت الصديق الجديد، الدقيق في تحديده للمكان والزمان: «نحن هنا!»، مهيبًا بي أن أسرع في الدخول إلى سيارته، فالإشارة توشك أن تفتح.

كنّا... كانوا ستة، أُعدّد لكم أسماءهم: "مروان" و"منصور" و"ناصر" و"نصرت" و"نصر الدين"... هكذا أريد أن أسميهم! سادسهم صديقي "عادل شميس"، جمعتهم أيامُ الطفولة الجميلة، والجامعة، وأرادوا لها الاستمرار. وهم - وإن كانوا متقدّمين في السنّ - يصغَرونني بعِقد واحد من السنين.

ولأبيّن لكم أنّ صديقي عادل - الذي كان قد أشفق عليّ من العودة إلى الوطن في حكاية يطول شرحُها - شاء أن يجعلني السابع بين أصدقائه الحميمين، لدى تحلّقهم الأسبوعي حول مائدة الغداء، في بيت الدكتور مروان، بتلك الضاحية التي أمست في حكم البعيدة عن العاصمة بسبب ما حاق بنا من المخاطر في هذا الزمن، فهجرها وأسرته إلى بيت الأهل في الجادّة الأولى بحيّ "المهاجرين". ومروان - ولنحتفظ بالألقاب وهم ما بين طبيب ومهندس ورجل أعمال - جرى على أن يمرّ، في يوم الوليمة في ساعة محدّدة بالدقائق والثواني، بكلّ واحد من

الأصدقاء، يجمعهم في سيارته الصغيرة لكن القوية، تتّسع لأربعة ولكنهم ينحشرون فيها ستة، متلاصقين متلازّين، في طريقٍ كان يستغرق اجتيازُه قبل هذه الأيام عشرين دقيقة أصبحت خمسين أو ستين، أسمعهم الآن يتشاورون في اختيار الطريق الذي تكون فيه "الحواجز" أقلّ عددا. وأما صديقهم الأخير نصر الدين فهو ما زال ثابت الجنان في الضاحية مقيما.

توقّفت بنا السيارة في سوق البلدة القديم. نزل اثنان، المكلّفان هذا الأسبوع، يتسوّقان ما تَستكمل به الوليمة أحوالها: سطلَ لبن، ربطةَ خبز، وماءً فراتا، ورأيت واحدا ممّن بَقُوا في السيارة يطلب: «وهاتوا عنب زيني قبل نهاية موسمه!»... لا، ولم تَفُتْهم عبوةٌ من فحم... فعرفت أننا مقبلون على "شواء"، وأنّ ما سوف يوضع على النار بعد قليل يقبع الآن في مستودع السيارة الخلفي، مقطّعًا ومتبّلا(١).

وكنّا، عند كلّ حاجز، يَعرض الدكتور مروان بطاقة النقابة ليؤكد لهم أنه طبيب، ويطأطئ الجندي رأسه، منقّلا بصره بيننا، فيرى التغضّنات في الوجوه قبل أن يلمح وقار الشيب يجلّل الهامات.

لدى وصولنا، وجدت بابًا كبيرا من حديد بلون أبيض، يطلّ على رصيف عريض، اجتزناه، ودخلنا حديقة يُرقى إليها بدرجات. وكانت الأبواب والنوافذ مصونة بحديد مقضّب اتّقاء عبث عابثين.

دخلنا البيت ببعض ما جئنا به، وبعضه الآخر نُقل إلى ركن في الحديقة، حيث دُلق الفحم في منقل وأوقدت فيه النار. فكان الإعداد في الداخل والشيّ في الخارج.

ورأيت صديقي عادل يقف أمام المنقل العالي يصفّ الأجنحة والصدور صفًّا صفًّا، ويكشّ

---

(١) وضعوا عليه التوابل والبهارات.

النار بمروحة، والروائح تعبق، والأنسام - التي بدت باردة شيئا ما - تصافح وجوهنا وكأنها تبشّرنا بمطر آت على الطريق!

ثمّ فُتحت الطاولة، والكراسي حُملت من الداخل.

عَرضتُ في المطبخ أن أفرم السلطة، فلي إلمام في ذلك. ولكنهم اعترضوا: «أنت اليوم "رئيس السنّ"، ضيفنا الآن وغدا تنزل إلى الساح!».

رُوِّب اللبن، مع ملح وثوم ونعنع يابس مفروك. وجيء بالكؤوس، وبالعدْل ملئت، فالكلّ مع الجوع المستثار ظامئ صادٍ.

في ابتداء الأكل طُرحت التساؤلات: مَن يريد الأفخاذ؟ من يحبّ الصدور؟ وتحوّلت المفردتَان إلى معانٍ، يزداد طرب الرجال لها ويخفّ عند النساء... وهات يا ضحك! [(١)]

وأخذوا يتحدّثون... أحدهم قال: «طيّارة (.....) ألقت حمولتها اليوم على سوق شعبية في (.....) فقتلت.....»، اعترض آخر: «من شان ألله اتركونا من حديث السياسة... خلّونا نعرف ناكل، بلا حزن، بلا دموع!».

بعد أن رُفعت المائدة، ودارت كؤوس الشاي المخمّر، طلبوا من "رئيس السنّ" أن يتحدّث في الأدب، فسألهم مازحًا: «تحبّون "الواقعي" أم "الفانتازيا"؟»، ولمّا لم يستوعبوا المقصود، خيّروه.

فرويت لهم كيف أنّ مثقفًا طيّبًا قرَعوا بابه سويعة الفجر وأخذوه، وتحت التعذيب موّتوه، فصعدت روحه لتعود إليهم شبحًا، يضربهم ويفعل بهم الأفاعيل، وهم يتلقّون ولا يعرفون من أين... ثمّ إنّ الأشباح تلاقَوا، فتنظّموا، وتوزّعوا العمل!

---

(١) أسلوب عامي يدل على الكثرة. يعني وكثرَ الضحك.

وقلت: «فهذه فانتازيا، تحلّق في الخيال!».

قالوا: «حلوة! ولكنّا لا نراها خيالًا!»، وفطنوا إلى أنّ "رئيس السنّ" الذي استضافوه، قد تسلّل إلى النفوس بالسياسة في وجهها الأدبيّ وهم لا يدرون.

ابتعد عنا الدكتور مروان، يوقد نارا، لم تكن هذه المرة من فحم، لكن من أعشاب. نفذت إلينا رائحة الدخان، فبدت لي، لنا، زكيّة، وكان مروان يأتي بالطريّ من أعشاب الحديقة وبها يتابع تلقيم النار، فما وجدنا أنفسنا إلا وكلٌّ يحمل كرسيّه مقتربًا منها، وقد استسغنا الدفء فالجوّ ابترد، كما استحسنّا طِيبَ الرائحة.

وسجى الليل وعمّ الظلام.

هنا لمحنا شُهُبًا، أو ما يُشبه الشُّهب، تسري في السماء، نراها قبل أن تتلقّى أسماعُنا صوت انفجارها، تمرّ من فوق رؤوسنا، فنقول: نزلت في ذلك الموقع أو ذاك!

وفجأة أحسسنا برذاذ من مطر، سرعان ما تحوّل إلى وابل... فحملنا كراسيّنا إلى الداخل، وتهيّأنا للرحيل.

وعلى رصيف بائع العسل، في ساحة الجسر الأبيض، ودّعني الدكتور مروان، على أن نلتقي، في هذا المكان، وفي مثل تلك الدقائق المحددة، في الأسبوع القادم.

\- - - - - - - - - -

نشر في مجلة "رؤية سورية" ملف "الثقافة والفنون"، العدد ٢٨

دمشق الشام: فجر السبت ٢٦-٣-٢٠١٦

عن الدولار

يا سيدي النظام

عندما جئت إلى الحكم كان سعر الدولار أربع ليرات

بعد خمسين سنة من حكمك أصبح خمسين

اليوم بعد الانتفاضة أصبح خمسمئة

ومن الغلاء توحّش الناس وأصبح بعضُهم يأكل بعضًا

فماذا أنت فاعل في هذا، يا سيدي النظام؟

دمشق الشام: الأحد ٢٧-٣-٢٠١٦

تخرج في كلية الهندسة بحلب ويتغنى بالأدب العربي في سويسرا

ابن صديقي الشاعر الأديب الراحل فاضل ضياء الدين، الإنساني النزعة في النزر اليسير الذي كتب من القصص والكثير من الشعر... غادر، الابن البكر خلدون، الذي كان طالبًا في هندسة حلب، مسقط رأسه متوجهًا إلى سويسرا، بحسب جنسية والدته.

بالأمس طلب مني أن أزوّده بما تيسّر من منشورات "دار إشبيلية" التي تخصّني، فلما قرأ ما أرسلت كتب لي يوم أمس ما يستحق النشر، وله تقديري وشكري:

- - - - - - - - - - -

... وأما ملاحظاتي حول مجموعة الكتب التي أرسلتها إليّ بالبريد السريع، فهي رائعة.

وقد استمتعت شخصيًّا - وذلك يعود الى اهتمامي - بكتاب السيدة ألفة الأدلبي "عادات وتقاليد الحارات الدمشقية القديمة"، وكتاب "إشبيلية في عصر بني عباد"، وأهنئك على تولّي

دارك نشر هذين الكتابين، وكتاب "فضل الأندلس على ثقافة الغرب" للمستشرق الإسباني خوان بيرنيت، الذي نشرته في عام ١٩٩٧، فأتمنى أن أحصل على نسخة إن كان ذلك متوافرًا. ولم أقرأ بعد سائر الكتب.

ولكني أتوقف عند أسلوبك في سرد القصة، وهو- كما عرفت من قراءتي لمنشوراتك في صفحتك - إنسانيّ مرهف إلى الحدّ الذي يلامس شغاف القلب عند كل من يقرأ لك. فكل واحد منا تعرض في حياته لمثل هذه التجارب التي ترويها في قصصك. إن اختيارك للواقعة ثم معالجتها من زاوية محددة، يلقي عليها ضوءا يغيب عن بال الكثيرين حتى وهم أصحاب التجربة!

إنك، يا عمي العزيز، لست قاصًّا وحسب، بل أنت فنانٌ مبدع وعالمُ نفس وطبيبُ أرواح، وحكواتي - بالمعنى الإيجابي للكلمة - أعرف الآن لماذا كان والدي يحبك ويحترمك! شكرًا لك،

سويسرا: ٢٦/٠٣/٢٠١٦ ٠٥: ٣٧ مساءً

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الإثنين ٢٧-٣-٢٠١٦

والمعاش التقاعدي.. يعادل خمسين

قبل أيام زارني صديقٌ قديم كان يعمل موظفًا مرموقًا في إحدى مؤسسات الدولة. ولست أدري لم سألني فجأة:

ـ كم هو معاشك التقاعدي؟

فأجبته ببراءة:

ـ عشرون ألف وخمسمئة ليرة، وقد علمت أنه أدنى معاش للمتقاعدين في الدولة، وكنت في آخر ما تسلّمت من وظائف مديرًا في وزارة التعليم العالي.

وإذا به يمدّ يده إليّ على الطريقة الشعبية:

ـ صُبّها هون[1]! أنا متلك. يعني المعاش يعادل خمسين دولار، وبكرة أربعين!

وأخذنا نطلق ضحكات هستيرية هي أشبه بالبكاء، ليس على حالنا لكن على حال المواطنين.

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٢٩-٣-٢٠١٦

اتّقاءً لأذى "الشمولية" لجأت إلى فنّ الفانتازيا في قصصي!

في مقابلة صحفية، نشرت الأحد الماضي ٢٧-٣-٢٠١٦ في الملحق الثقافي لجريدة "الوطن" العُمانية (في ملحقها "أشرعة") أجراه الكاتب السوري "وليد تاجا"، حدّثته بأني ابتدأت كتابة القصة القصيرة منذ ما قبل عام ١٩٥٠، وبعد عشر سنين تحولت إلى كتابة الرواية (ثريا، ثم أزهر الحزن، الظمأ والينبوع، رياح كانون)، فسألني: «ولكنك عدت إلى كتابة القصة القصيرة!»، فقلت:

ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ

أجل... ولا بدّ هنا من وقفة.

في أوائل الستينات تغيّر نظام الحكم، أصبح هناك حزبٌ واحد يحكم البلاد باسم الجماهير الكادحة وتحت شعار التقدمية والوطنية. ورأيت، في هذه المرحلة التاريخية، أنّ "صوتاً واحداً" هو الذي بات يسود وأن لا صوت آخر يوازيه أو يدانيه. وكان عليّ أن أتابع الخطاب القصصي

---

(١) يعني اضرب كفّ يدك بكف يدي، كناية عن التوافق في مسألة أو إعجاب بأمر

دون أن أغادر موقفي من الفقراء والمضطهدين.. وهكذا نحوت، منذ عام ١٩٦٧ منحًى في السرد أقول فيه ما أريد بأسلوب يتوسّل بالرمز وبالتحليق بعيدًا في عوالم من الخيال.

وهنا كانت ولادة قصصي التي ضمّ كتابي "حزن حتى الموت" (بيروت: ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٣، ودمشق ٢٠٠٢، وباريس بالفرنسية ٢٠٠٢) بعضَها مما كتبت بين ١٩٦٧ و١٩٧٣.

ثمّ إنني زاوجت، في هذه المرحلة من عمري الأدبي، بين هذا اللون من القصص الهادف الناقد الرمزي، وبين ألوان أخرى:

القصة التربوية: "رحلة حنان".

والقصة المرحة: "الابتسام في الأيام الصعبة".

والقصة الطافحة بالمرارة: "الألم على نار هادئة".

في قصصي "المسيّسة"، تلك التي أتصدّى فيها لممارسات القهر والفساد – وهي تأخذ حيِّزًا في مجموع نِتاجي القصصي عبر ستين عامًا من الكتابة – توسّلتُ غالبًا بـ"فنّ الفانتازيا" (الخيال الغرائبي) أسلوبًا للمعالجة القصصية، فيه أُجرّد الحوادث من مكانٍ تقع فيه وزمانٍ تسري في فضائه، ولا أسمّي أبطالها بسوى حرف من الحروف الهجائية، إمعانًا مني في الابتعاد عن الواقع المعيش... يَحدوني في ذا ظنٌّ بأني أُمتِع قرائي وأمنَع عن نفسي أن تمتدّ إليّ يد الأنظمة الشموليّة بالأذيّة، وبدا لي أني كثيرا ما أفلحتُ!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٣٠-٣-٢٠١٦

حرب.. وإعمار!

خطر لي اليوم، بعد أن سدّدتُ قيمة فاتورة المياه، أن أقرأ "مفردات" الفاتورة".

وبصرف النظر عن "قيمة الرسوم" (١١٧٧ ل) التي أضيفت إلى "قيمة الاستهلاك" (٤٧٦٠ ل)، فقد وجدت بين المفردات ما سُمّي "طابع مجهود حربي" و"طابع إعادة إعمار".

فتساءلت بيني وبين نفسي: حرب ضدّ من؟ وإعادة إعمار كيف؟

هذا واقع قرأته في فاتورة المياه اليوم، وليس "كذبة نيسان".

دمشق الشام: عصر الجمعة ١-٤-٢٠١٦

البكاء.. أمام كلمات الأب!

في ربيع العام ٢٠١٤، اجتمعنا حول مائدة غداء في المطعم الإيطالي في مدينة أورلندو (بولاية فلوريدا في الولايات المتحدة)، يصحبنا ثالثٌ ورابع. كان هو طبيبًا في مدينة "تامبا" القريبة، وكنت أقيم بين أبنائي في بلدة "بالم باي" القريبة أيضًا، والتي يحلو لي أن أسميها "ضيعة"... ويا لها من ضيعة يضيع الناس في جمال غاباتها وأغاريد طيورها قبل أن يعودوا إلى صحوهم!

لدى الانصراف وقفنا دقائق على رصيف المطعم كأننا لا نريد أن يغادر أحدنا الآخر. كنا أصدقاء في الشابكة واليوم التقينا. انسجمنا. سألته أخيرا عن أسرته وانتمائه، وإذا به يعبّر عن أنّ أباه هو "عبد العزيز عثمان". قلت: «وساكت؟ إنه أستاذي في سنة البكالوريا بحلب عام ١٩٤٩-١٩٥٠، وكنا نحبّه لعلمه ودماثته».

في التواصل المستمرّ ما بيننا، حدّثته بأني، وأنا في "ثانوية المأمون" بحلب، سنة البكالوريا - وقد ظننت نفسي "أديبا موهوبا" - دخلت على المدير الشاعر عمر يحيى، وسألته أن نصدر نحن طلاب المدرسة مجلة تموّلها الإدارة. وبعد الموافقة الفورية كلف أستاذا للعربية ليشرف على

المجلة، هو الشاعر سليمان العيسى، وسُمّيتُ "أمين التحرير"، والمجلة "صوت الطالب". واقتضى الأمر أن يكتب مقدمة للعدد الأول أحد الأساتذة المرموقين في المدرسة. وصدر العدد متوّجًا بكلمات وضّاءة بقلم... الأستاذ عبد العزيز عثمان.

فالتمس الابن، المحبّ لوالده الراحل حبًّا لا مزيد عليه، أن أصوّر له غلاف المجلة ومقالة الوالد، حين أعود إلى الوطن. وفي أثناء ذلك أضاف إلى اسمه معتزًّا اسم أبيه: "أيمن عبد العزيز عثمان".

تأخّرتُ... ولكني أنجزت... وإذا به يكتب لي: «أحيَيتَ ذكرى حبيبة على قلبي. لا أدري ما أقول، فالعَبرات تسبق الكلمات»!

وأنا أتساءل عن العبرات التي "سيسفحها" أبنائي والأحفاد والأسباط يوم يقرؤون كتبي الثلاثين، الأربعين، وأنا هناك، هناك؟ سؤال بريء.

دمشق الشام: فجر السبت ٢-٤-٢٠١٦

«بدون زَعَل»

في عالم شبكة التواصل الاجتماعي

رأيت الزوجة والأبناء أزهدَ في قراءة ما يكتبه "كبير العيلة"

وبدا لي أصدقاءُ الشبكة أكثرَ اهتمامًا،

ومنهم مَن ينتظر طلوع الفجر...

ولكنّ الأسرة تظلّ تعتزّ.

دمشق الشام: صباح الأحد ٣-٤-٢٠١٦

لأنهم لا يحبّون سماع الصوت الآخر!

منذ قريب تلقيت مكالمة هاتفية من صديقة تعمل موظفة في وزارة الثقافة، تزفّ إليّ أنّ صحفيًّا أديبًا يريد أن يُجري معي مقابلة لينشرها في إحدى الدوريات الثقافية المرموقة في البلد... وقدّمت له سماعة الهاتف.

بعد التعريف بنفسه، سألته ما إذا قرأ لي؟

فأجاب: نعم، فأنت أديب معروف.

قلت: هل تعرف ميولي السياسية؟

قال: نحن لن نتحدث في السياسة.

قلت: بالتأكيد، ولكنّ لي مواقف ووجهات نظر قد يتحفّظ تجاهها رئيسك المباشر. هل عرضت عليه اقتراحك أولا؟

أجاب: نعم.

عدت أسأله: هل دخلت صفحتي وقرأت شيئًا ممّا أكتب، وإنّ دخولها متاح للجميع؟

قال: الآن أدخل وأقرأ. تسمح برقم هاتفك؟ سوف نلتقي.

وما هي إلا لحظات حتى بتّ أرى "لايكاته" تترى في الإشعارات مبيّنةً لي أنه يشاهد ويتابع القراءة و"مرَوِّق كمان"، وقد كانت منشوراتي تلك أدبية ثقافية خالصة... ثمّ، فجأة، توقفت اللايكات... فقد وصل إلى "العمق"!

منذ تلك الساعة لم أسمع صوته، لا ولم تصافح عيناي محيّاه.

إني أدرك أنّ الظروف تعمل على كسر همّته وقهر إرادته الخيّرة. أقدّره وأحيّيه.

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٦-٤-٢٠١٦

رحيل رجل المواقف

عرفته شخصيًا قبل ثلاثين عامًا، وسمعت عنه من جيرانه "بيت أبو عمار مدنيّة" ومن صديقه الحميم "زياد منى". من ذلك أنه "رجلُ ثقافة"، أنشأ دارا للنشر بدمشق يُصدر فيها خير الكتب، وهو مَن عُهد إليه التحضير "لندوة الثقافة العربية – الإسبانية عبر التاريخ" (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠) متخذًا لنفسه موقعًا لإدارتها في "فندق الشام".

وكان يجهر – وهو في صفوفهم – بكلمة الحقّ تُعرّي الباطل، ناشدًا الحرية الجميلة. وقبل هذا وذاك، رأيته معتزًا بعروبته، وبسوريّته، وبحوران موطن الأجداد.

بصمت رحل "حسين العودات" مساء أمس. أصداء مواقفه سوف تظلّ تتردّد في صدور عارفيه ومتتبّعيه... إنه رجل المواقف الواعية في هذا الزمن الرديء.

دمشق الشام: فجر الجمعة ٨-٤-٢٠١٦

منتجع صحي.. في مفترق طرق

عرفتُ طبيبًا متخرّجًا في جامعات وطنه، توجّه إلى ألمانيا للتخصّص، ومنها إلى إحدى دول الخليج، حيث نجح بمهارتَيه، الطبية والإدارية، واستطاع أن ينشئ هناك "مركزًا طبيًّا" لحسابه الخاص يضمّ التخصصات كافة متعاقدًا فيها مع ذوي الكفاءات، ونجح في مضماره نجاحًا باهرًا.

لكن ظلّ حبّ الوطن يؤرّقه: لماذا لا ينشئ مثل هذا المركز في وطنه؟

ذات عام، ذات يوم، ذات ساعة... توجّه إلى بقعة قريبة من مسقط رأسه، رآها مناسبة لإنشاء ذلك المشروع الجليل: خضرة يانعة، أنسام عليلة، مفترق طرق سريعة إلى جهات عدة.

فيما انتابه من فرح، ذهب إلى مسؤول المنطقة، الناحية، القرية، المزرعة... حدّثه، وهو جذلانُ فَرِح، عن مشروعه الصحي، الوطني، الإنساني العظيم. وسرّه أن رأى المسؤول جذلانَ مثله فرحًا وهو يصغي.

لـمّا دخلا في الجِدّ، لم يكتم المسؤول طموحه، قال وقد فاض وجهه بشاشةً: «أول كلّ شي نتفاهم على نصيبي في المشروع، مية مليون رنّة، تدفعها لي على أقساط نتفق على مواعيدها، وأنا أُيسّر لك كل أمورك دون استثناء، كن مرتاحًا!».

لم يعد الطبيب جذلانَ ولا فرحًا، نهض وهو يقول: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

حدث ذلك قبل بضعة عشر عامًا في بلاد "الواق واق"[١].

دمشق الشام: فجر السبت ٩-٤-٢٠١٦

الروحاني جوزيف نصر الله يقرأ كفّي

مساء الخميس ١٤-٢-١٩٦٧

كنت قد انتقلت بوظيفتي من حلب إلى دمشق في العام الذي سبق هذه "القراءة" للكفّ. ولست أدري ما الذي حملني، مساء الخميس ١٤-٢-١٩٦٧، على زيارة القاضي المستشار "الأستاذ مظهر الكيلاني" في بيته القريب من بيتي الذي كنت نزلت فيه بحيّ الروضة.

لما دخلت بيته العامر أعلمني أنْ قد جاءه قبل قليل "الروحاني جوزيف نصر الله"، وهو يَدين له بما بات يتحلّى به في سنّه هذه من عالم الروحانية الشفافة، وعرض عليّ القاضي الكبير

---

(١) في بلاد مجهولة بعيدة. والواق واق هي مجموعة من الجزر أو الجزائر ذُكرتْ في كتب التراث العربي القديمة لكن ليس هناك دليل على ما إذا كانت خيالية أم حقيقية، وتحدد أغلب الكتب موقعها الجغرافي في بحر الصين أو بحر الهند.

أن يقرأ لي الروحاني جوزيف نصر الله كفّي، وإنه اللحظة يتناول طعام العشاء في تلك الغرفة إثر قدومه من بيروت الساعة. وبعد التعارف كانت هذه القراءة، التي استأذنت الروحانيّين الكبيرين بأن أدوّنها على الورق. فكان أن سمعت، وكتبت باليد اليمنى، ما يقرؤه الأستاذ جوزيف في كفي اليسرى. احتفظت في "أرشيفي" بالأوراق، وهأنذا أقدمها لأصدقائي في صفحتي، مستفيدًا ممّا منحنا إياه أيامنا الجديدة من خير ومن خلافه.

- - - - - - - - - - -

خطوط اليد تفيد:

١- أقدر أن أقول لك: أشبّهك بدائرة معاني، عندك النضوج التام والاستعداد لتقبّل كل المعلومات. (يخاطب صاحب البيت) يا مظهر بيك، إنّ عند الأخ فاضل روحانية عميقة. عندك ميزة خاصة بك هي معرفتك بالشخص لأول وهلة، تحكم عليه بصفات وميزات. حتى عندك روحانية لدراسة الشخص، نواياه وأفكاره.

٢- في الحياة شيء يُبعد عنك كلّ شبهة توجب الخطأ من الناحية الاجتماعية والشخصية، ومن ناحية عملك. الحذرُ عندك مثل المخمل، حذرك مخملي.

٣- باعتبارك حكيمًا وبصيرًا، لا تعطي بسرعة قلبَك للآخرين. يجوز أن تتعرّف بالشخص وتحبّه، لأنك اجتماعي ولبق وناعم، ولكنك لا تخلص فورًا للشخص أو تعطيه كلّ قلبك، إلا بعد دراستك له، دراستك لحياته الداخلية ومدى ارتباطه بك، عندئذ تعطيه قلبك.

٤- أنت من الأشخاص الذين لا يحبّون كثرة الأصدقاء، عندك نخبة مختارة من الموثوقين، يُعدّون على الأصابع.

٥- عندك أفق بعيد للإلمام بالمعلومات، لا حدّ له.

٦- لا تريد أن تحصر نفسك ضمن نطاق واحد من المعلومات. عندك حبّ التعرّف على مجالات واسعة.

٧- رغم طيبة قلبك والسريرة، لا يمكن قط الاحتيال عليك من قبل الآخرين، وذلك يُبعد عنك آفات اجتماعية.

٨- أنت صريح، صريح جدًا، بقولك ومبدئك.

٩- لا تتأثر بالعاطفة، إلا عن طريق وقائع في الحياة.

١٠- قوي الإرادة جدًا، دون أن تصل إلى حدّ العناد. عندما ترى إنسانًا يجادلك وترى أنّ الحق معه، فإنّ لباقتك تدعوك إلى النزول عند رأيه، فتتساهل.

١١- في حداثة سنّك لم يكن عندك اضطراب. فسلوكك في طلعتك نبيل عاطفيًّا واجتماعيًا. وعندما تحسّ بأنّ العاطفة ستجرحك فإنك تكبح جماحها.

١٢- حياتك ليست قصيرة بإذن البارئ تعالى: ٨٥٪ سليمة خالية من الأخطار، بعيدة جدًا عن مراحل الوقوع بأيّ شرّ، لأنّ من طبيعتك البُعد عمّا يجرّ خطّ الحياة إلى الأخطار.

١٣- في الماضي لو سألت الوالدة أو أحدًا من أهلك، أجابوا: في صغرك مرضت مرضتين، إحداهما ذات خطر ونجوتَ منها.

١٤- برج الماء ثقيل عليك، إذا نزلت في بحر أو ماء فيلزم حدّ وسط في ذلك، وفي الأسفار المائية.

١٥- يصل خطّ الحياة عندك وراثيًّا إلى شخص ينتسب إلى الأب (جَدًّا أو جدّة)، عمره ثمانون سنة، لك مثل عمره.

١٦- لو سألت أحد المقرّبين من أهلك، لقالوا إنه كان لك جَدّ يقضي حاجات الناس،

قاضي مثلاً.

خط القلب: مهما نزلت في معترك الحياة وفي جهادك الفكري، فإنّ القلب لن يناله التعب من ذلك، ولن تصل المشاكل إلى قلبك.

الخطّ العاطفي: خطّ نيّر، إشعاع كبير.

أسفارك في الحياة تتنوّع: أسفار ماضية، وثلاثة أسفار مقبلة، إحداها إلى بلد آسيوي شرقي بعيد جدًا، ولهذه المرحلة فائدة عظيمة من حيث الاطلاع. بقية الأسفار غربية محض.

خط الحظّ: يتنوّع في الحياة. يبدأ هذا الخط بشيء، ويكون وسطه في شيء، ثمّ ينتهي بشيء آخر. ثلاث أشياء متنوّعة لخطّ الحظّ، تجني من ثمارها موارد مادية، تكفيك لمئونة الحياة.

أولادك فيهم كلّ الخير. أحدهم صحته نحيفة، يلزمه المداراة حتى بلوغه ما فوق العشرة. الأولاد عددهم من ٥-٦.

زوجة واحدة، سبب حفاظك على الزوجة الواحدة: الوفاق والمحبة الصادقة بينك وبين زوجتك.

الأمراض الثقيلة نسبتها ٣٠٪. من هنا حتى أربع سنوات مقبلة ينتهي مفعول حادث يقع بطريق سفر، تكون مع ٥ أشخاص، نتيجة الحادث ٧٠٪ سليمة.

من الناحية المادية تعيش ناعم البال. ولا يبدو عليك إلا أنك في أحسن حال من اليُسر. والخطّ يميل إلى التحسّن المالي.

دمشق الشام: فجر الإثنين ١١-٤-٢٠١٦

حول مائدة "الكريم كاراميل" ذكرى مستعادة!

(معدلة ومضافة) [١]

كان صديقنا "نبيل" يستضيفنا في بيته عصر كلّ يوم جمعة، مقدّمًا لنا طبقا يفيض بحلوى "الكريم كراميل"، التي يُحسن إعدادها في مطبخه الصغير. وكان عَزَبا، أو لِأَكُن أكثر وضوحًا: "مطلّقًا".

وكنا، نحن أصدقاءه، خمسةً.

نتوجّه إليه، أنا وجاري الشاعر "نهاد رضا"[٢] (مديرٌ في هيئة تخطيط الدولة)، سيرًا على الأقدام، من "شارع نوري باشا"، ننزل "جادة الصالحية" مجتازَين "ساحة عرنوس" حتى "السبع بحرات"، ثمّ نتّخذ طريقنا في "شارع بغداد" وصولا إلى "ساحة التحرير" حيث بيتُ الصديق، جاعلين من هذه الزيارة المحبّبة فرصة لرياضة المشي التي نحتاج إليها ونحن في الخمسينيات من العمر.

ولا يكلّف نفسه صديقُنا الفنان التشكيلي "منير زيتوني" (المتعامل مع مديرية معرض دمشق الدولي) إلا المسير بضع خطوات ليغدو في بيت نبيل.

ويأتي في الموعد الأستاذ "عادل جاموس" (نائب رئيس مجلس الشعب) والأستاذ "نصرت ملا حيدر" (رئيس المحكمة الدستورية العليا).

كنت، في ثمانينيات القرن الماضي، قد طلبت إحالتي على التقاعد مبكّرا وأنا مدير في وزارة

---

(١) وكان قد كتبها قبل ذلك ثم عدلها، فآثرنا إثبات النسخة المعدلة فقط.

(٢) محمد نهاد بن علي رضا أرناؤوط (١٩٢٧ - ٢٠٠٨) شاعر وكاتب من حلب. نال شهادات متنوعة في الآداب والفلسفة والساسة وإدارة الأعمال والاقتصاد من أوربا. وكان عضو اتحاد الكتاب العرب.

التعليم العالي، ربما استنقاذًا لنفسي ممّا ينالني من حيف التهميش في الوظيفة، وأملا في أن أتفرّغ للكتابة مع أنها لا تُطعم في أوطاننا خبزا لكاتب لا يستظلّ خيمة الأنظمة القابضة على الحكم... مفارِقًا في الوزارة ذاتها صديقي "نبيل الرفاعي" الذي ما تركها فيما بعد إلا في آخر رمق.

كان يستغرقنا الحديث في السياسة، التي باتت شغل الناس في عقد الثمانينيّات الماضي بما تخلّله من حوادث وأحداث. وأذكر أنّ الأستاذ نصرت كان أكثرهم إصغاءً لما أُدلي به من رأي وأحلّل من مواقف، وذلك على خلاف مضيفنا، المشاغب المرح، الذي كان يلذّ له أن يخالفني الرأي وهو المقتنع في حقيقته بما أقول، وكان ما يدعوني إلى "مسامحته" ما يقدّم لنا من حلوى الكراميل، الذي يزيده نكهةً "السُّكر المحروق"، يأخذ "العبوة" من الحانوت القريب، ويطبخ ما دأب على إعداده، في قليل من الجهد وفي كثير من متعة التذوّق يمنحها لأصدقائه "الفرسان الخمسة" وهو سادسهم، أو هو الأول!

وكنا نتفرّق في هزيع من الليل، نعود – أنا ونهاد – سيرًا مستمتعَين بالأنسام العليلة تصافح وجهَينا ونحن متّجهَين نحو الغرب، فإن كان شتاءٌ، وكان بردٌ ومطر، أخذنا وسيلة تُقلّنا إلى بيتَينا في "نوري باشا".

ذلك قبل يوم الناس هذا بثلاثين عامًا أو يزيد... فأين هم الأصدقاء اليوم؟

التشكيلي منير توجّه، بعد أن ترك العمل، وأفراد أسرته، إلى "السويد"، البلد الذي تنتمي إليه زوجته، وهناك رحل إلى الفردوس الأعلى ووُوري الثرى محتضَنًا من "وطن" آخر.

والشاعر نهاد، توجّه، بعد التقاعد، إلى مسقط رأسه، وفيها احتضنه تراب حلب.

ونصرت، في مستهلّ أيام التقاعد، مضى.

وبقيت أنا في نوري باشا، وصديقنا عادل في بيته بحلب، وبقي نبيل أصغرنا سنًّا في ساحة

التحرير هناك... ولكنه لم يعد يُعدّ "الكريم كراميل" لضيوف غاب نصفهم عن الوجود.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١٣-٤-٢٠١٦

- - - - - - - - - - -

(عدّلتُ وأضفتُ باقتراح من الصديق المضيف نبيل الرفاعي!)

وقد أستطيع قول.. ما لا يستطيعون!

قبل بضعٍ وثلاثين سنة، وقفت، في مؤتمر اتحاد الكتاب العرب السنوي بدمشق، أتحدّث عمّا حلّ بي – يوم ألقيت في كلية الآداب بالجامعة ما ألقيت – من اعتقال، وما تلقّيت من أسئلة المحقق غير البارعة..... وكانوا يُصغون إليّ بجوارحهم صامتين، فهم لم يتعوّدوا أن يسمعوا مثل هذا الكلام يقال علنًا!

بعد أيام... وأنا أسير في "شارع النصر"، استوقفني على رصيف مبنى الهاتف الآلي أحد أعضاء الاتحاد، صحفيٌّ منهم بارز في المنظومة الإعلامية، أعرفه لكن ليس بيني وبينه كلام.

من عجبٍ أني رأيته يشدّ على يدي مهنّئًا لما رويت في المؤتمر من أطراف حكايتي... ولأنه استشفّ في وجهي الاستغراب، قال مفسّرًا:

«أنت تستطيع قول ما لا نستطيع!».

دمشق الشام: مساء الخميس ١٤-٤-٢٠١٦

سؤال.. للدبّيكة؟

هؤلاء... الذين يرقصون أمام السرادقات المنصوبة

هل يفعلونها فرحًا بقرب نواهم العطاءات، الظاهرة والمطويّة؟

أم يرقصون على أشلاء أبناء الوطن؟

ليكتموا أفراحهم... مراعاةً لدماء الشهداء!

دمشق الشام: ضحى الجمعة ١٥-٤-٢٠١٦

زائري.. ساعة الفجر!

عام ١٩٨٠ دخلت الاعتقال أخذًا من باب الجامعة (وعفوًا لترداد ذكر تلك الحادثة!)، ولقد انتابني شعورٌ غامض بأنهم قد يأتون إليّ في يوم ما ساعة الفجر!

وكان لي، في تلك الآونة، صديقٌ ودود من بلدي يعمل في مجال النشر ببيروت، اعتاد أن يرنّ لي جرس الباب في بعض الأصباح الباكرة، قادمًا من لبنان يحمل إليّ كتبا، ونتناول طعام الفَطور على غناء النافورة في حديقة البيت.

واتفق أن رنّ الجرس يوما في ساعة فجر. صحوت، واجتزت الحديقة. فتحت الباب، لم أجد أمامي أحدًا. وقبل أن أهمّ بالإطلال لأتبيّن الطارق، هجم عليّ من أمام الباب جسدٌ طويل عريض، وألقى ذراعيه على كتفيّ، وكأنه يريد أن ينتزعني من بيتي ويذهب بي.

كان هو الصديق، الذي تراءى له أن يمازحني، يعانقني، شوقًا إليّ وقد غاب عني مديدة! وإلى أن تبيّنت الواقع، كان قد دخل في وهمي أني وقعت في قبضتهم مرة ثانية.

لم أبح له بخواطري ومشاعري، لا ولا سرّني ما حمل إليّ من كتب، ولا استسغت طعام الفَطور معه!

وقع لي هذا في صيف ١٩٨١، وما زال ماثلاً في خاطري طَوال تلك السنين. أهدي هذه الكلمات إلى الأديبة المرهفة، ماري عيسى، استكمالًا لما كتبته عنها فجر هذا اليوم: "ترتعد.. كلما دُقّ باب بيتها! ".

دمشق الشام: مساء الجمعة ١٥-٤-٢٠١٦

لكِ أغنّي

أعزف على نايي

أروي الحكايات

أقول وأقول...

تُصفَق في وجهي الأبواب

توصد عليّ الأبواب

أنطلق إلى عراء الوطن

أغنّي وأغنّي

والعينان في الأفق

أيتها الحرية الجميلة

آمنت بأنّ فيك الترياق

الذي يَشفي من كلّ فاسد وقبيح

ويُعيد إلى الحياة جمالها ورُواءها

افتتاحية كتابي "تقول الحكاية"

دار إشبيلية، دمشق ٢٠٠٦

ولسوف أظلّ أغنّي!

- - - - - - - - - -

(معاد) الثلاثاء ١٨-٤-٢٠١٦

فرسان القرية!

ثلاثة... كانوا في قرية، في بلدة، في مدينة. ينتمون إلى أسرة انتماءَ عصبيّةٍ أو رَحِم. تمرّغوا في الحاجة وهم صغار، واستعانوا مِن رَبْعهم ما استطاعوا. شبّوا، نهضوا، تفرّقوا في البلاد، عملوا... وحازوا غنًى وجاهًا قارب أن يكون عريضًا.

كان "الفرسان الثلاثة" - هكذا سمّاهم أهل قريتهم - يتواصلون، عبر الهاتف، بالذين ظلّوا في الديار يكافحون في سبيل اللقمة المغمّسة والقضية الملتبسة. وكان من شأن التواصل بالنسبة للثلاثة أن يزيدهم إحساسا بالسعادة بما حازوا وبما قصّر سعيُ الباقين في الوطن في تحقيقه.

لمّا اشتعلت الحرب، وأخذت القذائف تجوب الفضاء في وضح النهار وتسري في الليل مضيئة، وأرواحٌ تُزهق، وناجون يهيمون بحثًا عن المأوى، كفّ الفرسان الثلاثة عن الاتصال، بالهواتف المحمولة أو الأرضيّة، فلا أذنًا تسمع ولا قلبا يخفق، خوفًا من أن يُثير فيهم سماعُهم للأنين قدرًا من الحنيّة!

وفي ذلك يقول أهل القرية بمرارة: «طيّب ليتّصلوا، ونحن نتحمّل كلفة المكالمة!»، ثمّ يبصقون في الهواء!

دمشق الشام: مساء السبت ٢٠-٤-٢٠١٣

الحرية لـ طلّ الملوحي ولمعتقلي سورية

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الخميس ٢١-٤-٢٠١٦

ما فاز إلّا النُّوَّمُ!

يعرف أصدقائي في الشابكة أني أطرح أفكاري بقدر من الجِدّية، وأفترض أنهم يعرفون أيضا أني أمزج الجِدّ بالمزاح أحيانًا، ويكون المزاح على قدر من الشفافيّة لا تغيب عن الأذهان.

وهل أذكركم بقصيدة معروف الرصافي، الساخرة، التي "ينصح" فيها مواطنيه "بالاستنامة" لحكم محتلّي بلده العراق، ومطلعها:

يا قوم لا تتكلّموا إنّ الكلام محرّمُ
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النُّوَّمُ
وتأخّروا عن كلّ ما يقضي بأن تتقدّموا
ودعوا التفهّم جانبًا فالخير أن لا تفهموا

التي ترنّمنا بها نحن طلاب "ثانوية المأمون" بحلب في أربعينيّات القرن الماضي!

دمشق الشام: ليل الإثنين ٢٤-٤-٢٠١٦

أعتذر لعدم قدرتي على كتابة الردود!

لا فنادق تقام غدًا.. في "العصرونية"

يتّهمونك، أيها النظام، بأنك وراء الحريق الذي شبّ أمس في "سوق العصرونية"!

يزعمون أنك كنت عَرَضت عليهم الملايين ليُخْلوا المنطقة وهم رفضوا، ويدّعون أنك تماهلت وعرقلت وصول "فوج الإطفاء" إلى حيث الحريق حتى أكلت النيران ثلاثين محلاً، وقيل سبعين، وأرجفوا أيضًا أنّ عندك النيّة لتسليم هذه المنطقة عَراءً لطهران، لقربها من مقام "السيدة رقيّة"، المزار المقدس جدًّا عند إخوتنا الإيرانيين، وعندنا أيضًا!

طبعًا، أنا – لظنّي بنفسي أني من المتنوّرين! – لا أصدّق هذه الأقاويل، وأتمنى من ناحية

ثانية أن يعاد بناء هذا السوق الشعبي الأثري المحبّب لأهالي دمشق بأسرع وقت، وألا تقام فيه فنادق لاستقبال قوافل الزوار القادمين من هناك، يأتون محمّلين بالبضائع الصغيرة ويعودون من الشام بمقدارها.

وعدٌ منك، أيها النظام، أريده "وعد شرف"، لا فنادق ولا ناطحات سحاب في العصرونية غدًا.

دمشق الشام: عصر الأحد ٢٥-٤-٢٠١٦

بعد رحيل الجدّة

كنت قبل قليل في سهرة عند جارة لي، مثقفة، وقد عادت منذ قريب، من أمريكا التي تتردّد عليها في كل حين، مقيمة عند ابنها وكنّتها، تتمتّع بتبادل الحبّ الجميل مع أحفادها، وكانت قرأت خاطرتي صباح اليوم "بسلامة نظرك، يا أمي! " وتأثرت بها.

قالت، بغير قليل من المرارة، ملخّصة العلاقة بين الأمهات والجدات والأجداد أيضًا، وبين الأبناء والأحفاد، بأنّ "العاطفة الطيّبة" من قبل الجيل الثاني والثالث لا تظهر نحو الجيل الأول بوضوح إلّا بعد الرحيل، يتذكّرون، ويحنّون، ويأسفون... لكن بعد فوات الأوان!

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٢٦-٤-٢٠١٦

بسلامة نظرك، يا أمّي!

في عام بعيد جاءتني أمّي من حلب تزورني في دمشق.

رأيتها مرة ترسل نظرها الكليل إلى موضع في أرض الحديقة، وتسألني ما إذا كنت استبدلت ببلاطها رخامًا أبيض؟

ولما لم يكن الأمر كذلك، فقد تلطّفت بإجابتها بأنّ ذلك الموضع قد سقطت عليه موادُّ منظّفة فابيضّ، وما كان لائقًا أن أقول لها ما يقال في مثل هذه الحالة «بسلامة نظرك، يا أمي[1]!».

اليوم بات نظري مثل ما كان لأمي في سنّها تلك، وغدوت جديرًا بأن تُكتم عني تلك العبارة!

الله يرحمك، يا أمي. سوف أظلّ آسفًا وحزينًا لأني لم أستطع أن أقدّم لك إلا القليل ممّا يُسعد قلبك، لضيق ذات "الأيام" عندي، وما أظنّ الحزن مفارِقي إلى يوم نلتقي. يرحمك الله، يا "أمّ فاضل".

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ٢٦-٤-٢٠١٦

الشوق... لجلبة الأولاد يلعبون بالحارة...

\- - - - - - - - - - -

(معاد) دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٧-٤-٢٠١٦

بوتين!

بوتين!

أنت تريد أن تقضي على "النصرة"؟

أم تهجّر أهالي حلب؟

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٢٧-٤-٢٠١٦

---

(١) عبارةُ دعاء تُقال على سبيل الإلماح بعدم وضوح الرؤية

حلب

حلب

أقدم مدينة في التاريخ مأهولة بسكانها وعمرانها

حلب

التي استعصت على الفناء

حلب

يريدون اليوم دفنها وهي على قيد الحياة

دمشق الشام: ليل الجمعة ٢٩-٤-٢٠١٦

سؤال بسيط للنظام:

إذا كنت تقصد ضرب الخارجين عليك

فلماذا لا تستهدف روسيا، بأسلحتها الذكيّة، المسلحين

وتتجنّب ضرب الأهالي؟

فنحن لا نرى إلا المدنيين يُنتشَلون من تحت أنقاض بيوتهم!

دمشق الشام: عصر السبت ٣٠-٤-٢٠١٦

"تفوير" الفول!

في غيابهم...

جاءني من يقرع بابي حاملاً عَبوتَين من الفول مفروطًا من قرونه الخضر، وكما كانوا أشاروا

عليّ، سكبت في القِدر على النار قليلاً من ماء، ألقيت فيه ملحًا ملءَ ملعقة صغيرة ومثلَها سكرًا، ومقدارا من حبوب الفول على نحو لا يغمرها الماء، وأخذت أحرّك بملعقة خشبية، حتى إذا فار الماء بالفول أول "فورة"، أنزلته عن النار ودلقته[١] في المصفاة. فأما الملح فلكي "يحفظ" الحبوبَ وهي "مُفَرْزَنة[٢]"، وأما السكر فيُبقي نضارها فلا يتغيّر لونها الأخضر الجميل.

بعد أن كررت ذلك، ماءً وفولًا وملحًا وسكرًا وتحريكًا بالملعقة الخشبية، ثمّ في المصفاة أدلقه، وأتركه حتى يبترد، قمت أعبّئه في أكياس من نايلون مختلفة الأحجام، ينفع كلّ كيس لطبخة تُعَدّ في الأيام الآتية.

وعندما أخذت أُودِع الأكياس في "الفريزة"، أصفّها بعناية واحدًا إلى جانب آخر، افتقدت الإحساس بلذّةٍ سوف أنالها في أكل "الرزّ بالفول"، مغشّى باللحم، وبجواره اللبن المُتوّم[٣]. تذكّرت أناسًا، قد هجروا بيوتهم الحجرية، وهم اليوم لا يملكون في الخيام أن "يُفوّروا" فولًا على نار، ولا أن يطبخوا به رزًّا، يُغشّيه لحم، ويجاوره لبنٌ مُتوّم!

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٣-٥-٢٠١٦

كان النداء في ٤-٥-٢٠١٥

كان النداء في ٤-٥-٢٠١٥

وكانت العودة إلى الوطن والبيت عصر الإثنين ٨-٦-٢٠١٥

واليوم ٤-٥-٢٠١٦ والأيام تمضي، والعمر، وما تزال الآمال كبارًا

---

(١) سَكَبْتُه.

(٢) مخزَّنة في الثلاجة.

(٣) الممزوج بالثوم.

الاجتماع.. في بيت الطفولة!

أمس...

رأيت أني اجتمعت بكم، يا أبنائي وبناتي وأحفادي والأسباط، ويا إخوتي وأخواتي، الذين تفرّقوا في الأمصار.

رأيت، فيما يرى النائم، أننا في حلب، في بيت أبي وجدّي، الكائن في "زقاق الزهراي".

من عجبٍ أني لم أر البيت مقصوفًا ولا مهدومًا. وكانت النافورة تُؤدّي ألحانها، والبِركة تطفح بالماء، وعلى حوافيها أصصُ الزريعة بأزهارها كما تركتها جدّتي.

وكانت الياسمينة معرَّشة على باب الغرفة التي فيها وُلدت، والعسليّة (العراتليّة) تملأ الحوض الكبير، والعبير العطر يملأ الأرجاء..

وكان الصغار يلعبون في أرض الحوش، والكبار في الليوان يسمرون.

سألت نفسي: كيف كنت أظنّ أنّ بيت الطفولة قُصف، وأنّ الأهل تفرّقوا!

لما استيقظت وجدتني في سريري، في بيتي الدمشقي، معرّضًا لكلّ سوء... فتمنّيت لو أني لم أُفِقْ من هذا الحلم الجميل!

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ١٠-٥-٢٠١٦

ضمير مؤرّق.. حتى البكاء!

كتبت، حتى الإملال، أنّ والدي أنجب تسعة عشر من البنين والبنات وأني أكبرهم سنًّا. الآن أبيّن أني الأكبرُ بين الذكور، تسبِقني شقيقتي بِكْر الوالدَين، "سعاد"، بسنتين إلا قليلاً، وفي سنّ الصبا كانت تهمس في أذني: «قل أمام الناس إنك أكبر مني!»..

ما أودّ ذكره هنا، أنّ شقيقتي الكبرى (وقد تكنّت بعد زواجها وإنجابها بـ"أمّ منار")، لاحظنا أنها، وهي في الثلاثينيّات من عمرها المديد إن شاء الله، بدأت تشكو من أنها كثيرة النسيان! فكنا نحن أشقاءها نُروّح عنها بأنّ هذا وهمٌ يراودها، وأنّ ذاكرتها تضاهي ذاكرة شقيقها الذي تتحدّث الأسرة عما يمتلك من ذاكرة تستحضر تفاصيل الحياة البعيدة ما شاء الله!

وأذكر أني، يوم شرعت أكتب "سيرتي الذاتية" وأنا وهي ننعم في سبعينيّات العمر، كنت أُهرَع إليها لأستكمل رسمَ ملامحٍ من عهد الطفولة، فتروي لي، على الهاتف من حلب إلى دمشق، وهي منتعشة الذاكرة، تفاصيل كان من شأنها أن أغنت الفصل الأول من السيرة، التي فصّلت فيه حكايا السنوات الخمس الأولى من العمر، وسمّيتُه "زقاق الزهراوي"، ونشرته في مجلة "المعرفة" الدمشقية (أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥)، وكنت أقول لها ممازحًا: «وتقولين تنسين!».

أمس علمت أنها، وهي تقيم في السنوات الأخيرة في ريف الإسكندرون هربًا مما يتساقط من الجوّ على مدينتها حلب، تحكي لأولادها والأحفاد الذين ما زالوا يتوافدون عليها زائرين، أنّ شقيقها "فاضل"، اتفق له يومًا وهو في الصفّ الأول الابتدائي، أن عاد من المدرسة وأخذ يتلهّى في أرجاء الدار، غير مبال بكتابة "واجباته المدرسية"، فلما هبط المساء، وتمّ تناول العشاء، وأدركه النعاس، أدرك عدم قدرته على إنجاز ما يترتَّب عليه تجاه معلمه في المدرسة، فأخذ يبكي بحُرقة! تقول شقيقتي أمس، تروي لأبنائها والأحفاد: «فكتبت له وظائفه المدرسية بخطّ يدي!».

ولله كم طرب الأولاد لسماعهم هذه السالفة: جدّتهم تكتب الواجبات المدرسية لخالهم الذي يرونه كاتبًا قديرا، يجود اليوم بتغريداته في شبكة التواصل الاجتماعي يقرؤونها كلّ صباح!... وقاموا إلى الهاتف يحدّثونه، يضحكون ويضحك الخال الكبير معهم!

قلت لهم: «أعطوني جدتكم أكلّمها»، قلت لها: «وتقولين تنسين، يا أُخيَّتي!»، وتذكرنا

الماضي الجميل وضحكنا له كثيرًا.

اليوم أفسّر: إنّ الطفل في إهابي كان يلعب ويلهو، ولكنّ له ضميرا يؤرّقه حتى البكاء!

دمشق الشام: ضحى السبت ٦-٥-٢٠١٦

شاء "محافظ المدينة"

شاء "محافظ المدينة" أن يحرمني من التمتع بإجازتي السنوية في آخر العام ١٩٥٩، وأنا مدير للشؤون الاجتماعية والعمل، رغبة منه في أن أبقى بجواره لأكتب له "خطبة عيد الشجرة" وأطبعها على الآلة الكاتبة، وأشكّلها حتى لا يقع في أغلاط في أثناء إلقائها يوم ٢٩-١٢-١٩٥٩!..... وكان ما كان!

(معاد) دمشق الشام: الأحد ٨-٥-٢٠١٦

أخي الدكتور عصام السباعي

من تحت الضرب بحلب، إلى برّ الأمان في بلاد الغربة، وما كان للحزن أن يفارق محيّاه.

لماذا هذا، يا وطني!

دمشق الشام: عصر الإثنين ٩-٥-٢٠١٦

أطفال سورية الذين يتلقّون العلم، والقصف، في آن معًا

الفتى يُصغي بكلّ حواسّه إلى "الآنسة" وهي تقرأ نصّا في كتاب "العربية لغتي"، وكان يودّ أن يرفع صوته ليقول للمعلمة، أمام تلامذة الصفّ، شيئا هامّا جدا... ولكنه بدا متردّدًا وخجولًا.

بعد أن أتمّت المعلمة قراءة النصّ، وعنوانُه "الشمس تشرق من جديد"، رفع أحدُهم يده يستأذن بالسؤال: «هل هذا الكاتب يعيش في عصرنا؟».

لم يستطع الفتى "ميلاد" أن يظلّ صامتًا. رفع صوته يقول في انفعال: «آنسة، إنه يعيش بيننا! إنه صديق أبي! زارنا وجلس في حديقة بيتنا يتناول طعام العشاء... والتقطنا صورا كثيرة معه!».

التفت إليه زملاؤه يسألونه: «من جدّ، يا ميلاد؟ عم تحكي جدّ! وتصوّرتَ معه؟ أرنا الصور!».

بعد انتهاء الدرس، وعد ميلاد أصدقاءه الحميمين بأن يدعو أبوه صديقَه الكاتب إلى البيت، فيلتقوا به ويأخذوا صورا معه!

أعترفُ لكم، أيها الأصدقاء، بأني عانيت من وعكة صحيّة صغيرة منعتني من أن أذهب إلى الموعد، ولكنّ الطلاب، المتجمّعين في حديقة بيت صديقي "مهنّد أبو ميلاد"، هتفوا إليّ واحدًا واحدا، وحدّثوني عن القصة التي قرؤوا جزءا منها، تلك التي كنت كتبتها وأنا في حلب عام ١٩٥٧ ونُشرت في كتابي "حياة جديدة"... ووعدتهم بلقاء قريب.

إنهم أطفال سورية... الذين يتلقّون العلم، والأدب، والقصف، في آن معًا.

دمشق الشام: عصر الإثنين ٩-٥-٢٠١٦

الدولار.. يحلّق في سماء الوطن!

عزيزي النظام!

يوم تسلّمتَ الحكم كان سعر الدولار الأمريكي دون الليرات الأربع من عملتنا الجميلة.

قبيل الحوادث والأحداث، كان الدولار قد تربّع على عرش الخمسين ليرة لا يريد أن

يتزحزح.

اليوم... تجاوز الستمئة ليرة، والآباء الطيبون يلوبون[١] بحثًا عن القوت يؤمّنونه لصغارهم.

وهل تعلم، يا سيدي النظام، أنّ المعاش التقاعدي لكاتب هذه السطور (وقد كان "مديرًا" في إحدى وزارات الدولة)، أصبحت قيمته اليوم تساوي ثلاثين دولارًا، والله أعلم ما تكون غدًا وبعد غد!

ونحن نرى أعوانك المخضرمين يسهرون الليالي الملاح، ويبذخون في أعراسهم النبيلة، ومنهم... إنّ منهم من كان يمتنع عن سداد قيمة "فواتير الكهرباء" في فيلاتهم بضواحي دمشق - تدلّلاً وبحسب "المونة" فهم من "عظام الرقبة" - حتى أوشكت شركة كهرباء الريف أن تعلن إفلاسها، على حين تُقطع الكهرباء عن بيوت الذين يتأخّرون في دفع فواتيرهم الضئيلة!

شعبك يموت قتلاً، وجوعًا... فقليلاً من الرحمة، يا سيدي النظام!

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ١١-٥-٢٠١٦

لا تكتب الاسم في الفيس بوك!

يوم كتبت خاطرتي "كريستال" (أعدت نشرها صباح هذا اليوم) عن ذلك المسؤول الذي شيّد له نفرٌ من المنتفعين "دارة" (فيلا) جميلة في بلده هدية ملتبسة... مقترحين عليه أن يرافقوه إلى حيث يشترون كميات من الكريستال النادر المثال، يدخلون بصناديقه المعلّبة المطار دون حساب، يفرشون ببعضه "قصره المنيف" ويحوزون الكثير الباقي!

---

(١) يَحومون ويبحثون.

كنت، في ذلك الحين (أيار ٢٠١٣)، أتراسل عبر الشابكة مع صديق حميم من المنتسبين إلى الحزب قديما، أديب إعلامي التزم بيته في أواخر حياته لمرض ثَقُل عليه، سألني بعد أن قرأ الخاطرة بفضول زائد عمن يكون هذا الشخص؟

قلت: هو من مدينة (.....)

قال: لم أعرفه!

قلت: كان يعمل في مجال الـ(.....)، قبل أن تمكنه الظروف من أن يتبوّأ منصبا عاليا في الثمانينيات وتوفي في التسعينيات...

قال بحذر: عرفتُه، ولا أرى موجبا لذكر اسمه وإن كان في الدردشة!

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١١-٥-٢٠١٦

الذين ينقدون "على الهويّة"!

سألني كاتب صديق يقيم في إحدى عواصم الغرب: لي طلب عندك، ألا وهو أن تعطيني تعريفًا وافيًا لـ"علم النقد الأدبي أو الثقافي"، فإني تعرضت منذ قريب "لنقد شديد" لآخر كتبي من قبل مَن يصف نفسه بأنه "ناقد".

فقلت له:

النقد الأدبي يمارسه كاتب متخصّص في مضماره، يتمتّع بالعدل والإنصاف في الإدلاء بالرأي، وقبل ذلك بالعناية في اختيار الكتاب الذي يريد نقده.

لن أحدثك في المطلق عن نفسي وعمّا تعرّضت له من "نقد" في وطني، أقول:

أهمل بعض النقاد أعمالي المنشورة لئلا يؤدّي الحديثُ عنها إلى الترويج لها، لكنّ بعضهم تناولها بالتجريح، حتى إنّ أحدهم نظم القصائد في "هجائي" أنا والكتاب، ونشرها في

المجلات! وللعلم إنّ هؤلاء يُسرفون في امتداح أعمال من "يهمّهم أمرهم"!

وقد أشرت مرة، في حوار لي مطوّل، إلى الظاهرة التي "أبدع" فيها هؤلاء، بفقرة أردتها أن تكون ساخرة... قلت:

وبعض من يمارسون النقد لا ينطقون إلّا عن هوى وينقدون «على الهوية»، وعلاقة بعضنا بهؤلاء تبدو عجيبة من العجائب:

إنهم إن وجدوا لغتك سليمة فصيحة مشرقة، قالوا: يكتب بلغة "منفلوطية"!

فإن كتبتَ أدبًا اجتماعيًّا، قالوا: يبدو وكأنه يكتب "ريبورتاجًا" صحفيًّا بعيدًا عن الأدب الخلاق!

فإن كتبتَ أدبًا ممّا يسمونه "حديثًا"، قالوا: يتصنّعُ الحداثة!

فإن انتصرتَ في أدبك للضعفاء ضد مستغليهم، قالوا: يتملّق الجماهير!

فإن جلبتْ عليك جرأتك في التعبير عن آرائك متاعب من ذلك النوع الذي يُشرّف الأدباء، قالوا: يريد أن يصطنع بطولات زائفة!

فإن أقبل المستشرقون على ترجمة شيء من نتاجك، حتى ولو كان ذلك دون علم منك، قالوا: قد غشّهم، أولئك الأجانب!

فإن كنت موفقًا في نشر كتبك وراء الحدود، قالوا: أبدًا لم يكن رواج الكتاب دليلاً على أصالته!

فإذا عرفوا أنّ كتبك تروج وتعاد طباعتها، قالوا: إنه من الأثرياء، يموّل بنفسه نشر كتبه المتهافتة!

وهم كلما أطلقوا عليك نيران نقدهم، بدَوا مسلحين بسيل من البراهين الخُلبيّة، التي تجعل

القارئ غير المتتبّع يقتنع بما يعلنون، معتقدًا أنك حقًا كاتب مزيّف، جدير بأن تُطهّر الساحة الأدبية من أدبك ومن ظلّك الثقيل!

مجلة "الموقف الأدبي" (عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق)

عدد ١٢٥، أيلول/ سبتمبر ١٩٨١

أتيت على ذكر الجانب السلبي من النقد والنقاد، يا صديقي المقيم في أوروبا مغتربًا منذ نعومة الأظفار، ولكنّ هناك جانبًا مشرقًا في ذلك، فالنقد هو إبداع ثان عند المتخصّصين الأوفياء، به يَنسُلون من العمل الأدبي لآلئ ودررًا قد يكون المبدع أدّاها بحكم الموهبة والتجارب المكتسبة دون أن يدري، وأخصّ هنا بالذكر مَن تناولوا بالدراسة بعض أعمالي: عدنان بن ذريل، والدكتور سمر روحي الفيصل، والكاتب المصري الدكتور حلمي محمد القاعود، وكثير غيرهم.

فاصبر قليلاً، يا صديقي، فسوف يأتيك الإنصاف ولو متأخرًا، وعذرًا لأني تحدثت عن معاناتي الشخصية، وأحسب أنّ ما يخفّف من وطأتها نزعةُ السخرية فيما أوردت من حديث!

دمشق الشام: فجر الجمعة ١٣-٥-٢٠١٦

عندما يفقد الجلاد موقعه

في حوار تُجريه معي الأديبة الإعلامية "ماري عيسى"، سألتني عن تفسيرٍ لتلك الوحشية التي يمارسها "الجلاد"، اليوم وقبل اليوم، على أبناء وطنه؟

فأجبت:

ليس من تفسير لوحشية الجلاد إلا أنه في جهالته عدوّ للإنسانية، ومرتهَن لرؤساء قد أطلقوا يده في تعذيب الناس حتى الموت.

وفي علم النفس، أنّ مَن يُعطَى الحرية المطلقة ويمارسها دون أي مسؤولية، فإنه يُتوقّع منه أن يأتي بأسوأ أنواع الشرّ والرذيلة، حتى إذا انحسرت عنه تلك الحرية المغلوطة أصبح من أذلّ الأذلاء!

حدّثني صديق أنه دخل الاعتقال – في عهد من العهود التي تتابعت على شعبنا المنكوب – وهناك تلقّى الإهانات (لكن الأمر لم يبلغ حدّ التعذيبَ حتى الموت!). لمّا تغيّرت الأوضاع، وأمسى في موقع المسؤولية، استدعى إليه "الأمنيّ" ذاك الذي أهانه، فجاؤوا به مغلولًا، وما إن دخل عليه حتى ارتمى على قدميه يبكي ويستجدي الصفح والمغفرة.

الجلادون يستحقّون الرثاء بمقدار ما هم جديرون بالاحتقار.

دمشق الشام: فجر السبت ١٤-٥-٢٠١٦

أحبّ موسى، وعيسى، ومحمد

أحبّ موسى، وعيسى، ومحمد... عليهم أفضل السلام.

ولكن ما لي أرى أتباعهم، بعضَ أتباعهم، وقد أسرفوا في معاداة بعضهم بعضًا... حتى القتل والإبادة والفناء!

دمشق الشام: عصر الأحد ١٥-٥-٢٠١٦

«كنّا متل أحجار الشطرنج!»

صديقٌ لي من أيام الطفولة، كان قد انتسب – منذ عهد الشباب الأول – إلى الحزب مؤمنًا بمبادئه القومية والاجتماعية، ونَشط فيه نشاطًا، فلما كان استلام الحكم كافؤوه بما يستحقّ من المناصب الرفيعة، وفي تعاقب الحوادث والأحداث وجد نفسه مغضوبًا وفي غَيابة سجن عميق،

وما أطلقوه إلا بعد أن وقع على تعهّد بالكفّ عن ممارسة الحزبية والإقلاع عن السياسة بتاتًا... فانزوى[1] في بيته، وكفّ.

زرته... وفي جلسة استرجعنا فيها ذكريات الطفولة، سألته عمّا كان منه وعمّا صار إليه؟ فقال بإيجازِ مَن لا يستطيع البوح: «كنّا متل أحجار الشطرنج!».

دمشق الشام: مساء الأحد ١٥-٥-٢٠١٦

بيني وبين مجلة "المعرفة".. عام ١٩٦٥

في مطلع العام ١٩٦٥، تلقّيت بالبريد - وكنت ما أزال مقيمًا بحلب - من المستشرق المجري البروفسور جوليوس جرمانوس (الذي تسمّى بعد اعتناقه الإسلام "عبد الكريم جرمانوس")، رسالة تتضمن رأيه في روايتي الصادرة في حينه "ثمّ أزهر الحزن"، فقمت بإرسال المقالة إلى مجلة "المعرفة"، التي كانت وزارة الثقافة والإرشاد القومي قد بدأت بإصدارها منذ العام ١٩٦٢ وتولّى أمرها واحد من أعمدة الأدب في سورية هو "فؤاد الشايب"، ثمّ إني انتظرت شهرين وثلاثة دون أن تكتحل عيناي برؤية المقالة "تتلألأ" على صفحات المجلة!

فلجأت إلى صديقي الكبير الدكتور زكي المحاسني (وكنت تعرفت إليه وأنا طالب "بجامعة فؤاد الأول" بالقاهرة، بصفته "المستشار الثقافي" في سفارتنا بحيّ الزمالك)، وقد غدا بعد عودته إلى الوطن أحد المديرين في هذه الوزارة، ألتمس منه سؤال إدارة المجلة عن مصير المقالة؟ وجاءني منه الردُّ بأنّ العاملين في المجلة (وكنت أعلم أنهم نفر من الشباب لم تبرأ نفوسهم من تلك العاطفة التي تسود بين من يعملون في مضمار واحد من أدب أو من فنّ!)،

---

(١) اختلى بنفسه وانعزل.

أجابوه بأنّ المقالة "تنتظر دورها للنشر! "، ونصحني بأن أهتمّ بالنشر في المجلات اللبنانية والمصرية على نحو ما يعرف أني أفعل.

هنا ما كان مني إلا أن "لجأت" إلى قلمي، أكتب إلى رئيس التحرير ما أملتْه عليّ – وأنا في سنّي تلك – غَيْرتي على "أدبي" من أن تلبث مقالة لي أو عني، أشهرًا دون تقديمها للنشر، مندّدًا بأولئك النفر المتروك الأمر لهم، وقد أسرفت – كما أرى اليوم – في القول: «فأنت لا تملك المجلة ولكنك فيها الخادم الأمين للأدب والثقافة»! وبدا أنّ الرجل الكبير، الحليم، أدرك "معاناة كاتب شاب"، فعمل، وظهرت المقالة في العدد الذي نزل إلى المكتبات بعد أسبوعين.

ثمّ إنه اتفق للأستاذ فؤاد الشايب أن زار مدينتي حلب لإلقاء محاضرة فاتني حضورها، واجتمع في مكتب مدير المركز الثقافي ببعض أدباء الشهباء يحاورونه في شؤون الثقافة والأدب، وكان بينهم أديب اسمه "فاضل"، أكثر من طرح الأسئلة والمناقشة، وبدا أنّ اسمه تردّد على ألسنة زملائه "أستاذ فاضل.. أستاذ فاضل"، ما دعا الأستاذ الشايب لسؤاله: «أنت فاضل السباعي؟»، فإجابه سميّي بشيء من الاستغراب: «أنا فاضل ضياء الدين!».

حدثني بذلك صديقي فاضل ضياء الدين، الشاعر والأديب وأحد كبار المربّين في البلد، فرويت له حكاية المقالة التي استعصت على النشر فأزالت الاستعصاء رسالتي.

دمشق الشام: صباح السبت ٢١-٥-٢٠١٦

بجوار البركة.. عند الفجر

جاءني أمس يقصد التعارف.

وفي الحديقة، وعلى إيقاع ثرثرة البِركة تُكَرِّرُ دَفْق الماء، تحدّثنا في شؤون الأدب والحياة، ثمّ كان لا بدّ من أن نُعرّج...

سألني: هل كانت في محلّها... "قَوْمتُهم"؟

قلت، وأنا أرسل نظري إلى البركة، أتأمّل فُقاعات الماء تتماوج على سطحها: هم كسروا حاجز الخوف وقاموا.

في الليل اعتراني أرق.

وسويعةَ الفجر نهضت إلى حديقتي، أنقّل نظري بين أوراق الشجر، وخطر لي بيتٌ من الشعر جعلت أردّده:

شــــرفُ الوثبــة أن تُرضـــي العُلا غَـلَـبَ الـواثـبُ أم لم يَـغْـلِـبِ

وعدت بناظري إلى البركة، أُحصي الفقاعات، ما ينداح منها، وما يتوالد.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٢٤-٥-٢٠١٦

إلّا أنا.. إلّا أنا!

الأغصان ساكنة

تحرّك النسيمُ فتمايلت استجابةً له

وعندما تحوّلت الأنسام العليلة إلى ريح

فإنّ الأغصان أخذت ترقص طربًا

كلّ الكائنات في الكون الكبير

تستطيع أن تتحرّك، وترقص، وتفرح، وتطرب

والأطيار في السماء

وما يَدُبّ على الأرض أو يسبح في الماء...

إلا نحن... إلا نحن...

دمشق الشام: فجر الجمعة ٢٧-٥-٢٠١٦

المشمش محمرّ الوجنات من خجل

من يدٍ لا أعدمها[1]، تلقّيت ضحى اليوم عبوة عامرة بحبّات مشمش الغوطة، خدّاً أصفر شاحبًا من اعتلال لا يعرف أحدٌ سببه، وخدًّا أحمر متورّدًا من خجل.

صديقٌ في الشابكة، بدا أنه أراد أن يُعوّدني - من يوم عودتي إلى الوطن - أن أستقبل مَن يرسله إليّ حاملا المشمش الخجلان والكرز الذي تشبه حبّاته ثغور العذارى!

على يديه تذوّقت مشمش هذا الموسم... له جزيل الشكر والامتنان.

دمشق الشام: ليل الأحد ٢٩-٥-٢٠١٦

من يشتري الدولار مني!

في القليل من العملة الأمريكية التي أكافأ بها على ما أنشره من نصوص أدبية في المجلات العربية، جريت على أن أهتف إلى صديقي الصيرفي، فيسرع إليّ - والدولار في صعود - يشتري المئة التي أناوله إياها، ويسألني إذا كان عندي مئة أخرى؟... ونتبادل البسمات، ويمضي!

في هبوط الدولار هذه الأيام، أهتف إليه فلا يردّ!!

لَكْ بدّي أصرف على حالي!

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٣١-٥-٢٠١٦

---

(١) عبارة دعاء، بمعنى: سلمت يدك.

في سويسرا افتتح بالأمس متحف حضارات الإسلام

هي ظاهرة، غير صحيّة، أنّ الباحثين – حتى إن كانوا على درجة من الموضوعية العلمية – عندما يتحدثون عن منجزات حضارية ما، فإنهم يتجنّبون الاعتراف الكامل بما حققته الأمم الأخرى في المضمار الذي فيه يتحدثون، مُبدين الاعتزاز بما أنجزته أممهم، متغافلين عن حقيقة علمية بسيطة، كان قد فطن إليها ابن خلدون قبل مئات السنين، من أنّ الحضارة، كلّ حضارة، تبدأ، وتصعد حتى تبلغ أوجَها، ثمّ تخبو شعلتها، كما الإنسان يولد، يشبّ، يشيخ وأخيرًا يموت!

ونرى أنها ظاهرة تتبدّى في الثقافة الأوروبية، خاصة حين يتناولون المنجزات الحضارية التي حققتها إفريقية أو العرب أو الأمم الإسلامية.

هل استطاع المجتمع السويسري أن يتجاوز هذه الظاهرة، العابرة للأزمنة والقارات، حين أتاح لفريق من المثقفين، عربًا ومسلمين وغيرهم، أن يعملوا، وعلى مدى بضعة عشر من الأعوام، على إنشاء متحف سمَّوه "متحف حضارات الإسلام"، تمّ افتتاحه في نهاية الأسبوع الماضي، في مدينة صغيرة اسمها "لا شو دو فون La Chaux de Fonds" هي عاصمة صناعة الساعات السويسرية، ويتّسع المتحف لستّ مراحل من حضارات المسلمين:

- الجاهلية،
- الوحي،
- التفسيرات،
- الإشعاع،
- الانحطاط (ولم أحبّ هذا المصطلح!)،

• فالانبعاث.

خبرٌ زوّدني به يوم أمس، صديق في سويسرا، هو أحد أعضاء هذا الفريق، المثقفُ العربي، السوري، ابن حلب البارّ، «خلدون ضياء الدين»، وللتعريف به هو ابن صديقي المربّي «فاضل ضياء الدين»، الأديب الشاعر، والذي تخرّجت على يديه أجيالٌ ممّن درّسهم اللغة العربية في مدارس حلب الرسمية والخاصة، مشيرًا إلى أنّ الأب الراحل (١٩٢٥-١٩٨٤) بدأ حياته العملية من نقطة الصفر، وختمها ببناء دارةٍ (فيلا) كتب على بابها "فيلا عرق الجبين"، وها هو ذا ابنه يُسهم في إنشاء متحف لحضارات قومه في إحدى بلاد الغرب. تحية له من أعماق القلب.

دمشق الشام: فجر الأربعاء ١-٦-٢٠١٦

يا مستر "مارك".. يسعد صباحك!

منذ دخلتُ عالم التواصل الاجتماعي والصداقات بيني وبين المتصفّحين في أرجاء المعمورة تتزاحم أعدادها وتزداد عمقا، وأجد في تضاعيف الشبكة من الفائدة ومن العون والتعاطف ما لا يخطر في بال.

في دمشق يَقرع الباب عليّ مَن يحمل عبوات من مشمش وكرز قد قطفهما، من حديقته المنزلية في "الصبّورة"، يدا صديق لم أكن أعرفه لولا هذا المخترع السحري!

وربّ امرأة تعمل "مساعدة" في البيوت، تأتيني صباح يوم لترتيب البيت، أرسلتْها إليّ أسرةٌ لا أعرفها ولكنها تمتّ بصلة القربي لصديقة لي في بلد يَعبر القارات!

صديق يقيم في أوروبا يُبدي رغبة في اقتناء أعمالي الأدبية وما نشرتْه دار إشبيلية (الخاصة بي)، بضع نسخ من كلّ عنوان، أرسلها إليه بالبريد السريع (DHL)، ليقوم بالترويج لها في

الوسط العربي وعند المستشرقين في العاصمة التي يعيش فيها!

والصبايا الجامعيات في الدراسات العليا، يزرنَني بين اليوم والآخر، يساعدنَني في استخراج النصوص المطمورة في الأدراج والرفوف، يُعقب ذلك تصنيفٌ وتنسيق، وتنضيدٌ عندي أو في بيوتهنّ، وبعده "الإخراج الفني" تمهيدًا للإرسال إلى المطبعة!

بالأمس يبعث إليّ صديق، من العاصمة العربية التي يعمل فيها، بـ"رابط" يتضمّن نصوصًا لي التقطها بمهارة فائقة من الدوريات الأدبية التي كانت تصدر في خمسينيات القرن الماضي؛ فلما حدّثتُه عمّا أتمنى تهمّم فبعث إليّ بكل ما كتبت من خواطر في صفحتي طوال العام الماضي (٢٠١٥)، منتظِمةً مرقمة مفهرسة، ويقول لي: «أليس لك أحفاد؟ اعتبرني واحدا منهم!»، مبديًا العزم على جمع خواطري عبر السنوات الماضيات كلها... فأيّ أخ هو لم تلده أمي!

وصديقة في أمريكا، لم تر عيني منها إلا كلماتها تزيّن صفحتي، تدعوني وزوجها - حين كنت في فلوريدا - إلى أن أزور ولايتهم وأنزل ضيفا في بيتهم. ويوم عرفتْ ما أصابني، هنا بدمشق، في يوم العشرين من كانون الأول الماضي، تجاوزت التسرية عني إلى أن أخذت تغنّي لي بصوتها الحنون أغنية: "شادي... تربّينا سوا! "

يسعد صباحك، يا مستر "مارك"... إنهم يَشْكون ممّا اخترعتَ لهم لمضارَّ يُعدّدونها... ولكنّ في مخترعك مع ذلك نفعًا عظيما.

دمشق الشام: فجر الجمعة ٣-٦-٢٠١٦

حوار مع الكاتب السوري فاضل السباعي[١]

في مجلة "الهلال" المصرية عدد يونيو/ حزيران ٢٠١٦

---

(١) وقد نشر المرحوم فاضل السباعي حواره على دفعات في منشورات سبعة، ثم نشره كاملاً، فآثرنا إثبات

إعداد الإعلامي: محمود القاعود

وُلد الروائي السوري الكبير فاضل السباعي بحلب عام ١٩٢٩ في حيّ وراء الجامع الأموي الكبير، وهو الابن الأول لـ"أبو السعود السباعي" الذي أنجب تسعة عشر من البنين والبنات. درس الحقوق بجامعة القاهرة، عمل محاميًا، فموظّفًا في وزارات الدولة، وانتقل بعمله الوظيفي إلى دمشق عام ١٩٦٦، طلب إحالته على التقاعد عام ١٩٨٢ وهو مدير في وزارة التعليم العالي، ليتفرّغ للكتابة.

أسّس بدمشق ١٩٨٧ دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع. عضو مؤسّس في اتحاد الكتّاب العرب بدمشق ١٩٦٩، ومقرّر جمعية القصة والرواية في الاتحاد لستّ دورات.

له بضعة وثلاثون كتابًا، طُبع بعضها غير مرة. كما تُرجمت بعض قصصه إلى عشر لغات، منها: الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية والتركية والفارسية. صدر كتابه "بدر الزمان" مترجمًا إلى الإسبانية (١٩٩٩)، وكتابه "حزن حتى الموت" مترجمًا إلى الفرنسية (٢٠٠٢) في باريس.

"الهلال " التقت السباعي أحد أهم رموز الرواية السورية والعربية:

ـ كيف وُلد الابداع داخل فاضل السباعي، لا سيما ودراستكم هي الحقوق؟

** أحسب أنه وُلد قبل دراستي الجامعية، من مطالعاتي المبكرة للدوريات الثقافية والعامة، وقد كانت في سنوات الأربعينيات من القرن الماضي مصرية على الأغلب، مجلة "الهلال" والأسبوعيات "المصور" و"الاثنين" و"مسامرات الجيب"، ويوم علمت بصدور مجلة ثقافية جديدة هي "الكتاب" عن دار المعارف بمصر أواخر العام ١٩٤٥، سارعت لاقتنائها

الكامل

شهرا بعد شهر (وهي في حوزتي)، كنت أقرأ فيها ما أفهم وأستسيغ، وأيضًا ما لا أفهم.

منذ ذلك التاريخ، وأنا في مرحلة الدراسة الإعدادية، أخذت أحلم بأن أكون كاتبًا ذا شأن كـ عباس محمود العقاد، لي بيت، فيلا/ دارة على "طريق السبيل"، الذي يعبر أهلُ حلب متوجهين إلى متنزّه "السبيل" (ما زال قائمًا)، أكتب الأفكار من وراء نافذة مطلة، ألبس عباءة سوداء، كتلك التي ورثها أبي عن جدي، يمرّ الناس من تحت نافذتي، يرفعون البصر ويقولون: «هنا بيت الكاتب الكبير فاضل السباعي»! اليوم أبتسم، لكن ألا ترى أنّ الأحلام، وإن كانت بعيدة، هي الخطوة الأولى في رحلة الإبداع؟

ـ لكم قصة مثيرة مع الشعر.. هل من نبذة عنها للقارئ؟

** لست أدري كيف تنزّل عليّ الشعر وأنا في الثامنة عشرة من العمر، فتغنّيت:

خذ هذه الناي، واعزفْ جوانبها لحنًا حزينا، فما يُشجيك يُشجيني
أفنيت عمري بأوهام تُراودني حينا وحينا تلاقيني فتُشقيني

اسمع، يا محمود! وأنا في صفّ الشهادة الثانوية دخلت على مدير المدرسة "عمر يحيى" وهو شاعر، وكان يلاحظ اهتماماتي الأدبية، واقترحت عليه – بجرأة خارقة – أن نُصدر نحن طلاب "ثانوية المأمون" بحلب مجلة نحررها وتموّلها إدارة المدرسة، وكان أن أصدرنا ثلاثة أعداد ممّا سمّيناه "صوت الطالب"، تجاوزت صفحات كلّ منها المئة، كنت فيها "سكرتير التحرير"!

نعم، ما قبل الجامعة. وقد درست بجامعة فؤاد الأول (فيما بعد جامعة القاهرة)، كانت هواجس الإبداع، بذورُه المبكّرة، تنمو في الصدر وتزكو.

ولست أشكّ في أنّ دراستي للحقوق كانت إضافة لثقافتي الأدبية التي كنت أنهلها عصاميًّا من مظانّها، وأعترف بأنها زادت في تأسيس الإحساس بالعدالة والإيمان بالحرية... على نحو ما سوف يأتي!

= = = = =: ٢

ـ لوحظ اهتمامكم بالقصة القصيرة على حساب الرواية، هل تأثركم بتشيخوف كان السبب في ذلك؟

** في الواقع بدأت، وأنا في مرحلة الدراسة الثانوية بحلب، بمشروع رواية، ثم مشروع رواية أخرى، وما كان لي أن أتْمِم لقصوري في تجارب الحياة وتجربة الكتابة.

وأنا في الجامعة اتجهت إلى كتابة القصة القصيرة للظنّ بأنها الأسهل، ونشرت في ذلك العهد إحداها في مجلة "الأديب" اللبنانية وقد منحني ذلك ثقة لا حدّ لها، وظلت عيني ترنو إلى الرواية، وكان الإرهاص لذلك أنّ قصصي كان يغلب عليها الطول أكثر مما يُلاحظ في القصص القصيرة عادة.

هل كنت "أجرّب" الرواية، أتمرّن عليها؟ إنّ بعض قصار القصص عندي، التي استحسنتُها، عدت إليها فكتبتها قصصًا مطولات. "ضيف من الشرق" غدت رواية "الظمأ والينبوع" (دار الآداب ببيروت، ١٩٥٩، ١٩٦٤)، قصة "الناس" أصبحت "مواطن أمام القضاء" (دار المعارف بمصر، سلسلة اقرأ ١٩٥٩)... ولكني أعُدّ كلاًّ العملين من القصص المطولة لا من جنس الرواية حقيقة.

بعد ذلك، ومنذ أواخر العام ١٩٦١، بدوت وكأني غبت عن دنيا القصة القصيرة، بأن أكببت على كتابة روايتيّ الطويلتين: "ثمّ أزهر الحزن" و"رياح كانون" (وكانون هو التسمية في سورية لشهرَي ديسمبر/ كانون الأول، ويناير/ كانون الثاني)، وقد أربت صفحات كلّ منهما على الأربعمئة (نحو ٨٠ ألف مفردة).

ـ هل استنفدت بعدهما، همّتك في التأليف الروائي؟

** كان ما طرأ على الأوضاع في بلدي أنّ مقاليد الحكم أمست في يد حزب واحد، واجتُرحت الحريات العامة، وأُجهضت المؤسسات الشعبية... ووجدتني أحمل لواء الدفاع عن حرية الإنسان. كان أول ما كتبت في هذا المضمار قصة "يقظة بعد سُبات طويل" (١٩٦٦)، تلك التي نُشرت في مجلة "المجلة" المصرية الراقية، وتوالت هذه القصص، أكتبها بـ"فانتازيا" متميّزة، تفلّتًا من الوقوع في قبضة السلطة، إلا أني وقعت في أيديهم مرة (٢٢-١٢-١٩٨٠) متلبّسًا بقراءة واحدة من هذه القصص "الأشباح" (نزلت بعدئذ في مجموعتي "آه، يا وطني! ") التي قدّمتها في كلية الآداب بجامعة حلب... ومن باب الجامعة إلى المعتقل!

من هذه القصص قدّمت مجموعة إلى "اتحاد الكتّاب" في بلدي (وأنا عضو مؤسس فيه عام ١٩٦٩) سمّيتها "حزن حتى الموت"، فسعى مَن أسمّيه "عبقريّ القصة القصيرة السورية" المتولّي أمور النشر في الاتحاد، إلى الحيلولة دون نشرها، إلى أن ظهر الكتاب ببيروت بثلاث طبعات، والرابعة في الدار التي اضطررت إلى إنشائها بدمشق (إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع)، وكان الإصدار الخامس باللغة الفرنسية بباريس عام ٢٠٠٢.

- نعود للتأثر بتشيخوف والذي يبدو في بعض أعمالك من الإغراق في الإنسانية والعاطفة؟

** عن التأثر بـتشيخوف، كنا نحن جيل الخمسينيات، مولعين جدًّا بـ"الواقعية" في الأدب، وقد نهلنا من الأدب الروسي المكتوب خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، غوغول، غوركي، ومطوّلات تولستوي، وشفافيّة تشيخوف وصفاء قلبه... وبعضنا اهتمّ بالفرنسي غي دو موباسان (أخصّ رائد القصة السورية في زمنه مظفّر سلطان ١٩١٢- ١٩٨٦)، وتهاويل الأمريكي أدغار آلن بو.

=====٣:

- رواية "رياح كانون" إحدى المحطات الرئيسة في مشواركم الإبداعي، كيف جاءتكم

فكرتها؟ وهل توقعتم هذا الانتشار لها؟

** في الستينيات لاحظت أنّ صعود بعض الكاتبات سلّم الشهرة والانتشار، كان سهلاً ميسورًا، وكان لكلّ واحدة من هؤلاء رجلٌ ما يكمن في الظلّ يمارس دوره في تصحيح النصّ المكتوب وتعديله، وفي إعادة صوغه، وفي نشره، والترويج له بالاتصال بمن يكتب ويُشِيد، على حين أنّ "الرجل" يمشي في طريقه معانيًا الإبداع، وكذا البحثَ عن ناشر، وانتظارَ من يكتب عنه ويُروّج له. استعرت هذه "الحالة" - ولا أقول "الظاهرة" فهي لم تبلغ هذا الحدّ - ونسجت منها رواية، ما كنت أحسب أنها تطول فتزيد على الأربعمئة صفحة. والذي أثراها طولا ومضمونا، أني عرّجت فيها على عالَم الأدباء والمثقفين، فرصدت مجالسهم وحواراتهم، الجادّة والمبتذلة، وجعلت من بطلها - الذي ينتمي إلى الطبقة الشعبية "رامي حسام الدين" - ناقدًا لأدب الرواية، يتطلّع في الوقت ذاته إلى أن يُبدع فيها ولكنه لا يستطيع، وفي التقائه الأديبة الشابة "لبنى آل الأمير" - التي تنتمي إلى "الطبقة المخمليّة" - يكون ما يكون، «فظُنَّ خيرًا ولا تسأل عن الخبر»!

وفي انتشار "رياح كانون" أسمح لنفسي بأن أنوّه بدراستَين ممّا كُتب عنها، أولاهما للناقد السوري "الدكتور سمر روحي الفيصل" في السبعينيات، والثانية كتبها الأديب الناقد المصري "الدكتور حلمي محمد القاعود" في أواخر التسعينيات، فلهما شكري وتقديري.

- رواية "الظمأ والينبوع" أثارت جدلا وقت نشرها بالستينيات، هل كان ذلك لانتصار الرواية للعروبة في ظل المدّ القومي؟

** هذا النص السردي كتبته مرتين: الأولى قصة مطولة نزلت في مجموعتي القصصية "ضيف من الشرق" التي حملت هذا الاسم (بيروت ١٩٥٩)، ولما رأيت استحسان القراء

لمضمونها أعدت كتابتها على نحو تشغل به كتابا متوسط الحجم، اقترح عليّ الناشر (الدكتور سهيل إدريس صاحب دار الآداب ببيروت، التي تولت نشر الصيغتين)، أن أتخذ للكتاب عنوانا آخر جديدا، فاستحدثت "الظمأ والينبوع".

هذا وقد رسم غلاف الطبعة الثانية الفنان المصري جمال قطب: صورة لشاب "عربي" جالس كالمنتظر، وامرأة "ألمانية" (فالقصة تقع في ألمانيا) بارعة الجمال تبدو كالمقبلة عليه. ودعني أتذكّر، أني يوم عدت من بيروت وفي يدي نسخ من هذا الكتاب، قدّمته إلى الدكتور زكي المحاسني في وزارة الثقافة (وقد سبق له أن شغل وظيفة الملحق الثقافي بالسفارة السورية حين كنت أدرس الحقوق بالقاهرة أوائل الخمسينيات)، قال وهو يتأمّل الصورة: «والله أرى هـ العكروت(١) ينتظر!».

بعد هذا التقديم – الذي لا أراه مملاًّ! – أقول إنّ ما تبدّى من هذا الفتى تجاه زوجة صديقه الألماني، الغائب عن البيت، لدى إقبالها عليه متعرّية، قد أثارت "عفّتُه" إعجاب بعض الكتّاب، وفي طليعتهم الشاعر اللبناني الكبير (رشيد سليم الخوري، الملقّب بـ"الشاعر القروي")، فدبّج مقالة معبّرة عن منتهى إعجابه نشرها في مجلة "الأديب" اللبنانية، هذا مع أني عمدت، في ختام هذا العمل القصصي، إلى أن أوجز عوامل عدة، لا عامل العفة وحده، في إحجام الفتى "سامي" عن مقاربة "هيلغا" زوجة صديقه "اوتو ميلر".

ويظلّ اختلاف التأويل مُثريًا للعمل الإبداعي.

===== ٤:

– لا يمكننا، ونحن نتحدث عن أعمالكم الإبداعية، إلا أن نأتي على ذكر "ثمّ أزهر الحزن"،

---

(١) الشخص الذى يمتاز بالشقاوة والمكر. أصلها تركي بمعنى القوّاد.

كلّ هذا الشجن الذى حفَلت به الرواية.. هل كان بسبب "الواقعية" أم لطريقة السرد "السهل الممتنع"؟

** أنت بسؤالك هذا تأخذني إلى الآونة التي كَتبت فيها عملي هذا بحماسة واندفاع خلال أربعة أشهر ونيّف، وكان إتمام المسوّدة الأولى منتصف آذار/ مارس١٩٦٢، بل أنت تُعيدني إلى ما قبل ذلك: ربيع ١٩٥٨ وأنا منشغل في التحضير لـ"عيد الأم"، بصفتي الموظف المسؤول في وزارة الشؤون الاجتماعية (مديرية حلب) عن الاحتفالات الاجتماعية وعن الجمعيات الخيرية والثقافية.

في ذلك الحين عممت عبر وسائل الإعلام المتاحة عن العزم على اختيار "أمّ مُثلى" وعشرٍ من الأمهات الفُضْليات، فجاءني كثيرٌ من النسوة، ولكلّ منهنّ بنون وبنات، يعملون شبابًا وشابّات في مجالات التعليم والطبّ والهندسة وفي سائر مناحي الحياة، ورأيت أنّ بعضهنّ قد انفردنَ - بعيدًا عن الزوج المعيل - بالتربية والرعاية مع كلّ شظف العيش وبؤسه أحيانًا، فطرحت على نفسي بصفتي كاتبًا روائيًّا: هي ذي "نماذج بشرية" ماثلةٌ أمامك باللحم والدم والأعصاب، جديرةٌ بأن تستوحي منها خير القصص والروايات، فماذا يُقعدك عن ذلك، أيها القاصّ الشاب الذي يرى نفسه موهوبًا!

ولما كنت، في ذلك الحين، معنيّا بكتابة القصة وإنْ كانت مطوّلة أحيانًا، فقد أخذت القلم ونسجت قصةَ أمٍّ رحل معيلها وهو غير ذي مال، فتولّت هي قيادة المركب آخذةً دور الأمّ والأب معًا... إلى أن بلغت الوقوف على منصّة المسرح "أمًّا مُثلى" تُتلى سيرتُها أمام جمهور التهبت أكفّه بالتصفيق، وسمّيتها "العناقيد الستة وزهرة التفاح"، وأسرعت إلى نشرها في مجلة "الثقافة" الدمشقية لصاحبها الشاعر مدحة عكاش! ولكنّ الفكرة ظلّت تؤرّقني أن أكتبها رواية. وهكذا أخذت القلم ثانية، وشرعت أكتب: «اسمي هالة. عشت وأخواتي

طفولة.....»، هكذا، بدأت الرواية، بضمير المتكلم، تسرد الأخت الوسطى بين خمس شقيقات، قصة الأسرة ومتاعبها ومآسيها، في قسم أول سمّيته "الحزن"، وفي القسم الثاني "الحبّ" تروي هالة ما جرى لها وهي طالبة بالجامعة، وفي الثالث "الفرح"... وكان ما كان!

في الفصل الأول تأتّى لي أن أرسم - بدقّة أزعمها - ملامح الأب، الحنون، والمشتاق إلى أن ينجب صبيًّا على حين تتوالى عنده البنات حتى غدونَ خمسا، ويُغمض عينيه الإغماضة الأخيرة، تاركا للأمّ كلّ شيء... وجنينا في ضمير الغيب.

لماذا اخترتهنّ بناتا؟ لأنّ البنات أدعى لاستثارة الشفقة والحنان عند القارئ، ولأني أردت أن أقدّم نماذج للبنات المجدّات العاملات الواصلات إلى النجاح في جوار الأمّ.

ولن أنسى الإشارة إلى إحدى مفارقات الحياة: وضعت الأمّ وليدها فكان صبيًّا!

- أعتقد أن ثمة تشابها بين روايتكم "ثم أزهر الحزن" وبين "بداية ونهاية" لنجيب محفوظ. هل تتفق معي في هذا؟

** نعم... يمكن النظر إلى "ثمّ أزهر الحزن" على أنها "الوجه الشامي" للأسرة التي رحل معيلها، ويمكن كذلك اعتبار "بداية ونهاية" "وجها" واحدا من بين كثير من الوجوه المصرية، عمد فيه محفوظ (الذي نقدت له شخصية "نفيسة" في هذه الرواية بمقالة مطولة نشرتها في مجلة "الأديب" اللبنانية عام ١٩٥٦، وكنت في ذا أول كاتب سوري يكتب عن محفوظ!)، إلى أن يجعل بطلته تنحرف انحرافًا يُفضي بها إلى الموت، ويجعل من حسنين انتهازيّا براجماتيا، ومن حسن بلطجيًّا[١] في المقاصف الليلية، وما ترك لنا من الأشقاء طيّبًا إلّا حسين!

- وماذا عن النجاح الذي لقيته "ثم أزهر الحزن"؟

(١) البلطجيّ: قاطع الطريق، والسلاّب بالقوة، لأنه يتسلّح بالبلطة في الأصل.

** الطبعة الرابعة منها على وشك الظهور في سورية المدمّاة. ولن تفوتني الإشارة إلى أنه أديرت عليها أطروحات، في موسكو وفي جامعة كْراكوف (في بولندا)، وتحدثت عنها المستعربة الإسبانية "ماريّة خيسوس فيغيرا" بجامعة غرناطة مفرِدة لها مكانا في كتابها عن الرواية العربية.

وجدير بي أن أروي هذه السالفة: مستعرب سوفياتي جاء حلب، في أواسط ستينيات القرن الماضي، ليقوم بدور المترجم للخبراء الروس، اتفق له أن وقف على "ثمّ أزهر الحزن" واختارها موضوعا يُدير عليه أطروحة الماجستير. حاول صديقٌ له من أبناء وطني كان قد درس في موسكو، أن يَثنيه عن عزمه على صُنع أطروحته عنها، بأنّ هناك روايات سورية تتمحور حول "الصراع الطبقي" هي الأَوْلى، فأجابه المستعرب الشاب بأنّ ملامح المجتمع السوري تتجلّى في هذه الرواية وليس في تلك الروايات. الطريف أنّ من حدّثني بهذا هو هذا "الصديق" نفسه وليس المستعرب، الذي قَدِم من حلب إلى دمشق ليلتقي بي، ولكنّ "الشباب" في المركز الثقافي السوفياتي بدمشق آنذاك (عام ١٩٦٧) لم يمكّنوه من معرفة عنواني! والذي أعلمني بقدومه إلى دمشق رغبة في اللقاء هو مدير المركز الثقافي السوفياتي "عبد الصادق اريسوف"!

- في هذا الاسترسال الذي تطرّقنا فيه إلى عالم "علم الجمال"، بقي لي أن أسألكم عن مقاربة "الدراما" الإذاعية والتلفزيونية لهذه الرواية العائلية الحميمة؟

** منذ البدء لم أكن محظوظا في التعامل مع هاتين المؤسستين، الإذاعة والتلفزيون، في بلدي. لكن بعد صدور الرواية بعام تقريبًا علمت أنّ الإذاعة الأردنية قدمت "ثمّ أزهر الحزن" مسلسلاً إذاعيا في راديو عمّان بثلاثين حلقة يومية في شهر رمضان لكن باسم "الغد المجهول" مع تغييب اسمي! ثمّ اتفق أن زرت العاصمة الأردنية أوائل العام ١٩٦٦، وسألت مديرها، فكان اعتذارٌ وكانت مراضاة و"عفا الله عما سلف"! وعدت إلى بلدي سعيدا بما عرفت من "النجاح الكاسح" الذي حظي به المسلسل، كان المستمعون - كما حدّثوني هناك - ينتظرون

حلقة جديدة بعد كلّ إفطار! وما نحن، أعني الكتاب والفنانين في ذا، إلا كالأطفال أو... مثل "الغواني يغرّهنّ الثناء"!

بعد عامين قدّمتها إذاعة "صوت العرب" مسلسلاً باسم "ثم أزهر الحزن" مقرونًا باسمي هذه المرة. ولما زرت القاهرة بعد حين، وتوجّهت إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون في شارع مسبيرو أسأل عن المكافأة، بحثوا فوجدوا "الملفّ" الخاص بالمسلسل فارغًا... بفعل الزمن! وبدا أنّ عزائي كان فيما كتبوا عن أحداث الرواية في مجلة الإذاعة حين تقديمها في حلقات سبع، من أنّ «في الأدب العربي الحديث أدباء يمكن أن نسمّيهم "أدباء الأسرة"، فهم يدرسون العلاقات داخل الأسرة إيمانًا منهم بأنها أصدق تعبير عن حياة المجتمع، ومن الأدباء العرب الذين يمثّلون هذا الاتجاه...» وذكروا اسم نجيب محفوظ وبعده اسمي! ألم أقل لك إنّ الكتّاب كالأطفال؟

ويمضي ثلاثون عامًا أخرى أو يزيد، وتزورني بدمشق شابة تعرض عليّ أن تعدّ هذه الرواية عملاً تلفزيونيا. وقُدّمت في التلفزيون السوري ببضع وعشرين حلقة، تمزّقت فيها حوادث الرواية، واستُبعد العنوان الجميل إلى آخر "البيوت أسرار"، وتبدّدت المكافأة بين الأيدي المتعاقبة... والمسلسل ما زال يعرض مرة بعد مرة في الفضائيات العربية ويلقى الاستحسان... إلا ممّن قرؤوا الرواية!

- ماذا تمثّل "المرأة" في حياة فاضل السباعي، وأيضًا في أعماله الإبداعية؟

** المرأة هي الأمّ، والأخت، والزوجة، والابنة. ولتعلم أني رزقت بثلاث بنيّات قبل أن يأتي الرابع صبيًّا، وهذا الصبيّ بعد أن كبر وتزوج رزق بثلاث بنيّات، هنّ "زين" و"نايا" و"جودي"، وبعدهنّ جاء الصبي "فاضل الصغير".

وعودة إلى "ثمّ أزهر الحزن"، فإني كتبتها لأدلّل على أنّ الأمّ - مع حاجتها إلى الرجل -

تستطيع أن تحمل العبأين، مسؤولية الأب والأمّ معًا، عند الضرورة.

ولست ممّن يعتبرون المرأة ملكًا نازلًا من السماء، ولا الرجل، وقد قدّمت في "رياح كانون" الصورة السلبية لها، "لُبنى آل الأمير"، مع تقديمي ملامح إيجابية للأمّ في أسرة البطل "رامي حسام الدين. "

=====٦:

- رحلتكم إلى أمريكا في العام ٢٠١٣ حتى ٢٠١٥.. حملت الكثير من الخواطر والمخاطر.. كيف ترون هذه الرحلة؟

** بسؤالك هذا تدخل عالمي الخاص (العائلي).

لما قامت الانتفاضة في بلدي في مطالع العام ٢٠١١، وكان هتافهم الأول في "ساحة الحريقة" بدمشق هو "الشعب السوري ما بينذلّ"، ولما اتَّهم النظام المتظاهرين المطالبين بالحرية بأنهم ينوون الفتك بالأقليات ارتفع منهم هتاف آخر "سلميّة، سلميّة"، وعندما وصمتهم السلطة بأنهم يمزّقون الوطن أضافوا هتافًا ثالثًا "واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد"!

أقول: فأين يمكن أن يقف مواطن بدأ، منذ الستينيات، يكتب القصص المندّدة بالقهر والفقر، كانت خفيضةَ النبرة تارة وعاليتَها تارة أخرى، وقبل ذلك كان هو بين طلاب جامعة القاهرة الذين اعتصموا في ربيع ١٩٥٤ وسُمح لهم بأن يخرجوا منها بضعة أمتار متظاهرين ضدّ انتهاك حريات الشعب، هاتفين "يسقط حكم البكباشيّة"... هل يمكنه أن يقف إلّا في صفّ الشعب المقهور؟

يتعيّن عليّ أن أبيّن أنّ أسرتي "الكبيرة" تقيم في حلب، وقد قُدّر لي أن أنتقل بوظيفتي قبل خمسين سنة إلى العاصمة دمشق موظفًا بوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، وتنقلت في أثناء

ذلك في وزارات الدولة وكان آخر ما شغلت مديرًا في وزارة التعليم العالي. وإذا كان أبي قد أنجب تسعة عشر من البنين والبنات (وإني أكبرهم سنّا[١])، فإني لم أنجب غير أربعة، كان الأُوَل منهم ثلاثَ بنات وآخر العنقود هو الآن رجل في الأربعينيات. الأربعة غادروا العاصمة، موزّعين، ثلاثة في فلوريدا وابنتي الفنانة التشكيلية "خلود" وابنها التشكيلي "ماجد" بالقاهرة، ولا تسل عن الأحفاد والأسباط... وبقيت وحيدا في بيتي بدمشق!

مسّ الخوفُ عليَّ قلوبَ الأصدقاء: وحيدا في بيتي أمسيت، وليس هنا من يعتني بهذا "الثمانيني" مأكلاً ومشربًا ورعاية، وقد رأوني أصرّ على البقاء في الوطن! ولكنّ خوفا آخر اعترى المحبّين: أني أكتب في "شبكة التواصل الاجتماعي" (الفيس بوك) كلامًا أحامي فيه عن الانتفاضة وأنقد النظام، دون أن يفطنوا - هؤلاء المحبّين - إلى أني في ذا أتابع ما كنت بدأته قبل خمسين سنة، فإن ضمَمْتُ إلى هذه الخمسين هتافي ذاك على أبواب جامعة القاهرة، أصبحت السنون ستين!

أصواتٌ ممّن حولي بدمشق، وأخرى تتوارد من فلوريدا، و"الفيزا" تمّ ختمها في "جواز السفر"، وبطاقة الرحلة هُيِّئت... وهكذا وجدتني أسافر مع ابني، المتجنّس أمريكيّا، عصر يوم إلى مطار بيروت، ومن هناك امتطيت متن الريح باتجاه الغرب. وفوق المحيط الأطلسي، كتبت تغريدة نشرتها على جدار صفحتي، قلت:

والله

ما فارقتك يا وطني

---

(١) صرَّح في منشور سابق أن ترتيبه الثاني، فثمة أخت له هي أكبر منه سنًّا، لكنه كان يخفي ذلك بناء على رغبتها.

خوفا من عيونهمُ المبثوثة

ولا رَهَبًا من سيوفهمُ المسلولة

ولكنْ

لأنّ الأسرة التي أنجبتُها

على مدى خمسين عاما ويزيد

قد تفرّق أفرادها في كلّ اتجاه

ولم يبقَ في دمشق

من إذا انتابني وجعٌ

يمدّ يده إليّ بكأس ماء!

وذيلتُها: (فوق المحيط الأطلسي عصر الثلاثاء ٧-١٠-٢٠١٣)

===== ٧

- وهل تابعتم الكتابة في هذا المنحى، وأنتم بين أفراد الأسرة في أمريكا، أو زدتم في حدّته؟

** كنت ولم أزل أكتب في وتيرة واحدة، دفاعًا عن حرية شعوب العالم الثالث، حتى ادّعيت مرة أني تجاوزت أن أكون كاتبًا سوريًا أو عربيًا، فالقهر "عملة" رديئة متداولة في كلّ أنحاء العالم حتى في أمريكا، وإن كان ما يظهر لنا من وجهها الجميل أكثر ممّا يَختفي من القباحة... فأنا - بعيدا عن التواضع - "كاتب عالمي"، ولا أعني بذلك شهرة أحوزها، لا أبدًا، ولكنّ ما أكتبه يمسّ القلوب في كلّ بلد يحنّ أهله إلى العدالة الاجتماعية، بدليل ما تُرجم من أدبي إلى بضع عشرة لغة حتى اليوم.

لن يفوتني أن أشير إلى أنّ بعض الغيورين عليّ حبسوا أنفاسهم ساعة اجتيازي الحدود

السورية – اللبنانية عصر ذلك اليوم، وأما حين اعتزمت العودة إلى الوطن فإنّ كثيرًا، وكثيرًا جدًّا من الأصدقاء، نصحوني، بل ونَهَوني عن العودة، في رسائل على الخاص من حسابي وعلى جدار صفحتي أيضًا.

– هل تذكرون لنا الدواعي التي دفعتكم للعودة إلى الوطن؟

** أولا، في كلّ انتقاداتي للنظام، في القصة وفي تغريدات الفيس بوك، كنت موضوعيًّا إلى أكبر الحدود، لم أبالغ ولم أدّع ما لم يقع. وعندما أقول، مثلاً، إنهم قضوا في مدينة حماه في شهر شباط (فبراير) من العام ١٩٨٢، على ثلاثة وثلاثين ألفًا من الأبرياء كان منهم (١٥٠٠) من البعثيين الذين قتلوا جزافًا، فإنها أرقام صحيحة جدًّا. ثمّ إني لم أتعرّض "للقامات العالية" في النظام، لا ولا صدرت مني كلمة نابية في حقّ النظام نفسه، مع أنّ كلّ هذا التحفّظ لا يعني في الحقيقة شيئًا أي شيء عند الأنظمة الشمولية. هذا وأدرك أنّ عيونهم المبثوثة، في الداخل وفي الخارج، لم تأت على "إخبار" عني بأني تواصلت مع المعارضة الخارجية أو مع الداعمين هنا وهناك. كنت أتلقى الرعاية من أبنائي وأحفادي هنالك، العاملين المنتجين، وأنعم باحتضان الأحفاد والأسباط وأطفال هؤلاء وأولئك. إذن فليس ثمة خوفٌ مسوّغٌ من عودتي إلى وطني!

وفي شأن الرعاية، فإنّ ابنتي وحفيدي كانا قد عادا من مصر وأقاما في بيتي بدمشق. ولكنّ أكبر ما أملى عليّ العودة، وكان يؤرّقني وأنا هنالك حتى ليقضّ مضجعي، أنّ في بيتي، في الأضابير والملفات، يرقد كثيرٌ جدا من الفصول والنصوص التي يتعيّن عليّ أن أجمعها لتضمّها مشاريع كتب تُعدّ للنشر، دراسات أدبية، وبحوث في التراث الأندلسي خاصة، وأخرى في التراث العلمي – الطبي عند العرب، ومقالات، وقصص وروايات، مع إدراكي التامّ أنني إن لم أعمل على تصنيفها وتنضيدها (ضوئيًا) وإعدادها للنشر لذهبت أدراج الرياح... فليس هناك من يعرف ماهيّتها ومكانها في مكتبتي الكبيرة. واليوم تساعدني في ذلك بعض الطالبات

الجامعيات، والأمل أن تصدر عما قريب الطبعة الرابعة من روايتي "ثمّ أزهر الحزن".

- ختامًا أستاذنا فاضل السباعي.. هل تريدون أن تقولوا شيئًا آخر؟

** انقلْ تحيتي للشعب المصري الحبيب، وللقمم الثقافية التي تتلمذت عليها منذ كنت في مرحلة الدراسة الإعدادية... وما أريده، بعد هذا، أن تدعني أستريح من أسئلتك المُحْكَمة، التي جررتَني بها إلى كلّ هذا البوح الجميل!

ملاحظة: لم ينزل هذا السؤال الأخير والإجابة عنه في المجلة، قيل لانعدام فراغ يستوعب أسطره

وكان الفراغ من كتابة هذا الحوار: عند الساعة الثالثة من فجر يوم الأحد الأول من شهر أيار/ مايو ٢٠١٦ بدمشق.

طبلة المسحّر.. وطبول الحرب

في ثلاثينيّات القرن الماضي... كنا نستيقظ، ونحن في بيتنا بحلب، على قرع طبلة المسحّر، يمرّ بحيّنا في "زقاق الزهراوي".

بعد عقود من السنين، وأنا أسكن العاصمة دمشق، رأيت أطفالي، يتشوّقون لأن يُكحّلوا عيونهم برؤية المسحّر، يضرب على طبلته، موقظًا النائمين في "شارع نوري باشا" بحيّ الروضة.

وتمرّ عقود وعقود... يزداد فيها شوقُ الذي كان في الثلاثينيّات طفلاً، وأشواقُ أبنائه وأحفاده، إلى ذاك الذي يوقظ الناس في ليالي رمضان... وقد قُرعت طبولُ الحرب، وطغت على صوت طبلته الحنون قذائفُ تلمع في الفضاء قبل أن تنقضّ على رؤوس النائمين.

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٨-٦-٢٠١٦

ويُثير الناقد.. "شُبهات"!

أقول: إنّ حسام الخطيب (الذي كان يشغل وظيفة رئيس قسم اللغة العربية في آداب دمشق قبل أن يتسلّم منصب معاون وزير التعليم العالي)، قد بذل جهدًا كبيرًا للحطّ من قيمة عملي الروائي الذي تناوله في دراسته المطوّلة تلك فبلغ درجة الإسفاف، ولكنه في "المثال" الذي أقدّمه أدناه تجاوز بأن «غمز» من جانب شخصية المؤلف...

كتبت في الردّ عليه:

- - - - - - - - - - -

كنت أخذت على عاتقي أن أرصد دقائق حياة الأسرة (بعد رحيل الأب عنها شابّا): هموم العمل وقد غدت الأمّ تمارس الخياطة في منزلها، وهموم الدراسة، وهموم الحياة جميعًا. خمس بنات صغيرات أكبرهنّ في الخامسة عشرة، وأخوهنّ الوليد الذي ينمو ويترعرع في أحضانهنّ. رصدت تفاصيل حياة الأسرة اليومية ممّا كنت اكتسبت من خبرة الأبوّة ومَلَكة الروائي (وأنا يومذاك في نحو الثلاثين من العمر). اهتمامات، طموح، منازعات... حتى وثّقت - كما خُيّل إلي - بين الأسرة فردًا فردًا وبين القارئ، وعقدت بين الطرفين "المشاركة الوجدانية"، فالقارئ بات يحزن لحزن الأسرة ويفرح لفرحها.

وإذا لم يكن لي أن أتوقع من الناقد أن يشدّ على يدي مهنّئًا قائلا: فعلا، أنت جعلت القارئ يألم مع الأسرة، ويبتسم، ويفرح! فإني لم أتوقع أن يَعدّ صنيعي مثلبة يؤاخذني عليها، ويروح يصف روايتي، في طول الدراسة وعرضها، بأنها «ريبورتاج اجتماعي»، وبأنّ بناءها الفني قائم «على مرتكزات تشكو أحيانًا كثيرة من الهشاشة»، وأنّ الرواية «تدور في نطاق من سطحية التسجيل الاجتماعي»، وأنّ «مقتلها كامن ههنا»، وأنّ نسيجها كان «رقيقًا متهافتا لا يصلح لأي تفحّص»... هذا مثال على القسوة والتجنّي!

ولأقدّم مثالًا آخر:

عُنيت برصد كفاح الأمّ مع بناتها الخمس، فكان ذلك - كما يعترف الناقد - «عاملاً في إنجاح الرواية، وتقريبها إلى نفوس عامة القراء»، وذلك ما ذكّره «بكاتبات أوروبيات مشهورات عُرفنَ بدقة رصدهنّ لهذه التفصيلات الصغيرة من الحياة المنزلية والنسائية، مثل "بيرل بك"، و"جين أوستن" و"لويزا إلكوت"».

إنّ هذا الإطراء الذي أغدقه الناقد عليّ، ما كان ليدَعه يمرّ دون أن «يغمز» من قناتي، ولكنه، الآن، غمزٌ من نوع جديد. فتذكيري إيّاه بهؤلاء "الكاتبات النساء" كان «بشكل صارخ لا يخلو من الشوائب»!

ما معنى «بشكل صارخ لا يخلو من الشوائب»؟

أيعني بهذه العبارة أني أفلحت بأن أكتب عن «الحياة المنزلية والنسائية» كما تكتب النساء؟! أهذا مطعن يوجّه إلى كاتب روائي؟!

كان خليقًا بي أن أُغضي، فلا أتوقف عند هذه العبارات المجانية، لولا أنّ الناقد عاد، بعد فقرات، إلى تأكيد هذا المعنى الغريب: «وقد يبدو غريبًا للوهلة الأولى أن يحسّ المرء بنوع من الإضفاء بين المؤلّف وبين "هالة"، وهو أعجب ما يكون بالنسبة لمؤلّف رجل يجد لنفسه موطئ قدم في شخصية بطلةٍ ذات أنوثة طبيعية. إنّ الأمر على كل حال لا يعدو ريبة يصعب إثباتها بالحجّة الدامغة وإن كانت الأدلّة غير قليلة كذلك».

ريبة! حجّة دامغة! أدلّة غير قليلة!... بماذا يغمغم الرجل؟!

ثمّ يروح يُجهد نفسه فيُعدّد ما اقتبسته من حياتي الشخصية ومنحتُه لبطلة روايتي "هالة": فنحن من مدينة واحدة هي حلب، عشنا في أوساط شعبية، درسنا في القاهرة، عملنا في حقل

المحاماة، نهوى المطالعة ونميل إلى الأدب، كلٌّ منّا أحبّ صغيرًا وتطوّر حبّه إلى زواج... الخ... ولكنّ دارسي الأدب في كلّ أنحاء العالم يعرفون - ومنهم ناقدي - «ظاهرة حرص المؤلّف على الاستقاء من تجربة حياته مباشرة»، كما ختم هو نفسه هذه الفقرة من حديثه.

وهكذا بدلا من أن يُثني على المؤلّف لأنه تقمّص - روائيًّا - شخصية بطلته وأفلح في التعبير عن خلجاتها وتطلّعاتها، راح يتحدّث عما سمّاه "الإضفاء"، مثيرًا - يا للعجب - «ريبة يصعب إثباتها»، ومشيرًا في ذلك إلى المرض النفسي المسمّى "الإسقاط" أو الإضفاء!

تُرى أيّهما أولى بالريبة: موقفي، أم موقف الناقد؟!!!

مقتطف من ردّي المنشور في مجلة "الثقافة العربية" (بنغازي، ليبيا)، يناير/ كانون الثاني ١٩٧٦

دمشق الشام: فجر الخميس ٩-٦-٢٠١٦

المسؤول.. الذي نوَّر الشارع

يوم نزل "المسؤول" ساكنًا حارتهم

ذهبوا إليه مهنّئين

وعبّروا عن أنه شرفٌ عظيم أن يسكن بينهم

فقال يردّ عليهم: أرأيتم هذا الشارع؟

قالوا بصوت واحد: نعم!

قال: سوف أنوّره بالمصابيح الوهّاجة

ذات الأشكال الخلابة

وأجعلُه آية بين شوارع المدينة

وما إن انتهى من ترميم البيت

وضمَّ شقّة اليمين إلى شقة اليسار

فغدا "بلاطة واحدة" واسعة

معدِّلًا أركانه، ومزيِّنًا جدرانه

حتى كانت "أمانة العاصمة"

قد بدّلت وركّبت

ونوّرت الشارع بالأشكال العجيبة

والألوان البهيجة

تُفتِح فيه الأضواء، وتُغمِّض

جاذبةً إليه الناس من كل صوب

يُمتّعون النظر بما ليس له نظير

ولكنّ أهل الحارة فوجئوا

بأنّ شارعهم لا تتلألأ فيه هذه الأنوار

إلا يومًا واحدا... من كلّ أربعة أيام

وأدركوا أنّ هذا البيت

هو... للزوجة الرابعة

وأنّ هذا المسؤول يهوى العدل

دمشق الشام: مساء السبت ١١-٦-٢٠١٦

الباعة.. في زمن الحرب

يَفْحُشون في الأسعار

ويُطفّفون في الميزان

ويجعلون في مشترياتك ما لم تطلبه

ويُخطئون في جمع مفردات الفاتورة

هذه التي يحاولون تغييبَها عنك

وعندما يُعَبِّئون أغراضك في أكياس

يستَبْقون بعضها لديهم!

فإن اكتشفت وراجعتهم

لا يذوبون خجلاً

يقولون لك: جلّ من لا يخطئ!

شدَّ ما تعاني، أيها الشعب السوري!

دمشق الشام: ضحى الأحد: ١٢-٦-٢٠١٦

هل صدق حدسي فيما كتبت قبل عقود من سنين!

«وتظلّ مَوْطنًا لليمام الأليف

يُعشِّش في حنايا بيوتك القديمة

ويَهدل في عَبَق أشجار الكبّاد والنارنج

يا وطني!»

افتتاحية "بدر الزمان، حكاية أسطورية للصغار والكبار"

الفكرة: كانون أول/ ديسمبر ١٩٨٠ (في الاعتقال)

التأليف: في ك٢/ يناير، وأيلول/ سبتمبر ١٩٨١

النشر الأول: مجلة "المعرفة"، عدد ك١ ١٩٩٠

النشر في كتاب: "دار إشبيلية"، دمشق، ١٩٩٢

وبالإسبانية، برشلونة ١٩٩٩، دمشق الشام: صباح الإثنين ١٣-٦-٢٠١٦

مهداة للباعة.. في وطننا الحبيب

قرأت الساعة حكاية يرويها مواطن عربي يدرس في إحدى عواصم الغرب، أنقلها بتصرف يسير:

- - - - - - - - - - -

في تردّدي بين الكلية والسكن، كنت أمرّ على بقّالية تتولى البيع فيها امرأة، أشتري منها "كاكاو" بسعر (١٨ بينس) وأمضي.

مرة رأيتها تضع رفًّا آخر لنفس نوع الكاكاو وكاتبة عليه السعر (٢٠ بينس)، فاستغربت، وجرى بيني وبينها الحوار التالي:

ـ هل هناك فرق بين الصنفين؟

قالت: لا، نفس النوع ونفس الجودة!

فقلت: إذا لماذا سعر الكاكاو بالرف الأول (١٨) وفي الرف الآخر (٢٠)؟

قالت: حدث مؤخرًا، في نيجيريا التي تصدر لنا الكاكاو، مشاكل فارتفع سعر الكاكاو، وهذا من الدفعة الجديدة نبيعها بـ ٢٠ والقديم بـ ١٨...

قلت: إذًا لن يشتري منك أحد غير الكاكاو بسعر ١٨ حتى نفاد الكمية وبعدها سيأخذون من الآخر الذي سعره ٢٠!

قالت: نعم، أدري هذا.

قلت: إذن اخلطي الصنفين وبيعي الكاكاو بنفس السعر الجديد ٢٠، ولن يستطع أحد التمييز بينهما!

فهمست المرأة في أذني: هل أنت حرامي؟!

استغربت قولها... ومضيت لشأني!

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى الثلاثاء ١٤-٦-٢٠١٦

الرحيل إلى كوكب آخر

قصة بقلمي

- - - - - - - - - - -

- لا يزاحمْ بعضُكم بعضًا! إنّ من شروط الرحلة الانتظام!

هكذا سرى بينهم... الصوت، الصدى.

كانوا شيوخًا، ليس بينهم من تقِلّ سنُّه عن السبعين، فهذا شرط أول. كانت قد تصاعدت منهم احتجاجاتٌ متواصلة: كيف يُدركنا الفَناء ونحن في عزّ العطاء؟ صرخة توافقوا على أن يُطلقوها عاليًا، تلقَّوا بعدها صدًى يُفيد بأنّ معجزةً سوف تتحقّق لهم: أن يعودوا إلى عهد

الشباب الجميل!

بعد أن استقرّوا في مقاعدهم، وتأهّبت المركبة للإقلاع، تعاظم عندهم التساؤل: إلى أيّ مجهولٍ نحن ذاهبون؟ فقالوا: الشيخوخة شقاء، والموت فناء، فأيّ ضَيْرٍ في أن نُصدِّق ما وعدوا!

لحظة تحرّكت بهم المركبة، شعروا، وهم في مقاعدهم الوثيرة، بأنّ شيئًا ما بدأ يَسري في عروقهم، في أجسادهم. تبادلوا النظرات، والملاحظات. الوعدُ يصدُق، التغضُّنات في الجباه تختفي. البياض، الذي يُجلِّل الهامات، ينقلب إلى لون الليل. العيون تلتمع، وتنتصب القامات. وقبل أن يغادروا، كانوا قد استوَوا شبابًا ينضَح عبيرًا أخّاذا، ثمّ سُمعت قرقعةُ العكاكيز وهي تُرمى، تتساقط، على أرض المطار!

حافلاتٌ فارهة، تتهادى في شوارع عريضة، انتهت بهم إلى ما يُشبه الضاحية، قد انتثرت في حدائقها الدارات. ودخل كلٌّ منهم دارةً قد خُصِّصت له:

- هنا يتوافر لكم كلُّ شيء. عند الضرورة اطلبوا الرقم (٩) نستجب!

الحُلُم العظيم يتحقّق، شبابٌ يُستعاد، وخِبرةُ عمرٍ تُستفاد.

لم يستطيعوا البقاء إذ أَخلدوا إلى الراحة، أطلّوا من الشُّرُفات، تهاتفوا، ثمّ نزلوا للاجتماع في فضاء الكوكب الجديد، يتعانقون من فرح.

- إهاب الشيخوخة طرحناه، وعلى أرض ذلك الكوكب ألقيناه!

- لسوف نعيش، هنا، مدى الدهر سعداء!

- ولن ندع للخلاف بيننا موضعًا!

دُعُوا إلى تناول الطعام. موائدُ مرصوفة، ومآكلُ موصوفة.

وعند المساء التأم شملهم، ثانيةً، في المغاني الجميلة، واستفاضوا في الأحاديث العِذاب.

عندما أفاقوا في الصباح، تنبَّهوا إلى أمرٍ كان قد غاب: العمل! ما العمل الذي يؤدّون؟ أم هي البطالة، هنا، والعطالة؟!

- يمارس كلٌّ منكم، في هذا الكوكب، ما كان يعمل في الكوكب الأول، فإنْ لم يكن عمله هناك مريحًا، يَسَّرنا له عملاً آخر يرتضيه.

ونزلوا إلى ميادين العمل: الفلاح يَفْلح، العامل يعمل، الطبيب يَطِبّ، الكاتب يكتب، الرسام يرسم، والفنان يعزف على الأوتار، ويُغنّي، مالئًا القلوب طربًا.

مارسوا الرياضة، متجاوزين المشي والهرولة، إلى ألعاب القوى المختلفة، فقد عادوا شبابًا ذوي زنودٍ مفتولة.

والتلفاز لم يُغفلوه، فهم يتواصلون مع الحياة في بلدهم، وفي سائر أجرام الكون، وتواصلوا كذلك عبر الهاتف والشبكة العنكبوتية.

وماذا بعد؟...

تنبَّهوا مرةً أخرى.

- زوجاتنا، رفيقات عمرنا، تركناهنّ هنالك!

يا للعقوق!... لقد أنساهم إياهنّ فرط أشواقهم للارتداد إلى الشباب!

صرّحوا علانيةً:

_ ولكننا نريدهنّ... أن يأتينَ إلينا... وهنّ في عزّ الشباب!

ويوم تجمّعوا في المطار، وضعوا الأيدي على القلوب وهم ينتظرون بروزهنّ في باب المركبة. أطلّت الأولى، بوجهٍ قد جلَّله الشعر الأشقر، فما عرفوا: أَهي شقرةٌ من صنع الخالق، أم من

صَبْغ حِنّاء؟ فلما تقدّمت رأوها ترفع عكّازها، ثمّ ترميه على الأرض... وتَلاحَق رَمْيُ العكاكيز.

صفّقوا لزوجاتهم «الشابات». ها هنّ أولاء يَخْطُرنَ مختالاتٍ كأنهنّ في موكبٍ أمام محكَّمين لاختيار ملكة جمال الوطن، القارّة، الكون!

وعمّ العناق، بعد فراقٍ خاله الجميع دهرًا.

في هذا الكوكب عاشوا أزواجًا سعداء، ولكن دون أن يُمكِنهم أن يصبحوا آباءً لأطفال ينجبونهم ههنا، فإنّ العجوز – قالوا – التي اختُزِل من عمرها النصف، يستحيل عليها أن تحمل وتلد... لولا أن سرى بينهم، يومًا، أنّ زوجةً من الزوجات قد حملت ثمّ آن لها أن تضع صبيًّا.

وقال أهل العلم في ذلك:

– إنها «البويضة الهاربة»!

وما تكرّر هرب البويضات.

وكَنُّوا الوليد بـ«ابن الكوكب»، وتساءلوا: عندما يبلغ الولد سنّ الزواج من أين له أن يحظى بـ«بنت كوكب» تناسبه!

سعداء عاشوا.

عامٌ يَهِلّ، وعامٌ يمضي. يعملون، يبدعون، مستفيدين من تجاربهم المختزَنة ومعارفهم المكتنَزة.

أمرٌ ما، بات ينغِّص عليهم وجودَهم في هذا الكوكب الجميل.

إنهم، في انقضاء كلّ عام، يكبَرون عامًا!

إنها الشيخوخة... تَلُوح، وتتدانى.

يوم يبلُغون السبعين، هل لهم أن يحلُموا بالذهاب إلى كوكبٍ آخر، يختزلون عند الوصول

إليه نصف العمر الذي تقضّى؟!

ذلك ما بات يؤرِّقهم.

- - - - - - - - - - -

• دمشق الشام: ٥- ١٢- ٢٠٠٨

• نُشرت في مجلة "العربي" (العدد ٦٢٦، يناير/ كانون الثاني ٢٠١١)

• قُرئت في المركز الثقافي العربي، بحلب، ودمشق

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: صباح الأربعاء ١٥-٦-٢٠١٦

ونستعيد أغنيات الطفولة..

عندما أجتمع بإخوتي وأخواتي

نتذكّر حكايا الطفولة

في الدار العربية بحلب:

أرض حوش[١]، وبِركة، وليوان[٢]، وشبابيك مُطِلّة

وياسمين، وورد، وعسليّة

وأشجار ليمون ورمّان

(١) الفناء الخارجي للمنزل.

(٢) تحريف لكلمة الإيوان: قسم من الدار، له ثلاثة جدران، ينقصه الجدار الرابع المطل على ساحة الدار، ويكون شمالياً في الغالب، للبرودة.

وكرمة عنب كنّا نسقيها من ماء نضخّه من "الطُّرُمْبة"، تحمله أيادينا بسُطول التوتياء الثقيلة

حتى الأغنيات القديمة

نستعيدها

نُغنّيها

فنعود صغارًا!

دمشق الشام: فجر الخميس ١٦-٦-٢٠١٦

زملاء في التجهيز الأولى بحلب تشكيلي، وشعراء، وعسكر

في الصفّ الأول في التجهيز الأولي (ثانوية المأمون) بحلب، في العام الدراسي ١٩٤٣-٤٤، اتفق أن كان يجلس في المقعد الأول أمامي، تلميذ يصغرني جسما، يقيم في المدرسة في القسم الداخلي اسمه "عبد الكريم الجندي" (من أبناء بلدة "السلمية")، وهو الذي غدا فيما بعد واحدًا من المتنفّذين في حزب البعث، وكُتب عليه أن ينتحر - أو يُنحَر - في العام ١٩٦٨.

وكان بيننا التلميذ "حسين ديري"، انتسب إلى الجيش ضابطا أيضا، وفي عهد الوحدة تسلم منصب معاون وزير الإصلاح الزراعي، وهو مثقف متميّز ويمتلك مكتبة ثريّة، وقد ظللنا أصدقاء نتلاقى حتى وفاته في العام الماضي (٢٠١٥).

وأذكر أنّ بيننا أيضًا تلميذًا بادي الرهافة لطيفا جدا، يمارس الفن التشكيلي في بداياته ويستحوذ على إعجابنا، هو "رولان خوري"، ولم يطل وجوده في المدرسة، ثمّ علمت من أخباره أنه أقام في لبنان واشتُهر فنانًا مبدعًا، ولم يعش طويلاً.

وكان يجاورني في الجلوس في المقعد التلميذ "واثق جابري"، وهو ابن المربّي المحبوب "فخر

الدين الجابري"، غدا فيما بعد "عديلاً" لي بزواجه من "غالية كيالي" شقيقة زوجتي، انتقل إلى رحمته تعالى في الثمانينيات، وخلف ابنة واحدة هي "فتون".

هذا في "الشعبة الثانية" التي كنت في عداد تلامذتها.

وكان في الشعبة الأولى، التي تضمّ التلاميذ الأصغر سنّا وقامة، "أحمد رجائي" (الشقيق الأكبر لوزير السياحة في التسعينيات، سعد الله آغا القلعة!)، وقد أوفد إلى ألمانيا الغربية وعاد بدكتوراه في الاقتصاد، وأمسى منذ العام ١٩٦٨ "المدير العام للمكتب المركزي للإحصاء"، وكان يقرزم الشعر وما اشتُهر به. توفي في العام ٢٠١٢ في ألمانيا التي أقام فيها أواخر أيامه وزوجته الألمانية، ووري هناك.

وفي الشعبة الثالثة، حيث التلاميذ الأكبر، كان هناك "علي الجندي" (ابن عم عبد الكريم الجندي)، الذي غدا شاعرا وأقام في بيروت، ومع تملّك الحزب للحكم ظهر بدمشق إعلاميًّا محظوظًا قبل أن تنطفي شعلته بدخول البعث المرحلة الثالثة (العام ١٩٧٠)، وتوفي قبل سنوات في بلدته السلمية منسيّا.

من ناحيتي لم أتسلّم منصبًا مرموقًا في حياتي الوظيفية، وكان حولي من الشانئين[١] و"العيون الراصدة" ما يغلب الزملاء الودودين، وذلك ما حملني على تقديم الاستقالة، وأنا مدير في وزارة التعليم العالي أناهز الخمسين، حين كان موظفو الدولة يلتمسون "التمديد" بعد بلوغ الستين بشتى الوسائل.

دمشق الشام: صباح الخميس ١٦-٦-٢٠١٦

---

(١) المبغضين.

ما آخرُ ما كتبتَ لنا؟

بعد أن أتمّ الفحصَ والمعاينة، وقرأ التصاوير والتحاليل، وكتب الوصفة وبشّر بالعافية... وجّه إليّ سؤالًا لم أتوقّعه، قال:

- ما آخر ما كتبتَ لنا من قصص، يا أستاذ؟

فاجأني سؤاله... قلت:

- إنه لجميلٌ أن يسألني طبيب هذا السؤال، على حين أنّ طلاب كليات الآداب لا يسألون لأنهم لا يعرفون، لا ولم يسمعوا باسم كاتب يستظلّ سماء بلدهم، فإن قرعوا باب الأدب لم يبعدوا عن الإشارة إلى كتّاب قد احتضنتهم السلطة معتّمةً على سواهم. لو تعلم، أيها الطبيب المتخصّص، مدى ما يَجْبر سؤالُك... في خاطري... من "كسور"!

وذكر شيئا ممّا قرأ لي، ثمّ كرّر سؤاله، فأشرت إلى أني ما أزال أكتب في صفحتي "تغاريد"، تبعث على الطرب أحيانا، أو تُثير الحزن والغضب!

فأسرع يفتح جوّاله، يقلّب، إلى أن التقى... ووعد بأن يخصّص ساعة من ليلته الآتية، ليقرأ!

دمشق الشام: فجر الجمعة ١٧-٦-٢٠١٦

وكأني بلسان حالهم يقول

وكأني بلسان حالهم يقول:

نحن نعرف أنّ القادمين إلينا، الهاربين من الموت أو الطامعين بخيرنا، صعبٌ تكيُّفُهم في بلادنا... تقاليد، لغة، آداب سلوك...

نعلم أنّ كلّ شيء مختلف...

لكن... إلينا بهم، ونحن نتدبّر أمر أبنائهم وذراريهم، بالتربية وبالإحسان، ونستفيد.

دمشق الشام: ليل السبت ١٨-٦-٢٠١٦

الحنان في كل مكان... إلّا في سوريّة!

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الاثنين ٢٠-٦-٢٠١٦

لا يموت السوري من جوع

لا يموت السوري من جوع... يظلّ يعمل وهو في الرمق الأخير...

ليل السبت ٢٥-٦-٢٠١٦

أصحيح، أيها النظام

أصحيح، أيها النظام، أنّ وطننا السوري مستباح للفسفور الروسي... كما استباحت إسرائيل أرض فلسطين في شتاء ٢٠٠٧-٠٨؟

أم أنّ هذا بهتان، وأنّ الصور التي تنشر مفبركة بفعل مغرضين؟

ضميرنا يؤلمنا، يا سيدي النظام.

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٦-٦-٢٠١٦

نعم، لقد نقل السريان

نعم، لقد نقل السريان عن اللغة الإغريقية (اليونانية القيمة) كتب العلوم والفلسفة، لأنهم كانوا يحبّون العلم ويتفانون في الاشتغال به، وقبل ذلك كانوا قد نقلوا إلى لغتهم السريانية كثيرا

من هذه الكتب.

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٦-٦-٢٠١٦

النزول إلى القاع: سيد درويش، لؤي كيالي

استمعت إلى أغنية "سيّد درويش":

طلعتْ، يا محلى نورها شمس الشمّوسه
يالّلا بنا نملا ونحلب لبن الجاموسه

فقلت في نفسي: كم هو جميلٌ أن يُعبّر الفنان، وهو في حالة الإبداع، عن الناس المتعَبين، يستيقظون، مع طلوع الشمس البهيّة، يعملون، يقدمون اللبن الحليب للصغار والكبار ولكلّ البشر!

وخطر لي الفنان الراحل "لؤي كيالي"، الذي نزل، فور عودته من دراسة الفن في روما، إلى قاع المجتمع، يرسم الصغارَ الذين ألجأتهم الحاجة للنداء على الجرائد يحملونها، وعلى أوراق اليانصيب.

إنها أصالة الفنان، بها يتماهى مع الفلاح متوجّهًا إلى الحقل ليحلب الجاموسة، ومع صبيّ ينتظر، وراء صندوقه، مارًّا يريد أن "يمسح حذاءه" وهو في طريقه إلى لقاء المحبوبة!

ولكني لن أُغفل الإشارة إلى موسيقار الجيل محمد عبد الوهاب، الذي تسامى في "أغنيته - السنفونية" قصيدة "الجندول"، التي ورد فيها هذا الشعر الترف لـ علي محمود طه:

ذهبيُّ الشعر، شرقيُّ السمات مرحُ الأعطاف حلوُ اللفتات
كلما قلت له: خذ، قال: هات يا حبيب الروح يا حلم الخيال

وعلى ذكر عبد الوهاب أستحضر ما وقع له، وقد كان لحّن وأدّى أغنيته المعروفة "محلاها عيشة الفلاح"، من أنه تلقّى، بعد ثورة يوليو ٥٢، قدرًا من النقد "الأيديولوجي" من كتّاب كانوا يستظلّون جريدة "المصري" (لسان حال حزب الوفد يومذاك) ويملؤون صفحتها الأخيرة بإبداعاتهم الصحفية والأدبية، على رأسهم "محمود أمين العالم"، متّهمين الموسيقار عبد الوهاب برقّة هذا اللحن ورخاوته وبقصور الكلمات في التعبير عن حالة الفلاح في الريف المصري. وأذكر - وكنت يومئذ طالبًا بجامعة القاهرة - أنهم قسوا عليه في النقد، وهو الذي كان في خشية وقلق من النظام الجديد، ومثله كانت "أمّ كلثوم"، لما سلف منهما من الغناء والإشادة بالملك الذاهب حكمُه!

نشرت في جريدة "تشرين" السبت ٢٥-٦-٢٠١٦

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٦-٦-٢٠١٦

ويتواصل الحديث عن أكلة "اللحمة بالكرز"

يوم نشرت مقالتي عن هذه الأكلة الحلبية المتميّزة، في مثل هذا اليوم قبل عام مضى (٢٩-٦-٢٠١٥)، وجدّدت النشر اليوم، عدت إلى التعليقات القديمة، فرأيتها وقد تجاوزت العشرات فيها ما يجدر نشره في كتبي التي أعدّها حول ما يُطرح في صفحتي من قضايا، تبتدئ بالهمّ الوطني... ولا تنتهي عند أكلة "اللحمة بالكرز"!

وقد مددت يدي إلى بعض ما كان من تبادل الرأي حول هذه الأكلة، بيني وبين الأكاديمية السورية (من بنات دير الزور) الدكتورة هدى العشاوي التي تعمل في الرياض... فاقتطفت هذا الحوار... حول "اللحمة بالكرز"، وأنا أؤكّد أنّ ما ينشر في الفيس بوك... لا يُنسى!

- - - - - - - - - -

الأستاذ فاضل السباعي

مقالتك عن "اللحمة بالكرز" رائعة، وقد حرّكت عندي الرغبة في تناول هذا الطبق. كانت حماتي – رحمها الله – من حلب، تُعدّها، وتتقن طبخها أي إتقان.. وبقيتُ مدة لا أحظى بهذه الأكلة.. إلا أن إحدى صديقاتي حدثتني بأنّ فندق (فور سيزن) يقدمها في إفطار رمضان، كما يقدم "الكبّة بالسَّفَرْجليّة" الحلبية، وفي اليوم التالي ذهبت برفقة صديقاتي وتناولنا هذا الطبق.. هذا قبل عامين.

وهنا في الرياض يوجد مطعم صاحبه من الجالية الأرمنية، يقدّم "الكَبَاب بالكرز"، كلما اشتهيته توجهت إليه.

ولكني لا أخفي عنك، أني تمنّيت لو أنّ صديقك الذي زوّدك بعبوة من الكرز، يتكرّم بأن يهدي إليّ كم حبّة كرز تبلّ شوقي إلى حبيبتي.. سوريا!

سلمت أناملك وجزاك الله خيرا.

الرياض: ١٢ يوليو، ٢٠١٥، الساعة ٠٧: ٠٥ مساءً

- - - - - - - - - -

فكتبت لها:

يا دكتورة هدى العشاوي.

ها قد مضى أسبوعان على نشر الخاطرة، عن أكلة اللحمة بالكرز، وما زالت التعليقات تتوالى، من الحلبيّة وممّن ذاق هذه الأكلة وما كان له أن ينساها!

أعترف ثانية بأنّ الذي قدّم لي عبوة كرز "الوَشْنة" (المزّ) عند عودتي إلى الوطن، هو – كما

ذكرتُ - مَن لم تكتحل عيناي بمرآه بعد، صديقٌ على الشابكة، حلبيّ، أصيلٌ بالتذوّق وبالأريحية معًا، مقيمٌ بدمشق، قد أحاط منزله ببستان جلب إليه شُتول الكرز من جبل الأربعين (الذي تتربّع فوقه مدينة أريحا، في محافظة إدلب الخضراء) وشُتولَ المشمش من الغوطة التي تزنّر عاصمتنا الجميلة. صدّقيني أنا لا "أمون[١]" عليه بأن يرسل إليك وأنت في الرياض، لا عبوة كرز، ولا حبّة منه!!

وأما عن حماتك، الحلبيّة، التي تتقن إعداد أكلة اللحمة بالكرز... فأقول: رحمها الله ونحن الآن نذكر أناملها ويديها ونحيّي ذوقها الرفيع... ومن هنا صَدَحَ يومًا، يا هدى يا بنت دير الزور، صباح فخري بصوته البديع: «بدّي وحدة حلبيّة»، وأنت أخذت واحد أمّه حلبية، فهنيئا لك.

هناك أمر آخر ورد في كلمتك النابضة بالذكريات السورية، أجدني حريصا على الإشارة إليه: الخبر عن ذلك "المطعم الأرمني" في الرياض الذي يقدّم "الكَبَاب بالكرز"، ولست أشكّ في أنّ صاحبه أرمني من أبناء حلب، فيها عاش واكتسب موهبة طبخ الكرز مع موهبته الأرمنية الأصيلة في صنع الكباب، ثمّ تأتّى له أن يحمل مواهبه إلى الرياض، يمارسها بحرية ويتيح فرص التذوّق للمتذوّقين...

أقول: أرأيت إلى شعبنا، المتذوّق للّقْمة الطيبة، المرحِّب بالنازلين في رحابه من أبناء الأديان والإثنيّات، لا أقول: النازلين ضيوفًا بيننا، بل الذين سرعان ما يصبحون جزءًا من نسيجه الاجتماعي الذي لا أروع... ثمّ يأتي، يا دكتورة هدى، في آخر الزمان، مَن يتحدث عن أنّ شعبنا الشامي يريد أن يُنزل الأذى بالأقليات التي نعيش معها!!!

---

(١) المَوانة في العامية: رفع الكلفة. وأمون على فلان: أقدر أن أطلب منه دون حرج، لما بيننا من الود وعدم الكلفة.

ابتدأنا باللحمة بالكرز، ثمّ لم يكن بدّ من أن ننتهي إلى الحديث عن الهمّ الوطني.

ثم كوني، وأنت في الرياض، بألف خير.

١٤ يوليو، ٢٠١٥، الساعة ١٢: ١٥ مساءً •

\- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٩-٦-٢٠١٦

طفل من حلب

بعد اثنتَي عشرة ساعةَ سفرٍ شاقّ، وصل الطفل برفقة أبيه إلى دمشق، ومن فوق مرتفعات قاسيون انبسطت تحت ناظريه البيوت والعمائر والمآذن، فعبّر عن فرحه بزيارة العاصمة لأول مرة في حياته.

كان الليل قد أرخى سدوله لحظة دخل بيت الخال.

رأى الحديقة تسبح في النور، ومنه ما يُفتّح ويُغمّض، فخطر له أن يسأل ما إذا كانت كلّ هذه الكهرباء من "الأمبيرات"؟

وأصغى إلى قطرات الماء تغنّي وهي تتساقط على سطح البِركة، فسأل من أين يأتي الماء إلى هنا، وكيف؟

ثمّ ترك نظراته تتنقّل بين أغصان الشجر... تنهّد وقال:

ـ كأني في حلم!

دمشق الشام: ليل السبت ٢-٧-٢٠١٦

وهل أقول:

إنّ الأشواق إلى الوطن

التي تطفح في صدور المهاجرين من بلادي اليوم

تضاهي

كلّ أشواق المطرودين من أوطانهم عبر الزمان؟

دمشق الشام: فجر الأحد ٣-٧-٢٠١٦

فقط... لا تقصفوا الأزهار

يوم نجحت "ميركل" في الانتخابات البرلمانية... خيف على الوطن أن يحكمه حزبٌ غير متمرّس، فكان اقتراحٌ بأن يشاركها في الحكم الحزبُ المنصرف...

المتميّزون في كل مكان وزمان

فقط... دعوا الأزهار تتفتّح...

دمشق الشام: ضحى الأحد ٣-٧-٢٠١٦

السفير.. الذي كان في وداع الملك

هل كان الزعيم الأسمر(١) قد أعطى وعودًا للأمريكيين، عن طريق سفيرهم "مستر كافري" (الذي حرص على أن يكون في قصر رأس التين بالإسكندرية ساعة وداع الملك مساء يوم السادس والعشرين من يوليو/ تموز ١٩٥٢)؟

---

(١) يقصد جمال عبد الناصر

وهل كان من بين تلك الوعود تمريرُ ما سُمّي بقانون "الإصلاح الزراعي"، وبعده قرارات "التأميم" التي نزلت مثل زخّ المطر، يرافق ذلك تغييبُ الحريات العامة، وجعلُ هذا الرجل - الذي يفتقد استراتيجية زعيمٍ عربي منتظر - ذا "كاريزما" يتباهى بها ويتباهى فيها الطامحون لحكم بلادهم؟

دمشق الشام: مساء الإثنين ٤-٧-٢٠١٦

والمعامل.. مَلَكَها الشعب

... وقد وعدت الأحزابُ الاشتراكية، في دول العالم الثالث، شعوبَها بأن تؤمّم المعامل والمصانع، وتُملّكها للشعب، تقليمًا لأظفار الرأسمالية المتحّكمة وتقليعا لأنيابها!

وبعد التمكّن من الحكم... وضعت الدولة الجديدة، بجرّة قلم، يدها على كلّ ما شيّده البُناة، واصمةً إياهم بالرجعية والعمالة، ومستبدلةً بهم "تقدميّين"، يتمتّعون بالمقدرة على التغنّي بالاشتراكية الجميلة أكثر ممّا يملكون من الخبرة والتفاني

بعض الحكومات - فيما بعد - "خصخصت"، بأن باعت، بالثمن البخس، هذه المعامل للطالعين من عباءتها، هؤلاء الذين أمسوا "رأسماليين" دون عرق جبين... وحكومات أخرى ما زالت تضخّ المعونات لها من ميزانية الدولة، لتُبقيها على قيد الحياة

دمشق الشام: فجر الإثنين ٤-٧-٢٠١٦

حلم.. سوري

استيقظت فجر اليوم على حلم:

رأيت أني ما زلت موظفًا في الدولة، وأنهم عهدوا إليّ بإنجاز مهمّة ذات حساسيّة، قبلتها.

وبعد أن شرعت لاحظت أنّ العدل يقتضيني أن أسير في المهمة باتجاه لا يرضي النظام، ولأني أعتقد في نفسي النزاهة، فقد مضيت في طريقي غير مبال، بين همسات الطيبين حولي من أنّ هذا سوف يجلب لي "المتاعب"، وبين النظرات التي يرمقني بها آخرون.

وإذ بي أتلقى مكالمة هاتفية من "مسؤول أمني" لا علاقة له بعملي، يُبلغني "كفّ يدي"، ويأمرني بأن أغادر المكان حالًا.

اتصلت هاتفيًّا بالمسؤول الوزاري الذي أتبعه بحكم عملي، فأخبرني الجوال أنّ الخطّ "خارج الخدمة".

ولحظة غادرت المكان، تبيّنت أنّ السيارة - التي كانوا خصّوني بها عند التكليف - قد سُحبت. ولم يستجب لي "المرآب" بأن تقلّني إلى بيتي إحدى سيارات الدائرة، فأخذت سيارة من الطريق، استوقفتني "الحواجز" عشر مرات قبل أن تطأ قدمي عتبة البيت.

واستيقظت، لأروي لكم المنام، وأتساءل معكم: لماذا تعتادنا، نحن السوريين، هذه الأحلام؟

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٥-٧-٢٠١٦

قَصّة شَعر!

كانت الصبيّة جميلة إلى الحدّ الذي أثار الغَيرة عند معلمتها، هذه التي ما زالت تحاول بسط سيطرتها على المدرسة إدارةً وطالبات، لدالّة لها عند بعضهم، إلا أنّ ما زاد في الإثارة هو ذلك الشعر الذهبيّ المعقود من خلف كذيل حصان. ثمّ كان أنّ المعلمة لم تتمالك نفسها في ساعة غضب، فقصّت غير قليل من الشعر، وناولت الخُصَل للصبيّة وهي تقول: «خديها فَرْجيها لأمّك!».

في البيت تملّك الأمَّ قهرٌ على ابنتها وعلى الشعر المقصوص، والأب ثار للكرامة المهدورة، فتوجّه في اليوم التالي إلى مسؤول التربية، متظلّمًا، ومطالبًا باتخاذ الإجراءات.

لما رأى مدير التربية خصلات الشعر في يد الأب، ثار للأنوثة أن تُجرح في المدارس التي يرعاها. أخذ الهاتف يقول بحدّة:

- كيف يحدث هذا في مدرستك، أنت التي رفّعناك بالأمس إلى مرتبة مديرة؟ أنت غائبة عن المدرسة أم مغيَّبة؟ هل أمسى قصّ شعر تلميذة، مهما كان ما ارتكبت من أخطاء، عقوبة في زمني! إنها إهانة للأنوثة... اعملي تحقيقا، يكون على طاولتي صباح غد!

وعاد الأب إلى بيته يحكي للأمّ، وللأولاد الملتفّين حوله، يُصغون بكلّ جوارحهم، سعداء بأنّ أباهم لا يقبل أن ينزل ضيم على أحد!

في اليوم التالي ذهب الأب إلى المسؤول التربوي، الغيور، يتابع مسعاه. ومن عجب أنّ يرى "السكرتير" على الباب يمنعه من الدخول، وما شفع له أن جعل يردّد أمامه العبارات التي سمعها أمس من رئيسه الكبير!

في اليوم الذي يليه وجد نفسه يرفع صوته من قهر... ثمّ ما لبث أن وجد نفسه بين أيدي رجال، ذهبوا به إلى حيث أُرغِم على توقيع تعهّد بأن يكفّ عمّا هو فيه!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٦-٧-٢٠١٦

أكره المساواة! رسالة من بلاد الهجرة

أستاذي الكريم

كل عام وأنت بألف خير

أتمنى أن تكون قد مضيت بعيدا في إعداد بعض كتبك للنشر التي عدت إلى الوطن من أجلها، كما حدّثتني سابقا.

أولادي ما زالوا يتعلمون لغة البلاد، ولكنهم لم يتقنوها.. وأنا كذلك تعلمت وسوف أنتقل للمستوى الثاني.

لكني أحبّ أن أسجّل على نفسي أني غير سعيدة هنا. إن نمط العيش في هذه البلاد الباردة مختلف: المرأة هنا كالرجل تماما، فأنا أعمل طول النهار، ولا أعود إلى المنزل قبل السادسة ليلا.. حيث أجلس مع زوجي وأولادي حول المائدة، نأكل متعبين منهكين، ثم نذهب إلى النوم، ونستيقظ صباحا، ونعود في اليوم التالي نكمل ما بدأناه.

حقا أنا أكره المساواة بين الرجل والمرأة! أتمنى لو أقضي معظم وقتي مع أولادي وفي بيتي، وإن كان من الفوائد أني خسرت الزائد من وزني بسبب هذه الحياة!

(ثريا المعروفي، النرويج):

الأربعاء ٦-٧-٢٠١٦ س ١١: ١٧ مساءً

\- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى الخميس ٧-٧-٢٠١٦

سوق مستحدث أنيق!

في ثمانينيّات القرن الماضي، كانت الأنظمة ما زالت تُلزم بُناة العمارات بأن يجعلوا الطابق الأرضي أو ما تحته، في كلّ مبنى يقام، "ملاجئَ" يختبئ فيها الناس ساعة الغارات الجوية المعادية.

تقول الحكاية: إنه في ظلّ ذلك النظام - الذي تراخَوا في تطبيقه حدَّ الإهمال لانعدام

الغارات يشنّها الأعداء - "لَعِبَتْ" عينُ مسؤول، طويل الباع والذراع، على أقبية تمتدّ أسفل بناية في شارع تجاري بحلب، ما زال يزدهر عاما بعد عام.

استدعى ذلك المسؤولُ صاحبَ البناية، واشترى منه كامل الأقبية التي ما زالت "على العضم". وممّا يجدر ذكره أنّ واقعة البيع والشراء تمّ توقيعها في ضحى يوم خميس، ولم يكن هذا بالمصادفة، فإنّ طويل الباع كان قد بيّت وخطّط ونفّذ، بأن جاء - مساء ذلك اليوم - بمقاولين، تتبعهم مجموعات من العمال والفنيّين، مزوّدين بالعُدد والآلات وكلّ ما يلزم من كسوة للجدران والأراضي والأسقف، وسَّعُوا أولا الدرج الذي يُفضي إلى ذلك الطابق، ثمّ أخذوا - وبسرعة استثنائية - يَكْسُون الأماكن على نحو أصبحت فيه "دكاكينَ" بكلّ احتياجاتها، تمديداتٍ كهربائية ومائية ومصارف،، فغدا هذا "القبو"، خلال يوم ونصف اليوم، ردهة كبيرة تحوطها من أطرافها دكاكين، ستصبح في الغداة "محلات تجارية" في سوق حديث، يَنزل إليه قاصدوه عبر درج من رخام.

ولا تسألوا عن المفاجأة التي نزلت على أصحاب "المحلات الفوقية"، ساعة جاؤوا صباح السبت يفتحون أبوابهم! سوق كامل الأوصاف، يُستحدث خلال أربعين ساعة، في "طابق الملاجئ"، مخالفًا للأنظمة البلدية؟ فتنادَوا، وتشاوروا، وقرروا رفع دعوى أمام القضاء.

لمّا علم طويل الباع والذراع بذلك، بادر يلقي القبض على هؤلاء "المدّعين عليه"، واحدًا واحدا، و... يُرغمهم على سحب دعواهم!

تقول الحكاية: إنّ الناس سمعوا بعد حين، أنّ صاحب هذا العمل، وقد تضاءلت منزلته الرسمية، قد وقع انفجار في سيارته وهو يقودها، أودى بحياته وبمن كان معه.

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الجمعة ٨-٧-٢٠١٦

بالأمس... رحل مواطن ألماني

بالأمس... رحل مواطن ألماني... أخذ على عاتقه أن يفضح جرائم الصهيونية ضد الفلسطينيين...

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الجمعة ٨-٧-٢٠١٦

هل يريد الطيران الروسي لأهل حلب

هل يريد الطيران الروسي لأهل حلب، القاطنين في الأحياء الغربية، أن يهجروا أيضا مساكنهم ويهيموا على وجوههم في كل اتجاه؟

دمشق الشام: فجر السبت ٩-٧-٢٠١٦

«الله يرضى عليك.. دبّرها بهذا المبلغ!»

ما قاله رئيس الوزراء صبري العسلي للوزير الموفد إلى أوروبة

في "تغريدة" نشرتُها في مثل هذا اليوم قبل عام، تواردت عليها التعليقات بالعشرات، أقتطف منها اليوم هذا التعليق لدلالته... يقول صاحبه[١]:

- - - - - - - - - - -

روى لي أستاذي الدكتور مأمون الكزبري (الذي أمسيت فيها بعد زميلا له في التدريس بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء بالمغرب) أنه حين كان وزيرا للمالية، تقرر إيفاده بمهمّة إلى

---

(١) وهو عبد الباسط البيك.

سويسرا لتمثيل سورية في اجتماع لصندوق النقد الدولي في جنيف، وأظن يومها كان رئيس الوزراء صبري العسلي، وأعطوه مصروفا مقداره ألف وخمسمئة ليرة سورية يغطي كل مصاريف السفر والإقامة.

فقال الدكتور الكزبري لدولة الرئيس إنّ هذا المبلغ قليل، وأنه في الأصول الدبلوماسية إذا تمّت دعوته لحفل من طرف وزير من المشاركين فإنّ عليه أن يردّ الدعوة لمن دعاه...

فردّ صبري العسلي: يا دكتور مأمون، الله يرضى عليك، دبّرها بهذا المبلغ، وإذا لزمك أكثر نطلب من السفير هناك أن يزيد خمسمئة ليرة.

رجع الدكتور مأمون من السفر، ولم يصرف المبلغ بكامله، وكان سرور صبري العسلي كبيرا!

٩ يوليو، ٢٠١٥، الساعة ٠٦: ٣٢ مساءً

أسأل الأستاذ الكاتب أن يراجع الذاكرة في حقيقة الأرقام التي أوردها، فقد تكون بالدولار الأمريكي وليس بالعملة السورية يومذاك.

دمشق الشام: فجر السبت ٩-٧-٢٠١٦

توفي عند الساعة الخامسة من مساء أمس

توفي عند الساعة الخامسة من مساء أمس الإثنين بحلب، خالي "سليم سليم آغا" (أبو خلدون)، عن عمر يناهز عمري، وقد درجنا في مرابع الطفولة معًا بحلب. رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته. له من البنين ثلاثة وابنة واحدة، موزعون في الأقطار، وأحفادٌ في الجامعات. مات على فراشه، وحلب تجول في سمائها القذائف واللهب. ولا تعزية، فالناس في وطني يموتون

جزافا.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ١٢-٧-٢٠١٦

بالحبر الأخضر!

لم يكن معقولا الطلبُ الذي أملاه معاونُ الوزير على أحد الموظفين التابعين له.

السيارة، التي قُدّمت من الأمم المتحدة لهذا الموظف، الذي يُدير مشروعًا تَنْمويّاً مموّلًا من هذه المنظمة الدولية، تيسيرًا لأداء مهامّه الوظيفية... ماذا طلب منه رئيسه المباشر؟

أن يرفع كتابًا للسيد الوزير يصرّح فيه أنه يتنازل عن هذه السيارة، بيجو بيضاء تَسبي العيون، لـ«توضع تحت تصرّف السيد معاون الوزير»، بحجّة أنه لا يُتقن قيادة السيارة!

وما لم يكن ممكنًا التعبيرُ عنه... أنّ هذا المعاون كان مخصوصًا بسيارة رسمية فاخرة، وإنما أراد لهذه البيجو الزاهية أن يحوزها ابنه في ذهابه إلى الجامعة وعودته منها متباهيًا أمام الطالبات!

الذي كان أنّ الوزير ذيّل هذا الكتاب، بقلمه ذي الحبر الأخضر، بعبارة شديدة الإيجاز وفيها سجعٌ لطيف: «توضع السيارة في خدمة الوزارة»!

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ١٢-٧-٢٠١٦

لا يعرفون.. مجلة "المعرفة"!

يوم كنت تلميذًا في الصف الخامس الابتدائي (السرتفيكا) عام ١٩٤٢، أذكر أنه صدر معجم أنيق اسمه "منجد الطلاب"، فجاءت إدارة المدرسة بكمية منه، وزيّنوا لنا شراءه، وبيّن لنا معلم العربية "سامي الرز" كيف نصل إلى جذر الكلمة وندخل إلى حيث نقرأ شرحها ونتفهّم معانيها!

ولدى سؤالي، بالأمس، بعض طالبات وطلاب كلية الآداب، عن المعجمات العربية التي يرجعون إليها، تبيّن لي أنّ لا أحد منهم يقتني معجمًا، وهم يرجعون إلى "غوغل" في معجمه الموجز غير المغني.

وغير ذلك أنّ الموهوبين من طلاب الآداب، الذين يعانون نظم الشعر والكتابة السردية والنقدية، لم يسمعوا أنّ في البلد مجلة اسمها "المعرفة" ولا "الموقف الأدبي" و"التراث العربي"!

فتساءلت عن دور الأساتذة في تعريف طلابهم بذلك، فكان الجواب أنّ الاهتمام كلّه منصبّ على المقررات والأمالي!

(نشرت في جريدة "تشرين"، الأحد ١٠-٧-٢٠١٦)

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ١٣-٧-٢٠١٦

وتحت القصف.. تمارس الحياة بكلّ تفاصيلها!

زارني بدمشق أيام العيد وما تلاه، قادمًا من حلب، قريبٌ من أسرتي الكبيرة هناك، يصحبه طفله ابن العشر، وفي غضون ذلك زاد القصف على حلب، وسيارات الإسعاف تنتشل القتلى والجرحى من تحت الأنقاض ومن الشوارع والطرقات.

ولمّا همّ بأن يعود اقترحت عليه البقاء، فالحالة في حلب كما نسمع ونشهد، ولكنه أبدى عزمه على العودة لأنّ "عنده شغل! "، ولم أستطع إقناعه بالعدول والتأجيل...

غادرني ابن شقيقتي "علاء" وابنه "بشر" فجر أمس إلى "جسر فيكتوريا"... حيث استقلّ البولمان، يتحرّك به عند الساعة السادسة باتجاه الشمال.

هتفت له أتفقّده، فأجابني بصوت لا يخامره قلق، بأنه أصبح في "الراموسة" على أبواب حلب.

فازداد عجبي وإعجابي بهذا الشعب... الذي لا يرى في القصف والدمار مانعًا له من أن يمارس حياته الاعتيادية... في كلّ تفاصيلها!

دمشق الشام: مساء الجمعة ١٥-٧-٢٠١٦

تواضع.. وعنفوان!

وإنّ المرء لينتابه الإعجابُ حقًّا، من تواضع أبناء الاشتراكية، الآسرة للقلوب والمستولية على المقاليد، حتى إنّ أحدهم، عندما يمتطي سيارته الرسمية الفاخرة، تعاف نفسه الجلوس في صدرها، متقدّمًا إلى يمين السائق، حبًّا بالكادحين، ومن بعد ذلك وقبله احترامًا للقيم الإنسانية الكبرى.

ولكنّ العجب ينتابنا ولا يتخلّى عنّا أبدًا، عندما نرى واحدًا من هؤلاء، يصدر لسانُه أمرًا بإبادة ألف وثلاثمئة من سجناء الرأي في باحة السجن، ويشهد بعين متحجّرة كيف تُطلق النار عليهم دفعة واحدة، وهم يتهاوَون صرعى بدماء تَروي الأرض وصرخاتٍ تستجير بالسماء.

دمشق الشام: عصر الجمعة ١٥-٧-٢٠١٦

يتقاسمان البطولة:

يتقاسمان البطولة:

الحاكم، وشعبه... (١)

---

(١) يقصد ليلة الانقلاب في تركيا، محاولة الانقلاب الفاشلة على الرئيس أردوغان في ١٥ تموز ٢٠١٦.

س ٣: ٣٥ فجر السبت ١٦-٧-٢٠١٦

أيها الشعب التركي

أيها الشعب التركي

أبكيتني فرحًا

س ٣: ٢٠ فجر السبت ١٦-٧-٢٠١٦

من حقك، يا تركيا

من حقك، يا تركيا

ألا تنامي الليلة

فرحًا!

دمشق الشام: س ٣: ١٥ فجر السبت ١٦-٧-٢٠١٦

وكان المتهوّرون

كان المتهوّرون

يظنّونها... نزهة!

س ٣: ٤٥ فجر السبت ١٦-٧-٢٠١٦

عندما يقع انقلاب في دولة ما

عندما يقع انقلاب في دولة ما

فإن على الجماهير

أن تخرج إلى الشوارع

معبّرة عن إيمانها بالديموقراطية

لا أن تختبئ في بيوتها

مستسلمة لمطامح شرذمة من المتهوّرين

دمشق الشام: ليل السبت ١٦-٧-٢٠١٦

الرصاص

الرصاص

الذي أطلق ابتهاجًا مساء أمس

في حارتي

وفي سماء العاصمة

وفي كلّ المحافظات

هل يدلّ على التأييد المطلق لكل انقلاب يقع

في أية بقعة من العالم

وإن كان غير معروف الأهداف!

دمشق الشام: ليل السبت ١٦-٧-٢٠١٦

عملوها في ١٥ تموز/ يوليو... فخابت

عملوها في ١٥ تموز/ يوليو... فخابت

تُرى

لو أنهم سبّقوا يومًا واحدًا (١٤ تموز الخالد)

أكانت تنجح!

دمشق الشام: ضحى الأحد ١٧-٧-٢٠١٦

يا شعوب العالم

يا شعوب العالم

إذا استمعتم يومًا إلى "بلاغ رقم ١"

وفيه أنهم سيدعسون على جماجم الأغنياء

ويُطعمون الفقراء خبزا مدهونا بالعسل

ويحافظون على الوطن

وينشرون العدل بين الجميع

فاعلموا أنهم من الكاذبين

فالإصلاح لا يأتي بيد متسللين في ليل بهيم

بل على أيدي مَن انتخبتموهم في وضَح النهار

دمشق الشام: عصر الأحد ١٧-٧-٢٠١٦

صرخة في الضمير.. تؤرّقني!

بعد أن قام بانقلابه في مصر، الذي صفقنا له فرحين بقلب الملك، شاهدنا من تصرفاته –

وأنا طالب بجامعة القاهرة – ما جعلنا نُنكره، حتى الاعتصام في حرمها، ولم يسمحوا لنا أن نتخطّى إلا إلى الشارع الذي يُفضي إلى بابها، وقد علا هتافنا: «يسقط حكم البكباشية"!

وبعد أخطائه المتكررة، بإقصائه رفاق السلاح من مجلسه واحدًا بعد الآخر ولم يَسْتَصْفِ إلا من انحنت قامته له، وبتضييعه بجهالته ثلاث وحدات عربية (مع السودان وسورية واليمن الشمالي)، وانخراطه في حرب مجانية في اليمن...

كانت قد تمادت في ضميري صرخة تظل تؤرّقني:

لماذا يحكمنا عسكري لا يتقن فنّ الحكم، ولا يتولى أمرنا مدني نستطيع أن نخلعه عند ارتكابه أول خطأ!

دمشق الشام: مساء الأحد ١٧-٧-٢٠١٦

رحيل محمود فاخوري وذكريات حميمة

تعود معرفتي للأستاذ محمود فاخوري إلى أوائل ثمانينيّات القرن الماضي، وكنت في رفقة ثلّة من الأصدقاء كتّابًا وشعراء، في إحدى زياراتي لمدينتي حلب، وأذكر أني لمست من ودّه ودماثته ومن علمه ما جعلني أستزيد من التعرّف عليه أستاذًا للآداب بجامعة حلب، قادمًا إليها من حماة، ثمّ تأتّى لي أن أُصغي إليه وهو يتحدّث في حلقات تلفزيونية في الأدب والتاريخ، باستفاضة.

هل أقول إنه ما كان لهذه الشخصية المتميّزة إلا أن تشدّني إليها وتوثّق عُرى الصداقة بيني وبينها. وأعترف بأني كنت ألجأ إليه، في بعض الليالي، أسأله هاتفيًّا من دمشق إلى حلب، في مسألة نحوية قد التبس أمرها عندي. وأنا من تخرّج في غير كلية الآداب. لحظة تستغرقني كتابة نصّ لم يبق إلا أن أختتمه وأوجهه للنشر، فكان صديقي "اللغوي" يبادر إلى الإجابة عفو الخاطر

ودون الرجوع إلى المصادر، وهو في ذا أحد اثنين من أصدقائي الأكاديميين، كنت أستعين بخبرتهما على ما يُشكل علي من أمور اللغة، والأول منهما هو الدكتور محمود ربداوي (الذي شغل عمادة كلية الآداب بجامعة دمشق)، وإنّ هناك متقدمًا عليهما في الزمن، "سليم بركات" (الدمشقي) صديقي في الدراسة بمصر، وقد كان يعمل في "المعهد الفرنسي للدراسات العربية" بدمشق، وافاه الأجل مبكرا.

ومما أذكر أنّ تبادلًا للآراء في الأدب والتاريخ جرى بيني وبين محمود فاخوري، على الهاتف في ليلة شتويّة، وكان استرسالٌ، رأيته لحظة الوداع يُبدي سروره بما كان، ويصف ما تبادلناه من الآراء بأنه "ندوة على الهاتف"!

وفي منتصف ليل – وقد كان يحلو لنا السَّمَر الأدبي في منتصف الليالي! – هتفت إليه ألتمس النصّ الذي قيل قديمًا في تجويد الكتابة؟ فقام الصديق النبيل إلى مكتبه، ثمّ اتصل بعد دقائق وأملى عليّ ما نُسب إلى العماد الأصفهاني (وهناك من يقول إنه للقاضي الفاضل): «إني رأيت أنه لا يَكتب إنسانٌ كتابًا في يومه إلا قال في غده لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر». وقد أدخلت هذه العبارة الفذّة في نصّ مطوّل كنت كتبته شابًّا، والآن (أعني منذ قريب!)، أردت نشره في كتاب، والعنوان "في جبل السُّمّاق، من أدب النُّزهات" (صدر عن وزارة الثقافة في سلسلة "آفاق ثقافية"، العدد ١١٤ تشرين أول ٢٠١٢).

وكنت أقرأ في جريدة "الجماهير" الحلبية، التي كانت تصل إليّ بالبريد، مقالات له، فأبديت له سروري من ذلك، فأعلمني أنّ أمينة الثقافة في الجريدة، الأديبة "بيانكا ماضِيّة"، خصصت له زاوية، فهو يزوّدها كل أسبوع بما يعنّ له.

ومرة حدّثني بأن طبيب العيون الذي يقف عليه اقترح إجراء عملية في إحدى العينين الكريمتين، ونبّهه على أنّ العملية غير مضمونة النتائج، فإن كان إخفاق أصبح الاعتماد على العين الأخرى وحدها وذلك متعبٌ له إلى حدّ الحرج، وأخبرني.رحمه الله.بأنه استشار أصدقاءه من الكتّاب والأطباء، وانتهى إلى العدول عن الجراحة. وفي تلك الليلة تبادلنا السؤال عن الأعمار، وقد كان يظنّ أنه أسنّ مني، وإذا أنا أسبقه إلى الدنيا بأربع سنين، وضحكنا لهذه المفاجأة اللطيفة.

وأذكر أني هتفت إليه مرة، فجاءني صوت آخر، حتى ظننت أني مخطئ في الاتصال، ثمّ تبيّنت أنه صهره الذي جاء يساكنه المنزل تحت وطأة الحوادث، وأعلمني أنّ الأستاذ نائم، وأغلقت. وما هي إلا دقائق حتى أتاني صوته يعتذر، بأنه لم يكن نائمًا بل متمدّدًا في سريره يرتاح، ودخلنا في حديث عمّا ينتاب أيامنا السورية من أحداث وآلام.

وآخر لقاء بيننا كان في مديرية الثقافة بحلب، أواخر العام ٢٠١١، يوم قررت المدينة إقامة حفلات تكريم للمتقدمين من أبنائها في مجالاتهم، وارتأوا افتتاحها بحفل يقيمونه لكاتب السطور حضره المحافظ. ما أذكره أني لم يُمكنّي التعرُّف على شخصية ذلك الرجل الجليل الذي وَخَطَ[١] الشيب رأسه وطغى حتى الحاجبين، فسألت، فعرفت أنه صديقي محمود فاخوري، فأقبلت عليه.

وانتشر، قبل أسابيع قليلة في شبكة التواصل الاجتماعي، نبأ مرض الأستاذ محمود فاخوري، وسارع الأصدقاء والمحبّون يُعبّرون، في بعض الصفحات، عن خشيتهم عليه وهو في المستشفى قيد العلاج... قبل أن ينفذ فيه قضاء الله وهو في الثالثة والثمانين.

ولا بدّ من التنويه بأنّ للفقيد العشرات من الكتب الجامعية والمدرسية، ومن التآليف

---

(١) وخَطه الشّيبُ: خالطَ سوادَ شعرِه.

والتصانيف المبدعة، وكتبًا في التراث اعتنى بتحقيقها، نُشرت منها طبعات، وإنّ بعضها ـ كما أعلم ـ ما زال غير منشور، نتمنّى على وزارة الثقافة أن تنهض بنشر أعماله الإبداعية والتراثية على جاري عادتها في الاعتناء بما يخلّفه أبناء الأمة من إرث ينتفع به الناس.

نشرت اليوم في جريدة "تشرين" العدد (١٢٦٨٢)

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الأحد ١٧-٧-٢٠١٦

إنهم يحْزِرون!

لحظة سمعوا بالانقلاب، قبيل منتصف الليل، وبأنّ الانقلابيين تمكّنوا من السيطرة الكاملة على الأوضاع، أخذوا يطلقون النار في الهواء ابتهاجا،

فلما تمّ إحباط الانقلاب، بمبادرة شجاعة من الحاكم وبتأييد كاسح من شعبه، قالوا صباح اليوم التالي: إنها مؤامرة دبّرها الحاكم تثبيتًا لحكمه!

دمشق الشام: عصر الاثنين ١٨-٧-٢٠١٦

الذين يبكون خوفًا على جنرالات الانقلاب

الذين يبكون خوفًا على جنرالات الانقلاب من أن يعلّقوا على الأعواد

ولم يذرفوا دمعة واحدة خوفا على نظام ديمقراطي أوشك أن يزول

ألا يدلّ هذا على... الضُّلوع؟

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ١٩-٧-٢٠١٦

أيظلّ الغرب.. يخاف الإسلام؟

ممّا يشير إلى ضلوع الغرب أنهم صمتوا ليلة محاولة الانقلاب الفاشلة في تركيا، ثمّ أسرعوا يظهرون الخوف من أن تأخذ الحكومة بعقوبة الإعدام بحق الرؤوس المدبّرة... يا للحنان!

انقلابٌ - مدمّر للديموقراطية ولكلّ منجزاتها الاقتصادية - يسكتون عنه في ساعته، ومخاوفُ على الخونة يسرعون إلى التعبير عنها، وهم يحتضنون الرأس المتعفّن في أمريكا.

يبدو أنّ الغرب سوف يظلّ ينتابه الخوف من الإسلام، حتى في الصورة الأنقى والأحدث، أيّدوه في البداية ولم يعوقوه، ثمّ خافوا من أن يشيع نموذجه في الأرض، فينام المسلمون في شيء من الهناء.

وليتهم يطرحون من أذهانهم ذلك الكابوسَ الذي يرزحون تحته طوال قرون: مطرقة الغافقي في "بواتْييه"[١]، وقرع محمد الفاتح لأبواب "فيينا"... فعهد الفتوحات الحضارية العظمى، الإسكندر المقدوني والإسلام، قد ولى، وحلّ محلّه عصر الاستعمار، بشرَّيْه: الاحتلالي والاقتصادي.

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٩-٧-٢٠١٦

إنّ من تبنّى حزبُه التنمية السليمة والاقتصاد الهادئ

ومن اتخذ الديموقراطية سبيلا للوصول

ومن عُرف عنه العدل بعد تسلّمه المقاليد، والكياسة، والصبر على المكاره

لن يبطش بخصومه السياسيين فذلك طبع آخر ليس من شيمه

(١) هي معركة بلاط الشهداء التي جرت قرب مدينة بواتييه الفرنسية.

خففوا الوطء، أيها الأصدقاء

ولا تكونوا من الشانئين الشامتين الشاتمين!

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ١٩-٧-٢٠١٦

وقال اللامثقفون المتاجرون[١]

وقال اللامثقفون المتاجرون بالوطنية والإنسانية، ليلة الانقلاب الخائب، سوقيون

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٩-٧-٢٠١٦

مدينة سورية شرقي حلب ٣٠٠٠٠٠ مدني محاصر[٢]

القصف لا يتوقف

انعدام وسائل الحياة في ظل القصف.. الناس تموت ه جوعًا.. ه عطشًا..

تعتيم اعلامي

شاركونا لإيصال صوتهم للعالم

(فجر ثلاثاء ١٩-٧-٢٠١٦)

---

(١) ويقصد منشورات كتبها أحمد الموسى، ويوسف الحسيني، ومصطفى بكري، ولميس الحديدي، وإبراهيم عيسى، وتامر عبد المنعم، بعد أن شارك السباعي منشوراً فيه صور لمنشوراتهم يتشفون بها ظنوه نجاح الانقلاب في تركيا.

(٢) ويقصد مدينة منبج بعد أن شارك وسماً يقول: منبج تُباد.

يا عزيزنا رجب طيب أردوغان

بَطِّلْ تفكير في استعادة عقوبة الإعدام في شأن الذين قاموا بمحاولة الانقلاب، سواء عن طريق البرلمان أو الاستفتاء الشعبي... ألله يرضى عليك

فأنت تبدو منذ الساعة في نظر أهل المنطقة قاسيًا، مع أنّ قلوبهم أقسى من الحجر

وأيضًا سوف "يزعل" منك... أصدقاؤك الغربيون المنافقون!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢٠-٧-٢٠١٦

أربحُ الناس، في هذا الزمن السوري الحزين

أربحُ الناس، في هذا الزمن السوري الحزين، هم التجار... والباعةُ أربحُ لتعدّد أنواع الغشّ الذي يمارسون

والأفقر هم العمال، والموظفون، والمتقاعدون... والهائمون على وجوههم في كلّ اتجاه

دمشق الشام: عصر الخميس ٢١-٧-٢٠١٦

الخوف

جاءت بيروت بعد طويل اغتراب، لتحضر فرحَ قريبٍ شاء ذووه أن يجعلوه وراء الحدود فيتجمّع الأهل والأحباب... يتعانقون، ويتذكّرون، ويذرفون الدموع.

بعضهم اقترح عليها أن تزور عاصمة بلادها التي غدت على مرمى حجر.

قالت: أخاف!

ولم يكن مصدر خوفها ما تكتب في صفحتها، فهي بعيدة عن هذا كلّ البعد...

تقول: إنّ بين المعلقين من أصدقائي واحدا قد جعل من العلم السوري ذي النجوم الثلاث

شارة له!

دمشق الشام: فجر الجمعة ٢٢-٧-٢٠١٦

قبل ثلاث سنوات.. تأمّلوا!! (١)

ومن هنا كان "التحريك" على أردوغان بـ غولن، الذي تمّ احتضانه في أمريكا، وأمس قام بانقلابه الخائب، وأردوغان يعمل بجدّ في ظلّ الديمقراطية على استئصال جذوره دون هوادة. لقد أتعبوه!

- - - - - - - - - - -

(معاد) دمشق الشام: عصر الجمعة ٢٢-٧-٢٠١٦

وُلد اوباما لوالدين مسلمَين

وُلد اوباما لوالدين مسلمَين

ثمّ تنصّر، ولا بأس

---

(١) وجاء ذلك تعقيبا على منشور يقول: بروفسور من دولة عربية حضر مؤتمراً علمياً بتركيا أخبرني أنه في لقاء خاص جمعه مع عميد كلية من سامسون مقرب من أردوغان أنه قال له نقلا عن مرافقي أردوغان في رحلته الأخيرة إلى أمريكا: إن أوباما طلب منه المشاركة في خطة تقسيم سورية وعرض أوباما على أردوغان امتيازات تشجيعية مقابل المشاركة، رفض أردوغان المشروع، وبعد عودته إلى تركيا بدأت أحداث التقسيم، وقامت شركة قوج وهي شريك شركة فورد الأمريكية بتحويل ١١ مليار دولار من حصصها البنكية بتركيا إلى الولايات المتحدة ونتج عن ذلك ارتفاع الدولار المفاجئ!، وقد ألمح اردوغان إلى وجود مؤامرة خارجية مرتبطة بأحداث التقسيم.

ولكنه في حُكمه

يبدو كارهًا لدين أبويه

وماكرًا بالمسلمين!

كيف؟!

دمشق الشام: فجر السبت ٢٣-٧-٢٠١٦

الرئيس المنتخب في الاعتقال

واليوم

الرئيس المنتخب في الاعتقال

ومحلّه... وزير الدفاع المنقلب

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر السبت ٢٣-٧-٢٠١٦

اتجه نحو الشمال

اتجه نحو الشمال

يا أردوغان

فأنت منتخب من شعبك

وتعرف جيدًا ما ينفعه... دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٢٦-٧-٢٠١٦

جاءه ملبّيًا دعوته.

أدّى ما ينبغي من خدمات الكمبيوتر. نقل جهاز الهاتف إلى حيث يريحه أن يتحدّث به. غيّر لمبة مصباح الحديقة المحروقة... وأعدّ له كأس الشاي الساخن، والخبز والجبن والزيتونّ.... ثمّ قال وهو يهمّ بمغادرته: لا تتعب نفسك، سوف أطفئ أنوار الحديقة وأنا منصرف!

بعد أن تلقّط سمعه صوت إغلاق الباب، خطر على باله ذلك الفتى الذي كان يعتني بالصيّاد العجوز في رواية "الشيخ والبحر" لإرنست همنغواي".

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٢٦-٧-٢٠١٦

وعندما رأى الغرب في تركيا

... وعندما رأى الغرب في تركيا إسلامًا جميلاً تآمروا عليه

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢٧-٧-٢٠١٦

أنا... في دمشق

أنا... في دمشق

أنا في ألم لا حدود له!

- - - - - - - - - - -

ظهيرة الأربعاء: ٢٧-٧-٢٠١٦

الخزي للدول الأوروبية

الخزي للدول الأوروبية التي لم توفد إلى تركيا من يُعزّيها بشهداء الانقلاب الفاشل

والعزّة للشباب الذين استلقوا بأجسادهم أمام الدبابات فمنعوها من أن تتقدّم

دمشق الشام: ليل الجمعة ٢٩-٧-٢٠١٦

في بلاغهم "رقم واحد"

في بلاغهم "رقم واحد"

وهم على صهوة دباباتهم:

أعلنوا:

نحن حماة الديمقراطية!

وكانت تلك أولى الأكاذيب!

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٢٩-٧-٢٠١٦

يا "صفيّة بيات"

يا أيتها التركية، التي تصدّت لدبابات الانقلابيين

منذ الساعات الأولى

بلسانك الفصيح

وتلقّيت رشّ النار حولك وما خفت

وجرحوك عندما أطلقوا نيرانهم على الجماهير

نحبّك

نحن عشّاق الحرية في كل مكان

دمشق الشام: فجر الجمعة ٢٩-٧-٢٠١٦

وفيما أنا أبكي على ما لحق بمسقط رأسي

وفيما أنا أبكي على ما لحق بمسقط رأسي من دمار

هتفتْ إليّ من هناك تشكو

ممّ؟

أنها لم يغمض لها جفن منذ يومين...

من الزغاريد والطبل والزمر

عراضة فرح رايحة

وعراضة جاي...

إنهم منتصرون!

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٣١-٧-٢٠١٦

حلب... عاصمة الألم والغضب!

دمشق الشام: عصر الأحد ٣١-٧-٢٠١٦

ومن أعجب ما يلاحظه العالمُ

ومن أعجب ما يلاحظه العالمُ اليوم في "الديمقراطية الأمريكية"

أنّ ما تُبديه من أمل في أن تكون محاكمة الانقلابيين عادلة

يفوق إشفاقَها على ديمقراطية زاهرة أوشكت أن تَبيد!

دمشق الشام: ضحى الأحد ٣١-٧-٢٠١٦

أسلحته الذكية

لم تستطع أن تمنع طائرته المروحيّة من أن تتحطّم

ولكنها مكّنته من أن يقتل بضعة عشر رجلاً على الأرض

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٢-٨-٢٠١٦

بطاقة سفر!

لم يتفق لي أن دعاني اتحاد الكتّاب في بلدي إلى المشاركة في أيّ من الملتقيات الأدبية التي يقيمها أو يشارك فيها بالدول العربية أو في العالم، على حين أنه جرى على أن يدعو إليها أعضاء لا تصل قاماتهم الأدبية إلى كتفي!

وعندما شاركت، في أواخر العام ١٩٩٦، ببحث تراثيّ علمي في الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، المنعقدة في دولة الإمارات العربية المتحدة (وهذه الندوة واحدة من الندوات والمؤتمرات التي تتعهّدها جامعة حلب، المعهد العربي لتاريخ العلوم عند العرب، في كلّ عام)، تراءى لي أن أكتب لرئاسة الاتحاد، وأنا عضو مؤسّس فيه منذ ١٩٦٩، أعرض تزويدي ببطاقة سفر والضيافة من الإمارات، مذكّرًا بأنّ رئيس الاتحاد ما زال يطوف العالم كلّه، متمتّعًا بتعويض من الاتحاد وباستضافة حميمة حيثما يحُلّ، أحجم عن الردّ على خطابي، وطلب من الصديق شوقي بغدادي عضو المكتب التنفيذي أن يبلغني أنه في سفراته تلك يكون موفدا من قبل قيادة الحزب لا الاتحاد... وأنا أعلم أنّ بعض هذا القول صحيح، وأكثره لا! ولم يمنحني بطاقة بذريعة أنهم لم يتّبعوا هذا من قبل!

أقول: إنّ الإمارة التي استضافتنا هناك (رأس الخيمة)، عندما علمت بأنّ بعضنا جاءها ببحثه وعلمه متحمّلا ثمن بطاقة السفر، قامت تمنح كلا منّا مبلغا (وقدره خمسمئة درهم

إماراتي)، فكان المنفذ لعملية المنح يسألنا فردا فردا وهو يحدق في عيوننا عما إذا كان الواقف أمامه قد تحمّل من جيبه ثمن البطاقة؟ فتصورنا أنفسنا جوعى نستجدي، ووددت بعد تسلمي هذا المبلغ المسموم لو أردّه!

وأما رئيس الاتحاد، الذي دام "حكمه" لنا سعيدًا ثمانية وعشرين من الأعوام متواصلة، فإنه يلتزم اليوم الصمت حيث ينعم بالإقامة في أحضان مدينة النور باريس، كما علمت.

ويقول "المرتاحون" بملء أشداقهم: «لماذا رفعتم بالاحتجاج أصواتكم؟ كنّا عايشين وماشي الحال!».

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٢-٨-٢٠١٦

رآه صديقُه عائدًا من السوق

رآه صديقُه عائدًا من السوق، ينوء بحمل مشترياته

سأله مشفقًا عليه:

- وين ولادك يساعدوك في حمل هالأكياس؟

أجابه:

- ليش الحرب خلّتلنا ولاد! اللي قُتل، واللي اعتُقل، واللي شحطوه للخدمة، واللي هرب وصار برّه!

دمشق الشام: عصر الأربعاء ٣-٨-٢٠١٦

كان أحمد زويل عالما متميزا

كان أحمد زويل عالما متميزا بما أضاف للعلم من مكتشفات. رحمه الله تعالى. ويسعدنا أن

تكون زوجته سورية من دمشق.

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٣-٨-٢٠١٦

كتبت له:

من اللحظة التي نفتّح فيها عيوننا صباحًا، نذهب أنا وزوجي إلى صفحتك، نقرأ ونتأمّل

ولكنّا لا نضع لايكات

نخاف...

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٣-٨-٢٠١٦

أبناء الملّة الواحدة

في الأدبيّات التي يَرثها مسيحيّو بلاد الشام، أنهم عانوا من التحيّز في ظلّ الحكم العثماني، فلما انقضى ذلك العهد، وجاءت فرنسا تحكم البلاد، لم نرهم يمالئون الفرنسيين وهم وإياهم أبناء ملّة واحدة! وسوف أظلّ أذكر ما سمعته، في منتصف ثلاثينيّات القرن العشرين وأنا طفل صغير، من هتاف كان يُدَويّ في سماء الوطن، ردًّا على تقسيم المقسَّم بموجب تلك الاتفاقيّة المشؤومة: «بدْنا الوحدة السورية، إسلام ومسيحيّة».

فما بال أناس منّا اليوم لا يُمسكون أنفسهم فيمتنعوا عن الاستعانة بمَن يجلبون من أبناء ملتهم، مِن شرق ومن غرب... حتى الأسلحة الفتاكة تصل من بلاد فلول الشيوعية المنهارة، تُثخن وتدفع إلى مزيد من النزوح والهجرة إلى البعيد البعيد!

دمشق الشام: مساء الخميس ٤-٨-٢٠١٦

هل يعلم المسلحون

أنهم إن سيطروا على الباقي من حلب (الأحياء الغربية)

فإنّ النظام سوف يدمّرها

كما وقع في الأحياء الشرقية؟

دمشق الشام: ليل الجمعة ٥-٨-٢٠١٦

إلى متى

إلى متى

تظلّ بلدي

في يد الكبار

ريشةً في مهبّ ريح

يتخاصمون بنا ويُصفّون الحسابات!

دمشق الشام: فجر الجمعة ٥-٨-٢٠١٦

الجيش يحمي الوطن

في كلمة واعية قالها يومًا فنانٌ عربي معنيّ بالثقافة والسياسة: الجيش يحمي ولا يحكم.

وندع أنفسنا نتأمّل بعض دول العالم الثالث، التي وثبت فيها جيوشها إلى السُدّة:

فلا الجيش أمسى جديرًا بأن يحمي

وهو، في حكمه، بدّد العدالة، ووزّعها نُتفًا على الأتباع والمحاسيب.

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٥-٨-٢٠١٦

جارتنا الآنسة جورجيت

جارتنا الآنسة جورجيت، وحدها كانت مسيحية بين سبع عائلات مسلمة سكنت دارنا العربية في منطقة باب توما بدمشق. أمي وأبي كانا صاحبي الدار وكانت عائلتنا تعتاش من أجر الغرف.

حين بدأت حرب عام ١٩٦٧ وأصبحنا نَطلي النوافذ باللون الأزرق كي لا ترانا الطائرات الإسرائيلية المغيرة، خافت جورجيت وبدأت تجمع أغراضها لتهرب.

صعدت والدتي إلى غرفتها وقالت لها: تعالي ونامي مع بناتي. قالت جورجيت وهي تبكي: أنا ماني خايفة من الطيارات خايفة منكن كلكن إسلام وأنا وحدي مسيحية!!

ضمّتها أمي إلى صدرها وهي تهمس لها: وحياة عيونك إنتي عندي بغلاوة بناتي، واللي بيصير عليهن بيصير عليكي.

صحت جورجيت على أنّ ما قيل لها عن الفرق بين المسلم والمسيحي هو مجرد إرث تاريخي تناقلته الأجيال دون وعي وتفكير، وأنها في الواقع تعيش مع بشرٍ يشبهونها ويخافون عليها. ضجَّ وجهها بالحب وأخذت تقبّل وجه أمي وتهدَّج صوتُها(١) وهي تقول: وإنتي بغلاوة أمي.

تلكم قصة واقعية لم يحوِ الحوار فيها آيات من الإنجيل والقرآن، ومع ذلك كان مقنعاً إلى درجة أن جورجيت وأمي أعادتا الأغراض إلى أمكنتها...

واستمرت أختنا جورجيت في العيش معنا طويلاً طويلاً.

- - - - - - - - - -

---

(١) تقطَّع في ارتعاش.

دمشق الشام: ليل السبت ٦-٨-٢٠١٦

مقياس جديد لحرية التعبير

في عصر الفيس بوك

إذا أحببت أن تتعرّف على ما يتمتّع به شعبٌ من حرية التعبير

فانظر إلى ما تَنْقر أنامله على جدار الفيس...

فإن تبيّنت أنه يخاف أن يضع "لايك" على قول يتّسم بالجرأة الفكرية... فاعلم أنه في أدنى درجات الحرية.

دمشق الشام: فجر السبت ٦-٨-٢٠١٦

الوطن عزّ، أيها الأصدقاء!

من قصصي القصيرة،

كتبت، قبل نحو ثلاثين سنة، قصة تحكي تهميش أكاديمي بأن قدّموا عليه في مضماره تلامذته المتخرجين على يديه... عثر "الأمنيون" بين أوراقه على ما يؤكد اعتزامه مفارقة الوطن، فندّدوا بما كتبت يمينه تنديدا... أجاب:

«عندما يُضطهد المواطن في وطنه الحبيب يكفّ الوطن عن أن يكون حبيبا، يصبح بلدًا من البلدان ليس إلا!».

تردّدت طويلا مجلة "الناقد" (اللندنية) في نشر هذه القصة وعنوانها "البحث عن وطن"، قبل أن يعتذر لي برسالة صاحبها المتنوّر (رياض نجيب الريّس)، ونشرتها مجلة "العربي" عام ١٩٩٦، ونزلت في كتابي «آه، يا وطني!» عام ٩٦ نفسه.

الوطن عزّ... فلا يُزاودنّ في ذلك أحدٌ على أحد، أيها الأصدقاء!

دمشق الشام: فجر السبت ٦-٨-٢٠١٦

جيراننا اليهود بحلب

عندما جاء جدي "الحاج سليم المفتي السباعي" أيام "السفر بَرْلك" من بلده حمص قادمًا إلى حلب، شاء أن يسكن في "زقاق الزهراوي" الذي كان ينتشر فيه "آل السباعي" القادمون قبل زمن من موطن الآباء حمص، وفي تلك الدار العربية - التي اشتراها جدي من أسرة يهودية - رأت عيناي النور في خريف ١٩٢٩. ثمّ تأتّى للأسرة أن تنتقل صيف ١٩٤٢ إلى "حيّ الجميلية" غربيّ حلب، في بناية كان شراؤها أيضا من أسرة يهودية اسم كبيرها "عِزْرَا شويكي". وللعلم كان يُعرف "حي الجميليّة" بكثرة القاطنين فيه من يهود حلب، مثلما يُعرف الحيّ الآخر الحديث شماليّ المدينة "العزيزيّة" بكثرة مَن يسكنه من مسيحيّيها.

أقول: كان يقابل بنايتنا على الرصيف الأخر بناية تسكنها أسرة يهودية يملكها الجد "مُرْدُخ سيلفيرة Silvera" (عَلِمنا فيما بعد أنّ أصوله إيطالية)، له ابن أوحد اسمه " عِزْرَا "، كان منجبًا له من البنين والبنات ثمانية أو حول ذلك. وكان يلحق ببنايتهم كنيس، تقام فيه الصلاة والأفراح أيضًا، نشهد ذلك ونراه أمرا عاديا.

ولن أنسى علاقة الجوار الحميمة بيننا، والزيارات المتبادلة، حتى إنّ ابنا لهم اسمه "أبراهام" في مثل سنّي كان يأتي إلى بيتنا أحيانا، أكتب واجباتي المدرسية بلغتي العربية ويكتب هو واجباته باللغة العبرية!

فلما صدر قرار تقسيم فلسطين خريف ١٩٤٧، هبّت فئة من الناس بحلب ممن قهرهم قرار "التقسيم" في مظاهرات تحطّم وتحرق، واقتربوا من الكنيس بجوار بيتنا، واقتحموه وأشعلوا

فيه النار، والجدّ - الذي التجأ إلى بنايتنا - يشهد من عل.

كان هناك في أدنى بنايتهم باب يُفضي إلى باحة الكنيس. من ناحيتي شهدت الحريق، وعزمت على أن أحمي البناية من أن تُحرق. وقفت في ذلك الباب أمنع مَن يريد اجتيازه، مدّعيًا أن البناية لأهلي ونحن مسلمون، فكانوا يصدقون، يعتذرون ويعودون. ولكنّ نفرا آخرين من المتظاهرين ما يلبثون أن يأتوا إليّ، يَفسد بعضُ أبناء الحارة عليّ قصدي مبيّنين لهم الحقيقة، فأبذل جهدًا أكبر في "الإقناع"... وهكذا حتى انفضّت المظاهرة وأنقذت البناية من الحرق.

تلك الليلة بات أفراد الأسرة كلّهم في بيتنا، موزّعين في طابقين، وكان أن شاركني الابن الأكبر الحفيد "مراد" النوم في غرفتي، وتحدثنا قبل النوم طويلاً.

في اليوم التالي عاد أفراد الأسرة إلى بنايتهم، سالمين. وقد استدعاني الجدّ، وشكرني كثيرا، ثمّ تملّى النظر مني وأنا في عزّ فتوّتي، وشاء أن يدعو لي بالخير، قال: «روح، الله يجوّزك!». وما مضت سنتان حتى كنت أتأهّب للسفر إلى مصر لأدرس في جامعة فؤاد الأول، مصطحبًا عروستي!

دمشق الشام: فجر الأحد ٧-٨-٢٠١٦

وإني لأرى بين الناس

وإني لأرى بين الناس

نفرًا

ينظرون حولهم فيظنّون أنهم يرون

ويسرعون إلى الطعن

في أهل المعرفة والعلم والأدب:

هذا وذاك

رجعيّ، أو إرهابيّ،

أو خائنٌ، أو كافرٌ، أو غبيّ

وذلك منتهى حظوظهم من المعرفة

ثمّ يقعدون سعداء بأنهم بالحقيقة نطقوا

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى الاثنين ٨-٨-٢٠١٦

المُعارض.. الذي يُثير الضحك!

يومًا، قبل ثلاثين أربعين سنة، كان له صديقٌ من الموالين، ولكنّ القلب لم يكن مواليا... يسمعه يقول قولة حكيم: «أترى الغرباء، هؤلاء الذين يملؤون العاصمة؟ كلّهم سوف تمتصّهم دمشق، وتتمثّلهم، فيغدون دماشقة أكثر ممّا هم أبناؤها... هكذا تفعل دمشق العريقة بكلّ الداخلين إليها!».

عبر السنين كَبِرَ هذا الصديق، وتسلّم، وأصبح ذا نفوذ...

قيل إنه يتحدّث في مجالسه الخاصة، ويقول مشيرًا إليه: «وصاحبنا "معارض "!»... ويُقهقه، ويُجاريه السامرون ضاحكين.

دمشق الشام: ظهيرة الاثنين ٨-٨-٢٠١٦

ما أبلغ حزنك، أيها السوري! إنه حزن تاريخي...

دمشق الشام: ٨-٨-٢٠١٦

يا دول الغرب!

يا أمم متحدة!

تركتم البوسنة قيد الإبادة أربع سنوات

قبل أن تتحرّكوا لإيقاف النزيف

طيّب

في سورية صار أكثر!

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٩-٨-٢٠١٦

أعرف جيدًا أنّ بعض أصدقاء الفيس

أعرف جيدا أنّ بعض أصدقاء الفيس، المقيمين في الوطن، يتردّدون في وضع لايك. أعذرهم.

\- - - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١٠-٨-٢٠١٦

وتساءل أحمد شوقي

يوم زار أمير الشعراء أحمد شوقي دمشق، في أعقاب الثورة السورية الكبرى، تساءل وهو في رحاب الجامع الأموي:

وقفت في المسجد المحزون أسأله هل في المصلّى أو المحراب "مروان"؟

و"مروان بن الحكم" هو رأس الفرع المرواني في دولة بني أمية فاتحة العالم في زمن الأمّة الذهبي.

ودخل غيره[1] في زمننا سورية، "ليحمي المقامات" التي يصونها الناس برموش العين و"ليقاتل إسرائيل" بعيدًا عن حدود إسرائيل.

دمشق الشام: مساء الأربعاء ١٠-٨-٢٠١٦

التجوّل في شارع إسكندرون، في الأربعينيّات

في الأمسيات العليلة، كانت البنيّات يرحنَ ويجئن في هذا الشارع المأنوس في حيّ "الجميليّة" بحلب

والفتيان والشباب، من أبناء الحيّ ومن القادمين إليه بـ الترامواي، يستمتعنَ بالفرجة على البنات الموسويّات السافرات، وما من أحد يتطاول أو يعتدي

وأذكر، ونحن في سنة "السرتفيكا"، أنّ زميلا لنا في الصفّ يكبرنا سنّا وقامة اسمه "عادل"، كان يسرع، بعد الانصراف من المدرسة، إلى بيته القريب، فيغّير بدلته، وينزل في جولته اليومية!

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١٠-٨-٢٠١٦

سؤال قليل البراءة: لماذا يُسمح للطيران الروسي بقصفنا؟

دمشق الشام: س ٥: ١٠ م الأربعاء ١٠-٨-٢٠١٦

---

(١) يقصد حسن نصر الله زعيم حزب الله اللبناني.

ومن الصبايا اليهوديات

ومن الصبايا اليهوديات، اللواتي استهوَينَ المراهقين من سكان "حيّ الجميلية" بحلب، بنيّةٌ أذكر أنّ اسمها "ليندا ديّان"، وقد أطلق عليها المعجبون تدليعًا "أمّ عبدو"، ونظموا فيها بيتًا من الزجَل هو:

من بين سبعْ تمْنْ عشر بْسيطيرْ[1]، سمعنا رنة بسطارك يا أم عبدو!

وذلك ما نقله فيما بعد ابن الحارة الفنان "عمر حجّو" معدّلًا إلى إحدى مسرحياته مع دريد لحام!

دمشق الشام: ضحى الخميس ١١-٨-٢٠١٦

"جميل".. و"انترانيك"

في أربعينيات القرن الماضي،

كان يُنظر إلى "رغيف الفلافل" على أنه أكلة شعبيّة تختلف عن صندويشة المرتديلا والبسطرمة، ولكنّ رجلا شعبيّا ماهرًا، اسمه "جميل"، افتتح في "الجميليّة" محلا لبيع الفلافل، فكنا ندخل محله في أول شارع إسكندرون من ناحية سكّة الترامواي، ننزل بضع درجات ونخرج وقد بدأنا بالتهام رغيف الفلافل، ونمشي على الرصيف في سويعات العصر الصيفية.

في مطلع الخمسينيات،

افتتح رجل بارع من أرمن حلب، اسمه "انترانيك"، في منتصف شارع إسكندرون، محلا لبيع البوظة، واتّخذ من أرض متاخمة لمحله مقهى أو مطعما، ابتدأنا نرتاده، بوظة وبجوارها

---

(١) أحذية.

الكاتو، شيء لذيذ. ونشط المحل وتزايد روّاده... وإذا بنا نرى "جميل" يدخل شريكا مع انترانيك، تاركا محله لسواه.

في منتصف الستينيات تركت حلب إلى دمشق، وهذا المحل بازدهار، ولا أعرف عنه بعد ذلك اليوم شيئا...

هل مَن يخبرني، من أبناء حارتي الجميليّة، عن انترانيك وشريكه جميل؟ أو يصحّح لي ما قدّمت من معلومات؟

دمشق الشام: ضحى الجمعة ١٢-٨-٢٠١٦

عرفت السيدة ناريمان رفاعي

عرفت السيدة ناريمان رفاعي حين كنت أعمل في الشؤون الاجتماعية بحلب (أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات)، من أنشط السيدات في أعمال البر والإحسان،

وهي والدة صديقي الحميم الجميل نبيل الرفاعي بدمشق اليوم.

رحمها الله.

\- - - - - - - - - - - -

دمشق الشام: مساء الجمعة ١٢-٨-٢٠١٦

حتى إنْ بلغ الجَوْر قتلي وإبادةَ أولادي

قال:

بلادي، وإن جارت عليّ، عزيزةٌ وأهلي، وإن ضنّوا عليّ، كرامُ

فقال له:

حتى إنْ بلغ الجَوْر قتلي وإبادةَ أولادي!

وأنا أقول:

«عندما يُضطَهد المواطن في وطنه الحبيب، يكفّ الوطن عن أن يكون حبيبا، يصبح بلدًا من البلدان ليس إلا!»

دمشق الشام: ليل الأحد ١٤-٨-٢٠١٦

ألا تلاحظون أمرا عجيبا!

منذ ثلاثين سنة

وأمريكا وإسرائيل تهددان إيران وتتوعّدانها

لكنّ الضرب ينزل بالعرب

ولا شيء بإيران!!

دمشق الشام: فجر الإثنين ١٥-٨-٢٠١٦

رُبَّ "وامُعْتَصِماهُ" انطلقت

رُبَّ "وامُعْتَصِماهُ" انطلقت   مِلءَ أفواه الصبايا اليُتَّمِ

لامست أسماعَهم، لكنها   لم تلامس نخوة "المعتصمِ"!

القصيدة، التي حفظناها عن ظهر قلب نحن طلاب التجهيز بحلب، يوم ألقاها الشاعر "عمر أبو ريشة" في نادي الضباط عام ١٩٤٩ غداة نكبة فلسطين.

دمشق الشام: ضحى الاثنين ١٥-٨-٢٠١٦

أليس غريبا جدا "١"

أن تتولى قصفَ شعب

نيابةً عن نظامه

دولةٌ أجنبية؟

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٦-٨-٢٠١٦

أليس غريبًا جدا "٢"

أن يهجر "مجاهدٌ كبير"

حدود بلده المتاخمة للعدوّ

ويأتي بجحافله إلينا، ليقول:

تحرير القدس يمرّ من هنا؟

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٦-٨-٢٠١٦

أليس غريبًا جدا "٣"

أن نصف سكان دولة

تُعدّ من أعرق أمم الأرض

ينزحون من أوطانهم

في مطالع القرن الحادي والعشرين

وعيونُ العالم، المنافق... تشهد؟

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٦-٨-٢٠١٦

أليس غريبًا جدا "٤"

أن تَستقبل النازحين

"الأرصفةُ" العربية

وفي الغرب

لهم البيوتُ المكيّفة والمعاشاتُ المرتّبة؟

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٦-٨-٢٠١٦

أين يجثم العدوّ!

في أربعينيّات القرن الماضي

عندما كنا نحن، طلابَ ثانوية المأمون بحلب، نخرج في المظاهرات التي تندّد، كان مِن هتافاتنا وشدّيّاتنا:

الله الله... يا مفرِّج المصايبْ

اضربْ رصاص في صدر العدو صايبْ

العدو؟

كنا، يومذاك، نعرف تماما ما العدو:

الاستعمار المتحكّم ببلدنا

وبعدئذ الكيان الذي بدؤوا يزرعونه في الجسد العربي

ولكنّ رجلاً في زمننا، ذا لحية مهذّبة، [١] اختلط عليه الأمر: هل "عدوّه" جاثمٌ في جنوب بلده، أم في شرقها الأقرب!

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ١٦-٨-٢٠١٦

فاضل السباعي.. خارج السِّرب!

كان المستعرب السويدي الشاب "فيليب سايار" يبحث عن موضوع يُدير عليه أطروحته الجامعية عن الأدب العربي المعاصر. لمح في مكتب أحد أساتذته في جامعة استوكهولم كتابا عنوانه "آه، يا وطني! "، استعاره، وبعد قراءته عزم على أن يكون عنوان أطروحته "رسالة في فنّ الفانتازيا في قصص فاضل السباعي".

وفيليب سايار محبٌّ لدمشق، التي كان قد قضى فيها أشهرا يُمرّن لسانه على النطق الجميل بالعربية الفصحى. قام بزيارة جديدة للعاصمة السورية في ربيع ٢٠٠٢، والتقى بمؤلف الكتاب - إيّاي أعني - وقرأ سائر أعمالي، وتبادلنا الحديث، مثلما قرأ إجاباتي عمّا وجّه إليّ من أسئلة رأيتها لهيفة، فكانت الأطروحة التي كتبها بالإنكليزية، وقدّمها إلى جامعته مشروعًا لنيل الإجازة في الأدب، ثمّ بعث إليّ بنسخة ورقية منها، فنقلتها إلى العربية أديبة صديقة التمست منّي ألا أذكر اسمها مترجِمة للنصّ حذرا!

أقدّم أدناه الفقرتين الأوليين من مقدمة الأطروحة، مع أسفي الشديد للتأخّر في نشرها بكتاب، ووعدٌ مني بإصدارها عمّا قريب كاملة في كتاب يكتسي حلّة قشيبة تليق بالمضمون،

---

(١) يقصد حسن نصر الله اللبناني

وأعني الدراسةَ المتميّزة، أكثر ممّا أقصد قصصي التي اتّخذت من "الفانتازيا" أسلوبًا يدرأ عن كاتبها المساءلة.

- - - - - - - - - -

إنّ أول ما يمكن قوله عن الكاتب السوري فاضل السباعي أنه لا يتمتّع حتى اليوم بالشهرة التي تتناسب ومنزلته كاتباً معاصراً في العالم العربي. بعض القرّاء العرب يقولون إذا ما سُئلوا عنه إنهم "سمعوا" باسمه, ولكن يبدو أنّ قلّة قرؤوا أعماله الأدبية. غير أنه معروف – وبشكل جيد – في أوساط الجامعيّين والدوائر الأدبية في العالم العربي, ويعرفه كذلك المثقّفون السوريّون, إلّا أنه لم ينل كثيراً من التقدير. وقد يبدو هذا غريباً إذا ما أخذنا في الحسبان أنه واحد من الأعضاء المؤسّسين لاتحاد الكتاب العرب بدمشق في العام ١٩٦٨– ١٩٦٩, وأنّ عدداً من أعماله (روايات وقصصاً قصيرة) قد تُرجمت إلى بعض اللغات الغربية والشرقيّة.

وما أودّ تأكيده أنّ فاضل السباعي كاتب شديد "الالتزام", يجمع بين ولعٍ حقيقيّ بالكتابة وبين لهفة على أن يُضمّن كتاباته نقده الاجتماعيّ وآراءه السياسية الأساسية. غير أنه في سياق ما بدأ يسود المنطقة العربية منذ أواسط القرن العشرين (حين بدأ هو الكتابة), من أنّ كثيراً من المثقفين والكتّاب العرب قد أصبحوا عرضة للاضطهاد والسجن أحياناً من قبل السلطات في بعض البلدان العربيّة, فإنّ السباعي أدرك أنّ عليه أن يتّخذ الحيطة والحذر في تعامله مع هذه السلطات. هذا إلى أنّ كثيراً من أعماله القصصية لم يفتقر إلى الجرأة السياسية, ذلك أنه يملك من المهارة ما يُجنّبه المجازفة بموقفه كمؤلف. وهكذا تفادى العواقب السيّئة, ولم يمكث في الاعتقال إلا قليلاً بسبب حادثة وقعت له في العام ١٩٨٠. وقد تدبّر في الآونة الأخيرة أمر نشر كتبه في سورية (مع الإشارة إلى أنّ عنده مخطوطات تنتظر النشر يوم يصبح المناخ السياسي أفضل, وهي في الوقت ذاته تُنشر في الخارج), كما أنه لم يجد أنّ هناك ما يضطره إلى الهجرة

والعيش خارجاً وراء حدود الوطن.....

استوكهولم: ٢٠٠٣

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأربعاء ١٧-٨-٢٠١٦

يا أستاذ لا تضربنا!

أتذكر وأنا في المعتقل كيف كان عدد من الأطفال يركضون في الممرات ويلحق بهم السجانون

فيصرخ الأطفال مستنجدين: «يا أستاذ لا تضربنا!»

لأنهم لم يستوعبوا بعد أنهم في مكان يدعى سجن

(منقول، من ذكريات معتقل)

صباح الخميس ١٨-٨-٢٠١٦

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: مساء الخميس ١٨-٨-٢٠١٦

في البوسنة

تمهّل العالمُ أربع سنين، وسكاكينُ الموت تفري الرقاب، قبل أن بادر إلى التدخّل...

نحن، هنا... في سنتنا السادسة، يا عالم!

دمشق الشام: فجر الخميس ١٨-٨-٢٠١٦

حَمَل وديع.. آخر!

صديقٌ التقيتُه بعد غياب طويل، فاجأني بأنه قضى في الاعتقال مدة، ومع استغرابي – فأنا أعرف أنه منهم – بيّن لي أنّ السبب كان حرصهم على أن يبوح لهم بأسماء كتمها عنهم.

وانطلق يحدّثني عن أنه رأى "السجّانين" هناك أناسا لطفاء وُدَعاء... واسترسل بأنّ الواحد منهم ينزل إلى العاصمة وهو في كامل البراءة، إلى أن يُفسده "الانتهازيون" هنا: «خد لك هالمبلغ واكتب في حقّ فلان... وأَوْقع بعلاّن!»، فيستطيبون الرشاوى، ويتحوّلون إلى ذئاب!

فقلت له: «والله ما أرى غيرك حملاً وديعًا!».

ولم أسأله ما إذا كان باح هناك بالأسماء المكتومة فتحوّل إلى مشروع ذئب!

دمشق الشام: مساء الأحد ٢١-٨-٢٠١٦

الصمت الذي لا يُقهر

عندما يتلقّى العُزّل القصف من الجو

ويتمادى الضارب في السحق والإبادة

هل تكون هذه شجاعة الحديد والنار؟

أم هو جبروت الصبر والصمت الذي تتملّكه القلوب؟

واستطرادًا:

كتبت عام ١٩٧٢ قصة... يُعذَّب فيها مواطنٌ بريء حتى الموت، وهو معتصم بالصبر والصمت، سمّيتها "الصمت والموت" (مجلة "الآداب" اللبنانية، عدد نيسان الإضافي ١٩٧٣).

لما اختارها مستشرقون سوفيات في "معهد الدراسات الاستشراقية" بموسكو مع بضع

عشرة قصة سورية أخرى، وأصدروها عام ١٩٧٧ بالروسية في كتاب شاؤوا أن يسمّوه باسم قصتي، رأى المستشرق المشرف على العمل "فلاديمير شاغال" أن يُعدّل عنوان قصتي، فأصبح "الصمت الذي لا يُقهر"!

أيها السوريون!

يا سكان مدينتي حلب، وإدلب، وحمص، وكلّ سورية...

لا يُقهر ما تملكون من شجاعة الصبر وجبروت الصمت، وأنتم تتحرّكون في شوارعكم والدروب، ولا تَغمَض أجفانكم وأنتم في بيوت يتهدّدها القصف في كلّ ساعة من نهار وليل!

دمشق الشام: فجر الأحد ٢١-٨-٢٠١٦

أصدقائي الأعزاء

أكتب لكم

ثمّ لا أكاد أستطيع قراءة ما كتبت

لـ كلال البصر

ولِما يترقرق في العينين

دمشق الشام: ليل الإثنين ٢٢-٨-٢٠١٦

الذي فعلوه.. بنا!

عندما أقلعت ألمانيا واليابان عن التفكير بالحروب

أصبحت كلّ منهما في قمة الحضارة العلمية والاقتصادية والإنسانية

ونحن

زرعوا في قلبنا عدوًّا أشغلونا به

وحرمونا من نعمة الحرية وإمكان التقدّم

وشرّعوا فينا القتل

وهدّموا على رؤوسنا البنى الفوقية والتحتية

حتى المدارس والمستشفيات والأسواق الشعبية

وألجؤونا إلى الهجرة والتشرّد

ووووو.....

دمشق الشام: ليل الإثنين ٢٢-٨-٢٠١٦

يبدو أنّ تدمير سورية، وإفراغَها من سكانها

هو بندٌ غير معلَن في اتفاقية "سايكس - بيكو"

يقوم جميع الأطراف بتنفيذه

بعد مضيّ قرن من الزمان

وما نسوه!

- - - - -

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٢٣-٨-٢٠١٦

نعلم أنّ أجهزتهم ترصُد أدقّ الأفكار

نعلم أنّ أجهزتهم ترصُد أدقّ الأفكار التي تَهْجِس بها صدورُ الناس، وهم في أعمالهم، في

بيوتهم، حتى وهم نائمون!

طيب،

ألم يكونوا يعرفون ما تُخفيه صدورُ ذوي اللحى السُّود عندما أطلقوهم في بداية الأحداث!

دمشق الشام: ضحى الثلاثاء ٢٣-٨-٢٠١٦

أيها القاصفون بلادَ الشام

تمزّقون الأطفال والنساء في عتمات الليالي

وفي وَضَح النهار تقتلون في الأسواق الشعبية

الباحثين عن الخبز والجبن والزيتون

أنتم تسجّلون بأيديكم

أسودَ صفحة في تاريخ البشرية

مستغلّين غَمْضَ العالم، المتواطئ، أعينَه عنكم

دمشق الشام: مساء الأربعاء ٢٤-٨-٢٠١٦

قهر وفقر

في مكالمة هاتفيّة مساء أمس، بيني وبين كاتبة في إحدى المحافظات، بدت لي - بعد الحديث في الأدب والنشر - كما لو أنها تُفصح عن "شكوى" من أنّ "معاشات التقاعد" لم تصل إليها، حتى هذا الشهر الثامن من العام الجاري، من اتحاد الكتّاب بدمشق، وبيّنت أنّ هذه المعاشات، مع ضآلة قيمتها التي آلت إليها في هذه الأيام، لا بأس بها و... "حصوة تسند جرّة".

ثمّ تبيّن لي أنها لم يأتها العلم بأنّ الاتحاد في العاصمة قد زاد المعاش الشهري لكلّ كاتب

متقاعد (٢٠٠٠) ألفَيْ ليرة سورية ابتداء من أول هذا العام.

هل أقول إنّ ما بدا منها من فرح بهذه الزيادة، لا يُضاهيه إلا حزني العميق على ما تردّت إليه أحوال الأدباء في هذا الزمن الرديء: قهر وفقر... على حين أنّ "بعض الناس" ملؤوا الجيوب وما فاض أودعوه بنوك الغرب باليورو والدولار!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢٤-٨-٢٠١٦

الرأسمالي لا يشبع

من أصحاب المعامل اليوم... إلى بقّال حارتنا

هم تماما مثل المسؤولين في الأنظمة الشمولية

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٤-٨-٢٠١٦

ولما عدت إلى الوطن... وجدته أكثر تضرّجًا بالدماء!

دمشق الشام: فجر الخميس ٢٥-٨-٢٠١٦

ويتحدثون عن سقوط القذائف وكأنها "أسنان العجوز"[١]!

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الخميس ٢٥-٨-٢٠١٦

---

(١) البرَد

ويختصر الانتفاضة بأنّ «السوريين يتقاتلون على السلطة»!

هكذا قال أحد أصدقائي الافتراضيين في شبكة التواصل أمس: «منذ البداية عمليات قتل السوريين تتم بأيادي السوريين الذين يتقاتلون على السلطة»!

أصحيح قولك هذا، يا "أيمن"؟

يعني... عندما تلقّى شابٌّ، كان يساعد أباه الشيخ في دخوله سيارتهم على رصيف في "ساحة الحريقة" (دمشق شباط/ فبراير ٢٠١١)، الإهانةَ من شرطي متغطرس، فهبّ أهل السوق - الممتلئة صدورُهم بالإهانات المتراكمة - يهتفون بصوت واحد: «الشعب السوري ما بينذلّ»، كانوا "طلاب سلطة" وليس طلاب كرامة مجرّحة حتى الموت!

وليلة سقط مبارك في مصر (في الشهر الذي تلا)، فتهاتفت طبيبة من درعا (عائشة...) مع صديقة لها طبيبة في مصر، وأخطأت السيدة الحورانية بأن قالت مازحة: "عُقبال عنّا!»، فأُخذت من ساعتها إلى المعتقل، وكَتب في اليوم التالي تلاميذ على حيطان مدرستهم أو حارتهم: «الشعب يريد إسقاط النظام» (أو إصلاح النظام، لست أدري)، فاقتيدوا إلى حيث اقتُلعت أظافرهم، أكانوا هم أيضا يخططون للاستيلاء على السلطة، ولم يكن ما صدر عنهم "ردّة فعل" على اعتقال طبيبة البلد التي تعالج أوجاعهم!

وعندما خرجت الجماهير في كل مكان تهتف بالحناجر:

«الشعب يريد إصلاح النظام» (ولم يكن يدور في خاطرهم: إسقاطُه)، و«واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد» (فلم يكونوا يتصورون تهديم البلاد أو تقسيمها)، و«سلميّه، سلميّه» (فلم يكونوا ينوون ذبح الأقليات التي يتعايشون معها منذ قديم الزمان)!

وتتابع، يا أيمن، قولك بأنّ «لكل طرف من المتقاتلين قوى خارجية إقليمية ودولية تدعمه،

وكلّ طرف أصبح غير قادر على إحصاء شهدائه، والحكومة وأمريكا وروسيا تعترف أحيانا بأن الطائرات تضرب المعارضة وهناك احتمال للخطأ...»، "احتمال للخطأ"، وليس تدميرًا للمكان وتهجيرًا للسكان، بأيد غير سورية تأتي من غرب وشرق وشمال!

أنت لست بعد اليوم من أصدقائي، لا لاختلاف في الرأي - كما سوف تدّعي بعد الآن - ولكن لأنك تفتقد الذاكرة الشعبية التي تمدّ بالمعرفة وتُلهم العدل والإنصاف. ولن أحذفك، لكني لن أمكّنك من أن تُدلي عندي بمثل هذه الآراء المتهافتة، يا صاحب الاسم الملتبس.

دمشق الشام: ليل الجمعة ٢٦-٨-٢٠١٦

اعتقال مواطن وابنته طمعًا بالابتزاز

تلقيت، قبل أيام، رسالة على الخاص من صديق، يبدو في كلماته الخوف والإشفاق على صديق له من العاملين الناجحين في مجال البناء والعمران، أنه «اعتقل هو وابنته الجامعية التي هي أم لطفلين، وذهبوا بهما إلى أحد فروع الأمن ثم اقتيدا بسيارة إلى مكان لا يعلم عنه أحد...»، وفي لهفته الصادقة يلتمس مني أن أكتب في ذلك دون ذكر الاسم، وقال إنّ المعتقل من أصدقائي الذين دأبوا على التعليق في صفحتي.

وفي استفساري عن أحوال صديقه أجاب بأنه «لا من أهل اليمين ولا من أهل اليسار، رجل بحاله، ولكن نجاحه مهندسا مدنيا في أعمال البناء جعل العين مفتّحة عليه، والناس تُعتقل من أجل الابتزاز».

أقول: وماذا يمكنني أن أفعل إلا أن أعرض على الأصدقاء فقرات ممّا كان بيني وبين هذا الصديق الصدوق من حديث. وهذا "الاعتقال التعسفي"، وإن كان أمرا لا تكاد تراه العين المجردة في خضمّ ما ينتاب البلاد من القصف الوحشي وقتل الصغار قبل الكبار، إلا أنه جدير

بالتوقف عنده... فهو قهر يعاني منه المواطنون في هذا الزمن الرديء.

وقد عدت أسال عن مصير الرجل وابنته، فعلمت أنه ما زال مغيّبا في المجهول.

دمشق الشام: فجر الجمعة ٢٦-٨-٢٠١٦

"أبو جورج" و"أبو حسين"

كنا نظنّ أن أسوأ رئيس لأمريكا هو "جورج بوش الابن" (أبو جورج)

فقد دخل العراق محتلاً

ولكنّا سرعان ما رأينا الأسوأ:

"باراك أوباما" (أبو حسين)

الذي سكت عن بلاد الشام متواطئًا

دمشق الشام: فجر السبت ٢٧-٨-٢٠١٦

سرق قصة لي، وفاز بها في مسابقة!

كتب لي صديقي:

- - - - - - - - - -

تحيتي مبدعنا الكبير

أريد إخبارك، أنني قرأت اليوم في صحيفة أسبوعية تصدر كل جمعة في مصر اسمها "الزمان"، مقالًا صغيرا للكاتب الكبير يوسف الشاروني، جاء فيه على ذكرك بالخير، وقال وهو يسرد بعض ذكريات المسابقات في "نادي القصة" المصري،

أنّ مشارِكًا في إحدى المسابقات، يحبّ الأدب لكنه لا يقدر على كتابته، استخدم قصة

للكاتب السوري الكبير فاضل السباعي، وشارك بها وهو سارق لها من كتاب مطبوع له، ففازت بالجائزة الأولى، ولكن انتصار هذا الكاتب المزيف كان قصير العمر، لأنّ نسخة من كتابكم وصلت الى نادي القصة وكشفت السرقة والسارق.

ولكم خالص التحية والتقدير.

أحمد الفقيه، طرابلس، ليبيا، س ١١: ٣٠ ليل السبت ٢٧-٨-٢٠١٦

- - - - - - - - -

شكرا لك، يا صديقي الكاتب الروائي الليبي الدكتور أحمد الفقيه على إدلائك بهذه المعلومة الطريفة، والشكر للكاتب المصري يوسف الشاروني، ولكل منكما بصماته في دنيا الأدب العربي في العصر الذي نحيا فيه.

وأحبّ أن أزيد الأمر إيضاحا أنّ عنوان القصة المسروقة كان "المجاري"، وهي منشورة في أحد أعداد مجلة "العربي" الكويتية الشهيرة في ربيع العام ١٩٧٤ إن صدقت الذاكرة، نقلها بخط يده وبعث بها إلى "نادي القصة" بالقاهرة، ففازت بميدالية طه حسين الذهبية وبقدر من الجنيهات، ونشرت في مجلة "الهلال" المصرية (مطلع العام ١٩٧٥) مع التنويه "بالفائز"!

وبقية الحكاية أنّ صديقي المصري الأديب "حلمي محمد القاعود" (فيما بعد الأستاذ بجامعة طنطا)، كتب إلى نادي القصة يعلمه بالواقع، فتأكد النادي من الحقيقة، وكتب رئيس اتحاد الكتاب المصريين الأستاذ "ثروت أباظة" في العدد التالي من مجلة "الهلال" توضيحا، وأذكر مديحا منه مسوّغًا للجان التحكيم في المسابقة لأن القصة لم تَضِع عليهم بين ركام ما قدم للمسابقة.

وما كنت أعرف شيئا عن هذه المسألة لولا أن أعلمني أستاذنا خليل الهنداوي. وقد ظنّ

بعض "المتحذلقين" أني أنا من أقدم على إرسال القصة إلى المسابقة، ثمّ تبيّن أنّ السارق ما هو إلا "طالب" في مدرسة إعدادية بمدينة منبج/ محافظة حلب، قال بعد السؤال إنه ظنها مسابقة لـ"أحسن قصة قرأتها"، فبعث إلى المسابقة بما أعجبه، ولكنه لم يتنازل عن الميدالية الذهبية، التي كان قد أسرع يتصور وهي معلقة على صدره!

نزلت القصة في كتابي "الابتسام في الأيام الصعبة" (تونس ١٩٨٣، دمشق ٢٠٠٢)

وشكرا، مرة أخرى للروائي الليبي الدكتور أحمد الفقيه، الذي تصدر هذه الأيام في أمريكا طبعة جديدة لأعماله المترجمة إلى الإنكليزية.

\- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٨-٨-٢٠١٦

عندما يسود العدل

عندما يسود العدل

ويتمتّع كلٌّ بفرصته

فإنّ الناس يتّجهون تلقائيًّا إلى أن يكونوا طيّبين

دمشق الشام: صباح الاثنين ٢٩-٨-٢٠١٦

عمران.. يتلمّس قاعدة الكرسي

هل لاحظتم الطفل عمران، الذي سُحب من تحت الأنقاض مدمّى وأُجلس على كرسي، كيف أنه مسح عينه اليسرى ونظر إلى كفّه؟

لم يزعجه أن رأى في كفّه دمًا.

لكنه أخذ يتلمّس، بكفّيه الاثنتين، قاعدة الكرسي، فكأنه يقارن بين مَلاستها وبين خشونة الأنقاض التي كان يرزح تحتها قبل قليل!

دمشق الشام: عصر الإثنين ٢٩-٨-٢٠١٦

مأمون الجابري المبدع في حياته وفنّه.. وداعًا

عرفته، في ثلاثينيّات القرن الماضي، في حارتي "وراء الجامع" وفي مدارسها بحلب. ثمّ وجدنا أنفسنا، في الأربعينيّات، في "حيّ الجميليّة" لا يبعد بيته عن بيتنا إلا رميةَ حجر(١). ولكننا التقينا، في شتاء ١٩٥٦-٥٧، لقاء "فنّيًّا" طريفا في بيت فنان الموسيقى والمسرح الرائد "أحمد نهاد الفرا"، في "حيّ الأنصاري" جنوب غربي حلب.

ليسمح لي القراء بأن أسترسل هنا، فأقول: إنّ العدوان الثلاثي على مصر في خريف ١٩٥٦، قد ألهب المشاعر في كلّ مكان في الوطن العربي، وذلك ما حرّضني على أن أضيف إلى موضوعاتي القصصية، الاجتماعية والشعبية، لونا آخر هو القصص الوطني، بدأت ذلك بكتابة قصة عنوانها "رِجْل من خشب" مستوحاة ممّا سمّيناه يومذاك "المقاومة الشعبية"، تلك القصة التي نشرتها لي مجلة "الآداب" اللبنانية، التي خصصت "الملزمة" الأولى من عدد كانون الثاني/ يناير١٩٥٧ لموضوعات وطنية وقومية تجاوبًا مع الحالة التي تمخّض عنها العدوان، وقد أتبعت هذه قصةً أخرى "الشوق واللقاء"، عَنيت شوق الشعب الفلسطيني للقاء الأرض السليبة، هي بالأحرى "حواريّة" من نحو ألف وخمسمئة كلمة، قُدمت آنذاك تمثيلية إذاعية من راديو حلب. ولكن ما أريد التحدّث عنه هو العمل الثالث "التُّرعة الخيّرة"، قصة رمزية من وحي الاعتداء

---

(١) كناية عن قرب المكان

على "القناة"، شاء صديقي الفنان أحمد نهاد الفرا أن يجعل منها نصًّا "مُمَسرحًا" يُخرجه ويبعث به إلى إذاعة "صوت العرب" في العاصمة المصرية!

كنت أعرف أنّ صديقي الفرا قد جعل من إحدى حجرات بيته ما يحاكي "استوديو" للتمثيل والتسجيل. ويوم توجّهت إلى بيته، في شتاء ١٩٥٦-٥٧، رأيت هناك فنانين شبابًا يستعدّون لتمثيل النصّ، واقترح عليّ الفنان الرائد أن أقرأ بصوتي فقرات منه، على حين كان قد درّب الشباب على أداء فقرات أخرى تمثيلاً، وكان بينهم صديق الطفولة "مأمون الجابري"، وأشهد أنّ دوره بينهم كان الأكبر، وقد أداه باقتدار انتزع إعجابي كاتبًا وصديقا. وأعترف بأنه سرّني يومذاك كثيرا أن أرى أصوات الممثلين تعلو وتنخفض عند أدائهم كلماتي! من ذلك اليوم عرفت أنّ صديقي القديم يمتلك موهبة الفنّ التمثيلي.

لا حاجة للقول إني غادرت حلب بعد ذلك إلى العاصمة دمشق، وعرفت أنّ صديقي يعمل موظفا في تفتيش الدولة. ولكني أخذت أقرأ في الإعلام، في التسعينيّات الماضيات، أنّ مأمون الجابري يصدر مجموعة قصصية عنوانها "سحابة صيف"، ورواية سمّاها "القلعة"، وديوانا شعريّا "رحيل القوارب"... وتتابعت أعماله، متأخّرًا في إصدارها، أو هو كتب القصة ونظم الشعر متأخّرا، بعد أن كان كتب المسرحيات، وأخرجها، وشارك في تمثيلها.

لم ينته ما أريد الإفصاح به.

كانت شخصية مأمون الجابري شفّافة مثل روحه، ومثل إبداعه المنساب، وأعتقد أنّ كلّ من يجالسه يشعر بأنه إزاء صديق قديم. هل أقول إنّ ذلك دفعني - وأنا أقيم بدمشق وحيدًا وقد "غَرّب" أفراد أسرتي و"شرّقوا" - لأن أدعو صديق الطفولة مأمون الجابري، لأن يُكرمني بالنزول عندي ضيفًا أو "صاحب بيت" إذا ما جاء دمشق زائرًا؟ وما هو إلا حين حتى أعلمني أنه قادم إليّ وبرفقته قرينته. كان الوقت ربيعا. فكنت، في كلّ صباح، أحضّر فَطوري الخفيف،

كأس حليب مع شيء من كعك، وأخرج إلى حديقة البيت، وأدع الزوجين يُعدّان ما يحلو لهما، فكانا يغيبان عني سويعة، يسكبان، يسخّنان، يَغْليان، يأكلان هنيئا، ويُعيدان ترتيب الأشياء، ثمّ... يخرجان إليّ... نتداول أطرافَ الأحاديث الشائقة، مسترجعين الذكريات، ومنها معاناة الإبداع الجميل، وذلك على إيقاع البِركة يتلقّى سطحُها قطرات الماء من عل.

رحم الله مأمون الجابري، الذي استظلّ سماءنا خمسة وثمانين حولا، لم يملّ، كتابةَ حروف يَقتطفها من دنيا الإبداع، وفنّا يختطف نُجيماته من سماء الإلهام، ما قارب العشرين عددا. قد يكون الإعلام أغمض العين عنه مدة، فهل تتفتّح بعد الرحيل الأعين، فيكون تجميع لأعماله في سِفْر كبير؟

وأخيرا لن أدع القلم دون البوح بأنّ الراحل العزيز أنجب خمس زهرات ناضرات، هنّ "هند" و"صباح" و"مُهْلة" و"هالة" و"نَهْوة"، هؤلاء اللواتي أنجبنَ عشرة من البنين والبنات... فتعانق في مسيرته إبداع الفنّ وإبداع الحياة.

نشر في جريدة "تشرين"، العدد ١٢٧١٩ التاريخ ٢٩-٨-٢٠١٦

\- - - - - - - - - -

دمشق الشام: ظهيرة الاثنين ٢٩-٨-٢٠١٦

إعداد وجبة الطعام

ورأيت

أنّ إعداد وجبة الطعام

في المطبخ

يأخذ وقتًا!

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٣٠-٨-٢٠١٦

أنا خائف.. أم مخيف!

سألته على الهاتف، هو الذي يشغل مكانة في الجريدة اليومية التي يعمل فيها، عن رغبتي في أن أكتب عندهم خواطر ممّا يعنّ لي في زاوية أسبوعية صغيرة، وأن أنشر مقالات أدبية؟ فكان جوابه، هو الصديق القديم الذي ينتمي إليهم ويستمع بأذن صاغية إلينا: إنّ الجريدة ترحّب، تعتزّ... فأنت أنت أنت... واستدرك بأنّ ذلك يقتضي أن يسأل رئيس التحرير.

انتظرت أياما.

فهتفت إليه على جواله، فلم يردّ، لا ولا هتف إليّ.

لم أعجب كثيرا، فكتبت إليه في صفحته عبر الرسائل، ولا ردّ... فأدركت أن رفضًا حاسمًا قوبل به... تودّدي.

وخطر لي أن أبعث إليه بمقالة أدبية كتبتها في يومي، نموذجا لما أنوي التعامل بمثله معهم... ولا ردّ.

فعدت أتأمل نفسي: هل أنا مخيف؟

أعترف لكم بأنه اعترتني هنا عاطفتان متناقضتان: الزَّهْو والخوف!

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٣١-٨-٢٠١٦

بين دمشق والإسكندرون.. نتذكّر الطفولة

قلت، غير مرة، إنّ أبي رحمه الله أنجب تسعة عشر من البنين والبنات. هو رحل، وأبناؤه

والأحفاد تفرقوا اليوم في البلاد.

حوار جرى قبل قليل بيني وبين شقيقتي "ضحوك" (أم وحيد، مدرّسة لغة إنكليزية متقاعدة)، تسكن وشقيقتي الكبرى "سعاد" (أمّ منار٨٨ عامًا أمدّ الله في عمرها) في لواء الإسكندرون.

- - - - - - - - - - -

قالت: أبو فراس، كيف حالك؟ إن شا الله تكون بخير وعافية.. والله اشتقنا لك.

قلت: ماشي الحال، الصحة في تراجع لكن بطيء.

قالت: الحمد لله على كل حال، وأختي "أمّ منار" هون ماشي حالها في هـ الأيام، وما شاء الله على هالذاكرة، بتحكي لنا عن جدي ونانتي[١] قصص ما سمعتن قبل اليوم، تسردن بطريقتها الحلوة... وقالت كمان: انه كانت تشفق عليك وأنت صف أول ابتدائي وتكتب لك وظايفك المدرسية في آخر الليل!

قلت: بلا فضايح!

قالت: معليش خيّو أبو فراس، هادا في عهد الولدنة، بعدين طالعت الفرق قدّها وقدود! وحدثتنا انه كان صوتك حلو تغنيلن "يا ريتني طير لطير حواليك".

قلت: أي هي كويسة. وأعترف لك، يا أختي يا "أمّ وحيد"، اني كنت أغار منها، أكبر مني بسنتين، لطيفة، يدللوها في البيت، وأذكر لما كنا في مدرسة الروضة اختارتها المديرة "فهمية الجراح" هي وبعض البنات وعلموهن الرقص، ويوم الحفلة لبّسوهن لبس حلو وعلّقوا على أكتافن أجنحة فراشات، ونحن الصبيان حبسونا في غرفة الصف وقفلوا علينا الباب، صرنا

---

(١) جدتي

نبكي! كتبت هذا في فصل من سيرتي الذاتية في مجلة "المعرفة" (دمشق، أيلول ٢٠٠٥)، وبيّنت أني غرت من أختي كتير، بعد أن قرأت المجلة قالت لي: بقى كنت تغار مني!

قالت: ماشا الله على هـ الذاكرة أنت وأمّ منار، أنا ذاكرتي مو هيك.

قلت: سمعت انك وأمّ منار والأسرة ستتركون إسكندرون إلى "مرسين" عند الشقيقة "أمّ خالد".

قالت: بالعيد راح يجي "الدكتور منار" من الدوحة ويتولى الأمر، والله النقلة مو هيّنة، يا أبو فراس.

وسلامات..........

دمشق الشام: مساء الخميس ١-٩-٢٠١٦

دمشق -«القدس العربي»

دمشق -«القدس العربي»: في جعبة الأديب السوري فاضل السباعي، حكايات لم يروها بعد. الكتابة التي امتهنها في يومياته، تحولت إلى شغف آسر، يخفي وراءه حزنه على سوريا. الوطن الذي رأى فيه انكسار أحلامه. وعلى الرغم من اشتداد الزمن بقي السباعي، يجرب في حقول الكتابة والنشر، متمكناً من صياغة لغة خاصة به، ميزّته عن مجايليه من رواد القصة القصيرة والرواية.

ولد السباعي في حلب، عام ١٩٢٩، واعتقل في الثمانينيات لفترة قصيرة خرج من بعدها أشد إصراراً على النضال بسلاحه الأمضى «الكلمة» التي تخيف المستبدين، فكتب عن الاعتقال والسجن وانتهاك الحريات واللاعدل وأوجاع الإنسان اليومية. أنهى دراسته في ثانوية المأمون، وتخرج في كلية الحقوق جامعة القاهرة. وعمل محامياً ومدرساً في ثانويات حلب، قبل

أن ينتسب عام ١٩٥٧ موظفاً في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل. وبعد انتقاله إلى دمشق عام ١٩٦٦ عمل في المكتب المركزي للإحصاء، ثم مديراً للشؤون الثقافية في جامعة دمشق. وفي عام ١٩٨٢ طلب إحالته إلى التقاعد من آخر وظائفه في الدولة (مدير في وزارة التعليم العالي) ليتفرغ للكتابة. بدأ بنظم الشعر، ثم تحول إلى القصة القصيرة يكتبها وينشرها في المجلات العربية منذ منتصف الخمسينيات. وكتب أيضاً المقالة والنقد. ترجمت بعض قصصه إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانية والروسية ولغات أخرى. وهو عضو مؤسس في اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٦٩، ومقرر جمعية القصة والرواية في الاتحاد، وأسس «دار إشبيليا» للنشر والتوزيع في دمشق ونشر فيها العديد من الكتب.

«القدس العربي» التقت السباعي، وأجرت حواراً خاصاً معه وهنا نصه:

■ منذ أول قصة كتبتَها في الخمسينيات، نلاحظ أن الكتابة عن أوجاع البسطاء ونصرة الإنسان المظلوم هما محور اهتمامك، لماذا هذا الإصرار؟

□ في طفولتي المبكّرة وأنا ابن عشر، في بيتنا في زقاق الزهراوي، رأيت الظلم حين تزوج أبي ثانية على أمي التي كانت قد منحت الأسرة ستة أطفال مثل الأقمار، فبلغ عدد أبناء «أبو السعود السباعي» تسعة عشر من بنين وبنات. وما أظنّ أحدًا يتوقع «عدلًا» أو صفاءَ عيش يُحيّيان على أسرة تديرها «جدّةٌ» يتعيّن على الجميع أن يُطيعوها، مع غياب «الثقافة الأسرية نشأت. وما كان لليلة التي جاء فيها أبي بالخالة أن يغيب من ذاكرتي، فكتبت بعد أربعين سنة من الحادثة، قصتي «صغير على الهمّ» في كتابي «الألم على نار هادئة».

هل كان قد انبثق، في نفس الطفل الذي كنتُه، حنينٌ إلى العدل والنزاهة والانصاف؟ وهل انضاف إلى ذلك دراستي للقانون، التي بيّنتْ لي ما للإنسان من حقوق وما يترتّب عليه من

واجبات؟ ربما.

تجربة الاعتقال

■ اعتقلت في الثمانينات بسبب كتاباتك الأدبية، فكتبت عن ذلك بدقة، ما كان سبب اعتقالك الحقيقي؟ وكيف أثرت هذه التجربة في نتاجك؟

□ اعتقلت لأنني اجتمعت بطلاب كلية الآداب في جامعة حلب، مساء الاثنين الثاني والعشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٨٠، في «لقاء» على أحد مدرّجاتها، أتلقى منهم الأسئلة وأجيب عنها. وفي الختام قرأت عليهم قصة ضئيلة البراءة. اقتادوني يومها إلى زنزانة منفردة في معتقل «باب مصلّى» في دمشق، نمتُ على البلاط ونحن في عزّ الشتاء، بطانيّة تحتي وملتحفًا بأخرى، وكانتا في غاية القذارة، بعد الإفراج عني قلت، في إحدى الإذاعات الناطقة بالعربية: «فكأنهم يريدون لسجين الرأي أن يموت من القهر والبرد والجراثيم!».

وقد خرجت من الاعتقال أحمل في صدري فكرة قصة، كتبتها، وحفظتها في أوراقي، إلى أن آن لي – بعد اثني عشر عاما – أن أنشرها في كتاب عنوانه «بدر الزمان»، ترجم للإسبانية.

■ آمنتَ بالكلمة والإبداع كسلاح، وجاء الربيع العربي واشتعلت الثورات. إلى أي حد ما زالت الكلمة مؤثرة؟

□ عندما تصبح الكلمة خبز الكاتب اليومي، فإنها إذن الوسيلة التي يُعبّر بها عن احترامه للإنسان وتوجّهه نحو الحرية. وأعتقد أني مارست ذلك منذ البداية: احترام الإنسان بالاستجابة لأوجاع المتعَبين تطلُّعًا لحياة أفضل، والدفاعَ عن المضطهدين في كل المعمورة. وما حلّ الربيع في الأوطان العربية إلا لتراكم الظلم والظلام، وقد كان الظّالمون يُحكِمون قبضاتهم على شعوبهم. ومرة أخرى لا علينا إن حققنا اليوم الأحلام أو حصدنا الخيبات. فإنّا نكون بنهوضنا قد أكّدنا أننا أحياء، وأننا في تطلّعنا أحرار، إذا أخفقنا هذه المرة فسوف ننجح في مرة

أخرى. نعم، قد نخسر حياتنا اليوم، ولكننا نكون قد أورثنا الأمل للجيل القادم.

■ كيف تفسّر للجلاد تلك الوحشية التي يمارسها على أبناء وطنه؟

□ ليس من تفسير إلا أنه جاهل وغبيّ إلى حدّ فقدان إنسانيته، ومرتهَنٌ لرؤساء قد أطلقوا يده في تعذيب الناس حتى الموت.

■ في كتاباتك اختلف أسلوبك بين القصّ الواقعي أحيانًا واستخدامك الأسلوب الغرائبي من الاستعانة بالحيوانات لتنطقها، وبالنبات أيضا، وتقوّل بطلَك في القصة ما لا يستطيع الكاتب أن يعبّر عنه على أرض الواقع.. هل هذا «تحايل» يُمليه حرص الكاتب على حماية نفسه؟

□ هذا الأسلوب متّبع في العالم، وأخصّ في تراثنا، ابتداء من «ابن المقفّع» صاحب «كليلة ودمنة» (الذي دَفع في زمن العباسيين حياته ثمنًا لما قال في قصص كتابه فكان أول «شهيد رأي» في الإسلام!)، ولا أقول إنّ آخرهم «فرنسيس المراش[1]» الحلبي صاحب كتاب «غابة الحقّ» (الذي لم يتنبّه العثمانيون إلى ما في هذه القصة من معان انتقادية، فنجا الكاتب وبقي الكتاب). التجأت إلى الخيال المُغْرِب، أحلّق فيه بعيدا، بأسلوب «الفانتازيا». تقرئين، فتظنّين أنّ الكاتب يحلُم، وبعد قليل تقولين: لا إنه يقول الحقيقة الواقعة، ثمّ يحلم، ويقول الحقيقة... إلى أن تنتهي من القراءة، فتقولين: لقد كان الكاتب يحلم، ولكنه قال الحقيقة كلّها! وهو الأسلوب الذي اتخذتُه في مجموعتي «حزن حتى الموت» ثمّ في بعض كتبي التالية. نعم، أنطقت الحيوان، اليمام وجوارحَ الغابة وكواسرها في قصتي المطوّلة «بدر الزمان»، وتحدّثت

---

(١) أحد كتاب وشعراء النهضة العربية البارزين من حلب (ت١٨٧٣م)، كان أديباً وطبيباً، ومعظم أعماله تدور حول العلوم والدين والتاريخ.

بلسان الشحرور «غندور» والقط «عنتر» في قصة «الشحرور القادم من الغابة»... مثلما «شِرخَصَنتُ» النباتَ، من ثمار «الكبّاد» (الأُتْرُج)، إلى شُجيرة «العسليّة» (العَراتليّة) و«زهر الهوا»، وجعلتها تفكر، وتشعر، وتتبادل الأحاديث، وتحزن، وتثور! وآخر ما هنالك قصة سمّيتها «أغنية الياسمين»، ستظهر قريباً في مجلة «العربي الصغير»!

التاريخ الأندلسي

■ كتبت الرواية والقصة القصيرة والمقالة والدراسة الأدبية والتاريخية.. أي نوع من هذه الأنواع الأدبية أقرب إليك؟

□ كلها أبنائي وبناتي، بدأت بالقصة القصيرة وأنا طالب في مرحلة الدراسة الثانوية، وعيناي ترنوان إلى الرواية. وكتبت المقالة أقول فيها شيئا عابرا أو مهمّا! والدراسة الأدبية أعبّر فيها عن آرائي في القيم الأدبية التي تراودني. ومنذ أربعة عقود من الزمن جذبتني الدراسة التاريخية، وكذلك الأبحاث المعمّقة في التراث الطبي العربي التي قدّمتُها في المؤتمرات القُطرية والندوات الدولية.

وكان لمقاربتي التاريخ الأندلسي في نفسي سحرٌ خاص، فالعرب دخلوا شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم) فاتحين، ناشرين حضارة، وليسوا غزاة ناهبين للثروات كحال الاستعمار أمس واليوم.

وللعلم إنّ ما أودّ أن أسمّيه «الأمة الأندلسية» كان قوامها أبناء البلاد الأصليين الذين دخلوا الإسلام واستعربوا، فضلا عن العرب الفاتحين والمغاربة، وهؤلاء جميعا دافعوا عن وطنهم الأندلس، في مواجهة من يسري في عروقهم الدم الإسباني. وممّا عندي في الإعداد اليوم – وأنا في العقد الثامن من العمر – دراسات وبحوث أندلسية أعمل على جمعها في سِفْر قد يأتي في مجلدين، في الأدب وفي التاريخ وتاريخ الطب الأندلسي.

■ كنت تنوي كتابة سيرة حياتك في كتاب مستعيناً بالمذكرات اليومية.. أين أصبح هذا المشروع؟

□ من ناحيتي كنت أحاول كتابة سيرتي وتَصْرِفُني كلما هَمَمْتُ الشواغلُ. إلى أن وجدتني في صيف عام ٢٠٠٥، أتناول القلم وأبدأ. كتبت صفحات، أظنّ أنها مشرقة، عن طفولتي، وما أَحبَّ عهد الطفولة عند الإنسان! سردت الحوادث، من مجيء جدّي «سليم المفتي السباعي» من حمص عام ١٩١٥، إلى حلب أيام «النفير العام» الذي أُعلن في بداية حرب «السفر برلك»، إلى يوم مولدي، والسنوات الخمس الأولى من عمري. سمّيت هذا الفصل – عشقًا مني للمكان – «زقاق الزهراوي». وما زلت عازما على استئناف كتابة سيرتي، وأنا ألامس حيطان التسعين!

وسائل التواصل الاجتماعي

■ وما رأيك في شبكة التواصل الاجتماعي؟

□ أراها قد سهّلت التواصل بين أبناء البشرية في كلّ مكان في العالم، ومن ناحية شغلتني حتى أوشكت أن تصرفني عن مهمّتي الأولى الكتابة والدراسة والبحث، إلا أنها جذبتني لأن أبتدع لونا في الكتابة جديدًا، تغريدات أكتبها، أسميّها «خواطر»، على مدار اليوم.

وأعترف، أيضًا، بأنّ لغتي ازدادت، في ظلّ وسيلة التواصل الجديدة هذه، كثافةً ورهافةً ورونقاً. وهي أعجزت الأنظمة الشمولية عن تحجيم الفكر والرأي والأقوال، فأخذ كثير من المواطنين حريتهم، حتى رؤوس الأنامل.

■ ماذا تقول عن ذكرياتك في حلب مدينتك التي ولدت ونشأت فيها وقد نزفت كثيراً خلال السنوات الأخيرة؟

□ في حلب ولدت من أبي الذي ولد في حمص وجاءها طفلا ابن ثمان، سكن أهلي في حيّ «وَرا الجامع»، في بيت على الطراز العربي في «زقاق الزهراوي»، كان قد سكنه «عامل حلب» (حاكمها، واليها) زمن الأمويين «عمر بن عبد العزيز» قبل أن يصبح خليفة. ولأنك، تحوّمين في سؤالك حول الذكريات، فإنّ ذلك يقتضيني أن أحدثك بأنّ إلى جوار بيتنا يربض «الجامع الأموي الكبير»، الذي كان بناه عامل حلب اللاحق سليمان بن عبد الملك حين كان أخوه الخليفة الوليد يبني الجامع الأموي في دمشق. ويتاخم الجامعَ في حلب «سوق المدينة» الأشهر، المسقوفة أسواقه، يبلغ طولها – متوازية ومتقاطعة – سبعة أكيال(١)، وفيها كان لأبي محله التجاري.

في تلك الأماكن، قضيت طفولتي. وإلى «قلعة حلب» الباذخة، كنت أذهب إليها وأترابي من أبناء الحارة أيام الربيع، نتسلق جسدها ونجلس على العشب الأخضر، نأكل بلذة رغيف «الزيت والزعتر»، وبعد أن سكنت دمشق كنت لا أتأخر عن المشي حول القلعة، قبل أن أدلف إلى سوق المدينة وأبدأ رحلتي: مع ذكريات الطفولة، وأناشيد التاريخ!

نعم، سوق المدينة أُحرق، وأبواب الجامع دُكّت بالمدافع، والمئذنة الباذخة لُغمت وفُجرت... لكنها ستُعمَّر، وتعود أبهى ممّا كانت. تخريبها اليوم يُؤذِن بعمار جديد.

■ هذه الثورات التي تطلب تغيرا سياسيا واجتماعيا وبلا شك سيتبعها تغيير ثقافي، ما هي أهم أسس الثقافة الجديدة المقبلة وملامحها برأيك؟

. أتخيّل شعار العهد الجديد: دع الأزهار تتفتح، ما كانت الصين أعلنته في الستينيات ثمّ انغلقت دونه. حرية ثقافية، حرية اقتصادية، والقانون يحمي الجميع ويراقبهم من العبث والاستغلال. محاسبة عادلة لكلّ من ارتكب ويرتكب الخطأ. لا مكان للتعصّب والتزمّت.

---

(١) كيلومترات.

يتوقف قهر المرأة، وتملأ البسمات وجوه الأطفال. الريف يأخذ حقه من الرعاية. ضمان اجتماعي وصحي للمواطنين.

فاضل السباعي لا يزال يكتب وهو على مشارف التسعين عاماً

وفي جعبته حكايات لم يروها

حاورته: ماري إسكندر عيسى

\- - - - - - - - - - -

شكرا للناشطة الإعلامية والأديبة السورية ماري إسكندر عيسى،

ولجريدة "القدس العربي"

\- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الخميس ١-٩-٢٠١٦

ليس في العالم، اليوم، من هو أسعد قلبا من إسرائيل!

\- - - - - - - - - - -

دمشق الشام:: عصر السبت ٣-٩-٢٠١٦

إلى مثواه الأخير

مبلغ علمِ أهله أنه يُقضّى، في السجن المركزي، محكوميّته في تجارة المخدرات

وإذا هم يقرؤون، في نعوة على جدران الحارة، اسمه مقرونًا بـ"الشهيد البطل"، ويتولّى رسميون لا يعرفونهم الذهابَ به، في جنازة صغيرة لا تنقصها الهيبة، إلى مثواه الأخير!

دمشق الشام: مساء السبت ٣-٩-٢٠١٦

في "قلب العروبة النابض"

دائمًا يخطر على بالي:

كيف يمكن

لبلد يتباهى بأنه "قلب العروبة النابض"

أن تُمزَّق فيه قلوب الأمهات

حزنًا على أكبادهنّ التي لم تعد تمشي على الأرض؟

دمشق الشام: فجر السبت ٣-٩-٢٠١٦

القلب.. والقلم..

كان قلبُه معي، معنا

وكان قلمُه معهم

وكان يَغْبطني على أني أعبّر عما في خاطري

ذات يوم

أفصح لي عن تمنّيه بأن... يُعبّر...

قلت له: لن تستطيع، لأنك تعوّدت، وتعوّدوا!

دمشق الشام: فجر السبت ٣-٩-٢٠١٦

وماذا بعد، أيها النظام؟

أنت تقصف المدن والأرياف، حتى هَجَر نصفُ السوريين أوطانَهم، وتفرّقوا في الأقطار والأمصار القريبة والبعيدة...

طيّب... وماذا بعد إخلاء البلاد من سكانها؟

دمشق الشام: ضحى الأحد ٤-٩-٢٠١٦

آه، يا جولان!

في صيف ١٩٥٩ - وأنا مدير للشؤون الاجتماعية والعمل في درعا (وكانت الجولان جزءا من المحافظة) - زرت "الجبهة" بصفتي عضوا في لجنة تكشف على موضع زراعي لمنحه ترخيصا ما. رأيت، ولا أنسى، المرتفعات هناك جنّة الله في أرضه. وعندما وصلنا إلى الموضع المقصود، وكان في طرف الهضبة مُطلاًّ على ما خسرناه قبل بضعة عشر عامًا، أذكر أنّ الضابط المرافق التمس منّا ألا نُطيل النظر إلى ما تحت فإنّ ثمة مَن يراقبنا بالمناظير.

كنّا يومذاك نحلُم بأن نستردّ ما فقدناه، وما كان ليخطر في بال أحد أننا سوف نفقد، بعد ثماني سنوات، الأرض التي نقف عليها!

وآه، يا جولان! كم فيك من خيرات زراعية وحيوانية، ومناظرَ خلابة، ومن رجال ذوي بأس. هل يغفر لنا التاريخ!

دمشق الشام: فجر الأحد ٤-٩-٢٠١٦

ذات يوم كتبت لي

أمرّ أحيانًا من أمام بيتك، أكون في طريقي إلى الخياط ليوسّع لي ثيابي، وأتردّد في قرع الجرس.

وفي يوم آخر كتبت أنها تمرّ لتضييق الثياب.

وما قرعت جرس بابي.

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الاثنين ٥-٩-٢٠١٦

نحن.. خارج "اللعبة"!

من الأخبار العالمية

لم تتوصل المحادثات الأمريكية الروسية، اليوم (الأحد الماضي)، إلى أي اتفاق على وقف إطلاق النار في سورية، بسبب الخلافات بين الطرفين على من هي الأطراف التي تمثل "المعارضة المعتدلة"، علماً بأن الطرفين متفقان على محاربة داعش.

تشكك الولايات المتحدة على لسان رئيسها بإمكان التوصل إلى اتفاق.

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: الثلاثاء ٦-٩-٢٠١٦-

قبر، في «الدحداح»، مريح!

ذات مرة حدّثني صديق بأنّ صاحبا له، هو «ع. ص»، دعاه لمرافقته في مشوار، ولم يُفصح له إلى أين!

يقول (وقد عرفتُه أنا مشّاءً يهوى المشي على القدمين كلّ يوم):

خرجنا من بيتينا قريباً من «جامع الفردوس»، نمشي الهوينى في «شارع بغداد»، وما شعرت – علم الله – بالتعب، ولا هو شعر، إلى أن وجدنا نَفْسَيْنَا عند باب «مقبرة الدحداح»،

التي يُفضّل كثير من أهالي دمشق أن يستودعوها - لتوسّطها المدينة - أجداثَ آبائهم وأجدادهم، ودخلنا المقبرة من بابها الشمالي.

جعل صديقي يقودني، مجتازاً بي قبوراً غير مستوية، وأنا ألهث، بجواره تارة، ووراءه تارة أخرى. إلى أن توقّف عند قبر فاغرًا فاه، بأن أُزيحت عنه من فوق عارضةٌ حجريّة أو اثنتان، استطاعتا أن تبدّدا شيئاً من عتمة القبر!

وبينما أنا غارق في استغرابي، رأيت صديقي ينضو عنه معطفه الخفيف، وكأنه يتهيّأ لأداء أمر: تقدّم، يدوس بقدميه كومة من تراب، ثمّ ينحدر نحو فوّهة القبر، ويتدلّى فيه، عبر العارضتين المزاحتين، بتُؤدة، مُسقطًا نفسه داخل القبر، الذي بدا لي - مع إمعان النظر - مكسوّاً من جوانبه بحجارة منحوتة بيض... وقبل أن يتراءى لي أن أرفع صوتي مستغيثاً، رأيته يغادر عتمة القبر، ثمّ يستوي أمامي، وهو ينفض عنه ما علق به من تراب وغبار، ويقول لاهثاً: «قبر مريح!». ثم يعلمني أنه اشترى هذا المثوى من «تجّار» القبور بثمن باهظ، ليكون جاهزاً حين يأتي الأجل!.

لمّا أنهى صديقي روايته سألته: «هل وقع هذا لك في أيام الحرب التي تعمّ البلد، أم قبلها؟»،

قال: «أقول لك جرى هذا أمامي قبل يومين!».

فقلت في نفسي: يا الله.. ما فعلت هذه الحرب بنا!.

نشر في جريدة "تشرين" صباح الأحد ٤-٩-٢٠١٦ العدد ١٢٧٢٤

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى الثلاثاء ٦-٩-٢٠١٦

تلقيت الساعة رسالة وردت

تلقيت الساعة رسالة وردت إليّ من شاب قريب أحبّه، تنقل في هجرته من حماه، فدمشق، ثم بيروت، فالقاهرة، فإستنبول، يسألني:

تحياتي الحارة عمي الغالي

بتمنى تكون بخير وصحة وعافية

فأجبته:

والله، يا فراس

أرى أحزاني وأتراحي تتزايد، وفرحي يقلّ

فكتب:

والله كلنا هكذا، يا عمي، نسأل الله الفرج القريب

– – – – – – – – – –

دمشق الشام: س ٩: ٥٠ من ليل الأربعاء ٧–٩–٢٠١٦

«ياسمينة» تُغنّي لأهل الدار

قصة للأطفال

بقلمي

نشرت هذا الشهر سبتمبر/ أيلول ٢٠١٦ في مجلة العربي الصغير.

لا تنصرف، يا صديقي، عن قراءتها، فهي تمتع الكبار أيضًا!

– – – – – – – – – –

يوم جاؤوا بالشتلة المسمّاة "ياسمينة" إلى حديقة دارهم، كانت أشبهَ بطفلةٍ صغيرةٍ تتوسّد أحضان أمّها، التي كانت تسمع منها في أحاديث المساء أنّ أغصان الياسمين تنمو، تزكو، في الهواء الطَّلْق صاعدةً إلى أعلى، وأنّ شجرها يحبّ الشمس والنسيم العليل، فيمنح الكثير الكثير من الأزهار، هذه التي يملأ عبيرُها صدور الناس فيتغنَّون بطيبها ونقائها، وإنها تذكر جيّدًا أنّ أمّها كانت تُغنّي لها، ويرتفع صوتها بالغناء حتى يصل إلى أسماع الأزهار المجاورة فتترنّح طربًا.

وقف ابنهم الصغير في الحديقة يتفرّج على البستاني وهو يزرعها. حَفَر، وطَمَر، وغَمَر التربة بالماء.

ولكن، يا للأسف! إنّ "ياسمينة" الصغيرة ما كادت جذورُها تُمسك بالتراب وتأخذ بالنموّ، حتى عرفت أنّ الأسرة التي أتت بها من المشتل، قد قرّرت الرحيل، وعَهِدوا للبستاني بأن يتولّى السقاية والعناية، وعرفت أنه لن يكون هنا مَن يتمتّع بالنظر إلى أزهارها البيضاء، وأغصانها التي تتمايل مع الهواء، ولا مَن يستنشق عبيرها الفوّاح، وينتظر أن يستمع إلى ما تعلّمته من أمّها: أغنية الياسمين؟

شهرا بعد شهر، سنة بعد سنة، كانت "ياسمينة" الصغيرة تنمو، مغتسلةً بنور الشمس، متنشّفةً بالهواء الطَّلْق، وذهبت أغصانُها إلى أعلى، متباهيةً بزهرها وعطرها ورونقها، حتى لم يعد يُرضيها أن تتسمّى بـ"ياسمينة الصغيرة" بل ياسمينةَ الحارة كلّها!

وفي نموّها، والبستاني الطيّب لا يتوانى عن سقايتها والعناية بها، لامست أغصانُها شرفة الجيران، ثمّ ما لبثت أن صعدت وأطلّت عليهم.

ويا لها من فرحة سَرَت في أغصانها وهي ترى الجيران، صغارًا وكبارا، يُعبّرون عن بهجتهم بقُدومها، وأخذوا يقطفون من أزاهيرها كلما مالت الشمس إلى المغيب، يستنشقون ويقولون:

«الله، ما أطيب رائحة الياسمين!». ولكنها كانت كلما همّت بأن تُغنّي لهم أغنية الياسمين غابت الأغنية من ذاكرتها، فكأنها لا سمعتها ولا تعلّمتها من أمّها!

ذات يوم ترامى إلى سمع "ياسمينة" وقعُ خطوات في الحديقة، لم تكن هذه خطوات البستاني التي اعتادت سماعها. وعرفت أنّ الأسرة عادت من سفرها الطويل. وفي فرحها بعودتهم إلى حديقتهم، إليها، حاولت أن تُغني لهم أغنيتها المحبوبة، ولكن تبيّن لها أنها ما زالت تفتقد القدرة على الغناء!

بعد أيام رأت ابنهم الصغير، الذي كان شهد قبل السفر زَرْعَها في التربة، يأتي إليها وفي يده فأس، ليقول لها في غضب: «أيتها الياسمينة، التي ظننّاك جميلة وكريمة! أنت تُعطين أزهارك للجيران ولا يأتينا منك إلا ما يتساقط منك! سوف أقطعك بهذه الفأس!».

استجمعت ياسمينة قوتها كلّها وصرخت بأعلى صوتها: «لا، لا تفعل، أيها الولد الطائش! ابتعد عني، أنت تجهل أسرار النبات!»، وما كان للولد أن يسمع صوت ياسمينة، فالناس يكتفون باستنشاق عبير الأزهار ولا يأبهون بسماع لغاتها... لولا أن جاءه أبوه مسرعًا، ينهاه، وينصحه، وينزع الفأس من يده.

وإذا كان سرّى عن ياسمينة تدخّل صاحب الدار بمنع ابنه ممّا أوشك أن يُقدم عليه، فإنه كان يحزنها أن ترى ربّة البيت تنحني تحت أغصانها، صباح كلّ يوم، لتجمع المتساقط من أزهارها فوق التراب، تشمّها وتقول: «ما أطيب رائحة الياسمين!».

لم تستسلم "ياسمينة" لأحزانها. لقد استعانت بقوّتها، وذكائها، وما ورثْته من حبّها للحياة وللعطاء، فاهتدت إلى أن تجعل أغصانَها النامية في الأعلى، تتهدّل، منحنيةً إلى أسفل.

وكم أسعدها أنها لم تعد ترى سيدة الدار تنحني لتلتقط الأزهار الذابلة، بل ترفع يدها تقطف ما تتفتّق عنه أغصانُها القريبة، وتنادي زوجها أن يأتي ليشمّ أزهار الياسمين!

وفي فرحها استعادت "ياسمينة"، فجأة، قدرتها على الغناء، فراحت تغنّي:

أنا زهــرْ الـيــاسَمــينْ لــونْ وريحــةْ مـنســجــمـينْ
أصـــولي مــن بــلادْ الشـــامْ هــديّــةْ مــن ربّ الــعــالمــينْ

ذات يوم رأت الفتى الصغير يتوقّف تحت ظلالها وهي تغنّي، وكأنه يُمعِن في الإصغاء... فتساءلت عمّا إذا كان ابن الدار قد بدأ يفهم لغة الأزهار ويطرب لغناء الياسمين!

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٧--٩-٢٠١٦

وبالعدل احكمونا.. إلى الأبد

بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) استطاعت فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وكل الدول التي شاركت أو خضعت لها، المهدمةِ الأساس والأركان، أن تنهض، وخاصة ألمانيا المقهورة والمدمرة تدميرا كاملا، فاستعادت هذه الدول العافية والصحة الاقتصادية خلال عقد من السنين.

نحن، في بلاد الشام، قادرون على النهوض من تحت الأنقاض، نبني ونعمّر، ونزدهر، ونستردّ كرامتنا وكبرياءنا... فقط إذا ما تولت أمورنا حكوماتٌ عادلة، عادلة فقط...

وأعترف بأني كتبت، غير مرة، في صفحتي:

أيها العلويون، إن أردتم أن تحكموا البلد إلى الأبد، فلتكن العدالة في يُمناكم والنزاهة في يُسراكم، واحكمونا إلى الأبد.

دمشق الشام: ضحى الخميس ٨-٩-٢٠١٦

تجديد "الولاية".. الأخير!

... وإنّ رئيس اتحاد الكتّاب في وطني الحبيب، الذي تسنّم الرئاسة ولايةً بعد أخرى، حتى بلغ عمره فيها ثماني وعشرين سنة، وذلك ما لم يقع في أيّ من اتحادات الكتّاب في دول العالم الثالث... كان يرفض أن أكون في أيّ من "الوفود الأدبية" في داخل القطر أو المتوجّهة إلى الخارج، ويوفد من تكون قاماتهم في مثل قامتي، أو أقلّ من ذلك بكثير.

وأشهد أنه ما ترك منصبه، بعد نجاحه المُحْكم الأخير (عام ٢٠٠٥)، إلا بعد أن جاءه عضو مهم من قيادة الحزب، يبلغه بأنه لم يعد يحقّ لمن هم في هذه المناصب أن يشغلوها – حسب آخر التعليمات – إلا ولايتين اثنتين وحسب... احتجّ الرئيس الطموح: ولكني لم أبلّغ هذا القرار! قال: تعتبر كلامي هذا تبليغًا!

فغادر "المنصب" مستاء، وانزوى في بيته عامًا وبعض العام ينتظر "سفارة" أو "وزارة"، فلما لم تكن هذه ولا تلك، ندّد يومًا، في حوار له في جريدة "الوطن"، بالنظام تنديدًا لطيفًا... ثمّ جاءت الأحداث، فما سمعنا له صوتاً، إلى أن علمنا أنه في مدينة النور يقيم سعيدًا.

دمشق الشام: ضحى الخميس ٨-٩-٢٠١٦

لذّة المضغ.. ولذّة التعذيب

جعل يحدّثني، ويُفيض، عن أنّ لذّة الأكل تتجلّى في المضغ، فمضغك الطعام وأنت على المائدة، هو الذي يحقق لك هذه اللذّة المشتهاة... وقال: وإنّ للمضغ فنونًا... وأخذ يُعدّد.

كنت أفكر وهو يتكلم، في لذة أخرى عند بعضهم هي "لذّة التعذيب"، فإنّ الجلاد هنا لا يُبادر إلى قتل ضحيّته بطلقة في الرأس، بل يتفنّن في تعذيبها، مُشفيًا غِلّه ومُرويًا حقده، من هذا الذي ساقته الأقدار لأن يكون فريسة له.

دمشق الشام: ظهيرة السبت ١٠-٩-٢٠١٦

أليس غريبًا

أليس غريبًا

أن يتصرّف هذا الرجل الغريب

اليوم

في حلب وفي كلّ وطني سورية

كما كان تصرّف

في التسعينيّات

في غروزني وبلاد الشيشان؟

دمشق الشام: عصر الأحد ١١-٩-٢٠١٦

ويقصفون القبور.. أيضا!

إنهم ليسوا من بني البشر، يا دكتور منذر عياشي، يا ابن عمتي "محاسن السباعي"...

قبل أيام كتبت عن حبها للطرب، وأنها علمتني وأنا طفل صغير أغنية فريد الأطرش "يا ريتني طير لطير حواليك".

أتساءل: كيف تغفر لنا الأجيال عجزنا وهواننا؟

دمشق الشام: فجر الأحد ١١-٩-٢٠١٦ س ١٢: ٠٥

المحامي "صلاح الدين أبو الخيرات"!

في مطلع الشباب كتبت، وأنا مقيم بحلب، قصة مستوحاة من عملي محاميًا في تلك الآونة، اخترت لبطلها المحامي اسمًا ضخمًا لائقًا "صلاح الدين أبو الشامات"، وسمّيت القصة "الناس"، ونشرتها في مجلة "الأديب" اللبنانية (ديسمبر ١٩٥٦). وكان من إعزاز صاحب المجلة لي، الأستاذ "ألبير أديب"، أنْ نشرها على أنها افتتاحية لذاك العدد، وأذكر أنّ صديقي مدرس العربية في الثانويات الرسمية آنذاك "بكري الشيخ أمين" - وقد تلاقينا في "ساحة المنشية" (انطلاق الباصات) - وبيننا صديق العمر "عبد القدوس أبو صالح"، فأشار بكري إلى أنَّ نَشْرها افتتاحيةً للعدد له معناه. وبالمناسبة حمل هذان الصديقان فيما بعد المؤهّلات العالية وأصبحا من الأساتذة المرموقين في الجامعات العربية.

في زيارة لي إلى دمشق، في بداية العام التالي، وقد نزلت في "فندق الأمويين" (الذي يقع إلى يسارك وأنت تمشي في شارع الترمواي من ساحة المرجة باتجاه القلعة، استرعت انتباهي، وأنا وراء النافذة في غرفتي، لافتة في البناء المقابل تقول "المحامي صلاح الدين أبو الشامات"! فكان أن أسرعت عند عودتي إلى حلب فاستبدلت بالاسم آخر يضاهيه ضخامة وفخامة: "المحامي صلاح الدين أبو الخيرات".

ومردّ هذا التغيير إلى أني كنت صوّرت في القصة شخصية المحامي بصورة المشكوك بأمانته من قبل موكله "الحاج بكري النعسان" هذا الذي تراءى له - كما يقع لبعض الموكلين المُوَسْوسين بعد خسارته الدعوى - أنّ المحامي "متواطئ" مع خصيمته "الست عائشة الماوردي"، وما غيّرت هذين الاسمين... لأنه لم يتفق لي أن قرأتهما في لافتة ما!

هذه القصة "طوّلتها" فيما بعد، ونُشِرت بعنوان "مواطن أمام القضاء" في عدد من سلسلة "اقرأ" (عن دار المعارف بمصر) صيف ١٩٥٩. ولا بأس في الإشارة إلى أنّ الناشط السياسي

الأستاذ فايز إسماعيل – وهو قارئ طُلَعة – كان قد اقتنى نسخة من هذا الكتاب، ثمّ نُمِي إليّ قوله بأنّ السباعي استطاع أن يقتحم قلعة النشر المصرية وهو في مطلع الشباب! شكرًا له على هذا الرأي.

(نشرت المقالة اليوم في جريدة "تشرين"، العدد ١٢٧٣٠ في زاوية "أيام وليال")

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ١١-٩-٢٠١٦

حلب، يا حلب!

جاء يسألني: حلب، باعوها؟

استغربت السؤال، لمعرفتي بأنه منهم، سألته: ومن المشتري؟

أجاب: الروس!

وأطلق ضحكة.

ولم أعرف ما إذا كان عليّ أن أضحك أم أبكي!

دمشق الشام: صباح الإثنين ١٢-٩-٢٠١٦

أكلة «فريكة» في مطعم!

اقرأ، ولن تشعر بملل!

- - - - - - - - - - -

في عام بعيد حصلت لي "نهفة" مع "الأمن"، لن أرويها لكم الآن، ذكروني، بل أحدّثكم عن أني لـمّا رويتها في حينه لأصدقاء في سهرة ضحكوا لها، ولكنّ ضحكنا كان أكثر عندما استدعت

حكايتي نهفة أخرى كانت قد وقعت لأحدنا مع الأمن... أخذ يرويها:

اعتاد هو ونفرٌ من أصدقائه الحميمين، أن يجتمعوا كلّ حين في مطعم، ويتناولوا "أكلةً" ما، استثنائيّة يوصّون عليها، كانت في ذلك اليوم... "الفْريكة".

وللعلم إنّ الفريكة تُعَدّ ابتداءً من حنطة لمّا تنضَج نضجًا كاملاً، تُحصد سنابلها خُضْرًا، وتُعرّض للنار فتلفحها، ثمّ تُفرك لينفصل التِّبْن عنها، وتُجرَش، وتُطبخ طبخ البرغل، وقد توضع في القِدر طبقة من الفريكة فأخرى من الرزّ وهكذا، وفي الصَّحفة تُغشّى باللحم، ضأنًا أو فراريجَ، مرشوشةً بالمكسَّرات من جوز ولوز وفستق حلبي، يُطَيَّب ذلك كلّه بالتوابل والأَفاويه[١]!

قال صديقي: وبينا نحن في المطعم نتهيّأ لاستقبال صَحْفة الفْريكة، لاحظنا أن حولنا حركة غير اعتيادية، رجالا طِوالا عِراضا يحومون حول مائدتنا، إلى أن تقدّم منّا كبيرٌ فيهم يسألنا... فعرفنا أنهم كانوا قد تنصّتوا على هواتف بعضنا، فالتقطوا كلمة "فْريكة"، التي باتت في الزمن الأخير تعني في المصطلح الشعبيّ المستحدَث عند النازحين: الهرب من وَضْع ما أو نحو ذلك! فظنّوا أننا ننوي أن "نفركها" هاربين من البلد إلى جهة ما (لبنان مثلا، الدولة التي كانت موئلا للسوريين عند وقوع الانقلابات!).

قال: وقد دعوناهم إلى مشاركتنا في تناول الفريكة، ولكنّ فرحتهم بأننا أناس طيّبون صرفتهم عنّا، وأكلنا الفريكة ضاحكين.

ويسمّون الفريكة في مصر "الفريك". وقد أكلت الفريك بالقاهرة على مائدة الكاتب الكبير "علي الجندي" (عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة)، في بيته بمصر الجديدة، في يوم من أيام

---

(١) توابل

شهر شباط/ فبراير ١٩٦١، مجلّلا بلحم الحمام.

ويقول العلامة خير الدين الأسدي، في "موسوعة حلب المقارنة"، إنّ اختراع الفريكة يُعزى إلى القائد المصري "إبراهيم باشا" في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، إذ مسّت الحاجة إلى إطعام جنده وموسمُ القمح لمّا يكن قد بلغ نهايته، فأمر بإحراق السنابل وفركها وطبخها.

دمشق الشام: مساء السبت ١٢-٩-٢٠١٥

- - - - - - - - - - -

(معاد) دمشق الشام: فجر الاثنين ١٢-٩-٢٠١٦

تقديم:

روى لي هذه الحكاية صديق في العام ١٩٧١. وأما حكايتي - النهفة الأخرى - (التي سيبدو لكم من التعليقات حرصُ بعض الأصدقاء على سماعها) فلست أذكر ما إذا كنت رويتها لكم.

دعاني الأمن، في ذلك الحين، هاتفيّا إلى حيث عيَّنوا لي المكان، فما ظننت إلا أنّ هذه مكالمة من عابث، فأغلقت. وبإيجاز جاء إليّ، في مكتبي صباح اليوم التالي، وأنا مدير لدائرة حكومية، واحد منهم مؤكدًا حقيقة الدعوة، فذهبت. وكانت المفاجأة أن هذه الجهة الأمنية أوقفت برقيتين لي كنت أرسلتهما قبل يومين إلى جهتين ثقافيتين عربيتين، وردت فيهما ثلاث كلمات "حذار من العدوى" (هي في الواقع عنوان قصة لي كنت أرسلتها للنشر خارج الحدود، قبل أن تنزل في كتابي "رحلة حنان"، عن دار المعارف بمصر ١٩٧٥، ثم دمشق ٢٠٠٢)، فقرؤوا الكلمات: "حذار من العدو"، وظنوا أنهم وقعوا على صيد... وبعد البيان أطلقوا سراحي.

ما لاحظته اليوم، وقد نزلت الخاطرة «أكلة "فريكة" في مطعم!» في "مثل هذا اليوم"، أنّ الأصدقاء استطرفوا حكاية الفريكة، وطالب بعضهم بسماع "النهفة الأخرى"، وقد بدا لي أن

التعليقات لا تقل طرافة عن حكاية الفريكة، فحاولت نشرها أدناه، كاملة ودون حذف أو استبعاد استكمالا للإمتاع، وتمهيدا لما أشتغل عليه من مشروع، هو أن أجمع ما كتبت من خواطر (تغريدات) وأنشرها في كتب، مجلدات، عاما فعاما، فقد وجدت فيها تأريخا لأيام الوطن والمجتمع والأصدقاء والأسرة والذات، يُغنيها أن أضيف إلى بعضها تعليقات من الأصدقاء، مشروع أبحث له عن ناشر وراء الحدود مقتدر.

رسالة من سيدة سورية.. تعاني أوجاع الاغتراب

أستاذي الفاضل، كل عام وأنت بخير.

يسعدني أن أطرق بابك الكريم، ولو بالرسائل وبكل ما يكنّه القلب لك من حب وود واحترام.

فأمثالك من النّدرة في هذه الأيام، بنبل مواقفهم وروعة كتاباتهم وتأثيرها السحري في النفوس والعقول... ناهيك عن محيّاك السمح بقسماته التي تجعل أيّا منا يشعر بأنه قريب منك جدا، أو أنه أحد أفراد عائلتك الرائعة، يعيش معك أدق تفاصيلها لدرجة أخال نفسي أنني - عندما ألقاك - سأسرّ لك بجميع مكنونات صدري، فتُزيح عني بكلمات قليلة كلّ ما أرزح تحته من أوجاع الاغتراب.

أتمنى بالفعل أن يأتي يوم أدق فيه بابك الكريم، وألتقيك في فصل ربيع، وأجلس وإياك تحت شجرة نارنج، في أرض دارك العربية، شجرة فاح عطر زهرها الذي أعشق منذ الصغر وأفضّله على أغلى العطورات الباريسية مهما غلا ثمنها.

وحتى يحين ذلك الوقت، ويأذن الله لي بالعودة الى دمشقنا الغالية، لك مني أصدق الأمنيات وأحر التحيات والدعوات لله عز وجل، بأن يجعل عمرك مديدا، وأن يُمتعك

بالصحة المثلى، وأن تكون أعوامك القادمة كسابقاتها غزيرة الانتاج وافرة الثمار، وأن يحقق جميع أمانيك تجاه عائلتك الصغيرة، وعائلتك الأكبر في وطننا الحبيب بعودة الأمن والسلام والطمأنينة لربوع سوريانا الغالية.

دمت بخير مع فائق الود والاحترام والتقدير

(..... القاهرة): الساعة ٠٨: ٣٢ ص

أول أيام عيد الأضحى المبارك ١٤٣٧

الإثنين ١٢-٩-٢٠١٦

- -

شكرا، سيدتي السورية التي تعاني آلام الاغتراب، لأنك تلطفت فسمحت لي بأن أنشر رسالتك، التي تجاوزت الخاص إلى أن تكون رسالة أدب ووطن، وبأن أغفل ذكر الاسم أيضًا. وشكرًا ثالثًا لما أسبغت عليّ من أوصاف أتمنى أن أكون مستحقا لها.

في أرض فرنسا يسمّون تلطّفًا زوجة الوزير "وزيرة" وأيضا زوجة الطحان "طحّانة"... أقول: سأستعير منهم وأتوسّع، فأسمّيك - وأنت بنت وزير - "وزيرة" وأضيف أديبة ببلاغة العربية تعبّر!

أعان الله السوريين، والسوريات أمهاتٍ وحاضنات وراعيات، ومؤكدًا لك أنّ حديقة النارنج والياسمين، وتغريدات البحرة و"تغاريد" صاحبها الأدبية والثقافية، كلّ ذلك بانتظارك، يا بنت الشام.

دمشق الشام: س ٣: ٠٠ ظهيرة الاثنين ١٢-٩-٢٠١٦

إنّ الإنسان لتتملّكه الدهشة

وهو يرى

استثارةً لأحقاد تاريخية

واستعانةً بكلّ الأسلحة الفتّاكة

لتدمير وطن وتمزيق شعب

وعيونُ العالم تنظر...

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ١٤-٩-٢٠١٦

تأكد لي

أنّ كثيرًا ممّن أعرف أو لا أعرف

يمسحون النوم عن عيونهم

وهم أمام صفحتي

ولكنهم يمنعون النفس عن وضع لايك!!

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ١٤-٩-٢٠١٦

وعد

يوم ماتت أمي

أطلقتُ وعدًا بأني سوف أُخلّدها في أدبي

أنا، اليوم، حزين، يا أمي

لأني لم أستطع أن أُنجز ما وعدت

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ١٤-٩-٢٠١٦

إني أكاد أشفق

على الذين رضعوا حليبَه المطيّب بالعسل

وأكلوا الخبز

وضربوا بالسيف

اليوم ترى أعينُهم

ولكنهم

لا يجرؤون على الكفّ عن التصفيق الذي يُلهب الأيدي

ولا الامتناع عن الهتاف الذي يشقّ الحناجر!

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ١٤-٩-٢٠١٦

ناصر.. والانتصار للشعب السوري

يوم كتب أحدهم (١٩٦٧) في مجلة "الجندي" (جيش الشعب) أنّ الأديان يجب أن توضع على رفوف التاريخ (أو مثل هذا القول)، وقامت دمشق، حي الميدان، الشيخ حبنّكة، وكان عبد الناصر يومئذ في خصام مع البعث... توقّع السوريون أنّ عبد الناصر سوف يناصرهم، وإذا به يصرح - بعد صمت - متهمًا إياهم بـ"الرجعية"!

(تعليق لي قبل دقائق في أحد المواقع)

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: صباح الخميس ١٥-٩-٢٠١٦

يعرف القَدْر.. ويهمل!

سأل الابن المثقف أباه:

ولماذا كنت تهمله، وهو الأديب المثقف، في عام عاصمة حلب الإسلامية؟

أجاب الأب:

إني أعرف منزلته جيدًا، وكنت أدرك أنّ استضافته سوف تجلب لي كثيرًا من المتاعب!

دمشق الشام، ضحى الجمعة ١-١-٢٠١٦

لا مقابر بحلب!

سألت، أنا المقيم بدمشق، أهلي بحلب: «هل ترون أن أُوارى في "الدحداح" بدمشق، أم يُنقل جثماني إلى حلب؟».

فقالوا: «بعيد الشرّ عنك! ابقَ بدمشق، لا مقابر بحلب!».

على هذا المنوال تجري أحاديثنا اليومية.

دمشق الشام: ليل الجمعة ٨-١-٢٠١٦

عندما يعانقني كلّ هذا الحبّ

عندما يعانقني كلّ هذا الحبّ

أرحَل بسلام

دمشق الشام: ضحى السبت ٩-١-٢٠١٦

هل تعرفون الكلمة التي يتصايح بها السوريون فرحًا؟

إنها «اجت الكهربا».

يا لبؤس السوريين!

دمشق الشام: السبت ٩-١-٢٠١٦

الزمن الجميل!

زميلة قديمة اسمها "إزدهار"، تتصل بي ضحى اليوم هاتفيًّا، وتسألني: «هل تتذكّرني؟»، قلت: «من خمسين سنة، في وزارة...»، ونجحتُ في الاختبار!

سألتني عن الصحة، وهي تقرؤني بعينَي زوجها، وقالت إن لها بنتًا طبيبة في إسبانيا، مستشارة يُرجع إليها حتى عن... بُعد، وسألتني أسئلة، ثمّ استأذنت بغياب قصير، لتعود تقول لي إنها سألت ابنتها، ووصفت لي ما تقترح.

سألتها عما عندها من أولاد؟ قالت: «خمس بنات وابن وحيد، وكلهم جامعيون ذوو اختصاصات، متوزّعون في أرجاء الكرة الأرضية؟»، وعندما سألتها عن الأحفاد والأسباط أجابت: «ستة عشر...»، فمنحتني وقتًا للفرح.

إنه زمن الحرب...

إنه زمن الحبّ...

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ١٠-١-٢٠١٦

قلوبنا في الخمسينيات.. وقلوب الجزائريين اليوم

بمقدار ما كانت قلوبنا، نحن معاشرَ السوريين في خمسينيّات القرن الماضي، تخفق حبًّا ببلد المليون شهيد، داعين لهم بالنصر المبين.

فإنّ غيرَ قليل من أبنائهم اليوم، يتّهمون شعبنا، المهجّرةَ ملايينُه، بأنهم متآمرون على الوطن!

دمشق الشام: فجر الخميس ١٥-٩-٢٠١٦

عندما كان بعض البعثيين يستيقظون

عندما كان بعض البعثيين يستيقظون من سُباتهم، ويطرحون في الاجتماعات الحزبية الأسئلة الصعبة، كانت الإجابة المعتادة: «من هذه الناحية اطمئنّوا، القضية في أيد أمينة».

فهل خرجت القضية من هذه الأيدي؟

دمشق الشام: مساء الجمعة ١٦-٩-٢٠١٦

الضفّة.. راحت!

ذات عام

أخذ صديقي، رئيس إحدى المؤسسات الفلسطينية في بلدي، يحدّثني عن أنّ "الضفّة راحت! ".

سألته: ماذا تقول! كيف؟

قال: المستوطنات وتحتها الطرق الالتفافية، أكلت ٧٠٪ من أراضي الضفة!

صرختُ به: أنت فلسطيني، وتَرْأس، وذو معرفة، تقول هذا؟ كلامُك يُبكيني!

هل يقتصر انكسار السوريين اليوم على البكاء؟

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ١٦-٩-٢٠١٦

سورية الغد

يا سيدي النظام!

هل صحيح ما يشاع، في كواليس الغرب المتآمر، من:

• أنّ سورية الدولة سوف تتقلص إلى دمشق وحمص وجزء من محافظة حماة وكلّ الساحل؟

• وأنّ العاصمة دمشق ستكون تحت الوصاية الإيرانية، بغية تأمين اتصال طهران ببيروت عبر بغداد ودمشق، حتى يتمكن الفرس من الاستحمام في مياه الأبيض المتوسط تمهيدًا لقيام دولة فاطمية جديدة في المستقبل المنظور أو غير المنظور؟

• ويكون الساحل تحت وصاية الروس تأمينًا لقواعدهم الجوية والبحرية؟

• وأنّ عفرين وعين العرب للأكراد سوف تكونان، فهذا ما تريده أمريكا؟

• وتتقوقع بقية أنحاء سورية تحت حكم ذاتي بإشراف دمشق؟

إن كنت سمعت بهذه الشائعات فكذّبها، وأنت حامي الحدود والوطن، والشعب كله وراءك.

دمشق الشام: ضحى الجمعة ١٦-٩-٢٠١٦

ويأتي الإعجاب.. من بعيد

اسمحوا لي، أيها الأصدقاء، أن أقول لكم إني تخرّجت في جامعة القاهرة صيف ١٩٥٤، وكان صديقي (...) قد تخرّج فيها قبلي بسنتين، فهو "متقدِّمي" بالمصطلح العسكري!

لم يكن (ع. هـ) يتعاطى الأدب، وكان يعرف أني أقضي الليالي في الكتابة، ويعلم أني أذهب

إلى البريد أودع الرسائل، وأترّقب وصول المجلات إلى مدينتنا حلب، أسعدُ بالنشر أو ينتابني الإحباط... فيُشفق عليّ ويرأف بحالي.

يومًا سافر خارج البلاد. واتفق أن كانت جلسته في الطائرة بجوار شاب جزائري (ذلك يعود إلى العام ١٩٥٧). أخذا يتجاذبان أطراف الحديث، سوري وجزائري في أيام اندلاع الثورة الجزائرية المجيدة. عرف الشاب أنّ جليسه من حلب، وبدا أنه من مثقفي بلده، فسأله أنّ في حلب كاتبًا ينشر في المجلات العربية قصصا معبّرة، وذكر اسمي: «هل تعرفه؟».

هنا – يحدثني صديقي "عصمت" – أنه كانت منه استدارةٌ نحو جليسه "المثقف"، ليقول له مبتهجًا: «إنه صديقي!»... ثمّ أخذ يُصغي إليه وهو يُشيد بما رأى في قصصي من واقعية ونزعة شعبية.

من يومئذ تحوّل عند صديقي إشفاقُه عليّ من معاناة الكتابة... إلى إعجاب بعناية القراء بالتحدث عنها في أثناء رحلة سفر... ثمّ كان أن قدّمت إليه أول أعمالي "الشوق واللقاء" الصادر بحلب في ١٩٥٨. يرحمه الله.

دمشق الشام: فجر الجمعة ١٦-٩-٢٠١٦

أصبح قول أحدهم لك "كل عام وأنت بخير" لا معنى له!

دمشق الشام: ضحى السبت ١٧-٩-٢٠١٦

علّمتنا الانقلاباتُ العسكرية

علّمتنا الانقلاباتُ العسكرية كراهيةَ الخاكي والبسطار...

ويعلّمنا اليوم قطعُ الأيدي والأعناق كراهيةَ اللحى المتغوّلة!

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل السبت ١٧-٩-٢٠١٦

«المحكَّمون.. منكم وإليكم!»

... وكان رئيس اتحادنا حريصا على أن يحتكر لنفسه "إحالة" المخطوطات الواردة أملا في النشر، لمحكّمين يعرف جيدا عواطفهم حبًّا لصاحب المخطوطة أو كرها، ثمّ نراه في المؤتمرات السنوية للاتحاد يذرف دموع النزاهة، يردّ على من تكلّلت مخطوطاتهم بالرفض: «المحكّمون، منكم وإليكم!»، ظانّا أننا نجهل "لعبته".

بالنسبة إليّ لم يتفق يوما أن وافق الاتحاد على نشر كتاب لي. آخر ما كان يوم أعلن محكّم (١٩٨٠ أو حول ذلك) وهو يعيد مخطوطة لي إليهم بعد قراءتها: «السباعي بدّو يحبسني!»، ذلك أنه خشي إن هو وافق تسرُّعًا أن يصدر الكتاب فيسوقوه معي إلى هناك!

في ذلك اليوم قلت لرئيسنا (ع. ع. ع): «أنا أرضى بحكمك الشخصي على هذه المخطوطة». واليوم أشهد أنها ظلت في حوزته عامًا كاملاً دون أن يقرأها. إلى أن أتاني موظف معتبر في وزارة الثقافة يتساءل كيف أنّ ما تصدره وزارته من كتب ليس بينها كتاب واحد للسباعي! قلت في نفسي: والله سوف أجرّبه في هذه المخطوطة "الخطيرة" المرفوضة، فحازت الرضا ونشرتها الوزارة بكتاب (١٩٨٥).

لمّا وقفت في أحد المؤتمرات أبيّن هذا، تصاعدت التساؤلات من حولي: ما اسم الكتاب؟ قلت "الألم على نار هادئة" (أولى قصصه "صغير على الهمّ" تُرجمت إلى اللغة الأرمنية، وآخرها "الصمت والموت" إلى الروسية صدرت في موسكو عام ١٩٧٧ ضمن مختارات من القصص السوري، وقد جعلوها القصة الرئيسية في الكتاب وسمّوا المجموعة باسمها محرّفا "الصمت

الذي لا يقهر"!). قلت بملء صوتي في المؤتمر: «تصوروا! المنظمة الشعبية للكتّاب – وأنا عضو مؤسس فيها في ١٩٦٩– ترفض والوزارة "الحكومية" توافق!». فيما بعد أعلمني مدير المطبوعات في الوزارة (سميح عيسى) أنّ هذا الكتاب نفد في مدة قياسية، ستة أشهر. وقد أَعدت نشره في الدار التي أسّستها بدمشق لنشر كتبي، مرتين: في ١٩٩٠، وفي ٢٠٠٢.

قضى هذا الرجل في رئاسة الاتحاد (٢٨) ثماني وعشرين سنة متواصلة، إلى أن صدر توجيه بأن لا تطول ولاية المسؤول أكثر من دورتين. فانسحب حزينا، وظلّ معتكفا ينتظر أن يُدعى لمنصب سفير، أو وزير، أو أمير... فلما انقضت مدة ولا دعوة، خرج بحوار ساخن في جريدة "الوطن" اللاحكومية ينتقد ويعتب. ولما تفاقمت الأمور توجه إلى باريس، فهو وبعض أفراد أسرته يعيشون هناك سعداء في مدينة النور، ونحن تحت القصف نعيش.

ومع كل هذا يقول لي بعض أصدقائي من مثقفي الجزائر، غير المحنّكين: أنتم تتآمرون على النظام!

دمشق الشام: عصر الأحد ١٨-٩-٢٠١٦

لا يفرّقون بين النظام الذي يحكم وبين الشعب المحكوم

بعض العرب، الذين يحبّون الشام حبًّا جمًّا، لا يفرّقون بين النظام الذي يحكم وبين الشعب المحكوم... فينحازون إلى الصوت الأعلى.

\- - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٢٠-٩-٢٠١٦

يوم قام بتقليم الأشجار الكثيفة

يوم قام بتقليم الأشجار الكثيفة في حديقة بيته كي تنعم الأزهار بدفء الشمس وترى وجه

السماء، بعث إليه جاره، ساكنُ الطابق العلوي، مَنْ كَتَبَهُ "مُخَالَفَةً" بحجّة أنه في تقليمه جار على النبات...

ويوم قطع هذا الجار "الكابل" النازل من السطح إلى بيته، فامتنع عليه أن يشاهد في تلفازه أحداث الوطن، ذهب يشكو، فما جاء معه أحد!

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٢٠-٩-٢٠١٦

قصف قافلة المساعدات

بعد قصف قافلة المساعدات بالقرب من حلب...

هل بقي طرف... لم يقصف حلب؟

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢١-٩-٢٠١٦

في باريس

بين العامين ١٩٧٧ و٧٨

كنا، ونحن في "الرحلات الداخلية"

نسترسل في الحديث عن الحريات المفتقدة

فيأخذ علينا المستظلّون أفياءَها في أوطانهم

أننا "متقاعسون" وأننا...

وهم غافلون عن أنّ مَن يتحرّك

يُضرَّس بأنيابٍ ويوطَأ بمَنْسِم

فعولنْ مفاعيلنْ فعولنْ مفاعلُ

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢١-٩-٢٠١٦

لماذا يريد العالم

لأطفال سورية اليوم

ألا يعيشوا حتى في المستوى الأدنى ممّا يعيشه أطفال العالم الثالث؟

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: صباح الخميس ٢٢-٩-٢٠١٦

زهرة نرجس تُزيّن صفحتي

تحياتي

من أوائل الروايات التي قرأتها في حياتي كانت رواية "ثم أزهر الحزن"، وعلق اسمك في ذاكرتي.

واليوم مرّ اسمك في إحدى المجموعات.

أحببت أن أحيّيك.

وكلّ عام وأنت بخير.

آمنة سلمان (النرجس)

اللاذقية، ليل الجمعة ٢٣-٩-٢٠١٦ الساعة ١١: ٢١ مساءً

- - - - - - - - - - -

زهرة نرجس تزيّن صفحتي. أهلا بك آمنة. أحيّي الذاكرة والتذكّر.

دمشق الشام: ليل الجمعة ٢٣-٩-٢٠١٦ س ١١: ٣٠ م

كتب له:

أتعرف أني، كلما أنعمت النظر في "البروفايل" بصفحتك، أشعر بالابتهاج، فكلّ الوجوه فيها تطفح بالسعادة، حتى الطفل بسمتُه تنطق بها، ومعانقتك بذراعيك للأمّ وللزوجة معا؟

أنا...

لا أمّ لي،

ولا زوجة،

والبنون والبنات متوزّعون في أنحاء العالم.

دمشق الشام: عصر السبت ٢٤-٩-٢٠١٦

وكنّا من.. "جيل الخمسينيّات"!

حين كنت مقيمًا في مدينتي حلب، في خمسينيّات القرن الماضي، لاحظت أنّ أصدقائي يعانون قليلاً من حفظ رقم هاتفي الملتبس...

فعزمت، يوم جئت أسكن دمشق في صيف ١٩٦٦، على أن "أتوسط" عند مسؤول الهاتف أملاً في أن يخصّني برقم "يُريح" أصدقائي... الأدباء... الذين يتصلون بي...

أصغى الرجل إليّ مليًّا (وكان كما أذكر من أسرة "المحايري")... وما أسرع ما طلب لي رقما

من نحو ما تمنّيت... فشكرت، وتقبّل شكري بمودة صافية... وما خطر لي، وما كان ليخطر له، أن أنفحه "إكراميّة" على صنيعه الجميل.

لقد كان، وكنت، من جيل الخمسينيّات.

دمشق الشام: صباح الأحد ٢٥-٩-٢٠١٦

من يستطيع أن يقول!

كنت أعرف أنه إلى الحزب الحاكم ينتمي، وفي إعلام الدولة يعمل...

ولكن اتفق لي - بعد أن ألقيت كلمة "ناقدة" في المؤتمر الذي يقيمه اتحادنا مطلع كلّ عام - أن التقيته في "شارع النصر"، فاستوقفني، يُحيّيني بحرارة زائدة، ويُثني ويُطري...

ولـمّا قرأ الدهشة في عينيّ (أَحِزبيّ يُهنّئ على نقد للنظام في مكان عام!)، قال يحاول التفسير:

«يا سيدي!

أنت تستطيع القول،

ونحن لا نستطيع أن نقول!»

دمشق الشام: ضحى الأحد ٢٥-٩-٢٠١٦

صديقي يعيش وحيدًا

صديقي، الذي يناهزني سنّا و"صحة"، والصداقة معقودة بيننا منذ أيام الدراسة في "ثانوية المأمون" بحلب، بات في آخر العمر يعيش في بيته وحيدًا.

كان من سوء حظّه أن توفيت زوجته مبكرًا، ومن حُسنه أن أنجب ثلاثة بنين، درسوا وتخصّصوا، ومن أجلهم باع البيت، الواسع، الذي جَهِد في دفع أقساطه، الواقعَ غربيّ المدينة،

مستبدلًا به ثلاثة بيوت في الأحياء المتطرفة، أهدى كلّ بيت إلى واحد من بنيه الثلاثة الطيّبين.

تزوج أبناؤه واحدًا بعد آخر وأنجبوا. توجّه الأكبر - هكذا نحن في بلاد الشام - إلى الجنوب، والثاني غرّب قبل هذه "التغريبة" الكبرى، وبقي الثالث جنبه بدمشق، في البيت المهدى إليه، موظفًا في الدولة، وزوجته في إحدى الوزارات تعمل. والبيتان الباقيان، سكن هو أحدهما، يستجدي الهدوء والهناء، وأَجّروا البيت الأخير. ولقصور معاش التقاعد فإنّ ولديه، هناك وهنالك، يقومان بالواجب. وهو يقوم بتدبير البيت، مع قليل معرفة بفنّ الطبخ، مثلي تمامًا!

حدّثني، قبل أيام، أنه أحسّ في جسمه - وهو في البيت لا يكاد يغادره - ما جعله يستلقي على السرير من ضعف ووهن. ثمّ قام يهتف إلى ابنه في عمله، فتبيّن له انشغاله، فتركه إلى الكنّة في وزارتها. بعد ساعة أو بعضها، كانت كنّته تفتح الباب عليه بالمفتاح الاحتياطي معها، تدخل، وفي رفقتها الطبيب المتخصّص الذي اعتاد أن يتلقّى منه المعالجة!

يقول: أنا لم أرزق ببنات، عوّضني الله عنهنّ بكنائن لم تُرضعْهنّ زوجتي. تحمل كثيرا من العبء كنّتي التي هنا، وأما الأخريان فما تزالان تهتفان إليّ من بعيد، مثل البنات العطوفات، وأَحَنَّ.

جريدة "تشرين"، عدد اليوم ١٢٧٣٨، زاويتي "أيام وليال"

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٢٥-٩-٢٠١٦

بارود.. اهربوا!

كانت روايتي "ثمّ أزهر الحزن" (بيروت ١٩٦٣، دمشق ١٩٩٠...) من أوائل الروايات

التي قرأتها في حياتها. مرّ اسمي، في ذلك اليوم القريب، أمام ناظريها في إحدى "المجموعات"، فخطر لها أن تكتب لي على الخاص كلمة رقيقة، تُحيّي، وتتمنّى الخير، وتطلب الصداقة.

فبادرت أصنع ودًّا، وحيّيت ما تملك - هذه الصديقة الجديدة - من قوة ذاكرة واستجابة للتذكّر الوفيّ، ونشرت ذلك كلّه على جداري، مستفيدًا من كلمة "نرجس" في اسمها.

بعدئذ... دخلتُ صفحتها... فرأيت الودّ قد انقطع!

وتفسير ذلك عندي أنها لما دخلت صفحتي، وقرأت ما عندي من رأي، صرخ الخوف في صدرها: «بارود اهربي!».

لا ألوم ولا أعتب، فهي ابنة بيئتها السورية. إلا أنّ العنوان، الذي كنت وضعته لذلك المنشور، "زهرة نرجس تُزيّن صفحتي"، لم يعد مناسبًا.

أحيّيها مجدّدًا، مشفقًا عليها، وعلى نفسي، وعلى الوطن... مستعدًّا للاعتذار إن كان تفسيري خاطئًا.

دمشق الشام: عصر الأحد ٢٥-٩-٢٠١٦

في حمّام مسؤول كبير

يوم جاء "عامل الصحيّة" ليركّب "الموتور الصغير" في قلب البِركة في حديقة بيتي، من أجل أن يضخّ الماء معدًا إلى النافورة... أنشأ يحدثني، وهو يُمدّد الأشرطة، عن أنّ ضابطًا رفيع الرتبة استدعاه مرة إلى بيته ليركّب له ذلك "الخلاط" - الذي جاء به في يومه من بيروت - في حمّام بيته، وهو الذي جرى على أن يقوم بإصلاح كلّ ما يقع في بيته من أعطال صحيّة... وقد بيّن له، على الهاتف، أنّ الخلاط من ذهب!

فتوجّه في ساعة ضحى إلى بيت هذا الرجل، الذي هو "فيلا" في غاية الأناقة والفخامة،

متسلحًا بكلّ ما يُعينه على أداء هذه المهمّة الصعبة.

وقد رآه يقول له، وهو يُلوّح بـ"أمّ المئة" من ذلك "الأخضر" السائد في أنحاء العالم، بأنّ هذه القطعة النقدية ستكون له إن هو أحسن العمل ولم يتسبّب في أذى الخلاط!

قال عامل الصحيّة، وقد توقّف عن العمل لحظة متابعًا حكايته مبهور الأنفاس:

ـ ما كنت أستطيع، ولا أريد، أن أمتنع... ولكنّ الخوفَ من أن ينجرح هذا الخلاط الذهبي، مع ما كسوتُه من مَطّاط يَقيه"، جعل العرق يتصبّب من جبيني ويزخّ من إبطي ومن بين فخذي، والرجل فوق رأسي ممسكًا بأمّ المئة دولار! والحمد لله جاءت النتيجة على خير.

وأعترف بأنّ تجاوبي مع صديقي عامل الصحيّة، فيما اعتراه من خوف مُسوّغ عند تركيب ذلك الخلاط الذهبي، لم يمنعني من أن أسأله:

ـ هل كان ذلك الضابط، صاحب الفيلا الفخمة، من العاملين في قواتنا في لبنان؟

وبدا لي أنه اعتراه خوفٌ من نوع جديد، فقد سكت... كما سكتت في الصباح راوية العرب عن الكلام المباح.

دمشق الشام: ليل الاثنين ٢٦-٩-٢٠١٦

يا أوباما!

لمّا اليهود ضربوا "غزّة" بالأسلحة الفتّاكة، سكتّم لأنّ اليهود أصحابكم

طيب

اليوم بوتن يضرب "حلب" بكلّ أنواع الأسلحة المحرّمة، ونحن نعلم أنه عدوكم

لَكْ ليش ساكت، يا.....!

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ٢٧-٩-٢٠١٦

هل صحيح، يا سيدي النظام

أنّ من اسمه "أكرم الكعبي" زعيم ميليشيا "النجباء" العراقية

قد وصل إلى حلب عبر مطارها الدولي

وأعلن عن مشروع جعل حلب مدينة شيعية؟

هل تكذّب وصول هذا الغريب إلى مدينة الشهباء، يا سيدي النظام؟

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٢٧-٩-٢٠١٦

كاتبٌ أعرفه وتعرفونه

كاتبٌ

أعرفه وتعرفونه

يعاني من كلال البصر

في عينه اليمني "تهتُّكٌ في الشبكيّة"

وفي اليسرى "لطخةٌ سوداء"

ما زال يكتب ويكتب

ويشكو من "أخطاء مطبعيّة" يقع فيها

فاعذروه!

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٢٨-٩-٢٠١٦

رجال الإسعاف والدفاع المدني بحلب

بعد كل مرة تعبر فيها الطائرات السماء

ينطلقون بسياراتهم مسرعين

ليسحبوا الجثث من تحت الأنقاض

ويلملموا الأشلاء

تلك هي مهمتهم اليومية المعتادة

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٨-٩-٢٠١٦

ألا ترون، أيها الأصدقاء

ألا ترون، أيها الأصدقاء،

أننا نقضّي أيامنا ولياليننا

بين ضحك وبكاء!

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٨-٩-٢٠١٦

في حمّام النسوان: "هاي مو فتايل وسخ! "

عودة إلى عذابات الأطفال وهم بين أيدي الأمهات يحمّمنهم في حمام السوق خاصة.

كنت كتبت، وأنا في صدر الشباب (عام ١٩٥٦)، قصة عن الطفل "علي" الذي صحبته أمه إلى الحمام، كآخر مرة لأنه أصبح "كبيراً" يحملق في النسوان:

أدخلَتْه إلى "الجوّاني"، يتعرّق وتكيّسه بكيس التفريك الأسود اللعين، تقول له وهي تنهره:

ـ انظر إلى فتايل الوسخ تنزل من جسدك!

فيجيبها متوجّعا:

ـ يامو، هيّه مو فتايل وسخ، هادا لحمي يامو!

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٨-٩-٢٠١٦

هل نضع جزءا من ثقتنا في هيلاري كلنتون

وكنا وضعنا قدرا كبيرا من الثقة في "المنافق" أوباما...

أم نكفّ عن كلّ ذلك؟

علما بأن أمريكا، التي لم تعد طيبة، هي التي تحكم العالم!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢٨-٩-٢٠١٦

عنفوان الشاعر

لا أحسبني متجرّئًا على الشعر إن سمّيت أعظم شعراء سورية في القرن العشرين، اثنين هما: "بدوي الجبل" و"عمر أبو ريشة"، وفي الخاطر العنفوانُ في الشخصية الذي بدأ به كلّ منهما وظلّ يرتع فيه طول العمر.

وكنت أكاد أجعل ثالثَهما ذلك المجدّدَ في المعاني والموضوعات، لولا أنّ جناحه هاض في أواخر حياته فانكسر فيه عنفوانُ الشاعر، حتى رأيته أشبه بذلك الذي قضى عمره، متكسّبًا بالشعر يمتدح أميرا غازيا لا يعرف معنى للفتح في حلب، ومبتزّا مخيّبَ الرجاء فارّا من بلاد النيل.

دمشق الشام: ضحى الخميس ٢٩-٩-٢٠١٦

ولقد وصل مرضُ الفُصام النفسي

ببعض الناس

إلى أن يصفقوا ابتهاجًا

لسحق النفوس

وتدمير المدن

وطلب المزيد...

دمشق الشام: ليل الجمعة ٣٠-٩-٢٠١٦

ويمكن القول

إنّ العالم كلّه متآمر على سورية

الروس بأسلحتهم الفتاكة والمحرمة دوليّا

والأمريكان بصمتهم المريب

وتدمير حلب، اليوم، شاهد على ذلك

دمشق الشام: ليل الجمعة ٣٠-٩-٢٠١٦

شكله برجوازي

وفي شأن الشانئين الذين دَرَجوا على الإساءة إليّ، لم يدّخروا شيئا إلا قالوه فيّ... من ذلك:

ـ لَكْ شكلُه، حتى شكله برجوازي!

الله لا يعطيهن العافية!

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الجمعة ٣٠-٩-٢٠١٦

قال الحبر الأعظم

قال الحبر الأعظم، قداسة البابا فرانسيس في حديث إلى آلاف تجمعوا في ساحة القديس بطرس في الڤاتيكان:

«إن الله سيعاقب الذين يقصفون حلب، وإن عليهم إيقاف قصف المدنيين المحاصرين في المدينة».

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الجمعة ٣٠-٩-٢٠١٦

يبدو أنّ بوتن.. "تَخَّنها"[١]!

تقول الأخبار العالمية إنّ وزير الخارجية الأمريكية وجّه إنذاراً لروسيا "بقطع كافة العلاقات معها" إذا لم توقف قصف حلب فوراً.

جاء هذا الإنذار بعد ستة أيام من الهجوم المكثف الذي تقوم به القوات الحكومية بدعم جوي روسي يقصف المستشفيات، والمراكز الطبية، ومحطات ضخ المياه، والبنى التحتية المدنية الأخرى، إضافة إلى مقتل أكثر من ٥٠٠ شخص، بحسب ناشطين.

وأقول أنا: ما تأخرت شوي، يا مستر كيري؟

---

(١) زاد عن الحدّ في المسألة.

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الجمعة ٣٠-٩-٢٠١٦

كيري يقول

كيري يقول: شْلوني معك؟

يجيبه لافروف: صُبَّها هون! (١)

هذان الرجلان يقتلان سورية... بفرح!

دمشق الشام: صباح السبت ١-١٠-٢٠١٦

وبدا أنّ أمريكا والغرب

وبدا أنّ أمريكا والغرب قد اتخذوا لمحاربة الإسلام، حتى في صورته المعتدلة، طريقين اثنين معًا:

- إطلاق يد إيران في المنطقة، إلى حدّ تمكينها من إقامة دولة فاطمية تؤذي المسلمين،
- وأن يرعَوا، في السرّ، المنظمات الإرهابية المتغوّلة، ويتهموا الإسلام بأنه دين متوحّش

ثمّ يتظاهرون بشديد الحزن والألم

وهم يُلملمون الهاربين من جحيم الدمار

أياديَ عاملةً

في قارّتهم العجوز

---

(١) تعبر عامّي يعني: اضرب كفّ يدك بكف يدي، كناية عن التوافق في مسألة والإعجاب بها.

وفي القارة الأخرى الناهضة

دمشق الشام: فجر السبت ١-١٠-٢٠١٦

وكان حلمُنا بالحرية متواضعًا

عندما ارتفع صوت التجّار والباعة والأُجَراء في "ساحة الحَرِيْقَة" بدمشق، في يوم من أيام شباط/ فبراير ٢٠١١، وكان منهم هتافٌ موحّد وعال، وكان صادرًا من القلب: «الشعب السوري ما بينذلّ»، لم نكن نتطلّع إلى أن نحظى بديمقراطية على النمط الغربي، فذلك يحتاج إلى فكر وسواعد وأجيال، تبني مِدْمَاكًا[1] فوق مِدْمَاك، وحجرا جنب حجر، ولَحْشَةً من طين بعد أخرى.

إنّ ما كان في الصدور لا يعدو أن يكون أملا، أمنية، حلما، في أن يحكمنا من يكون استئثارُه بالسلطة أقل، واستحواذه على ثروات الشعب أقل، وتقييده للحريات أقل.

فلا يحتاج، مثلا، تعيين "آذن" (فرّاش، بوّاب، حارس) في إحدى دوائر الدولة إلى موافقة أمنية، قبل أن يتسلّم عملا لا يسدّ جَوعة أولاده إلا في الأيام العشرة الأولى من الشهر.

وإذا تقدّم خرِيج جامعة متفوّق ليكون معيدا في كليته، لا يحتاج قبولُه إلى أن يسألوا عنه - حاضرًا وماضيًا ومستقبلاً متوقعًا - ثلاثَ جهات أمنية، إن رفضته إحداها صُرف عنه النظر، فنظر هو إلى الخارج، يتخصّص، ويوظّف علمه وجهد عمره في خدمة كلّ الأماكن إلا البلد الذي استظلّ سماءه، مولدًا ونشوءًا واكتساب مودات.

لم نكن مسرفين في حلمنا، يا سيدي النظام. كان حلما متواضعا رقيق الحواشي، تاركين الأكثر لمستقبل مجهول.

---

(١) المِدْماكُ: الصفُ من البناء.

وعرفنا، من يومئذ، كم أننا ضعفاء أمام المتآمرين علينا كونيّا!

وتبيّنّا أنّ ما قام به السفيران، الإنكليزي مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو، في تبادلهما الرسائل خلال ثلاث سنوات توسّطت العقد الثاني من القرن العشرين، لتقسيم المنطقة بالمسطرة والقلم، لم يكن عملهما مكتملاً، وأنّ الذين جاؤوا بعدهما يعملون، في منتصف العقد الثاني من القرن الحالي، تصحيحًا فيه وتعديلاً لا نعرف لهما حدودًا.

دمشق الشام: ضحى الأحد ٢-١٠-٢٠١٦

ونزلتُ ضيفًا على اتحاد الكتّاب السوفيات

في صيف العام ١٩٨٣ قلت لرئيس اتحاد الكتّاب العرب إني لم أنل من خيرات الاتحاد (الذي شاركت في تأسيسه عام ١٩٦٩)، لا بصدور عمل لي ضمن منشوراته الكثيرة ولا بإيفادٍ إلى أحد المؤتمرات الأدبية في الخارج... ولا بأس، لكنّ عندي رغبة في السفر إلى موسكو!

فسألني بأريحيّة: «ولِمَ لم تقل لي هذا قبل اليوم؟ نحن من يومين أصدرنا قرارًا بتسمية ثلاثة من أعضاء الاتحاد يسافرون إلى موسكو قريبا». قلت: «ما صار شي! أنا أفضّل أن أرى موسكو في الشتاء لا الصيف!».

بعد مُديدة هتف إليّ يُبشّرني بأني سأكون واحدًا بين ثلاثة من أعضاء الاتحاد يسافرون إلى موسكو في شهر كانون الأول/ ديسمبر القادم لقضاء عشرة أيام في شتاء الاتحاد السوفياتي.

وهكذا بَدونا مستعدّين للسفر نحن الثلاثة، مدحة عكاش ونديم مرعشلي وأنا، وسُمّي أولنا رئيسًا لوفدنا الصغير، ولكنّ الهدم - الذي طال مقرّ مجلته الشهرية "الثقافة" في شارع الأرجنتين تمهيدًا لإقامة المؤسسة السياحية الكبرى (التي سُمّيت فيها بعد "فندق الفصول الأربعة Four Seasons") - منعه من السفر، مثلما منحه القوة لأن يرفع صوته قائلا: «لن

أخرج من مكتبي إلا تحت الأنقاض!»، ثمّ إنه أُعطي مقرّا لمجلته أوسع مساحة ويتمتّع بأرض ديار وبركة وشجر، غدت فيما بعد موئلا للأدباء والشعراء فيه يجتمعون. ومع تخلّف الأستاذ مدحة عن السفر وهو رئيس الوفد، سُمّي الصديق نديم رئيسا وظللت مرؤوسًا! وسافرنا نحن الاثنين معًا، يوم السبت الحادي عشر من آخر شهور العام ١٩٨٣، إلى العاصمة موسكو، وأتيح لنا أن نزور مدينة "لينين غراد" (التي عاد إليها بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في ١٩٨٩ اسمها القديم: بطرسبورغ)، كما زرنا "يريفان" عاصمة أرمينيا. وأذكر أننا "تدلّلنا" على الاتحاد في موسكو، بأن طلبنا تمديد الزيارة خمسة أيام إضافية (هي الأيام العشرة التي كان يفترض أن يقضيها بيننا زميلنا المتغيّب، فأتاحوا لنا اقتسامها!).

زرنا معالم مختلفة في هذه المدن الثلاث. وإذا كان صديق الرحلة نديم مرعشلي قد التمس من مُرَافِقَتِنا "أولغا" أن تذهب به إلى مستشفى لتُجرى له فحوصٌ من قمّة الرأس حتى أخمص القدمين، ظانًّا في نفسه أنه قد أصبح شيخًا طاعنًا وهو الذي لم يكن قد تخطّى الستين، وأذكر أنه قال للطبيب الذي طلب منه أن ينضو ملابسه واحدا بعد آخر: «والله أنا متل البصلة، طبقة فوق طبقة!» (وكم أعجبني التشبيه!)... فإني أنا دُعيت للذهاب إلى "معهد الدراسات الاستشراقية" من قبل كبير الأساتذة فيه "فلاديمير شاغال"، الذي كان قد أشرف قبل أعوام، على إصدار كتاب يضمّ منتخبات من القصة السورية مترجمةً إلى الروسية (ومن بينها قصتي "الصمت والموت" المعدَّلُ عنوانُها من قبلهم إلى "الصمت الذي لا يُقهر" والمتّخذ عنوانًا للكتاب بالروسية!)، فكان بيني وبين بعض الأساتذة المستعربين، وفي مقدمهم البروفسور شاغال والبروفسورة "فاليريا كيربيشانكو"، لقاءٌ زيّن لي ما جرى فيه بيننا من حديث أن أكتبه، عند عودتي إلى الوطن، مقالةً لم تُنشر في مجلة لكنها غدت واحدا من الفصول العشرة التي تتألف منها مخطوطة كتابي "قمر لا يغيب، فصول في أدب الرحلات".

ولن يفوتني أن أتذكّر ما بادرتني بقوله الأستاذة "إلميرة علي زادة" (التي ما كان أشدّ شبهها بنساء بلادي) من أن غير قليل من كتبي موجود في مكتبة المعهد، ولا أنسى الأستاذة "ماريا نيكولاييفا" التي تتقن الحديث بالعربية كما لو أنها تعلّمتها في بلادنا – مع أنها لم تزرها – وزميلها "عبد الحيّ عبد الله يوف" الذي لا يجيد مثل هذا الحديث!

وسوف أظلّ أذكر الكلمة الراقية التي كتبها الصديق الدكتور راتب سكر، الأكاديمي اليوم، والذي كان – يومذاك أو بُعيده – طالبًا في ذلك المعهد، كلامًا جميلاً استمع إليه من أستاذته فاليريا كيربيشانكو، ونشره منذ قريب في جريدة "الأسبوع الأدبي"، أحيّيه.

نُشرت اليوم بجريدة "تشرين"، العدد ١٢٧٤٤، زاوية "أيام وليال"

دمشق الشام: الأحد ٢-١٠-٢٠١٦

في انتظار الأنامل الذهبية

أعدّ لها كلّ شيء

سقى الحديقة، أحواضًا وأُصُصًا[١]، بماء الفيجة الغالي، ورشّ الشجر فبدا الماء على ورقه كقطرات ندى

شَطَفَ البلاط

كَنَس الأوراق الذابلة

أَعمل النافورة، فتساقطت من عيونها قطرات الماء كحبّات لؤلؤ

انتظارًا لمجيئها...

(١) مفرده أَصِيص: إناء تُزرع فيه الزهور والرياحين.

كي تُنسّق له صفحات "الدراسة" التي سهر الليل في تنضيدها

وتُخرجها إخراجًا أنيقا بأناملها الذهبية

وتبعث بها، عبر البريد الإلكتروني، إلى المجلة التي تستعجله فيها قبل أن تدفع بالعدد الجديد إلى المطبعة

ولكنها...

ولكنها لم تأت، ولا هتفت له بالاعتذار!

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٤-١٠-٢٠١٦

كناري.. من يد أديب إلى بيت أديبة

زارت أديبة بيت صديق أديب هو أستاذ في الجامعة، ووصفت لنا، في خاطرة لطيفة نشرتها على جدار صفحتها، جلستها في شرفة بيته، حيث الإطلالة، والهواء الطلق، وأصص الزريعة، و... أقفاص العصافير الملونة المغرّدة.

تقول إنه لفت نظرها طيرُ كناري، عبّرت عن إعجابها بلونه الأصفر وغِرَّتِه البرتقالية، فسألها الصديق ما إذا كانت تقبله هدية؟

بعد يومين زارها وزوجته وفي يده قفص يضمّ الكناري، وأخذ يلقّنها أصول العناية به:

في هذا الموضع تضعين غذاءه، وهنا الماء. تنظفين القفص كل ثلاثة أيام. تحملين القفص إلى الشرفة ساعات النهار، ويقضي الليل في البيت وقاية له من البرد. هذه وجبات طعام تكفيه ثلاثة أيام، حبوبًا من الدّخن، يُفصفص الحبّة بأن ينزع عنها قشرتها. وهو يتفكّه بأكل التفاح، ويتخضّر بالخيار، ويتفجّل ببذور الفليفلة... ولكنه لن يغرّد عندك قبل يومين حتى يألف المكان، فلا ينشغل بالك.

تقول: بعد مغادرة الزوجين، أحسست أنّ روحا باتت تشاركني وحدتي. رأيت الكناري يأكل كلما جاع، يحتسي الماء، يغنّي طَرِبًا فأطرب معه. وحين يحلّ الظلام يخبّئ رأسه تحت ريشه وينام... كم أحببته!

فأما السيدة فهي أديبة حلب ضياء قصبجي وأما الأكاديمي فهو الدكتور أحمد زياد محبّك الأديب الناقد.

توادّ بين الأدباء، في هذا الزمن الصعب، مبادرة كريمة من المُهدي، ورهافة شعور عند من استقبلت هذا الكائن الصغير يُضفي على وحدتها ألفة وأنسًا.

هل أقول إني تمنّيت لو أَستهدي الصديقَ زياد طير كناري؟ ولكني أعلم أنّ المسافة بين دمشق وحلب طويلة وباتت محفوفة بالمخاطر!

إلى الأديبين في حلب تحية وأمنًا وسلامًا.

\- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ٤-١٠-٢٠١٦

روسي متطرف يترجّى بوتين مسح سوريا من الخريطة!

في الأخبار العالمية:

غرّمت إحدى محاكم موسكو الناشط "أنطون نوسيك" الذي نشر على موقعه ترحيبه بقصف سورية،

مع رجاء للرئيس ڤلاديمير پوتين «مسح سورية من الخريطة» لأنها «تشكل تهديداً عسكرياً كبيرًا لإسرائيل»، ما اعتبرته المحكمة تشجيعاً للكراهية.

أقول: تطرف في الرأي، و"إنصاف" في الحكم!

هذا ما وصلنا إليه!

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ٤-١٠-٢٠١٦

تساؤل لطيف

علّق قبل قليل تحت خاطرة "الكناري.. " يقول:

- - - - - - - - - - -

تساؤل..!!!

هل يدرك أستاذنا الفاضل حجم الراحة التي تمنحها لنا قصصُه القصيرة وتعليقاتُه، لأرواحنا المتعبة هذه الأيام؟؟؟

بوركت... وبوركت أناملك وقلمك، وأدام الله عليك صحتك، وزادك عطاء وإبداعاً...

نعيم موسى، شيكاغو: س ٦: ٢٠ (بتوقيت دمشق) مساء الثلاثاء ٤-١٠-٢٠١٦

- - - - - - - - - - -

أقول:

أدرك...

وذلك ما يجعلني أزيد في هذا الذي تسمّيه إبداعًا، مستمتعًا فيه، أيها المواطن السوري في أمريكا، الذي لا يفارقه حبّه للوطن ثانية واحدة.

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٤-١٠-٢٠١٦

لافروف.. والأصالة!

ليت لافروف، وزير الخارجية في موسكو

الذي ينتمي إلى الأمّة الأرمنيّة

يعلم أنّ حلب

التي يُثخن فيها اليوم قصفًا وإبادة

كانت قبل مئة عام

قد فتحت صدرها وقلبها

البيوتَ، وأبنية المدارس، والحدائق العامة

لمئات الألوف من أبناء جلدته

الناجين بأنفسهم في تلك النكبة الشهيرة

وليعلم أنّ تعداد سكان حلب

في ظلّ الدولة العثمانية يومذاك

كان مئة ألف نسمة

وأنّ مَن مرّ بها من قوافل الأرمن

بلغت أعدادهم نصف مليون

بقي منهم فيها

ما أعيه في فتوّتي في الأربعينيات

نحو ربع سكانها

عاشوا بيننا مواطنين مكرّمين

دمشق الشام: صباح الخميس ٦-١٠-٢٠١٦

حتى ألعاب الأطفال.. يا بوتين!

استشهدت الطفلة "إيمان محمد"، في الجزء الشرقي من حلب الذي دمّرته الحرب، متأثرةً بجراحها عندما انفجرت بيدها كرة، من بقايا قنبلة عنقودية، التقطتها من الأرض لاعتقادها أنها لعبة!

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٧-١٠-٢٠١٦

٣٠ مليار ثروة بوتن...

كتب 'توماس فريدمان' (الصحفي الأشهر لدى صحيفة "نيويورك تايمز" في عموده اليومي)، أنّ جماعة من الروس تُدعى (جماعة "هاكرز" من أجل روسيا حرة)، نشرت على حسابها على الشبكة العنكبوتية معلومات تبيّن أنّ ثروة الرئيس ڤلاديمير بوتين تقدر بثلاثين مليار دولار أميركي. تشمل الثروةُ عقارات وفنادق ومصانع في روسيا وأوروبا.

كما نشرت الجماعة عدة رسائل متبادلة بين مكتبه في الكريملين وبين أصدقائه الحميمين والبنوك السويسرية، لها علاقة بالموضوع.

ما حدا أحسن من حدا!

دمشق الشام: مساء الجمعة ٧-١٠-٢٠١٦

خفّ من صوف.. لمعتقل في صيدنايا

سافرت الشقيقتان من حمص إلى دمشق في يوم شتاء بارد، لزيارة شقيقهما المعتقل في سجن

"صيدنايا"، فشكا لهما الشقيق من وراء الحاجز الشبكي أنه يعاني من البرد، وتمنّى أن تأتيا له في الزيارة القادمة بخفّ من صوف يُدفّئ به قدميه.

عند مرورهما بدمشق اشترتا صوفًا وصنانير شُغل. وساعة وصولهما إلى حمص كانت كلّ من الشقيقتين قد أتمّت شغل فردة من الخفّ. واتفق أن عرفتا أنّ بعض الصديقات ذاهبات غدا لسجن صيدنايا، فحمّلتاهنّ الخفّ، ثم تلقّتا منهنّ أنّ الشقيق لبسه وهو يدعو للجميع بالخير.

فبكت الشقيقتان من الفرح.

(منقول، بتصرف يسير)

دمشق الشام: فجر الجمعة ٧-١٠-٢٠١٦

إنّ لشيوعيّي العهد السوفياتي فضيلتين

سوف أظلّ أقول إنّ لشيوعيّي العهد السوفياتي فضيلتين اثنتين:

أنهم دافعوا عن بلادهم في وجه الزحف الهتلري دفاعًا مجيدًا،

وأنهم ما عُرف عن زعمائهم أنهم نهبوا أموال الشعب.

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: مساء السبت ٨-١٠-٢٠١٦

كنّا ظننّا أنّ ساكن قلعة الكرملين

كنّا ظننّا أنّ ساكن قلعة الكرملين مبيدٌ للشعوب فقط (الشيشان مثلاً)

إلى أن عرفنا أنه بـ"عرق الجبين" بنى ثروة فاحشة أيضًا!

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: مساء السبت ٨-١٠-٢٠١٦

صرخة زهراء من سيدة سورية

صرخة زهراء من سيدة سورية تعي وقائع الأرض وحقائق التاريخ.

اقرؤوا ما كتبته الآن "ديمة الحرستاني" عن جائزة نوبل للسلام. كلام يخترق القلوب المصفّحة بالصوّان. كلام امرأة سورية. كلامٌ سوري بامتياز.

نحييك ديمة(١).

---

(١) وكانت قد كتبت:

جائزة نوبل للسلام/ خسئت أيها العالم.

حسنا".. سأحاول أن أكوي ياقة قميص كلماتي جيدا" وأحسن اختيار قفلات عرواتي وأقول بعد المباركة للرئيس الكولمبي على جائزة نوبل للسلام: خسئت أيها العالم!

خمسون عاما"؟! خمسون عاما" على حرب؟! ألا تستحون من تسمية هكذا جائزة بجائزة سلام؟! أنا: ديما الحرستاني مواطنة عربية سورية أشهد أنني في خضم أعوامي التي زادت على الأربعين وثقافتي المتوسطة، أشهد بأنني وفي زحمة الحروب التي مرت قريبا" مني واجتازت – حتى الساعة – عائلتي ومنزلي من النكبة إلى النكسة إلى الحرب اللبنانية إلى الحرب العراقية الإيرانية إلى حربي الخليج الأولى والثانية وحرب الإبادة والتطهير العرقي والاجتماعي السورية أقول: اعذرني أيها الشعب الكولمبي إذ لم يخترق صوت حربك جدار حروبنا واصلا" إلي. ولكن؟! خمسون عاما" من الحرب؟ ثم تأتي جائزة لتبرد الجرح؟ خسئت أيها العالم.

خوذاتنا البيضاء كانت مرشحة" لذات الجائزة وقد رشحتها وصوت لها وأقمت الدنيا وأقعدتها مع من حولي لأجلها. لكن لماذا كبيرة وعبثية كانت تحيط بي وتحاوطني بإشارة استفهامها وتكبس على رأسي بنقطة تعجبها!.

لماذا؟! هل ينتظر هؤلاء الأبطال جائزة" كاعتراف بعظمة العمل الذي يقومون به؟ وإن ربحوا الجائزة، هل كانوا سيرقصون دابكين على أنقاض مدينتهم وفوق الجثث المدفونة تحت أطنان ركامها؟

أما كانت ليلة سلام واحدة دون رعب القصف وهول نداءات الاستغاثة وعويل الثكالى لتساوي آلاف الجوائز بالنسبة للخوذات البيض؟

دمشق الشام: فجر السبت ٨-١٠-٢٠١٦

عندما يُغنّي الأطفال في رحلة مدرسيّة

كان صوته "الحزبيّ" بيننا عاليًا على الدوام.

ويوم حرب حزيران/ يونيو، غاب عن أنظارنا، وجاءنا بعد أيام يرتدي ثياب المحارب، يتدلّى من يده "كلاش" (سلاح كلاشنكوف)، وتنتعل قدماه "الكلاش"[١] للتهوية... تظنّ أنه كان يشارك في حرب منتصرة، فلم تكن هزيمتنا في حزيران يومئذ قد بانت.

غاب وغبت. وبعد حوالي عشر سنين، اتفق أني كنت أقف عند بيّاع الجرائد على رصيف مقهى "الهافاناه"، أنقّل نظري بين المجلات المعروضة أبغي أخذ إحداها، وإذا هو إلى جانبي!

سلّم بحميميّة لا أتوقّعها، مقتربًا مني، وبدا كما لو أنه يريد أن يحدّثني في أمر: كان قد قرأ لي في مجلة "الموقف الأدبي" قصة كتبتها وأنا في باريس، عن رحلة داخلية شاركت فيها إلى منطقة "النورماندي" في الشمال، جئت فيها على وصف أطفال فرنسيين، جاؤوا في رحلة مدرسية إلى غابة قريبة من بحر المانش، روضة تأوي إليها أصنافٌ نادرة من الأطيار.

كتبت في القصة أني أخذت أتأمّل هؤلاء الأطفال: صحة وعافية ونظافة. وجوهٌ مشرقة

خسئت أيها العالم!

أن تمنح جائزة لتحصيل سلام بعد " خمسين " سنة حرب. خمسون سنة من الموت والدم والقتل والأجيال التائهة الضائعة لهو قمة العهر.

بني نوبل للسلام: لانريد جوائزكم، قاتلوا إلى جانبنا وأوقفوا هذه الحرب.

الجمعة ٧ تشرين الأول ٢٠١٦

(١) نوع من الأحذية مفتوح عند الأصابع.

بالسعادة. ألبسة أنيقة. يتضاحكون بمرح، ويُغنّون معًا أغاني تُحس أنها، بلحنها السائغ وأدائها العفوي، نابعة من القلب. لا قيود تُلجمهم. متحرّرون من كلّ همّ وغمّ.....

واسترسلت: «في تأمّلي هذا ذَكَرت أطفالًا من أوطان أخرى، وكيف يطفو الشحوب على وجوههم. ألبستهم قديمة غالبا. يضحكون بمقدار ويكتئبون دون حدود، وكأنّ هموم الدنيا قد أدركت هذه الأكباد مذ كانت في المهد. إن ذهبوا في رحلة لم يُنشدوا إلا الأناشيد الحماسيّة، ولم يردّدوا سوى الشعارات الملقّنة...».

أعجبته هذه التلميحات الشفّافة، شدّ على يدي مهنئًا... ومضى.

وكنت علمت منذ قريب أنه أبدى في اجتماعات الفرقة الحزبية آراء لم تعجبهم فأبعدوه. هجر العاصمة عائدا إلى بلدته الصغيرة مدرّسا كما كان. وإذن، فقد كان أصبح في صفّنا! وبعد حين علمت أنه رحل شابا إلى حيث لا عودة.

وكان عنوان القصة "في الليل تحترق الغابة"، كتبتها في صيف ١٩٧٨ وأنا هناك. وفي عودتي إلى الوطن قدّمتها إلى مجلة "الموقف الأدبي"، وكان رئيس تحريرها الأديب الإعلامي المتميّز "جلال فاروق الشريف". سلّمتها باليد إلى أمين التحرير، وفي زيارة تالية لمقر الاتحاد، رأيته يبادر ليُعلمني أنّ رئيس التحرير قرأ القصة في يومه وأحالها إلى المطبعة.

نزلت القصة بعد ذلك في كتابي "الألم على نار هادئة"، الطبعة الأولى ١٩٨٥ عن وزارة الثقافة، والثانية ١٩٩٠ والثالثة ٢٠٠٢ عن دار إشبيلية التي استحدثتُها لنشر أعمالي.

دمشق الشام: عصر السبت ٨-١٠-٢٠١٦

الرجاء التعريف بكيفية طبخ السفرجلية

بإعجاب بالغ قرأت في هذه المجموعة المنسجمة طريقتين لصنع مربى السفرجل، على

شكل هلالات صغيرة ومبشورا، للصديقين "حسين عتر" و"منيرة ناصر آغا".

تلطف الصديقان بالتعريف بصنع المربى... ليت أحدًا يعلمنا، يعلمني، طبخ السفرجلية ولو دون كبة، حتى أطبخها هنا.

وللعلم، يا أهلي بحلب، إنّ أصدقائي الدماشقة لا يتعاطون طبخ السفرجل - في علمي - فهم لا يقبلون إضافة السكر إلى الطبخ، ولا يستسيغون أكلة "اللحمة بالكرز" كرز الوشنة، التي نفتخر بها في حلب.

دمشق الشام: فجر الأحد ٩-١٠-٢٠١٦

فئة من الناس

فئة من الناس تظنّ أن لا أحد يحبّ وطنه... سواهم

وهم يقدّمون، دون أن يدروا، الدليل المعاكس

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ١٠-١٠-٢٠١٦

يا أصدقائي

بدأت أضغط على زرّ آخر غير الذي أقصده!

دمشق الشام: الثلاثاء ١١-١٠-٢٠١٦ س ٣: ٠٠ م

وظل عمرو موسى والبرادعي وصبّاحي

وظل عمرو موسى والبرادعي وصبّاحي وأضرابهم يعملون... حتى أعادوا بلدهم إلى ما تحت المربع الأول!

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ١٢-١٠-٢٠١٦

لو أنّ أمير الشعراء بيننا اليوم!

في عشرينيّات القرن الماضي لمّا اعتدى الانتداب الفرنسي على دمشق، نظم الشاعر أحمد شوقي في رائعته التي مطلعها:

قم ناجِ جِلَّقَ وانشُد رسم من بانوا

مشت على الرسم أحداثٌ وأزمانُ

وقال فيها يتذكّر أمجاد بني أميّة الذين فتحوا العالم في زمنهم:

مررت بالمسجد المحزون أسأله:

هل في المصلّى أو المحراب مروانُ؟

تُرى...

لو أنّ أمير الشعراء بيننا اليوم، وجاء سوريّة وتوجّه إلى حلب الشهباء، ورأى الأحياء السكنية فيها مسوّاة بالأرض، ومئذنة الجامع الكبير الأموي قد لغِمت وانقضّت كومة من حجارة...

ماذا كان يقول؟

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ١٢-١٠-٢٠١٦

أشهد أنّ الجزائريين يحبّون بلاد الشام حبًّا جمًّا

أشهد أنّ الجزائريين يحبّون بلاد الشام حبًّا جمًّا

ولكنّ جُهّالهم اليوم

لا يُفرّقون

بين إعجابهم بالحاكم

وبين حبّهم للمحكومين

دمشق الشام: ضحى الخميس ١٣-١٠-٢٠١٦

ليت أمّه ما وَلَدته!

هل لنا أن نَعُدّ بوتين ولافروف

من أعدى أعداء الإسلام؟

يلحق بهما أوباما

الذي ليت أباه المسلم وأمّه المتأسلمة

لم يُنجباه!

دمشق الشام: فجر الخميس ١٣-١٠-٢٠١٦

غروزني - حلب!

كتب 'أوليڤر بولَفْ' في صحيفة نيويورك تايمز مقالة قال فيها:

إن 'پوتين' يكرّر في سورية ما فعله في "غروزني" عاصمة الشيشان أواخر القرن الماضي، مع اختلاف واحد هو أنّ الغرب لا يحاول إنقاذ السوريين المحاصرين في حلب.

يذكر أنّ الكاتب ألف كتابًا حول الحرب الشيشانية.

دمشق الشام: صباح الجمعة ١٤-١٠-٢٠١٦

هل يُنجب الأديب أديبا؟

قد يُنجب الطبيب طبيبًا، والمحامي محاميًا، والتاجر تاجرًا...

لكن عَزّ أن يُنجب الأديبُ أو الشاعر أديبًا أو شاعرًا.

وفي ذلك نسأل: أين هم أبناء أحمد شوقي وطه حسين والزيات ونجيب محفوظ، وشكيب الجابري وفؤاد الشايب ونزار قباني وبدوي الجبل؟

لكن... قد يكون للأديب إخوةٌ يمارسون مثله الأدب، مثال ذلك "الأخوات برونتي" الإنكليزيات الثلاث، وأشهرهنّ إميلي برونتي صاحبة رواية "جين آير" التي نقلها إلى العربية باقتدار منير البعلبكي في دار العلم للملايين ببيروت عام ١٩٦٠ أو ما حوله.

بالنسبة لي... أخي الأصغر، "نادر السباعي"، كتب القصة والرواية، وإن كان ذلك منه متأخرًا في السنّ، ولعلّ أهمّ أعماله رواية "السبع الأشهب" (حلب ١٩٩٩) التي حاز بها جائزة "الإبداع العربي" في دولة الإمارات، ومن المؤسف أنه رحل عنّا وهو في عزّ عطائه (١٩٤١-٢٠٠٩)، يرحمه الله.

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ١٤-١٠-٢٠١٦

ضاعت ليبيا من يد الروس

ضاعت ليبيا من يد الروس

فصمم الروس على أن تكون سورية بديلاً

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى السبت ١٥-١٠-٢٠١٦

وتربّيتُ على الطرب صغيرا

أستطيع الادعاء بأني تربّيت، منذ طفولتي الباكرة في ثلاثينيّات القرن الماضي، على الطرب. كنت أستمع إلى زوجة عمي، وهي تغنّي وراء ماكينة "التشويف"، بأن تردّد تلك الأغنيات الطربيّة الحميمة التي تدخل القلب وتستقرّ فيه، ومن ذلك:

نويتْ أسيبك، خلاص نويت

يا ريت ما كان اللي كان، ياريت

وفيها: وانا اللي بندم عشان هويت! من ألحان الموسيقار كميل شمبير، حلب ١٨٩٢-١٩٣٤، وهس ممّا يُغنّي الفنان الكبير صباح فخري=

كنا نسكن في بيت جدّي القادم من مدينة حمص، دارا عربية واسعة الأرجاء بما يزنّرها من غرف، وبأفياء أشجارها وعبق أزهارها والبركة تتوسّط صحنها، وكانت تتولّى "إدارة" الأسرة جدّتي، التي رأيتها تتحكّم بأمي صغيرة السن، المنجبة، أكثر ممّا تفعل إزاء زوجة عمي الأكبر والتي تناهز زوجها سنًا.

لم تكن المرأة، التي لقّنتني أصول الطرب صغيرًا، من أصول عربية. يوم حلّت النكبة بالشعب الأرمني في تركيا عام ١٩١٥، لم يكن لقوافل النازحين إلا أن ينساحوا جنوبًا، أعني شمال البلاد التي سوف تسمّيها اتفاقية سايكس - بيكو عما قريب "سوريا"، أرض "الجزيرة" ما بين الفراتَين وحلب التي كانت ما تزال تستظلّ حكم العثمانيين، هذه المدينة التي استطاعت أن تستوعب - مع إمكانات ذلك العصر الضعيفة - مِن هؤلاء النازحين ما يماثل عدد سكانها المئة ألف نسمة، وقد كان معظم القادمين عابرين، ما يلبثون أن يتفرّقوا أشتاتًا في دول العالم...

ولن أدع القول بأنه ليس أبعد عن الحقيقة، اليوم وبالأمس القريب، من الادعاء بأنّ شعب الأمويين العريق يشحذ سكاكينه لينقضّ على من يُسمَّون "أقليّات"!

فتاة من النازحين دخلت حياة الأسرة في تلك الآونة. استقبلتها الجدة بفرح أملا في تلقّي مساعدتها في تدبير شؤون البيت. كان اسمها "روبيكا"، فسمّتها جدتي "رتيبة".

ويقتضي القول هنا بأنه، بعد الصحوة الأرمنية من الكارثة التي حلّت بشعبهم، ظهرت في حلب "جمعيات"، تتسقّط أخبار البنات الأرمنيات في البيوت الحلبيّة، وتعمل على استرجاعهنّ بدعم من القوات الإنكليزية التي دحرت دولة بني عثمان. قامت جدتي بتهريب البنت من البيت ثمّ بعد انجلاء الأزمة استدعتها، وتزوجها عمي الأكبر. ولم يُقدّر للزوجين أن ينجبا، وأمي أخذت تعطي الأسرة كلّ عامين طفلاً، فاعتدل "الميزان" من ناحية واختلّ العدل من ناحية أخرى! ولهذا حديث رويته في قصتي "صغير على الهمّ" (مجلة "الفيصل" ١٩٨١، وكتابي "الألم على نار هادئة" دمشق ١٩٨٥، ٩٠، ٢٠٠٢).

طال الاستطراد، أعرف.

الواقع أنّ الطرب، الذي لامس فؤادي بأغنيات زوجة عمي رتيبة وأنا قاعد في عتبة بيتها ألهو وهي تعمل وتدندن، كان مبتدؤه من عند جدتي. أخذها جدي "سليم المفتي السباعي" من حماه إلى حمص، حيث عاشت بضعة عشر عاما في حي "بني السباعي" الحافل بالسهرات الهنيّة يتخلّلها الطرب، وليس يضاهي حلب من بلاد الشام في حبّها للطرب إلا حمص، فلما استُدعي الجد عام ١٩١٥ للنفير العام، قصد حلب و"سلّم" نفسه للجيش العثماني، مستظلا في ذلك نفوذ ابن عمه "الدكتور نافع بيك السباعي"، الطبيب العسكري في "مستشفى الرمضانية".

من ذلك الحيّ الحمصي، إلى "زقاق الزهراوي" بحلب، الذي يقطنه غير قليل من آل

السباعي القادمين من زمان من بلد الأجداد حمص. جاءت جدتي، واختلطت بالأسر الحلبية، في هذا الحيّ المتاخم للجامع الكبير الذي كان سكنه قديما "عامل حلب" زمن الأمويين "عمر بن عبد العزيز" قبل أن يغدو الخليفة الأموي الثامن. سهرات، عزفٌ على العود، ورقص وغناء، والكنّة ترافقها ولا تفارقها. كنت أعرف في نطقها لكنة، لكني لم ألاحظها عندما كانت تغنّي!

في دارنا، كان يُسمح لي أن أندسّ – برفقة أختي التي تكبَرني بسنة وبعضها – في عالم النساء، في سهراتهنّ بليالي الشتاء، أستمع وأطرب، ونحن نأكل "أبو فريوة" (الكستناء) مشويّا. فلما لاحظنَ أني بدأت أعي طردنَني من عالمهنّ!

في صيف ١٩٥٣ توجّهت جدتي وعمي وزوجته إلى الديار المقدسة قصد الحج. وكنت، في تلك الآونة، ما أزال طالبا بجامعة القاهرة، فاستقبلتهم على رصيف ميناء الإسكندرية، وبالقطار إلى القاهرة، وقد لبثوا عندي مدة، قبل أن يأخذوا البحر من مدينة السويس إلى جدّة، فتُوّجت أسماؤهم بلقب الحجيج. وقد رحلوا عن عالمنا تباعا، رحمهم الله تعالى.

لن أغفل عن الإشارة إلى أنّ عمتي "محاسن"، وهي البنت الوحيدة بين ثلاثة إخوة، كان من نشأتها الطربيّة أنها أتقنت العزف على العود، مع رقص بين لِدَاتها من البنات في الليالي الملاح، وهي التي لقّنتني، إذ تبيّنت حلاوة في صوتي وأنا طفل، أغنية فريد الأطرش التي شاعت في الثلاثينيات:

يا ريتني طير لطير حواليك   مطرح ما تروح عيوني عليك

ما بخلّي غيري يقرّب ليك * لكن "يا ريت" عُمْرا[1] ما كانت تعمّر بيت

ومن ذريتها اليوم، من زوجها الذي يحلو لي أن أطلق عليه لقب مثقف العيلة "عطا الله

---

(١) عُمْرَها يعني أبداً.

العياشي"، ابنُها البكر "الدكتور منذر" أستاذ الدراسات العليا بجامعة البحرين اليوم، والداعية الإسلامي "الدكتور بسام" الذي وقع عليه قبل سنتين اعتداء في ريف إدلب نجا منه حيّا بأعجوبة.

نُشر في مجلة "رؤية سورية"، العدد ٣٧ سبتمبر ٢٠١٦

دمشق الشام: فجر السبت ١٥-١٠-٢٠١٦

ما رأيت مثل المرأة

من يقدر أن يجرّك إلى الحديث الذي يريد

دمشق الشام: فجر الأحد ١٦-١٠-٢٠١٦

تشابه أسماء.. تشابه أدوية!

زارني قبل مدة، قادمًا من حلب. حدّثني طويلا عن ابنه طالب الدراسات العليا، الذي اعتُقل... ما ذنبه؟ قال: «تشابه أسماء!»، وبعد ثلاثة أسابيع أُطلق سراحه!

يسألني قبل أيام على الهاتف، أن ينزل عندي لدى قدومه إلى دمشق؟ جاء، وبات ليلتين بثلاثة أيام. تعاونّا مساء يوم في شطف بلاط الحديقة، ثمّ جلسنا قرب البركة تحت ظلال الياسمين، نثرثر طويلاً في شؤون الحياة وفيها يحدث لبلده، لبلدي حلب، من دمار وتهجير... حتى أوشكت العيون أن تدمع.

قبيل مغادرته حمّلتُه صرّة إلى بعض أهلي بحلب، فيها أدوية كان جاء بها ابني القادم من

فلوريدا منذ قريب.

في اليوم التالي، قام ابني إلى الهاتف يطمئنّ على وصول صديقي بالسلامة وقد بات السفر ما بين حلب ودمشق شاقًا وخطيرًا. طلع له الابن طالب الدراسات العليا، الذي كان قد أُفرج عنه من اعتقاله العابر، يقول إنّ أباه ألقي القبض عليه وهو في طريق عودته إلى حلب، ولا يعرفون السبب.

لم يعد مهمًا لنا الدواء، الذي انتقل من فلوريدا إلى دمشق، وهو الآن في "المعتقل". وأصبحنا نسأل عن ضيفنا كلّ يوم مرة أو مرتين، ولا نطيل الحديث خشية أن نُضايق "رقيب الهاتف".

بعد ليلتين وثلاثة أيام، يهتف لنا الابن فرِحًا بأنّ أباه اتصل بهم توا يعلمهم بأنه في طريقه إلى البيت.

وتناول الصديق سماعة الهاتف، يُعلمني أنهم "اشتبهوا"، وهو على أبواب حلب، في صرّة الأدوية، ظنّوها "حبوب شمّ"!، فأوقفوه، إلى أن تمّ عرضها على العارفين فتأكدوا أنها فيتامينات تُعين كبار السنّ على الاستمرار في الحركة التي تتطلّبها الحياة... فكانت الأيام والليالي التي قضاها عندهم تماثل في العدد ما قضى في ضيافتي، مع فارق أنتم تعرفونه!

ما استرعى انتباهي امتداحُ صديقي الحارّ لمن بات بين أياديهم تلك الأيام والليالي، ووصفُه إياهم بأنهم كانوا في تعاملهم معه لطفاء جدا جدا.

أنتظر زيارة منه يحدثني عمّا وقع له، ونحن تحت ظلال الياسمين... بعيدًا عن آذان الرقباء... وسوف أخبركم.

دمشق الشام: فجر الإثنين ١٧-١٠-٢٠١٦

قولي أحبّك...

بَدَوت نهمًا للمطالعة وأنا في مرحلة الدراسة الإعدادية، وكان أول ما تعرّفت عليه من المجلات "المختار"، لحقتْ بها "الهلال" والكِتاب" المصريتان وكثيرٌ من المجلات بعد ذلك. وفي الثانوي أخذت أنظم الشعر الموزون والمقفى... كان هذا كلّه في النصف الثاني من أربعينيّات القرن الماضي، وأنا تلميذ وطالب في "ثانوية المأمون بحلب" التي كانت تجمع هاتين المرحلتين الدراسيتين معا.

نعم، "قَرْزَمت" الشعر في تلك الأيام، ولم أتردّد بنشره في حينه في المجلات المدرسية المتاحة.

وسوف أظلّ أذكر أنّ مدير "المأمون" الأستاذ الجليل "عبد الغني الجودة" (فيما بعد مدير المعارف/ التربية بحلب)، استدعاني إلى مكتبه يوما ليحدثني عما قرألي في مجلة تصدرها ثانويتنا سمّيناها "صوت الطالب" (ولهذا حديث طريف آخر)، من أبيات شعرية استرعت انتباهه، مطلعها:

خذ هذه الناي واعزف في جوانبها

لحنًا حزينا، فما يُشجيك يشجيني

وكنت أعرف أنّ حديثه هذا يُضمر ما هو أهمّ: دهشتَه من تحوّلي من واحد من الطلاب الذين يمارسون شيئا من "الشغب" إلى فتى يكتب الأدب ويتجاوز إلى الشعر، ذلك أني لم أكن دوما من الطلاب المتفوقين دراسيا!

في أيامي "الشعرية" تلك، كنا (في العام الدراسي ١٩٤٩–٥٠) ثلاثةَ طلاب "شعراء"، أول الاثنين "أحمد رجائي" (فيما بعد دكتور في الاقتصاد من ألمانيا ومدير المكتب المركزي للإحصاء

في سورية) والثاني "زهير موصلي" (من متقدّمي موظفي وزارة الاقتصاد)... وأذكر أني لاحظت فيهما ضنًّا فيما يبادلونني به من الرضا عن أشعاري، فدخل في ظنّي أني لا أليق بالشعر، فتركته، ممعنًا في النثر، هذا الذي أصبحت لي فيه حصيلة، ولم يَصدر لأيّ منهما ديوانُ شعر!

ما أريد قوله الآن إني كنت هممت، في تلك الأيام، بنظم مقطوعة شعرية على لسان فتاة (هل سبقتُ في هذا نزار قباني!)، أُسعفتُ بمطلع لها:

قولي لـ"سُهَيلٍ" يعشقني

نيرانُ الحبّ تُحرّقني!

ولم أزِد على هذا البيت شيئا، إما لعدم قناعتي بالموضوع أو لنضوب الشاعرية عندي! ويوم استمعت، بإعجاب بالغ، وأنا بالقاهرة (مطالع العام ٢٠٠٠ في المعرض الدولي للكتاب)، إلى أغنية كاظم الساهر الرائعة، يُغرّد فيها بقصيدة نزار:

قولي أحبّك كي تزيد وسامتي

وأكون بين العالمين جميلاً

ورد على بالي ما تنزّل عليّ، قبل خمسين عاما، من ذلك البيت اليتيم: «قولي لسهيل يعشقني»، أقلعت بعده عن قول الشعر لظنّي أني غير مؤهّل له!

رحل صديقا العمر "أحمد" و"زهير" - عليهما رحمة الله - وبقيت لأروي لكم هذا.

نُشرت في جريدة "تشرين"، العدد ١٢٧٥٨ الثلاثاء ١٨-١٠-٢٠١٦، زاوية "أيام وليال"

بوتين.. ما أقسى قلبك وما أرقّه!

بمناسبة ابتداء معركة استرداد الموصل، أقوى معقل لتنظيم داعش في العراق. يقوم بالهجوم

تحالف مكوّن من الأكراد (البيشمركة) والحشد الشعبي الشيعي والقوات العراقية بقيادة الولايات المتحدة.

فإنّ الرئيس الروسي "ڤلاديمير پوتين" يحّذّر الغربَ من وقوع ضحايا مدنيين في أثناء هذا الهجوم، آملاً أن يقوم شركاؤه من الأمريكيين والإفرنسيين بكلّ ما يمكن لتجنّب وقوع إصابات بين المدنيين.

أما الأمم المتحدة فقد أبدت "قلقها العميق" على حياة ١، ٥ مليون مدني في الموصل.

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ١٨-١٠-٢٠١٦

رقابة ذاتية!

ما زلنا نشكو في دمشق من تأخّر موسم الأمطار.

قبيل ساعة من الآن هتف إليّ من حلب صديق يُبشّرني بأنّ المطر عندهم غزير، منذ ساعتين... السماء تدلق عليهم قُرَبا من ماء...

بعد أن حمدنا الله، خطر لي أن أسأله: والقصف توقف؟

فانقطعت المكالمة.

إنها رقابة ذاتية!

دمشق الشام: الثلاثاء ١٨-١٠-٢٠١٦ س ٩: ٠٠ ليلا

الشاعر "ممدوح مولود".. في أول شبابه

في منتصف الخمسينيات بدأت أقرأ للشاعر الحلبي الشاب "ممدوح مولود"، في الصحف

اليومية السورية، قصائد مذيلة بما يدلّ على إقامته مرة في شيكاغو وأخرى في واشنطن... وأنا أعرفه موظفا بسيطا في الدولة، فكيف يتنقّل بين هذا المدن البعيدة؟

لما التقيته عرضا في أحد الأماكن بحلب، سألته عن ذلك، فأجابني بأنه ما زال يرسل قصائده للصحف ولا يهتمون بها، فلما ذيلها بأسماء تلك المدن نشروها!

بعدئذ أخذنا نقرأ قصائده الجميلة في كلّ الدوريات.

غادرنا ممدوح مولود شابا، ولما تُنشر - في علمي - أشعاره في ديوان.

دمشق الشام: صباح الأربعاء ١٩-١٠-٢٠١٦

حضارة.. وحقارة

عندما كنا نكتب في "أدب الرحلات" (أو أدب الأسفار)، كنا نرسل ما كتبنا إلى الدوريات الثقافية هنا وهناك... ننتظر وقتًا حتى تكتحل عيوننا برؤية ما كتبنا من كلام نراه جميلاً.

اليوم، صديقي في الشبكة العنكبوتية "صباح حواصلي (المقيم سعيدًا في سياتل، بأقصى الشمال الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية)، يجوب العالم، حاملاً جهازه السحري، يشاهد، يصوّر، يكتب، يؤرّخ لنفسه وللقراء، وينشر في التوّ.

يا لها من حضارة!

ويا لشعبنا، الذي يُقصف ويموت أمام أنظار العالم، أو بتواطؤ من الدول العظمى!

يا لها من...!

دمشق الشام" فجر الخميس ٢٠-١٠-٢٠١٦ س ٥: ٤٥

يوم أطلقنا سراح ذوي اللحى السوداء!

منذ باكر الصباح وأصواتُ القذائف تملأ الأسماع، متّجهةً نحو مواقع المسلحين في "الغوطة الشرقية" غالبًا...

يَرِد على بالي سؤالٌ ما زلت أُردّده:

لماذا عمد النظام إلى إطلاق سراح ذوي اللحى السوداء، من سجونه، في بداية الانتفاضة؟

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٢١-١٠-٢٠١٦

جمال قطب... وداعًا

رحل مساء الأحد ١٦-١٠-٢٠١٦ بالقاهرة الفنان التشكيلي «جمال قطب» عن ستة وثمانين عامًا

مبدع الوجوه النيّرة على أغلفة كتب الأدباء

ورسام البورتريه المنتشر في كل مكان

ذو البصمة المصرية المطعّمة بجمال الفن الخالد

إلى جنان النعيم، صديقي جمال... أنتم السابقون

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٢١-١٠-٢٠١٦

أبناء أصدقائي!

أعمالي الأدبية، التي جريت على تقديمها إلى أصدقائي ومعارفي، كان يتبيّن لي في كلّ حين أنّ غير قليل منهم لم يقرؤوها، لضيق الوقت أو لافتقادهم هواية المطالعة، وربما لم يقلّبوا صفحات

فيها، مع اعتزازهم بأنّ المؤلّف في عداد أصدقائهم.

ولكني لاحظت على مرّ السنين أنّ أبناءهم، الأطفالَ والفتيان والشباب من الجنسين، قرؤوها وهي في متناول أيديهم، وتربّوا عليها، فهم محبّون لأدبي من حيث صرت أدري فيما بعد.

أحبّهم.

دمشق الشام: مساء الجمعة ٢١-١٠-٢٠١٦

"لعبة الأمم".. الصغيرة!

كأني بلسان "الزعيم الأسمر" يقول، في منتصف الخمسينيّات، لمن سوف يكون صديقًا لهم حتى السقوط في الأحضان:

«شوفوا، يا سوفيات!

«الشيوعيين اللي عندي دول، أنا مش حخليهم يلعبوا زي ما عملوا بالملك في "حريق القاهرة" يوم عيد ميلاد ولي عهده أول ١٩٥٢، اللي أنا استفدت منه وعملت الانقلاب!

«سيبوني عليهم، أكسّرهم وأمرمطهم وأخليهم يشيلوا في المعتقلات بإيديهم "البكابورد"(١)، واللي يطيعوني منهم أُهدي إليهم المناصب والنفوذ الثقافي.

«وانتو، يا خروتشوف ويا بولغانين، لكم عليّ أن أنادي بالاشتراكية، اللي ما زالت الجماهير العربية ترفضها، وأعمل تأميم كمان...

«ايه رأيكو بقى؟!».

(١) مكان مياه المجاري. يقصد: سأجعلهم يفرغون مياه المجاري إذلالاً.

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ٢١-١٠-٢٠١٦

الفن.. مين يعرفه؟

بعد نجاح "حركة الضباط الأحرار" بمصر، نزل إلى الساحة الثقافية، في إعلام القاهرة، مثقفو اليسار، كُتّابًا ونُخَبا، يكتبون في الاشتراكية، تلك التي لمّا يكن الشعب المصري ولا الأمة العربية مهيّئين بعدُ لاستقبالها.

كنت أقرأ لهم وهم يُغرّدون في الصفحات الأخيرة من صحف كـ"المصري" وجريدة "الجمهورية" التي أحدثها النظام الجديد. ومن كتّابهم الشباب، الذين احتلّوا فيما بعد ركنًا ركينًا في الساحة الثقافية، عبد الرحمن الشرقاوي والخميسي ويوسف إدريس ومحمود أمين العالم... ينشرون كلّ يوم المقالات الصغيرة المعبّرة. وأذكر أني – وأنا في تلك الآونة طالب في "جامعة فؤاد الأول" (جامعة القاهرة فيما بعد) – كنت أقطع تلك الصفحات وأحفظها، جاعلا إياها مصدرًا من مصادري الثقافية في مرحلة التأسيس.

في كلمتي هنا أودّ أن أنوّه بأنّ محمود أمين العالم وصديقه محمد عبد العظيم أنيس، أو أنّ أحدهما، تطرّق في مناحي نقده للفنان محمد عبد الوهاب، وعلى وجه الخصوص في أغنيته:

محلاها عيشة الفلاح

مطمّن قلبه ومرتاح

فكيف يكون الفلاح المصري مرتاحًا في ظل "الإقطاعية"!

وأتصور أنّ الكاتب اليساري وجد رقّة زائدة، في الكلمات وفي صناعة اللحن والأداء الطربي، وهو من كان يريد للكلمات أن تكون ثورية واللحن مثيرا، استنهاضًا لهمم الفلاحين للتغيير.

وأستطيع القول هنا إنّ عبد الوهاب، وكذلك أمّ كلثوم، كان قلباهما في تلك الآونة يملؤهما الخوف من أن تُقصيهما "الثورة" الطالعة، وهما اللذان غرّدا في سابق أيامهما امتداحًا للملك، وأخصّ أغنية عبد الوهاب "أنشودة الفن"، التي يقول فيها:

الفنّ مين يوصفه إلا اللي عاش في حِماه

والفن مين يعرفه إلا اللي هام في سماه

والفنّ مين شرّفه غير "الفاروق" ورعاه

غابت هذه الأغنية عقودا من سنين... إلى أن استمعت إليها، قبل بضعة عشر عاما، من "إذاعة مونت كارلو"، تقدّمها مذيعتنا المحبوبة "هيام" في برنامج لها، وقد مسّني لسماعها طربٌ عظيم، ما أدري: ألروعة الأغنية، أم لانتعاش الذاكرة!

نشرت في جريدة "تشرين"، عدد اليوم ١٢٧٦٢، زاوية "أيام وليال"

\- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٢٣-١٠-٢٠١٦

مواطن.. في دائرة التهميش

عندما يَطرق، في وطنه الحبيب، أبوابًا لنشر كتبه وأعماله الفكرية، فيجدها مغلقة في وجهه، فإنْ فتحوها قالوا له: لا!

وعندما يصبح زملاء الدراسة المغمورون مديرين لمؤسسات ضخمة، ووزراء، وسفراء... ويبقى هو في دائرة التهميش، فيضطر إلى ترك الوظيفة حفظًا للكرامة المهدورة

وعندما يتضاءل معاشه التقاعدي، بفعل القتل والقتال، إلى ما قيمتُه خمسون دولارا فأقلّ،

حتى بات يطلب الدواء من أبنائه المنتشرين في الأقطار القريبة والأصقاع البعيدة...

فإنه يمكنه القول بأنّ النظام الذي يعيش تحت سقفه، قد فقد الكفاءة والنزاهة والعدالة، وأنّ الأرض التي يقف عليها لم تعد له وطنًا حبيبًا!

دمشق الشام: ضحى الأحد ٢٣-١٠-٢٠١٦

نكتة النوافذ المكسّرة!

بعد أن نزلت قذيفة بجوار بيته، والله لَطَف به وبأمّه إلا من النوافذ المطلة التي تناثر زجاجها، فأتى بـ"الزجّاجَ" يرمّم المكسور وتمّت لملمة ما تناثر من الزجاج في كلّ مكان، قعد يُدوّن المبالغ التي تحمّلها ويكتب "استدعاء" مرتّبًا... قالوا إنّ الحكومة تعوّضها للمتضرّرين.

وجرى بينه وبين أمّه حوارٌ ساخن: تقول له أن يزيد في التكاليف فهناك أضرار غير مرئيّة، وهو يقول: لا!

لمّا ذهب إلى الدائرة الرسمية المعنيّة وسلّمهم الاستدعاء المرتّب، سجّلوه عندهم بعناية وأعطوه رقمًا وتاريخا، وقالوا له: تُراجِعنا.

سألهم: متى؟

قالوا: حتى تأتي الموافقة من الشام!

ثمّ عرف، ممّن تكسّر زجاج نوافذهم قبله، أنهم يدفنون الاستدعاءات هنا في درج عميق. فرآها نكتة شاء أن يسمّيها "نكتة النوافذ المكسّرة".

دمشق الشام: ليل الأحد ٢٣-١٠-٢٠١٦

عالم «أديب نحوي» القصصي

في مجلة "المعرفة" (عن وزارة الثقافة بدمشق) نُشر في عدد هذا الشهر (تشرين الأول/ اكتوبر ٢٠١٦) جزء من دراسة عن القاص الروائي السوري "أديب نحوي"، الكاتب الطالع من أعماق الأجواء الشعبية في حلب، فكتب عن الناس الذين يعيشون في القاع بإحساس العاشق الولهان، في عديد من القصص والروايات على مدى عمره الممتدّ من العام ١٩٢٦ إلى يوم الرحيل ١٩٩٨.

وأحبّ أن أبيّن أني – يوم كنت "المقرّر" في "جمعية القصة والرواية" في اتحاد الكتّاب في النصف الثاني من ثمانينيّات القرن الماضي - جرينا على أن نقيم احتفالات لكتّاب القصة والرواية من أعضاء الجمعية، نكرّمهم وهم أحياء لا ننتظر يوم الرحيل، وكان "أديب نحوي" مكرّمًا في الجمعية في خريف ١٩٨٧، قدمت في الحفل كلمة عن مجموعته القصصية "حكايا للحزن" (دار الآداب بيروت ١٩٦٧)، ثمّ أتممت كتابة دراسة عن الكتاب، جاءت مستفيضة (ثمانية آلاف مفردة)، قدّمتها أخيرا إلى مجلة "المعرفة" فاختارت منها نحو ثلثها ونشرته في عدد هذا الشهر.

أقدّم أدناه المقطع الأول مما نُشر.

- - - - - - - - - - -

من القصة الأولى المسمّاة "الحديقة"، في مجموعته المتميّزة "حكايا للحزن"، يتّضح لنا أنّ أديب نحوي أراد لقصصه هذه أن تكون صرخةً في ضمير القارئ، يدين بها الجهل والفقر والقهر، وما يتبع ذلك من الغباء والاستغلال والمرض والقسوة والظلم والألم جميعا.

وليس عسيرًا على قارئ هذه المجموعة أن يتعرّف الهواجسَ التي أرّقت المؤلّف؛ وإني

لأراها ثلاثة، تتّسم كلّها بالعشق غير المحدود: عشق للوطن، يبتدئ من الحارة التي فيها نشأ، وعشق للشعب، يبتدئ من حبّه لأهل هذه الحارة، ثمّ ينداح باتّجاه البلد والوطن؛ وأخيرًا، إيمان المؤلّف بالعدالة الاجتماعيّة، التي يرى فيها الخلاص ممّا تعانيه الأمّة والوطن.

في حكايا الكتاب الحزينة، ارتسمت أمام أعيننا "حارة باب المقام" بحلب، حيث ولد أديب نحوي وترعرع وشبّ عن الطوق.

ارتسمت الحارة بأزقّتها الضيّقة، وشارعها العريض الذي يضمّ مطحنة، وتبدّت لنا أيضا "حارة المعادي" . التي تنعم بحنفيّة عامة لمياه الشرب . تفصلها عن باب المقام "جبّانة الصالحين"، التي يلعب فيها الأطفال وترعى عنزات الحلاب، وحيث حاول أشقياء من فتيان المعادي يومًا اغتصاب تلك الشابّة الحلوة لدى عودتها بـ"تَنْكة" الماء وقد ملأتها من حنفيّة حارتهم، فليس في باب المقام حنفيّة!

وفي هذه الجَبّانة، أيضًا وقعت المشاجرة بين فريقين من ذريّة الشيخ "سليمان أبو جبّة" حول مَن منهما يملك قبره القديم فيحقّ له أن يُدَلّي فيه جثّة عميده! (١)

- - - - -

الحاشية:

(١) إنّ حارتَي باب المقام والمعادي، وكذلك جبّانة الصالحين، هي ممّا يقع جنوبيّ حلب، ومن ثَمّ جنوبيّ قلعتها الشهيرة.

وفي هذه المواقع، يقول خير الدين الأسدي (١٩٠٠ - ١٩٧١) في كتابه "أحياء حلب وأسواقها"، الذي حققّه واستكمله تأليفًا بجهدٍ ملحوظ عبد الفتاح روّاس قلعه جي، ونشرته وزارة الثقافة بدمشق سنة ١٩٨٤، يقول: «"باب المقام" سُمّي كذلك لأنّ هذا الباب (وهو أحد أبواب السور الذي يحيط بمدينة حلب منذ القديم) يُفضي إلى "المقام" المنسوب إلى إبراهيم

عليه السلام». و"حارة المعادي" ممّا يليه جنوبًا، ويلقّب أهلها بـ"أهل المجرفة"، لأنّ أكثرهم كان يشتغل بلمّ السماد، فهم بساتنة.

ويضيف عبد الفتاح قلعه جي: إنّ صبيان المعادي كانوا يجتمعون على التل المجاور في حارتهم، وتجّمع صبيان الحارة المجاورة "ساحة بزة" على التلّ المقابل، وتدور بين الفريقين "المعارك"، بالمقاليع والحجارة، وتسمّى "الضْربية" أو "المحاجرة"!

وأما "جبّانة الصالحين"، فتُعرف أيضًا بمقبرة الخليل، لأنّ فيها مشهد الخليل عليه السلام... يقول الأسدي (نقلا عن "نهر الذهب في تاريخ حلب" للشيخ كامل الغزّي، ١٨٥٣-١٩٣٣، الجزء٢: ٣٦٨): إنها من أشرف مقابر حلب، وفي محراب الخانقاه فيها «صخرة ناتئة يقال إنها الصخرة التي جلس عليها إبراهيم الخليل مستقبلا حلب حين فارقها كأنه يودّعها ويتأسّف على فراقها»!

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٢٥-١٠-٢٠١٦

أشتهي فروج مشوي ع الفحم!

يا سيدي النظام

ما زلت أحلُم بأن أمرّ على كشك لبيع الصحف، فأحظى بنسخة من مجلة عربية نَشرت كلماتي!

وأن أستطيع صرف شيك المكافأة في بنوك الوطن، فأشتري فروج مشوي ع الفحم!

أحلُم بوطن غير مزنَّر بسلسلة من القيود الثقافية، والاقتصادية، والأمنية، وما شابه...

هل تسمعني، يا سيدي النظام؟

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ٢٧-١٠-٢٠١٦

الروائي السوري أديب نحوي مؤرخ المجتمع المعذّب

... ولقد بدا جليًّا أنّ أديب نحوي كان ـ إلى فهمه العميق للعلاقات بين الناس الذين في القاع ـ محبًّا لهم، عطوفًا عليهم، ووفيًّا أمينا. فكان يقف إلى جانبهم، كتفًا إلى كتف، في تلقّيهم مصاعب الحياة اليوميّة ومصائب القدر.

وكان أن افتقد عندهم البسمة على الشفاه، وتورّدَ الخدود! ولم يكن بدّ من أن يرى، بدلا من ذلك، ألوانًا من المعاناة والقهر والعذاب... فكانت قصص كتابه "حكايا للحزن" (دار الآداب بيروت ١٩٦٧) حكايات حزينة، كتبها على مدى أشهر كان فيها ـ حسب علمي ـ متواريًا عن الانتظار!

حكى لنا كيف أنّ "ياسين قطّة" (انظر إلى هذا الاسم المغرق في الشعبية!) استطاع، في قصة "عنزات الحلاّب" بيّاع الحليب، أن يمتلك إحدى وعشرين عنزة، وحمارًا أسود، ومئة ذراع من الأرض جنب "جبّانة السفيري"، و«ع-مّرتُ عليها ـ يقول ـ أربع حيطان، والمغارة للعنزات، وغرفة واحدة للأولاد، بسقف، والمطبخ بدون سقف....».

ويوم سَرَحت عنزاته، التي غفل عنها ولدُه "أحمد" بينا هي ترعى أمامه في الجبّانة، ثمّ عاد بها ابنه الأكبر "حسين" وقد عثر عليها في "كرم بيت الحمصي" في "الصالحين"، بكى ياسين من الفرح، وصلّى، وانحنى يُقبّل الأرض؛ والناس هنّؤوه برجعتها إليه، ثمّ إنه جمع حوله "الأحباب" كلّهم: «العنزات والأولاد، مختلطين بعضهم بالبعض الآخر: عنزة ثمّ ولد، بنت ثمّ عنزة...»: ابنته "بهيّة" الصغيرة السمراء، وإلى جانبها "عفريتة" التي هي أنشط العنزات، ثمّ "حسن" أحلى أولاده، وإلى جانبه "صبيّة" أصغر العنزات عمرًا، وبعدها "علي"، يمسك بيده

اليمنى ذيل ثوب أخته الكبرى "خديجة" ويلفّ يده اليسرى على رقبة "البيضا" العنزة البيضاء الوحيدة بين عنزاته السود... ثمّ ابنته "أسّوم"... و"نعسانة" العنزة التي تحبّ النوم......

ولكنّ هذه العنزات الغاليات، التي هي بمنزلة أولاده كما نرى، يفتقدها في يوم من الأيام، وإلى الأبد، وهو في "زقاق الطلعة الفوقانيّة" في "حارة باب المقام"!

تفصيل ذلك أنّ ابنه صالح دفع (دفش) عن العنزات ولدًا من أبناء وجهاء الحارة، هو "خليل عبد القادر العلبي"، بعد أن شاهده يعضّ إحداها من أذنها وهي تصيح من الألم! هل ضرب الولد صالح الولد المعتدي حتى نادى هذا: «يابو! ابن الحلاب ضربني!؟»، فقد اندفع، في إثر هذا النداء، الأب عبد القادر، ولحق به أبناؤه وإخوته ورجال بيت العلبي كلّهم، وانهالوا على صالح، وعلى الأب نفسه، بالضرب المبرّح، وهم يسبّونه: «يا جردون! ما بقي علينا غير وسخ رجلينا!»... ولحظة أفاق من غيبوبته لم يجد عنزاته في الزقاق، وتبيّن أن آل العلبي قد سحبوها إلى داخل بيتهم!

مجلة "المعرفة" (وزارة الثقافة، دمشق)، العدد ٦٣٧ تشرين الأول/ اكتوبر ٢٠١٦

أقول: هذا القهر يعانيه الحلاب وهذه الغطرسة يمارسها أقوياء الحارة، أليس لهما مثيل، اليوم، بين مواطنين مقهورين وبين رجال ينتمون إلى أنظمة حكم عربية؟

- - - - - - - - -

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ٢٨-١٠-٢٠١٦

محظوظ!

أليس عجيبًا

أن يكون هناك حاكمٌ عربي أسمر اللون

جلب للأمة الكوارث والخيبات

ثمّ رحل... مكتئبا

ولكنه بقي في وجدان الناس محبوبا!

يا أمّةً...

دمشق الشام: فجر السبت ٢٩-١٠-٢٠١٦

أنا لست ضعيف الرأي، يا بوتين!

عندما تقول لي إنك في قصفك وطني تستهدف الإرهابيين...

هل تظنّ أني مِن ضعف الرأي حتى أصدّق كلامك، وأنا أرى جراح أهلي نازفة وجثث الأطفال ممزقة؟

وأتذكّر أمجادك في "غروزني" وبلاد الشيشان، يا رقيق القلب.

دمشق الشام: عصر السبت ٢٩-١٠-٢٠١٦

حفلة شواء في حديقة منزلية

عصر أمس الجمعة، زارتني أسرة صغيرة جميلة، هي صديقة لابني فراس القادم من فلوريدا، زوجان وبنتاهما، مزوَّدِين بكلّ ما يلزم لحفلة شوي، حتى المنقل!

على حين انشغل الرجال في إشعال النار في المنقل بحديقة البيت، فإنّ السيدة دخلت إلى المطبخ تضمّ اللحم أو تكبكبه في السياخ (السفافيد)

وأما الصبيتان فقد تركتا كل شيء، وأخذتا تتنقلان في أنحاء الحديقة، تلتقطان الصور لنفسها، وللشجر، ولنبات اللبلاب المتسلق عاليا يغطي جدران الجيران... أحببتهما، وتذكرت

أحفادي البعيدين عني في كل مكان

تحلقنا حول المائدة في الحديقة، نتناول من المنقل ونأكل، ونافورة البركة تغني لنا أعذب الألحان!

وقارنت بين جلستنا هذه وبين ساكني الخيام من أبناء وطني، والذين يتلقون القصف في أحياء حلب الشرقية، والعالم المنافق صامت...

فكدت أترك المائدة، إلى ما تحت شجر اللبلاب، لأمسح ما تحدّر من العينين!

دمشق الشام: فجر السبت ٢٩-١٠-٢٠١٦

حلب.. لليوم الرابع تحت القصف

اتصلتُ بها عند الظهيرة هاتفيًا، فأخذت تحدثني:

• الحرب عندنا في حلب من ٣ أيام، من يوم الخميس. الدنيا قايمة قاعدة. الضرب لا نعرف من أين يأتي. قذيفة نزلت على مدرسة فيها كلّ مراحل التعليم، قتلت - قالوا - ٧ أطفال.

• ابني هو وأسرته تركوا البيت في الطابق الثالث، مع أنّ فوقه طابق رابع، ونزلوا إلى "بيت المونة" في القبو، يجلسون على الكراسي.

• ابنتي وزوجها يستعدّان للسفر إلى ابنتهما التي في الإمارات، بعد أن حصلوا على الفيزا وحجزوا بالطائرة من بيروت، وابنتهم التي هنا ستسافر غدا إلى دمشق لمتابعة دورة في الجامعة، ولكنهم لا يعرفون كيف يغادرون حلب، وابنهم في السويد يتصل بهم كلّ ساعة.

• وأنا، تعرف، في بيتي، تنزل إليه عشر درجات!

حاولت شقيقتي أن تُسمعني أصوات القصف، فقلت لها: بس بس، يكفي!

دمشق الشام: مساء الأحد ٣٠-١٠-٢٠١٦

في يوم مولدي

إذا كنت ما أزال قادرًا على المشي

وأعاني أوجاعًا أقلّ

وأفكّر

وأكتب

فأنا إذن أقلّ تعاسة

في هذا الزمن الرديء

دمشق الشام: ضحى الإثنين ٣١-١٠-٢٠١٦

وقع لي.. على ضفّة "نهر تورا"

كنت أسير الهوينى بجانب "نهر تورا"، العالي، قريبًا من بيتي، في ربيع طابت أنسامه

فجأة برز لي "شَبّيح" همّ بأن يعتدي عليّ، فدفعتُه عن نفسي بالكلام

وعلت الأصوات

فهدّدني بأن "يجرّني إلى الفرع"

فهدّدته بأن أجرّه أنا إلى "الفرع"

استغرب

توقف عن الشجار

ومضى

ومضيت

وأنا أسائل نفسي: كيف هدّدته -هو ابن "فرع" يجرّ الناس إليه جماعاتٍ- بأن أجرّه أنا إلى "فرعٍ" للكتّاب، يَحْذَر أهلوه من أن يُجَرّوا إلى الفروع!

وتابعت سيري

على ضفّة نهر تورا...

دمشق الشام: ظهيرة الاثنين ٣١-١٠-٢٠١٦

وغمزني السفيرُ الأمريكي بعينه!

في عام ١٩٩٥ كَثُر زوّار البلد من قبل مسؤولين أمريكيين، يُواكبهم أحيانًا محاضرون ينتمون إلى أصول عربية، يحاضرون في مدرج اتحاد الكتّاب أو في مكتبة الأسد الوطنية، وكانت الدعوات تتمّ بالهاتف إلى الكتّاب في بيوتهم، دون توجيه بطاقات أو الإعلان عن ذلك في وسائل الإعلام.

أذكر أني حضرت في مكتبة الأسد محاضرتين لسيدتين عربيّتين متأمركتين، ثانيتُهما أصلُها من مدينتي حلب وكانت محاضِرة لطيفة، وأخرى قبلها أصلها من إحدى الدول العربية ولا أنسى مدى تطاولها على بعض مَن تصدّى لها من الحاضرين بأسئلة أحرجتْها، وجرحِها للمشاعر على نحو بلغ حدّ الوقاحة.

وأذكر أني تلقيت (ربما في الأسبوع الأول من شهر أيلول/ سبتمبر من العام ١٩٩٥) دعوة هاتفية من المركز الثقافي الأمريكي لسماع محاضرة تدور حول أسباب غياب الديمقراطية في البلاد العربية، وأنّ هذه المحاضرة ستقدّم في ثلاثة أمكنة على التوالي: اتحاد الكتّاب، والمركز الثقافي الأمريكي، و... بيت السفير الأمريكي. وأذكر أني سألت المتصلة بي عما إذا كان بيت

السفير يضمّ قاعة للمحاضرات؟ فأجابتني بنعم وهي تتّسع لخمسين من الحضور، قلت في نفسي: أدخل بيت السفير، أسمع وأتفرّج على المنزل الذي منه تُنقل المعلومات عن بلدي إلى واشنطن!

عند الساعة الخامسة مساء (ربما) كنت أمام الدارة التي يسكنها السفير في "حيّ الروضة"، وأذكر أني صادفت على الرصيف جارتي "سحر" طالبة الدكتوراه في الأدب العربي، استوقفتني للحديث، فاعتذرت لها بمرح بأني أتهيّأ لسماع محاضرة في بيت السفير... وضحكنا.

في مكان أُدخلتُ إليه، هو بالأحرى "شرفة" ذات إطلالةّ على حديقة الدارة، مزجّجة ومكيّفة، رأيت مَن سبقني في الحضور، منهم المخرج السينمائي نبيل المالح، ورجل الأعمال رياض سيف، والإعلامي ميخائيل عيد. وأحرص على الإشارة إلى أنّ السفير عندما صافحني رأيته يغمزني بعينه اليمنى "غمزة"، لم أدرك معناها تلك اللحظة. وقدّموا لي مثل الباقين كأسًا من عصير الأناناس. وما هي إلا لحظات حتى دُعينا إلى "قاعة المحاضرات" الصغيرة الأنيقة، لنستمع.

افتتح السفير المحاضرة بلغة عربية فصيحة، استحقّ عليها الإطراء من بعض الحاضرين. ووقف المحاضر ليتكلم، وكان عربيًا ينتمي إلى إحدى دول المنطقة، في نحو الخمسين من العمر أو يزيد، لا تملك هيئته ما يملأ به العين، ليس لأنه مكفوف البصر، وإلى جانبه سيدة أمريكية، ضئيلة الجسم، تتقن الحديث بالعربية، لاحظنا أنها تقوم بأعمال السكرتاريا له، وعرفنا أيضًا أنها زوجته.

أخذ المحاضر يتحدث عن غياب الديمقراطية في البلاد العربية، ويُعدّد أسبابا لها، كانت في رأيه سبعة، ما أزال أذكر منها سببين اثنين: الإسلام وأمريكا!

بعد انتهاء المحاضرة، فتحت السكرتيرة باب المناقشة، ولست أدري ما إذا كنت أول من

تكلم... قلت ما خلاصته: نعم إنها أمريكا، التي تفضّل أن يتولى حكم كلّ شعب من شعوبنا، حاكمٌ فرد يكون من لابسي الخاكي، يسهل التفاهم معه من "تحت الطاولة" في الوقت الذي يعلن معاداته لها في الظاهر، وضربتُ مثلاً بذاك الذي أصبح زعيما في تلك الدولة العربية الكبيرة، بعد أن قلب نظام الحكم وودّع عاهلها في قصره المطلّ على البحر - بحضور السفير الأمريكي - حيث كانت باخرة تنتظر للرحيل به إلى المنفى.

أذكر أني، لما أشرت إلى ذلك السفير - واسمه "المستر كافري" - ووصفته بأنه "عرّاب الانقلاب"، ارتفعت همهماتٌ صغيرة من اثنين أو ثلاثة من الحاضرين، لم أشكّ في أنها تعبّر عن الاعتراض على وجهة نظري أو بالأقلّ على وصفي للسفير بأنه عراب الانقلاب، ولم يكن هذا يومذاك بخاف على أحد، فصور الوداع المنشورة في صحف اليوم التالي بالقاهرة تُبيّن.

وكان عندي كثيرٌ من الكلام أودّ الإفصاح عنه، ما دعاني إلى أن أكتفي بما قلت، مشيرًا إلى أني سوف أكمل حديثي بعد مداخلات الإخوة الحاضرين. ولكنّ السكرتيرة لم تفسح لي مجال القول عندما طلبت استئناف الكلام!

ولحظة انصرافي صافحني السفير - واسمه "كريستيان روس" - بشيء من الاهتمام، وقال إنه يسمع لأول مرة أنّ سفيرا من دولته كان في وداع ذلك العاهل!

وأضيف هنا أنّ الزعيم الانقلابي حجب عن الملك الذي كان، راتبًا يعيش منه في منفاه، وأكثر من ذلك أنه دسّ له مَن يقضي عليه بموت بطيء بيد ممرّضِه الذي جرى على أن يقوم بتدليك جسده المتورّم كلّ يوم.

إنّ ما دفعني إلى سرد هذه السالفة، وقد مضى عليها إحدى وعشرون سنة، هو تلك "الغمزة" بالعين... تاركا لمن يقرأ مجال التفسير.

نُشرت في عدد اكتوبر ٢٠١٦ من مجلة "رؤية سورية"

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: عصر الإثنين ٣١-١٠-٢٠١٦

مجلة "صوت الطالب" في ثانوية المأمون بحلب ١٩٥٠

استغرقني حبُّ الأدب وأنا طالب في صفّ الشهادة الثانوية (البكالوريا) في "ثانوية المأمون" بحلب، حتى لقد خطر لي أن أقترح على مدير المدرسة الشاعر "عمر يحيى"، أن نصدر نحن الطلاب مجلة مدرسية بإشراف الإدارة، وكان هو من يدرّسنا مقرر الأدب العربي، ورأى فيّ "تلميذًا متفوّقًا" في الأدب بدليل أنه أتاح لي أن أكتب، في "سجل شرف" يقتنيه، الدراسةَ الأدبية التي كان اقترح موضوعَها علينا في بداية العام الدراسي ١٩٤٩-١٩٥٠ كنت فيها المبرّز، وأذكر أنها عن حالة الأدب في بداية العصر العباسي (أو شيء من هذا القبيل).

وكان من حسن الحظ أن وافق المدير الشاعر على هذا المقترح، وجعلوني "أمين التحرير" في المجلة، وكلفوا ذلك المدرس الشاب، العائد حديثًا متخرّجًا من معهد المعلمين العالي ببغداد، "سليمان العيسى"، الإشرافَ على تحريرها، واقترح أستاذُ التاريخ القدير العائد من دراسته في فرنسا، "عبد العزيز عثمان" (فيما بعد المدير العام لمؤسسة التأمين والمعاشات)، أن نسمّيها "صوت الطالب"، وكتب مقدمة للعدد الأول، وصمّم الغلاف الفنان التشكيلي "ألفريد بخّاش".

تلقينا مقالات، وقصصًا، وأشعارًا يُقرزمها الطلاب، وكان ممّا وصل إلينا ونشرناه قصة من وحي حوادث ١٩٤٥ يوم نهض الشعب السوري ضدّ المستعمرين الفرنسيين يطلب الاستقلال، عنوانها الصارخ "قتلتُ أبي": فتى يمور وطنية، يشعر بالإهانة أن يبقى أبوه الضابط

في الجيش الفرنسي في صفوفهم ولا ينشقّ مع العسكريين الوطنيين الذين بدؤوا بالانضمام إلى الثورة، فقرر الابن قتل أبيه رميًا بالرصاص في الثكنة التي ما زال يعمل فيها، ولكنه يخطئ التصويب، وينال هو رصاصة من الجندي المرافق، وبعد أن يفيق من غيبوبته في المستشفى يرى بجانبه أباه، الذي انشقّ وانضمّ، يحنو عليه ويقول له: «أنت لا تجيد إصابة الهدف يا ولدي!»، هي قصة من وحي تلك الأيام المجيدة.

بعد نشرها في مجلتنا، التي تجاوز عدد صفحاتها المئة من القطع المتوسط، علمنا أنّ هذه القصة للأديب الحلبي الشاب "أديب نحوي" منسولة (أو منشولة!) من كتابه "كأس ومصباح" (حلب ١٩٤٦)! وإذن فإنّ الأديب النحوي كان يكتب من يومئذ ما تُستحسن قراءته حتى يُغري بالانتحال! (أصدرت وزارة الثقافة بدمشق أعماله الكاملة في مجلدين، ط١: ٢٠٠٣، ط٢: ٢٠١٣)

أشير إلى أنّ العدد الأول من مجلتنا تضمّن قصيدة للشاعر سليمان العيسى مطلعها:

لُفَّ اللهيبَ على الجراح وشاحا خُلق الشباب تمرّدًا وكفاحا

ونُشرت لأمين التحرير مقالة عنوانها "الخلفاء الشعراء" ومقطوعة شعرية مطلعها:

خذ هذه الناي واعزف في جوانبها لحنًا حزينا فما يُشجيك يشجيني

ممّن ظهرت أسماؤهم في هذه المجلة منذ عددها الأول (كانون الثاني/ يناير ١٩٥٠)، من طلاب "ثانوية المأمون" ثمّ برزوا في المجتمع كتّابًا ومبدعين وشخصيات عامة:

في مجال الشعر والأدب والصحافة والفن التشكيلي: أحمد رجائي، زهير موصلي، عبد القدوس أبو صالح، فاضل السباعي، منير داديخي، عبد الوهاب فتال، رياض قادري، فاتح المدرس (كان مدرسا للإنكليزية)، لؤي كيالي.

حقوقيون وأطباء ومهندسون: منير رفاعي، وليد إبراهيم باشا، ناصح كيالي، سمير كيالي، مروان رفاعي.

ضباط في الجيش: عبد الغني برّو، كنعان ذهني.

والمجلة بأعدادها الثلاثة في حوزتي.

وقع هذا في ذلك الزمن الجميل.

نُشرت في جريدة "تشرين"، اليوم، العدد ١٢٧٦٩ في زاوية "أيام وليال"

دمشق الشام: ليل الإثنين ٣١-١٠-٢٠١٦

الإعلامي "إبراهيم الجبين".. يُصدر رواية

كان طبيعيّا، عند الإعلامي المتميّز "إبراهيم الجبين"، الذي وثق الحاضر والماضي بأعمال إبداعية، ونظم الشعر، وكتب النصوص السردية، وكان أن غادر البلاد منذ الحراك الشعبي، يكتب عن وطنه بنبض القلب والقلم...

أقول: كان متوقعًا أن يستجمع نفسه ويكتب عن دمشق التي تعاني، فكانت روايته «عين الشرق» التي صدرت أمس.

سورية تحفَل بالمبدعين بقدر ما تعاني من الآلام والأحزان... فقط لو يتاح لهم أن يقولوا.

دمشق الشام: فجر الإثنين ٣١-١٠-٢٠١٦

أعترف للأصدقاء

أعترف للأصدقاء أني عجزت عن متابعة الردود والتعليقات أمس واليوم، فاعذروني.

دمشق: مساء الثلاثاء ١-١١-٢٠١٦

يوم تطلّعت لرئاسة مجلة "التراث العربي"

في عام مضى، ربما كان ٢٠٠١، شغَرت رئاسة تحرير "التراث العربي" (وهي مجلة فصلية، واحدة من عديد من الدوريات التي يصدرها باقتدار اتحاد الكتاب بدمشق)، واقترح رئيس الاتحاد، بمصادقةٍ من أعضاء المجلس التنفيذي، أن يرأسها الدكتور (ع. م. ب)، الذي اعتذر لأسباب، وظلّ رئيس اتحادنا يتابعه وهو يعتذر مدة عام تقريبا، والمجلة متوقفة عن الصدور والمواد المعدّة للنشر تتراكم.

ومرة كنت في زيارة "أمينة تحرير" هذه المجلة (ج. ط)، وعرفت الاعتذارات المتوالية والملاحقة المتكررة، وكان سبق لي أن نشرت في المجلة عددًا من الدراسات والبحوث عبر عمرها الذي كان قد تجاوز في ذلك العام عقدين من السنين، فخطر لي أن أُسرّ إليها برغبتي في أن أتولى رئاستها وإني لآنسُ في نفسي الكفاءة، فأيّدتني الأستاذة جمانة، وخرجتُ من عندها توا إلى مكتب الرئيس، وعرضت عليه الفكرة، فرحّب وقال: «قدّم مقترحك ونعرضه على المكتب التنفيذي»... وانصرفت فرحا.

بعد يومين علمت أنه تمّ بسرعة فائقة تعيين ثالث لرئاسة المجلة هو الدكتور (م. ر)، الذي تولى إدارتها باقتدار نحو أربعة أعوام.

وأدركت أنّ رئيس الاتحاد، الذي ظلّ يلاحق المرشّح الأول تلك المدة الطويلة، خشي – إن تقدّمت لهذا العمل – أن أحظى بالموافقة لدالّة قد تكون لي على أكثرية أعضاء المجلس.

وهكذا كانوا دائما يسبقونني... إلى المكرمات ويمنعونها عني!

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ١-١١-٢٠١٦

أرأيت إلى الشجر

أرأيت إلى الشجر

تُغدق عليه الماء

لتحول دون دخوله في سُباته الشتوي

ولا يُثمر جهدك!

فكذلك الإنسان في خريف عمره

مفتقدا حتى الدخول في ذلك السُّبات

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ٣-١١-٢٠١٦

في الأندلس.. أجرة الطبيب كانت مشروطة بالشفاء!

في اهتمامي بتاريخ الأندلس الغاربةِ شمسُها - وإنّ لي هوًى في هذا القطر الذي فقدناه - ولدى تتبّعي لتفاصيل الحياة هناك، لاحظت أنّ ما كان يتقاضاه الأُجَراء والعاملون والفَعَلة تُعدّ من أعلى مستويات الأجور في العالم الإسلامي يومذاك، وهذا يدلّ على ما كان يسود تلك الديار من نشاط اقتصادي وما يتمتّع به الناس من رغد العيش وبُلهنيّة الحياة.

وقرأت، في بعض كتب التراث الأندلسية، أنّ مكافأة الطبيب المعالج كانت عالية، ولكن ما استرعى انتباهي أنها كانت أحيانا مشروطة بأن يَشفَى المريض... وإلا فلا!

هذا إلى أنّ كثيرًا من الأطباء كانوا يَعِفّون عن تقاضي الأجور من فقراء الناس، ومنهم الطبيب "عبد الملك بن زُهْر" الإشبيلي (من أهل القرن السادس للهجرة / ١٢ م)، الذي عُنيتُ به كثيرًا، وقد سمّيته في البحوث التي كتبتها في الطبّ الأندلسي: "طبيب السلاطين والمساكين".

دمشق الشام: ليل الجمعة ٤-١١-٢٠١٦

"طوني".. الذي "يُصفّر" لعروسه!

كان "طوني" (تصغير أنطوان) شابًا ظريفًا بين زملائه في البنك (قبل تأميم البنوك عام ١٩٥٨)، ويظلّ يلقي النكات ويتندّر ولو على نفسه.

واتفق أن تزوج طوني، ولأنه "مرتّب" جدًّا فقد حدّث زملاءه في البنك بأنه اتخذ غرفتَي نوم لا واحدة، إحداهما له والأخرى لزوجته.

فسأله الزملاء المرحون: طيّب، وإذا أردت أن...؟

قال: "أصفّر" لها، فتسمع الصفير وتأتي.

قالوا: وإذا خطر لها هي؟

قال: تفتح الباب عليّ وتقول: «طوني، صفّرت لي؟».

فجعل زملاؤه في البنك كلما جاء أحدهم إلى مكتبه بداعي الشغل، يقول له: «طوني، صفّرتلي؟».

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٤-١١-٢٠١٦

أمام بيته تقف سبع سيارات، فارهة ومتوسطة وعادية(١)

وعلى الرصيف انتصبتْ "كولَبا"(٢)، فيها رجال يتناوبون الحراسة والنوم

---

(١) ويقصد جاره الذي يقطن فوق منزله المستأجر محمود الأبرش رئيس مجلس الشعب السوري في مرحلة زمنية

(٢) مقصورة أو حُجْرة صغيرة من الخشَب، توضع أمام المبنى ليجلس فيها حارسُه.

مررت، نازلا من السوق، أنوء بحَمل مشترياتي الصغيرة

غدا، إن شاء التاريخ أن يكتب... ما تُراه يقول؟

دمشق الشام: مساء السبت ٥-١١-٢٠١٦

عاجل!

وردتني على الخاص رسائل من أصدقاء في التواصل... أنّ زوجاتهم، بعد قراءة الخاطرة عن "طوني الذي يصفّر"، أخذنَ يتسلّين بالتصفير حتى وهنّ في المطبخ!

ولكنّ أطرف تعليق كان من الأب الذي يشاركه سكنى بيته أبناؤه المتزوجون، فهو لا يكاد ينام الليل من كثرة التصفير!

سوف أحذف هذا البوست بعد قليل.

دمشق الشام: ليل الأحد ٦-١١-٢٠١٦

وتأخذه.. إلى آخر الدنيا!

لست أدري كيف وجدتُني نزيلَ "جناح" من غرفتين وصالة استقبال في فندق فخم، استضافةً من المجلة التي أتعامل معها منذ زمن، لإنجاز مهمّة معرفية!

ما فاجأني أنّ نزلاء في الجناح المجاور، هتفوا إليّ يسألونني لقاءً، أعربوا لي فيه عن أنهم جاؤوا أمس من قُطر عربي غير بعيد، وأنّ أصحاب المعمل الذين جرَوا على أن يستوردوا منه الألبسة الأنيقة بالجملة ويوزعوها في بلدهم، سوف يأتون اليوم، والتمسوا مني: «لو تتلطّف، أيها السيد اللطيف، فتتخلّى لنا عن هذا الجناح، فإنّ علاقة إضافية يُتوقع أن تنعقد بيننا وبينهم اليوم، ونتمنى أن ينزلوا في جناح قريب منّا!»، وبيّنوا أنّ ابنهم الشاب "سعد" مدير أعمالهم في البلد، قد نشأت بينه وبين ابنة عملائهم "سُعدى" خريجة الأدب الإنكليزي، "علاقة حميمة"

عبر هذا المخترع العجيب المسمّى "فيس بوك"... ووعدوا: «سيكون لنا الشرف في أن تكون، أيها السيد الفاضل، بين المدعوّين إلى حفلة عقد القران!».

كان ما استبدّ بي من استغراب لما سمعت، لا يُضاهيه إلا ما انتابني من فضولِ كاتبٍ قصصيّ ودّ لو يستزيد من تفاصيل هذه الحكاية الطريفة. تركت الجناح إلى أصغر منه، فما حاجتي إلى هذا المتّسع من المكان وأنا رجلٌ دأب طول عمره على أن يقنع بالقليل!

ولكني أخذت أحدّث النفس في أمر آخر: كيف يمكن لفتاة مرهفة، أن تغادر المجتمع الذي عاشت فيه والبيئة التي احتضنتها، فتمضي مع شاب، "اقتنعت" به في هذا العالم الافتراضي، إلى بيئة أخرى، حيث تعيش، تنسجم، تُنجب... حتى تصبح جدّة؟

ولم يَطُل تساؤلي، فإني أعرف أنّ المرأة إذا "تمكّنت"... كان لها أن تأخذ الرجل الذي يحبّها إلى آخر الدنيا!

هذا منام، أيها الأصدقاء، تراءى لي فجر اليوم، أحببت أن أدوّنه على الورق... هل راق لكم؟

(نُشرت المقالة في جريدة "تشرين"، عدد اليوم ١٢٧٧٤، زاوية "أيام وليال")

\- - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى الأحد ٦-١١-٢٠١٦

مَحْلاها عيشة الفلاح!

نشر مقتطف منها سابقا تحت عنوان "الفن مين يعرفه"... هنا نص المقالة كاملاً!

\- - - - - - - - - -

كان غيرُ قليل من الكتّاب اليساريين بمصر ينسّبون أنفسهم إلى "حزب الوفد" الذي يرأسه مصطفى النحاس باشا في عام ١٩٥٠ وما حوله، وكانت الصفحة الأخيرة من جريدة "المصري" لسان حال الحزب ملاذًا أو مرتعا لأقلامهم، يُغرّدون فيها، من عبد الرحمن الشرقاوي وعبد الرحمن الخميسي ويوسف إدريس إلى محمود أمين العالم..... كل يوم مقالات صغيرة معبّرة عن آرائهم المتمردة، وبدا أنّ ذلك كان يطيب لحزب الوفد بدليل استدامة هذه الحالة. وأذكر أني – وأنا في تلك الآونة طالب في "جامعة فؤاد الأول" (جامعة القاهرة) – كنت أقطع تلك الصفحات جاعلا إياها مصدرًا من مصادري الثقافية وهي في مرحلة التأسيس.

ولن أنسى انتقادهم الهادئ لرائد القصة المصرية محمود تيمور (الذي ظللتُ معجبا بأدبه "الأنيق")، ومردّ انتقادهم إلى أنه يكتب من "برجه العاجي" عمّن هم "في القاع"، وفاتهم أنّ ذلك – إن صحّ – حسنة له وليست سيّئة! وتشهيرهم بالقامة العالية عباس محمود العقاد... وكان بعض ذلك ممّا تشاركَ في كتابته محمود أمين العالم ومحمد عبد العظيم أنيس، وأَصْدَرَاهُ في وقت لاحق ببيروت في كتاب لطيف سَمَّيَاه "في الثقافة المصرية".

ولست – في عجالتي هذه – إلا لأنوّه بأنّ هذين الرجلين (العالم وأنيس) أو أحدهما، قد تطرّق في مناحي نقده للفنان محمد عبد الوهاب، وعلى وجه الخصوص في تلحينه لأغنيته:

مَحْلاها عيشة الفلاح

مطمّن قلبه ومرتاح

يتمرّغ على أرض مراح

والخيمة الزرقا ساتراه

وأتخيّل الكاتب الناقد كان يوشك أن يقطّع شعر رأسه وهو يستمع إلى هذا المقطع من الأغنية:

الشكوى عمره ما قالهاش

إنْ لاقى والا ما لقاش

والدنيا بقرش ما تسواش

طول ما هو اللي بحبّه حداه

فقد وجد الماركسي الناقد رقّة زائدة، في الكلمات وفي صناعة اللحن والأداء الطربي، وهو من كان يريد للكلمات أن تكون ثورية وأن يكون اللحن مثيرًا، استنهاضًا لهمم الفلاحين في الانتفاض على الإقطاعية. وههنا وثبت إلى خاطري تلك "النكتة" التي تقول إنّ "لينين" كان قبل الثورة يقف يوما وصديق على قارعة طريق، يتحادثان، فمرّ بهما متسوّل، مدّ الصديق يده مستجيبًا، فانتهره لينين بقوله: «لا تؤخر الثورة!».

وبدا أنّ ذلك لم يكن لا في بال كاتب الكلمات، ولا في بال الفنان الكبير محمد عبد الوهاب، عند الاشتغال بهذه الأغنية في عقد الثلاثينيات المنقضية، والنقد - أظنّه - كان في شتاء ١٩٥٢-٥٣، وعبد الناصر رافعا راية الاشتراكية.

هذا وقد أدّت هذه الأغنية "أسمهان" ذات الصوت السحري، وبعد سنين أخرى "نجاة الصغيرة".

وأشهد هنا أن قلب عبد الوهاب، وكذلك قلب أم كلثوم، كانا في تلك الآونة يملؤهما الخوف من أن تقصيهما "الثورة" الطالعة، وهما اللذان كانا قد غرّدا بالأغاني امتداحًا للملك فاروق، وأخصّ أغنية عبد الوهاب الباذخة "أنشودة الفن"، نظَم كلماتها الشاعر (الرسمي) "صالح جودت"، ومطلعها:

الدنيا ليل والنجوم طالعة تنوّرها

نجوم تُغري النجوم من حسن منظرها

ياللي بدعتو الفنون وفي إيدكو أسرارها

دنيا الفنون دي خميله وانتو أزهارها

والفن لحن القلوب يلعب بأوتارها

والفن دنيا جميلة وانتو أنوارها

إلى أن يقول:

الفنّ مين يوصفه إلا اللي عاش في حِماه

والفن مين يعرفه الا اللي هام في سماه

والفنّ مين شرّفه غير "الفاروق" ورعاه

والأغنية في بعض كلماتها هي ممّا تتقرّب به جماعات النخبة من السلطان في كلّ زمان ومكان، حبًّا أو تملُّقًا، وقد حُجبت هذه الأغنية – وإني لأراها من أبدع ما حقق مطرب الأجيال محمد عبد الوهاب – وبقيت قامته شامخة.

وما أزال أذكر مدى "الحنيّة" في صوته وهو يؤدّي الكلمات التي تخصّ "الفاروق"، هذا الملك الذي لم نكن نظنّه يومئذ "إبليسًا" كما صوّرته لنا السياسة بعد خلعه من العرش، مع معرفتنا بخلاعته، ولنعلم أنه كان ممّن أسهموا في تأسيس "جامعة الدول العربية" بالقاهرة يوم تسجيل الأغنية عام ١٩٤٥، المؤسسة العربية التي تراكم ما لها وعليها عبر عقود الزمان التالية.

وأذكر أني استمعت قبل بضعة عشر عاما إلى هذه الأغنية بعد طويل احتجاب، من إذاعة مونت كارلو، تقدّمها مذيعتنا المحبوبة "هيام" في برنامج لها، وقد مسّني لسماعها طربٌ عظيم، ما أدري: أَلروعة الأغنية، أم لانتعاش الذاكرة؟!

أقول: وقد أصبح محمد عبد الوهاب فيما بعد صديقا لنظام الحكم الجديد، وهو من مُنح استثناءً رتبة "لواء/ جنرال"، وأصبحت "أمّ كلثوم" كذلك صديقة تُحيي الحفلات بعد نكسة يونيو/ حزيران جمعًا للتبرعات.

رحم الله كلّ من ذكرت، وحسرة على ذلك الزمن الذي كان جميلاً.

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأحد ٦-١١-٢٠١٦

في الطريق إلى مقرّ "الاتحاد"

قرّرت أن أذهب اليوم إلى مقرّ "اتحادنا" في منطقة "المزّة"، وليس المكان بقريب. ورغبت نفسي في أن أستقلّ مواصلة "السرفيس" وإن كان على مرحلتين، أملا في أن أختلط بالناس وأرى فرحهم المرسوم على الوجوه وأتخيّل معاناتهم المخبّأة في الصدور.

لم يعسر عليّ أن آخذ السرفيس من "ساحة الجسر الأبيض" الذي قادني إلى "جسر الرئيس". وأما الحافلة، الطويلة العريضة التي كان عليّ أن أستقلّها من هناك، فقد صعُب عليّ الصعود إليها في الزحام، ورأيتني أنحشر بين الناس، متوكّئًا على رجل، جاءت يدي بالمصادفة بين ساعده وصدره، فقلت أمازحه بأني في وضعي يدي هكذا فكأنني أريد "جزدانه" (محفظة النقود)! فضحك وقال: «على حسابك، بس الجزدان فاضي!». وأتيح لي، عند موقف كلية الآداب، أن أرتاح على مقعد، ومن النافذة أخذت أرنو إلى البنايات التي تمرّ بنا، والسيارات، والناس... تلك هي مدينتي!

عندما غادرت الحافلة نزلت في النفق، وصعدت إلى الرصيف الآخر. أين مدخل المبنى الذي أعرف؟ دلّني أحدهم أن أنزل في نفق مُحدَث، خرجت منه إلى فناء مبنى اتحاد الكتّاب.

صعدت الدرج، سألت، فدلّوني. التقيت، تحدّثت، صوروا لي "الدراسة" التي أبغي تقديمها للنشر في مجلة "الموقف الأدبي"، ومنحوني نسخة من آخر ما صدر من أعدادها.

في وقوفي على رصيف الأتوستراد عائدا إلى بيتي، قلت لسائق التكسي: «وينك! ما عندي إلا "أمّ الخمسميّة" لتوصلني إلى بيتي وراء جامع الروضة!»، رضي الرجل، وسألني عند "ساحة الأمويين" عن موقع البيت، فبيّنت له، فقال: «يعني جنب بيت ميادة الحناوي!».

ودخلت المطبخ أحضّر طعام الغداء، "سَفَرْجَليّة" جنبها رزّ، أكلة حلبيّة لم يعتد أهل دمشق طبخها. تفضلوا.

دمشق الشام: مساء الإثنين: ٧-١١-٢٠١٦

خيال صديقي.. عند بائع الفروج!

وقفت وصديقي أمام بائع الفروج، ننتظر دورنا في الشراء وقد اشتدّ على الفروج الطلب حتى طال صفّ الواقفين على الرصيف.

سمعت صديقي يقول بعد تأمّل:

ـ يخطر لي، اللحظة، لو أنّ "طَفرةً جينيّة" تجلّت في عالم الدجاج، جعلت هذا الصنف من الكائنات الوديعة، التي نأكل لحمها، مشويّا، ومحمّرًا ينشر فوق صحائف الرزّ، ومطبوخًا مع الخضرة والملوخيّة... فامتدّت – مع الطفرة – قوائمُه وأصبحت كأيدي البشر، وتسامى عقله حتى استطاع أن يستولي على الحكم في كوكبنا هذا الذي نعيش فيه، فنُمسي نحن مَن يُشوى، ويُحمّر ويُنشر فوق صحائف الرزّ، ويُطبخ مع الملوخيّة وكلّ أنواع الخضرة!!

ولم أضحك أنا على هذا التصوّر، وما ضحك هو ولا ابتسم، بل استفاض في حديثه... حتى عافت نفسي ونفسه الشواء، وانصرفنا جائعَين.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٨-١١-٢٠١٦

عندما ننشر في الدوريات

عندما ننشر في الدوريات (مجلات، جرائد)، فإن ردود الفعل لأفكارنا تأتي - إن جاءت - متأخرة... ولكنها، في شبكة التواصل، تأتي بطَرفة عين.

هذا يذكر بالمتعة التي يستشعر بها الممثلون وهم على خشبة المسرح، وتراخيها عند الممثلين في السينما واليوم في التلفاز.

دمشق الشام: ليل الجمعة ١١-١١-٢٠١٦

لحظة همّ بالتوجّه إلى مقرّ الجريدة

لحظة همّ بالتوجّه إلى مقرّ الجريدة، التي نشرت له ولأول مرة مقالة عن المعذّبين في الأرض، وعد زوجته بأن يعود وفي يده فرّوج تطبخه، وخضرة وفاكهة، وزيتون وعطّون وليمون، وربطة خبز سياحي...

لما عاد كان في يده لفّتان من صندويش الشاورما.

بعد الطعام دخل غرفته يتابع الكتابة.

وجلست زوجته تحوك له لفحة من صوف تُدفئ عنقَه والكتفين ساعة ينحني على الورق يكتب في برد هذا الشتاء.

دمشق الشام: مساء الجمعة ١١-١١-٢٠١٦

"مؤامرة كونيّة"!

جاء الصيف

ورحل الصيف

جاء الخريف

وسوف يرحل الخريف

وقبلهما توالت فصولٌ

وفصولٌ

وفصول...

والحرب ما تزال دائرة

إنها حقا "مؤامرة كونيّة"

لكن على مَن!

دمشق الشام: ضحى السبت ١٢-١١-٢٠١٦

عدت إليك، يا وطني

عدت إليك، يا وطني

لأنام تحت ثراك

المضمَّخِ بآلام الأبرياء

وأنا أدرك

أنّ عين التاريخ

لا تنام

دمشق الشام: ظهيرة السبت ١٢-١١-٢٠١٦

زرت بالأمس صديقا في عودته من السفر

زرت بالأمس صديقًا في عودته من السفر، فرأيته يلهج لسانه بالدعاء لأبنائه المغتربين في بقاع الأرض، يوفّرون له كلّ ما يحتاج إليه

وتذكّرت صديقا قبله، حدّثني بآخر ما تلقّى من ابنه الطبيب في ديار الغرب: «يا أبت! يؤسفني أن أعلمك بأنّ التزاماتي زادت هنا، فقد اقتنيت بيتا آخر لـمّا يسكنه مستأجرٌ بعد»!

دمشق الشام: مساء السبت ١٢-١١-٢٠١٦

إنّ دمشق

إنّ دمشق

التي انطلقت منها جيوشُ الفتح

والمبدعةِ لأحسن حضارة في زمنها

تتلقّى اليوم... العقاب

فأية عقوبة

يدّخرها التاريخ

للذين يُبدعون في تدميرها!

دمشق الشام: فجر الأحد ١٣-١١-٢٠١٦

"السَّفَرْجَلِيّة".. لـ حلب!

لم أهتمّ بالطبخ إلا بعد أن أصبحت أعيش وحيدًا. كيف تُعَدّ الخضرة المشكلة بالفرن، كيف تُطبخ الفاصوليا الخضرا وجنبها الرزّ، المحاشي بأنواعها الباذنجان والكوسى والقرع (الأكواز)... ومن ذلك "السَّفَرْجلِيّة" هذه الأكلة الملوكيّة التي بدا أن أهل حلب وحدهم الذين اختصّوا بها وتخصّصوا!

في مطلع موسم السفرجل هذا العام المواكبِ للتفاح، وقفت، في صفحة مجموعة حلبيّة (التجهيز الأولى...)، على وصفات لصنع المربّى من السفرجل وأكلة السفرجليّه باللحم، حفظتُها وطلبت من أعضاء المجموعة المزيد... ثمّ توجّهت إلى "سوق محي الدين" لشراء السفرجل.

العمل: تُقطّع، يا صاحبي، نحو خمس سفرجلات إلى مكعّبات أو ما يُشبه، تنفي عنها البزر وما قد يتغلغل فيها من بقع سود. تسلق اللحم حتى ما قبل النضج الكامل. تكون قد فرطت من الرمان الحلو أربعًا تتخللها واحدة حامضة، وجعلت حبّهُ في "الخلاط الكهربائي" مع قطع من بندورة حمراء متماسكة (تسهيلا لعملية الخلط). تُصفّي الناتج في مصفاة متوسطة الثقوب لطرح بزور الرمّان القاسية. تكون حضّرت التوابل، من بهار ونعنع يابس وتوم مطحون وملح، وملعقة من ربِّ البندورة، تخلط ذلك كلّه مع ما صفّيت من ماء الرمان، وترميه فوق اللحمة على النار، ثمّ تدلق قطع السفرجل. ولا بأس بملعقة "ملح ليمون" وأخرى سكّر وقدر ضئيل من ألية الخروف. ولن تنسى أنّ السفرجل سريع الاستواء. تتذوّق، والطبخة على النار، لتُعدّل المقادير، وأنت الذوّاقة. ويكون التحريك لطيفا.

وطبخة رزّ، ويقال الأفضل "برغل" مع هذه الأكلة. ويحسُن أن تكون "الفليفلة" من اللون الأحمر انسجامًا مع لون السفرجل والمرق. هذا وقد تُطبخ في داخل السفرجليّة كرات من الكبّة

محشوة باللحم أو بدونه، وذلك ما لا أتعاطاه، لصعوبة عمله... وكلْ هنيئًا.

كتبت في صفحتي قبل أيام عن خروجي من البيت إلى مرفق من المرافق الثقافية في البلد. أحببت أن يكون تنقّلي بالمواصلات التقليدية. وصفت الزحام وما عانيت. وكانت العودة بالتكسي، الذي قلت لصاحبه: «وينك! ما عندي إلا أمّ الخمسميّة!». وفي البيت أخرجت من البراد وجبة "سفرجليّة"... وهات يا تعليقات!

إحدى الصديقات في التواصل، وهي حمصيّة ما زالت تتنقّل عند ذرّيتها ما بين أمريكا واوروبا، كتبت تقول: «السفرجليّة لحلب، والمشمشيّة للشام، والكبّة المشويّة لحمص»، فتذكّرت طفولتي في "زقاق الزهراوي" بحلب.

ولأعد إلى الوراء، قليلاً أو كثيرًا: جدّي لأبي، الحمصيّ، تزوج عام ١٨٩٥ (أو ما حوله) من امرأة حمويّة، وأسكنها حمص نحوًا من عشرين سنة، إلى أن أُعلن النفير العام في ١٩١٥ وجدّي في الخامسة والأربعين. فتوجّه إلى حلب ليضع نفسه عند ابن عمّ له، هو الطبيب العسكري "الدكتور نافع السباعي" (فيما بعد أول رئيس لنقابة الأطباء بحلب بعد الاستقلال)، واستقرّ بحلب وتواصل إنجابه. جدتي الحمويّة كانت قد تعلّمت وهي في حمص، وأتقنت، عمل أنواع الكبب ومنها الكبّة المشويّة على الطريقة الحمصيّة: أقراصُ عجينة الكبّة من طبقتين، بينهما لحم مقليّ وحبّ رمان في موسمه، ولا بدّ من قطعة صغيرة من شحم الخروف. تُطبَق القطعتان إحداهما على الأخرى، وتُكبس دوائرها بالأصابع للتماسك، وتوضع على نار هادئة. لم يكن جيراننا الحلبيّة في زقاق الزهراوي يعرفون هذا الشكل من الكبّة المشويّة.

وبمرور الزمن انتقلت أكلات كلّ بلد إلى غيرها من المدن... إلا "السفرجليّة" عَنَّدت، وأكلةٌ حلبيّة ملوكيّة أخرى "اللحمة بالكرز"، التي - إن راق لكم حديثي هذا - رويت لكم

عنها الحكايا!

(نُشرت في جريدة "تشرين" عدد اليوم ١٢٧٨٠، في زاويتي "أيام وليال")

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى الأحد ١٣-١١-٢٠١٦

يظلّ الآباء يجاهدون في السياسة

يظلّ الآباء يجاهدون في السياسة

فتمتلئ جيوب الأبناء... حتى لا يعرفون أين يودعون الفائض

دمشق الشام: ضحى الاثنين ١٤-١١-٢٠١٦

أنا.. وسائق التكسي

لم يكن المشوار الذي أبتغيه قريبا. سألت سائق تكسي استوقفتُه عمّا يطلب فيه (فقد ألغي العمل فعليّا بالعدّاد بعد انتشار "الحواجز" المُعيقة في الطرقات)، فأجابني بما لا أتوقّع: «متل ما بدّك!»، فحدّدت له مبلغا معتدلا عبّر عن رضاه به، واتّخذت جلستي بجانبه.

أَعترف لكم، أيها الأصدقاء، بأنه يطيب لي أن أتحدّث مع "الناس البسطاء" بقدر ما أسترسلُ في الحديث مع "الناس المثقفين".

وهكذا مضيت في الحوار - مع هذا الذي فوّضني بأن أحدّد أجرة المشوار - عن كثرة الحواجز في شوارع المدينة وما تفرضه من التوقّف والنظر في مستودع السيارة الخلفي، وعن المطر الذي انحبس فما هطل في دمشق، والأسعار التي ما تزال ترتفع كلّ يوم، وكلّ ساعة، مع ارتفاع الدولار.

وسألته عن أسرته ودخله ما إذا كان يفي بتكاليف المعيشة؟ وعمّا إذا كان يُفوّض دائما ركابَ سيارته بتحديد الأجور؟ وسألني عن العمر وماذا أعمل في شيخوختي البيضاء؟...

إلى أن تجرّأت وسألته عن "الوضع في البلد"؟ فإذا هو يجيبني كالمتوسّل: «أستاذ، الله يخلّيك، بلا حديث في السياسة!».

فتأكد لي كم ذا نجح النظام في "تحييد" المواطنين... وغمغمت في ذات نفسي: نحن شعب قد أُحسِنت تربيته!

دمشق الشام: مساء الإثنين ١٤-١١-٢٠١٦

من فيض رواتبه!

درس، وتخصّص على حسابهم، وقعد ينتظر.

هل نقول إنه أحسّ بالملل، بغضاضة الانتظار؟

إلى أن جاءه الدور، فسلّموه منصبًا رفيعًا.

وما بين غمضة عين وانتباهتها... قُدّر له أن يقتني دارة (فيلا) فخمة، سكنها، ومدّ فيها رجليه حتى الأخير.

وفي ذلك قال الشائنون: هذا من فيض رواتبه!

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ١٥-١١-٢٠١٦

تعليق على: "السَّفَرْجَلِيّة لـ حلب!"

العم والأديب المحترم أبا فراس

لك الصحة وطول العمر

جميل أن تخدم نفسك بنفسك، والأجمل أنك تقوم بذلك وقد بلغت من العمر عتيًّا.

لكن على ما يبدو أنك "شيف" متمكّن من فنّ الطبخ، ولا سيما صعوبة تحضير الطبخة الموصوفة، إذ يحتاج المرء لدراستها نظريًا لمدة أسبوع، وتجربة طبخها عدة مرات على التوالي، هذا إذا كُتب للتجارب النجاح.

ويحزّ في نفسي أن تكون وحيدا وأنت في مرحلة عمريّة يجب أن تُخدم فيها..

واقتراحي: التوجّه إلى أمريكا للراحة والاستجمام، وقضاء العمر بين الأبناء والأحفاد، والتفرغ التام للكتابة، أو الطلب إلى الغالية "سهير" في فلوريدا العودة إلى دمشق لتخفيف العبء عنك، بتولي مهام الطهي، لكن ما أخشاه أن تصبح عبئا عليك، وتنتظرك حتى تطهو...

تقبّل فائق التقدير والاحترام

مجموعة «حوارات سورية»

ألمانيا، س ٦ صباح الإثنين ١٤-١١-٢٠١٦

عزيزي سمعان

أولا أنا في عزّ شيخوختي!

ولتعلم أنّ قيامي بالطبخ يروق لي، وإن كنت أتعلّمه "على كبر"!

بالأمس كنت في أمريكا عند ذرّيتي، فلم يُرحْني البعدُ عن وطني الصغير (أعني بيتي ومكتبتي) وعن الوطن الأم.

والوحدة تعوّدت عليها.

وابنتي سهير، المقيمة هناك منذ ثلاثين عاما، لم يعد في وسعها مفارقة وطنها الثاني والعودة

إلى دمشق في ظلّ ما يقع.

وهي إن جاءت فلن أدعها تقوم بالطبخ، فلم يعد يعجبني من المآكل إلا ما تصنعه يداي!

وشكرا على ما تبدّى في تعليقك من مشاعر الودّ المقرونة باللطف والظرف.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ١٥-١١-٢٠١٦

مهاجرون سوريون.. نادمون!

تعاني اثنتا عشرة عائلة سورية من الندم بسبب لجوئها إلى قطاع غزة عام ٢٠١١، بشكل غير قانوني عبر الأنفاق هربًا من الحرب في بلادها،

وهي اليوم في غزة محاصرة:

- لعدم تمكّنها من العمل
- ولا يحقّ لها الحصول على مساعدات
- ولا يمكنها المغادرة!

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأربعاء ١٦-١١-٢٠١٦

صديقي عادل جاموس.. وداعًا، أيها الطيّب

ما كان ليخطر في بالي، وأنا أبتدئ دراستي الجامعية بالقاهرة خريف العام ١٩٥٠، أنّ لهذا الرجل – الذي تعرّفت عليه هناك – ابنَ أخ بحلب طفلا له من العمر عشرة أعوام أو نحوها، سوف يغدو صيدلانيًا وصاحب معمل للأدوية، ويكون له انتساب إلى الحياة السياسية في الوطن، وأن يجمع بيني وبينه ودّ جميل.

كان الرجل-العمّ قد وصل إلى مصر قبل ثلاثين سنة من ذلك اليوم، أهلُه من أسرة مشهود لها بالزعامة الشعبيّة في "حيّ الكلاسة" بحلب، ولم تفارق هذا الشابَّ المهاجر المغامر مورّثاتُ الزعامة فغدا من وجوه الناس في "حيّ العشماوي" (القريب من "العتبة الخضراء" بالقاهرة). عمل، وتزوج من مصرية، وأنجب. يُكنّى "أبو قدّور"، ويُلقّب بـ"الكاوي". ومن ظهوره بين أبناء وطنه هناك أنه كثيرا ما "أقرض" الطلاب السوريين الملهوفين، يعطي ولا يسأل متى السداد. بعد عودتي إلى بلدي متخرّجا كتبت عنه، قلت: «عمّق هذا الرجل معرفتي بطباع الطيّبين من أبناء الشعب العربي حيثما كانوا»، وذلك خلال أجوبتي عن "التحقيق الأدبي" الذي تعهّده حسام الخطيب تمهيدا لإعداد أطروحة الدكتوراه، وقد نَشر إجابات الكتّاب جميعا في مجلة "المعلم العربي" (عن وزارة التربية، العدد الثلاثي الصادر في مطلع العام ١٩٦٦).

وأما "ابن أخيه"، عادل جاموس، فقد كان أولُ لقائي به في دمشق عام ١٩٨٠ (أي بعد ثلاثين عاما من معرفتي بعمّه)، وكان عضوا في مجلس الشعب ويشغل منصب نائب رئيس المجلس، فرأيت من طيبته وودّه ما ذكرني بعمّه من زعماء العشماوي بالقاهرة.

أول ما أذكر من عونٍ، بل من فضل أسعفني به وأنا في حرج من أمري كبير، أني يوم ألقوا القبض عليّ عقب لقاء أدبي جمع بيني وبين طلاب كلية الآداب بجامعة حلب مساء يوم الإثنين ٢٢-١٢-١٩٨٠، توجّه فورا (وكنت قد نُقلت مخفورا من حلب وأودعت معتقلَ "الشيخ حسن" السيّئ السمعة بدمشق) إلى وزير الداخلية "ناصر الدين ناصر" - الذي كنت تعرفت إليه قبيل ذلك وهو مدير للتوجيه المعنوي في القوات المسلحة واستكتبني في مجلة "جيش الشعب"- يسأله في أمري، ويقول إنّ "القصة" التي ألقيتها أمام الطلاب وكانت سبب الاعتقال، لا تعدو أن تكون من "خيالات الكتّاب" وإن كانت "مسيّسة"، فكان أن طلب الوزير إضبارتي من "الأمن السياسي"، وأبيّن هنا أنه كان من حظي أنّ اعتقالي بحلب وقع من

قبل هذا الفرع الأمني التابع للداخلية وليس من قبل عناصر "سرايا الدفاع" التي شكلها رفعت الأسد. ولدى اطلاع الوزير على الإضبارة (التي بدا أنّ أهمّ ما فيها كان أوراق القصة وعنوانها "الأشباح"، نزّلتها فيما بعد في كتابي "آه، يا وطني! "، دمشق ١٩٩٦)، وأمر بإطلاق سراحي فورا، واتصل هاتفيًّا بصديقي عادل ليقول له: «صاحبك الآن في طريقه إلى البيت!».

لم يكن عادل جاموس بعثيّا، وهو من ناحية أخرى من محبّي الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، مع أنه - حسب علمي - لم يكن ينتمي إلى أي من التنظيمات الناصرية، وكان يضايقه أن يُنقد الزعيم الأسمر، وقلما فعلت هذا احتراما لمشاعره. وفي عضويته لمجلس الشعب، التي تتابعت في دورات أربع أو خمس، كان يُنتخب دائما في المجلس نائبا للرئيس، لكياسته ورغبة من النظام في تحقيق "توازن" بأن يكون واحد من القياديين في هذا المجلس من عاصمة الشمال.

ممّا أذكره من أحاديثه التي تنمّ على مشاعره المرهفة، أنه أوفد مرة من قبل مجلس الشعب إلى الأردن (في عقد السبعينيات) في زيارة أو مهمّة رسمية للبرلمان الأردني. قال إنه كان هو ورئيس البرلمان هناك (لا أتذكر اسمه) متوجّهين إلى موعد، واضطر مضيفُه الكبير إلى أن يتوقف بسيارته لحظة في مكان ما مزدحم لقضاء أمر، فاستأذن رئيسُ البرلمان الأردني شرطيَّ المرور، الذي أقبل إليه مؤديًا التحية، أن يسمح له بالتوقف خمس دقائق، وصديقي عادل يشهد... ومثل هذه الواقعة لا يظنّ أحد أنها ممّا يقع في بلدنا الحبيب!

هل اختلفَ عادل جاموس مع النظام مرة، فلم ينزّلوا اسمه في قائمة "الجبهة الوطنية التقدمية"، فعمد إلى أن يُرشّح نفسه "مستقلا"، وكان من "تكتيك" الساهرين على الانتخابات أن جعلوا اسمه في قوائم الفائزين المعلنة، ليس آخر من نجح، بل أول من لم يحالفهم الحظ، فبقي تلك الدورة خارج السرب، إلى أن سُوي الأمر.

كانت لعادل جاموس صيدلية في حيّه بالكلاسة، وقد أسس في منتصف التسعينيات معملاً للأدوية بحلب سمّاه "عَمْريت"، تعرّض المعمل للقصف، وتوقف عن الإنتاج تحت وطأة الأحداث.

وكان صديقي عادل رئيسًا "لجمعية الصداقة السورية - الإيطالية"، مثلما كان رئيسًا لمثيلتها "السورية - الرومانية".

لن يفوتني القول بأنّ الجبيب عادل أصيب بمرض في العينين، ما يُسمّى "تهتّك الشبكيّة"، ذلك المرض الذي يمشي ببطء نحو فقدان البصر، وكان يتمنى من ربّه أن يُبقى له من بصره ما يمكّنه من قراءة آيات من القرآن الكريم.

ولد عادل جاموس بحلب عام ١٩٣٩، وتوفي فيها يوم الثالث من شهر تشرين الثاني الجاري، أسكنه الله فسيح جناته.

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١٦-١١-٢٠١٦

مجتمع بلا شبّان!

حدّثني ابن صديقي، طالبُ الجامعة، أنه ذهب أمس لأداء اختبار في قيادة السيارة، فرأى هناك كثيرًا من الفتيات ولم تقع عينه إلا على شابين اثنين يناهزانه عمرًا.

اتجه الشباب إلى بلاد الهجرة، لا خوفًا من القصف... لكن هربًا من أن يؤخذوا مجنّدين يَسفِكون أو يُسفَكون.

دمشق الشام: فجر الأربعاء ١٦-١١-٢٠١٦

أسلحة الغرب.. الذكيّة!

يوم ابتكرت أمريكا أسلحتها "الذكيّة"، تُصوّر الهدف من الجو، ثمّ تسدّد وتصيب بإحكام... جرّبتها، منتصف ليل ١٢-١٣ من شهر شباط/ فبراير ١٩٩١، في "ملجأ العامرية" ببغداد، ذي السقف السميك المصبوب من مادة "الكونكريت" العصيّة على الاختراق، بأن صوّرت فتحة التهوية الوحيدة في الملجأ، وسدّدت إليها ووسّعتها، ثمّ قصفت، وقضت حرقًا على الملتجئين الألف من الأطفال والنساء والشيوخ!

ذلك ما عاينت نتائجه بنفسي، أيها الأصدقاء، عند زيارتي، زيارتنا نحن وفد المثقفين والفنانين السوريين لبغداد في ليل الأربعاء١٢-٣-٢٠٠٣، تأييدًا للشعب العراقي الذي كان يُحضّر لحربه (مقالتان في "تشرين" و"البعث"، آذار/ مارس ٢٠٠٣، وفي كتابي المعدّ للنشر "قمر لا يغيب").

أقول متسائلا: أسلحة روسيا الذكيّة، اليوم...

ألا تستطيع أن تُحدّد مكامن الإرهابيين، فتُحكم التسديد إليهم، وتقضي عليهم هم وحدهم؟

أم أنّ المقصود تدمير الأحياء السكنية، وتفريغها من سكانها، يا بوتن... العزيز؟

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ١٦-١١-٢٠١٦

ويتنزّه الطلاب الضباط ما بين شارع إسكندرون ومتنزّه السبيل

حدّثني صديقٌ قادم من حلب، أنه جاء لابنته (طالبة أدب عربي في سنة التخرّج)، "طالبُ قرب"، يلبس البدلة الخاكي، ومستعجل جدًّا، فاعتذرت عن قبوله، قائلة إنهم يقصفون

الأحياء السكنية، ويقتلون الأطفال، ويُهجّرون الناس!

وتذكّرتُ أيام كنت طالبًا في "ثانوية المأمون" بحلب في بداية عهد الاستقلال، كيف كنّا نرى، في أيام العطلة الانتصافية، طلاب المأمون الذين سبقونا في التخرّج وانتسبوا إلى الكلية العسكرية، يزورون مسقط رأسهم، يتنزّهون سيرا من شارع إسكندرون بالجميليّة حتى متنزّه السبيل، جيئةً وذهابًا، وكان هذا الطريق خلويّا، متباهين بزيّهم العسكري، وبالضفيرة الخضراء (الكوردون) متدلّيَة من الكتف اليسرى تخفق أمام موضع القلب، وفي الكفّ قفاز ناصع البياض... يطلّ من العيون الاعتزاز بحبّ الوطن، المستقلّ حديثًا، وعلى الجباه ترتسم آيات العزم على الدفاع عنه حتى الموت.

وكانت... وكانت بنات حلب تهفو نفوسُهنّ إلى أن تكون كلّ واحدة منهنّ "فتاة أحلامهم"!

ونحن... نحن الطلاب الذين ما آن لنا أن نُنهي دراستنا، نتحرّق شوقًا لأن نسير على دربهم.

دمشق الشام: عصر الخميس ١٧-١١-٢٠١٦

في بعض المدارس

في بعض المدارس

بدمشق القديمة...

ابتدؤوا يعلّمون الأطفال اللطم...

وليس هذا بسرّ خفيّ

دمشق الشام: ليل الجمعة ١٨-١١-٢٠١٦

سأبدأ اليوم بالكتابة!

كتبت لي شابةٌ سورية تعاني من قلق الإبداع، تقول:

- - - - - - - - - - -

السلام عليكم ورحمة الله

شرف كبير أن أراسل شخصية مهمّة في بلدي مثلك، أيها المربّي الفاضل.

ها أنا من سجني الكبير أكتب إلى شخص ألهمني أن أفكر في بداية لحياتي.. حيث أني بطريق الصدفة عثرت على صفحتك بالفيسبوك.. وبدأت أقرأ مقالاتك، وتاريخك الحافل ونجاحك المشرف.. فقررت أن أعيش كسورية لا كمغتربة! أن أفتخر بكل ما أتاني الله من نعم.. ولن أضيع باقي عمري بشكل سلبي على أطلال سوريّتنا الحبيبة.. فأنا محتاجة إلى الحياة..

بعد ما قرأت سيرتك الذاتية نظرت إلى سنين عمري التي تجاوزت ال٣٢ سنة، إذ لم أنجز شيئًا.. واتتني الهمّة لأن أغيّر نهج حياتي إلى الأفضل. أنا لا أنكر مهمة الأمومة والتربية، حقًّا هي رسالة سامية.. لكنني أنكرت وجودي كفتاة سورية واعية ولديها قدر من الثقافة، بحجة أنني مغتربة في مدينة صغيرة في السعودية.. عندما تراني بعض النسوة وأنا أقرأ رواية أصبح محطّ سخرية لهنّ.. يقلن لي: «عندك أربع بنات ولسّا عم تقري!!».

أين نحن من ثقافة أبناء جيلك أستاذي؟

أخذني فضولي إلى الكثير من الأصدقاء المضافين عندك، وأُعجبت بثقافتهم ورقي نقاشاتهم.. أدركت أن الغربة سلبتني جمال المفردات.. سلبتني أحلاما تمنّيت تحقيقها.. وعندما صحوت من غفلة الأيام أدركت أنني أضعت ثلاث عشرة سنة، هي سنوات غربتي، كنت خلالها أتذكّر ماضيًا وأتخيّل مستقبلاً..

اعذرني على الإطالة، وعلى ركاكة الأسلوب، فهذه أول مرة أتواصل مع شخصية مثقفة إلى هذا المستوى.....

اليوم سأبدأ بكتابة شيء عن حياتي، وسأذكر أنك من الشخصيات الإيجابية التي أعطتني دعماً لحبّ الحياة.

دمت بخير أستاذي القدير.

(......) السعودية، الخميس ١٧/١١/٢٠١٦ ٠٢:٤٨ ص

يا بنيّتي

أنت لم تُطيلي، لا ولا كان أسلوبك ركيكًا، بل معطّرًا بدفء المشاعر ومتألّقًا بالوعي ومزدانًا بالعزم على تجاوز مطبّات القهر والخيبات.

حسنا أنك تعتزمين أن تطرحي جانبا أعباء الحياة، ولا أراه بعيدا أن توفّقي في كتابة عمل سرديّ تتناولين فيه بعض همومك الذاتية وأحداث الوطن، تتجاوزين في ذلك "الاستطالات" الناشزة وتملئين "الفراغات" بوحي خيالك، وسوف ترين أنّ القلم يستجيب ويقطُر عذوبة وإبداعًا.

هل أقول لك بأنّ هذا ما وقع لي يوم شرعت بكتابة روايتي التي أحبّها القراء: "ثمّ أزهر الحزن"؟ وبالمصادفة كنت، في تلك الآونة (شتاء ١٩٦١-٦٢)، في مثل عمرك الذي ذكرت! وما أظنّ أني كنت في حال أفضل منك الآن، إنّ وعيك بحالك، وتمرّدك على واقعك، ولهفاتك إلى الكتابة، سوف تعطي "أزهارًا" تضاهي ما كان مني.

لك كلّ النجاح والتوفيق.

دمشق الشام: ليل الجمعة ١٨-١١-٢٠١٦

بعد عشرين عصا على القدمين

ويحدّثني صديقي عمّا وقع له في الزمن القديم، يقول:

إنه بعد الاستفتاء على الوحدة بين سورية ومصر أواخر العام ١٩٥٧، صدر توجيه بأن يُجمَع السلاح من أيدي أفراد "المقاومة الشعبية" - وهو منهم - فاحتجّ "شيوعيو" ذلك الزمان - وكان هو منهم أيضًا! - وأعلنوا عزمهم على الاحتفاظ به للدفاع عن الوطن، فأمر "السرّاج" بالقبض عليهم واحدًا واحدًا، و"تأديبهم"، وكان صاحبي يومذاك طالبًا في صفّ البكالوريا.

ويسترسل:

زاروا بيتنا سويعة الفجر، وأخذوني من فراشي بالبيجاما. أنت تعرف، يا صديقي، أني رجل "مزّاح" حتى في الشدائد. سألتهم وأنا في سيارة اللاندروفر: وكيف عرفتم البيت؟ فأضحكهم سؤالي، وظلوا يضحكون حتى لحظة أنزلوني إلى القبو.

هناك أقعدوني على الأرض، وأمروني: اشلح صبّاطك (اخلع حذاءك)!

فأخذت أتمهّل في فكّ رباط الحذاء، كسبًا للوقت! وتراءى لي أن أسألهم: هل أخلع الجوربين أيضًا؟

فضحكوا، وقالوا: لا!

ذلك الفجر أكلت عشرين عَصَاية على أخمص القدمين، ثمّ دفعوني إلى "قاووش[(١)]" كبير، فوجدته يغصّ بزملاء الأيديولوجيا، وأولهم أستاذي في البكالوريا الذي صيّرني شيوعيًا!

---

(١) زنزانة

بعد ذلك اليوم سلّمت سلاحي، وانسحبت من الشيوعية، وانصرفت إلى الحياة.

دمشق الشام: ليل السبت ١٩-١١-٢٠١٦

كان يريد أن يتحدّث إلى شقيقته، التي ظلّت تحت سقف الوطن

وكانت هي تتوق إلى سماع صوت أخيها الذي يصغرها بسنتين

فلما أتيح لهما الكلام

لا هو فهم ما تقول، ولا هي!

كان قد أدركهما العيُّ بفعل السنين

دمشق الشام: صباح الأحد ٢٠-١١-٢٠١٦

يوم غنّى "كارم محمود" في حلب

سافرت إلى مصر في خريف ١٩٥٠ للدراسة في الجامعة هناك، ولما عدت في الإجازة الصيفية سمعت الناس يتحدثون عن المطرب المصري المشهور يومذاك "كارم محمود"، أنه جاء حلب وأحيا في صالاتها حفلاته الطربيّة صباحًا ومساء، وأنّ أهل حلب الذوّاقين للطرب، أعجبوا بأغانيه "أمانة عليك يا ليل طوّل" و"مشغول عليك مشغول" و"على شطّ بحر الهوى"... وبكثير ممّا أدّى بصوته الصدّاح المفعم بالطرب.

ما رواه لي الأصدقاء أنّ الإعجاب فاض بهم لدى استماعهم إليه وهو يغنّي:

سمرة يا سمره

مره في مره

شغلني هواك

وتحدّثوا عن أنه في حفلة مخصصة للنساء سُمع صوت سيدة، شقراء، تخاطبه بالصوت العالي كالمحتجّة: «ما فيه أغنية ع الشقرة؟ كلّه ع السمرة!».

تقول الحكاية: إنّ المطرب المصري أسرع يهتف إلى جماعته بالقاهرة أنّ يؤلفوا له أغنية عن الشقراء، فوافوه بأغنية تُوازِن بين الاثنتين، مطلعها:

سمره وشقره بين الاتنين

والله احترتِ معايَ يا عين

سمرة بلونها الخمري سباني

شقره أشوفها أقول: آه ياني!

وما ندري ما إذا كانت الشقراء الحلبية رضيت بالجمع في الأغنية بين الاثنتين، وهي التي طلبت أغنية تخصّ الشقراء!

ملأ كارم محمود الأسماع والقلوب، وعمّت شهرته الأقطار في تلك الآونة... إلى أن خرج على الجماهير العربية "عبد الحليم حافظ" بصوته وإن كان غير صدّاح إلا أنه مفعم بالحبّ والحنان.

ولعلّ بعض الناس يذكرون أنه يوم غنّى على مسرح معرض دمشق الدولي أغنيته "في يوم من الأيام"، التي تأسى لذهاب المحبوبة إلى حبيب آخر، وفيها يقول بكلّ الحبّ والشجن:

اللي راح الشوق من قلبُه

والرقّة والحنيّه

واللي راح يتهنّا بحبّه

لو يعرف يبكي عليّ

وقيل يومذاك إنّ بعض من حضر تلك الحفلة، ممّن رقّت مشاعرهم، دمعت أعينُهم وهم يستمعون.

(نشرت في جريدة "تشرين" هذا اليوم، العدد ١٢٧٨٦، في زاويتي "أيام وليال")

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى الأحد ٢٠-١١-٢٠١٦

ليس دفاعًا عن.. "الأغنياء"!

أرى الأغنياء فئتين:

الذين جنَوا أرباحهم بكدّ اليمين، فقدّموا للمجتمع ما ينفع، وشغّلوا اليد العاملة، وإنّ ما يصدر عنهم من تجاوزات يمكن الحدّ منه بالمراقبة الدائمة والتشريعات الرادعة،

وأغنياء لم يكدّوا لا بيمين ولا بيسار، وانقادت لهم الثروات الهائلة... هؤلاء هم المفسدون في الأرض والمحاسبون في السماء.

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ٢١-١١-٢٠١٦

السؤال عن الصحة

بعد غياب طال

هتف إليه أخوه الأصغر، المقيمُ بعيدا سعيدا

سأله عن "الصحة"، وكرّر...

ولم يسأله عن شيء آخر

وهو خجل من الإفصاح

وانتهت المكالمة

دمشق الشام: صباح الإثنين ٢١-١١-٢٠١٦

عند طبيب الأسنان.. في واشنطن

يوم كنت في فلوريدا، زارنا قريبٌ يقيم في واشنطن.

حدّثنا، وهو خفيف الظلّ، أنه ذهب مرة إلى طبيب للأسنان حيث يقيم، ولم يكن يتمتّع بالتأمين الصحي، وبعد الفحص والمعاينة بيّن له الطبيب أن تكلفة المعالجة تُرتّب عليه أن يدفع كذا ألف دولار...

فصرّح له بالصوت العالي أنه إن ذهب إلى الوطن في زيارة قصد المعالجة، ودفع ثمن بطاقة الطائرة ذهابًا وإيابا، محمَّلاً بالهدايا للأهل كبارًا وصغارًا، مقيمًا هناك معزّزًا مكرّمًا، عائدًا بهدايا... ذلك كله يكلّفه ربع ما يطلبه!

غنيٌّ عن البيان أنه مُتاحٌ لهذا الرجل الدخولُ إلى وطنه الحبيب ومغادرتُه، غير متعرّض للمثول أمام جهات أمنية.

دمشق الشام: مساء الإثنين ٢١-١١-٢٠١٦

إننا نحن الشعب سنعيش، يا توم!

في رواية "عناقيد الغضب" للكاتب الأمريكي "جون شتاينبك"، حوار بين أمّ وابنها، اقتطفه يوما الكاتب المصري د. لويس عوض ونزّله في كتابه «الاشتراكية والأدب ومقالات أخرى»:

- - - - - - - - - -

ـ مهلاً، لا بد أن تعتصم بالصبر. ألا ترى، يا توم، أننا نحن الشعب سنعيش ونعيش بعد أن ينتهي كلّ هؤلاء؟ ألا ترى، يا توم، أننا الشعب الذي سيعيش؟ إنهم لن يستطيعوا إبادتنا، ونحن باقون.

ويجيبها توم قائلا: ولكنهم لا يكفّون عن ضربنا!

فتقول: نعم، أعلم ذلك، ولكن ربما كان هذا سرَّ قوتنا، فـ(الأغنياء) يأتون ويمضون، وأبناؤهم لا خير فيهم، وهم يذبُلون، أما نحن، يا توم، فلا نكفّ عن المجيء، فلا تحزن، يا توم. سيأتي حالٌ بعد حال.

قال: وكيف عرفتِ؟

قالت: لا أعرف كيف، ولكن سيأتي حالٌ بعد حال.

- - - - - - - - - -

طبعة جديدة في سلسلة "كتاب الجيب"، رقم ٦٩ شباط (العام؟)، عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، ص ٩٤ و٩٥

- - - - - - - - - - -

ملاحظة:

لا يستقيم المعنى في قول الأم «الأغنياء يأتون ويمضون».

هل استُبدلت كلمة "الأغنياء" بكلمة أخرى يكتمل بها المعنى: "الحكام"؟

هل من يملك نسخة من طبعة كتاب لويس عوض الأصلية "الاشتراكية والأدب"، فيدلّنا؟

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢١-١١-٢٠١٦

عنصريّةٌ في السؤال، وطائفيّه!

في صيف ٢٠٠٤، وأنا في لوس أنجلوس عند ابنتي سهير، ذهبنا يومًا إلى مركز طبي لمعالجة الأذن، وجلسنا ننتظر ونتحدّث بحضور ثلاث صبايا هنّ - كما عرفنا - خريجات معاهد طبية.

لاحظتُ أنّ إحداهنّ كانت تُصغي إلينا بإمعان، وكأنها تتقرّى الألفاظ والحروف، ثمّ لم تتمالك نفسها من أن تُعبّر لنا عن أنّ لغتنا تُشبه اللغة العبرية!

بعد أن تلقّت منّا الجواب، بادرت أسألها: أنت يهودية؟

أجابت بكلّ بساطة أنْ نعم. وما رأيتها "تعترض" على سؤالي.

في بلدي أصبحنا إنْ سأل أحدُنا آخر عن دينه أو مذهبه، اتّهموه بالعنصريّة أو بالطائفيّة! لأننا... لأننا نعلو فوق ذلك كثيرًا.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٢٢-١١-٢٠١٦

أنا ماني شحّادة!

ما وقع لي قبل قليل والمساء يُرخي سدوله، أني وأنا نازل من شارع نوري باشا باتجاه "الجسر الأبيض"، اعترضتني صبيّة تنوء بحَمل باقات من الخضرة تريدني أن أشتري منها، سألتها: ما هي؟ قالت: بقلة، قلت: لا أحتاج إلى بقلة، ومشيت، فلحقت بي تلحّ في أن أشتري باقتين بمئة ليرة، وفي متابعتي سيري جاءني منها صوت يتوسّل بأن أشتري.

هنا أدركت مدى حاجة هذه الصبيّة إلى أن تبيع، فعدت إليها ونقدتها مبلغًا، فبدا عليها الفرح، وأخذت تُنقّي لي باقات بمقدار ما دفعت، قلت لها: دعيها لك، ولما مضيت، لحقني صوتها يحتجّ: «عمّي، أنا ماني شحّادة!».

فعدت إليها وأخذت منها ما قدّمت لي من بضاعتها، ورأيت وجهها في أثناء ذلك يستردّ فرحه.

أيها السوريات، والسوريون... كم تستحقون من الاحترام! لهذا يريد العالم تدميركم!

دمشق الشام: مساء الخميس ٢٤-١١-٢٠١٦

أصدقائي

عندما تسيل دموعُ القلم على خدود الورق

راسمة منحنيات حبّي للشعب الذي أنتمي

في اللحظة ذاتها

أحسّ دموعا تغسل العينين

والقلب

وتزيد في الحبّ...

دمشق الشام: ليل الخميس ٢٤-١١-٢٠١٦

ووضعنا الجولان على الرفّ

حتى عفّرها غبار الزمن...

ومضينا نحو عروس الشمال.....

دمشق الشام: فجر السبت ٢٦-١١-٢٠١٦

من أصعب المواقف

من أصعب المواقف

أن تتحدّث عن أوجاع الوطن

إلى صديقك موظف الدولة

يُصغي إليك

وهو يبتلع غُصص الصمت

دمشق الشام: فجر السبت ٢٦-١١-٢٠١٦

البكاء.. حتى نهاية الحياة!

ما الذي يحمل صديقي القديم، الكاتب الروائي "مظهر الملوحي"، المقيم في أستراليا، على أن يكتب لي هذا صباح اليوم؟

- - - - - - - - - - -

ما أريده يا سيدي الفاضل

أن أجلس أمامك دون أن أنبس بكلمة

وأبكي

أبكي... إلى نهاية الحياة

فأنت الوحيد الذي يعرف ألمي!

مالبورن (استراليا)

صباح السبت ٢٦-١١-٢٠١٦ س ١٠:٤١

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى السبت ٢٦-١١-٢٠١٦

بعد أن حلّقوا في الطائفية يستاؤون إن ورد اسم طائفتنا على شفاهنا

تقول الأديبة "جمانة طه"، بنت الساحل – جبلة، إنها تلقّت على الهاتف وهي في أمريكا عتابا ساخنا من أحدهم، لأنها قالت، كتبتْ، أنها «مسلمة سنّيّة»، ثمّ ماتت الصداقة بينها وبين الهاتفين!

تُرى مَن يستحقّ أن يوصَم بالطائفية؟

اقرؤوا واعجبوا:

\- - - - - - - - - - -

بعد ربع قرن من الزمن ومن الصداقة الخالصة،

يتّصل ليقول إنه وبعض الأصدقاء المشترَكين فوجئوا عندما قلت إني مسلمة سنية. وهذا في رأيه يدلّ على طائفيّتي وأنّ لديّ ميولا متطرفة، حتى كاد يقول إني داعشيّة.

قال هذا وأكثر عبر الهاتف، وأنا بعيدة عنه آلاف الأميال.

خمسة وعشرون عاما ونحن نتعامل كأسرة واحدة نتبادل الأفراح ونتعاطف في الأحزان، وكبر خلالها أولادنا وصرنا أجدادا.

تأثّرت جدا لموت صداقة كنت أظنّها تمثّل مجموع أهلي في جبلة، ولكنّ حزني كان أكبر، لأنه عاش مغشوشا ربع قرن!!!

٢٥ نوفمبر، الساعة ٠٧ : ٣٢ مساءً

\- - - - - - - - - - -

وأنا من دمشق أقول له: أيها الطائفي، خفّف من طائفيتك وتلطّف في علاقتك مع أصدقائك.

دمشق الشام: صباح الأحد ٢٧-١١-٢٠١٦

الطير البديل.. حَسّون من الأغوار

حدّثني جاري "وليد، أبو خالد"، المولع بالطيور النادرة، قال:

ذهبت يوما بسيارتي إلى "مضايا" لعملٍ أقضيه، وهناك تعطّلت السيارة، فعدت إلى دمشق بالميكرو، وهتفت إلى صديقي الميكانيكي "أبو جورج"، أعلمه بأني ذاهب الآن لأقطر سيارتي وأجيء بها إليه مباشرة... «فهل عندك وقت لتبادر إلى تصليحها حالًا، يا أبو جورج؟».

لمّا دخلت محلّه، وسيارتي على رصيفه، لامست سمعي تغاريدُ طيور من أصناف مختلفة معلقة أقفاصها على الجدران، وعجبت كيف أني لم ألحظ قبل اليوم أن صديقي أبو جورج مولع بالطيور إلى هذا الحدّ!

بعد فحص السيارة ظهر فيها كثير من أعطالٍ تراكمت، فأحببت أن أتودّد إليه ليُسرع في التصليح ويراعيني في الأجر، بأن حملت إليه - على سبيل الإعارة - قفصا فيه أحسن ما عندي من الطيور المغرّدة، ما نُسمّيه "نَغْل": أبوه من "الحساسين" المتميّزة والأمّ "كناريّة"، ولتغريده "مَطْلعٌ" باهر، بعده "مَسْكة" تروق لعشاق الطيور المغرّدة، والختام "قفلة" ولا أجمل... وقمت بتعليق القفص على جدار في محلّه، مجازفًا في أن يلتقط طيري الغالي أصواتا يقلّدها فتضيع روعة تغريده.

بعد يومين هتف إليّ أبو جورج يدعوني لتسلّم سيارتي، فوجدتها مصلّحةً مجدّدة على أحسن وجه.

ولحظة تناولت منه الفاتورة، دارت عيناي في المكان فلم أجد قفصي ولا النغل الذي جئت به! سألته؟ ومن عجبٍ أن كان جوابه بأن أعفاني من قيمة الفاتورة العالية، وأخرج من جيبه

"كدسة مصاري" قائلا: «خذ ما تريد يا أبو خالد، والطير لا يخرج من بيتي!». ولم أستغرب هذا التصرّف من خبير بالطيور ذوّاقة لسماع أغاريدها.

وبيّنت له أني "هاو" لا أتعاطى بيع الطيور، واتفقنا على أن يعطيني بديلاً، كان "حسّونًا" من الحساسين، قال إنه "من الأغوار" (أغوار الأردن، موطنها الأصلي)، وجدت تغريده يضاهي النغل الذي احتجزه عنده، وكان يأتيني الأصدقاء ليتعرّفوا عليه ويشنّفوا آذانهم بسماعه!

(نُشرت في جريدة "تشرين"، عدد اليوم، رقم ١٢٧٩٢، في زاويتي "أيام وليال")

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: الأحد ٢٧-١١-٢٠١٦

هل تُباع المدن؟

نسمع هذه الأيام أنّ حلب "مُباعة"!

وهل تباع المدن؟

فإن كان ذلك،

فمن هو شاريها،

مأهولةً بسكانها، أم هم مهجّرون؟

معمّرةً، أم مدمّرة؟

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٢٨-١١-٢٠١٦

في اللاذقية ضجة جميلة

في سورية، في اللاذقية ضجة جميلة، صاحبتها "لينا هارون"، مبدعة المرح الجميل، ترسل النكتة وراء النكتة ولا ينتهي ما عندها...

كم قلت لها:

لو أنك تصدرين مجلة فكاهية تغذينها بنكات من عندك، لسبقت "المضحك المبكي" في زمنها لصاحبها حبيب كحالة!

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٢٩-١١-٢٠١٦

من أخلاق الحرب: مليونان وأثاث بيت

من تحت القصف استطاع أن يخرج وأسرته من المناطق المنكوبة متسللا إلى "المنطقة الآمنة". استأجر بيتا، استعار له من الأصدقاء أشياء ينامون عليها، وعينه ترنو إلى ما خلّف وراءه هناك من أثاث... كيف يمكنه نقله!

أشار عليه أصدقاؤه بأن يتفق مع "حاجز" يؤمّنون له نقل الأثاث "بمعرفتهم" لقاء ما يجود به عليهم.

وذهب إليهم يفاوض. سألوه ما "يدفع" من "إكراميّة"؟

هل تورّط فعرض نصف مليون، فأثاث بيته يستاهل. ولكنهم طلبوا مليونين ونصف المليون، مبيّنين له المخاطر التي سيتعرّضون لها: تحت القصف في تلك المناطق سوف يعملون، ولكنهم قادرون على "التفاهم" مع "الذين هناك"، ينقلون من بيته كل شيء على مسؤوليتهم: سيارات ورجال يَعتلون... وكانت منهم مراعاة إلى المليونين.

انتُزعت من صدر الزوجة أشياء، وتبرّعت البُنيّات بها في المعاصم من أساور صغيرة... ذهب بكلّ ما جمع، باع واستدان حتى استكمل المطلوب.

أركبوه سيارة نقل تخصّهم، وجدها كبيرة جدا. كلّ الدروب فُتحت لهم. ورجال أشداء في زيّ موحّد نقلوا الأثاث، وطبّقوه في السيارة بعناية فائقة.

كان يحلم، والسيارة تسير به في الطرقات المحفوفة، بأن ينام أبناؤه الليلة كلٌّ في سريره، ويطالعون في الغد كتبهم المدرسية ويكتبون الواجبات، وما كان أن يفارقه حذرٌ ملأ الصدر والقلب والفؤاد.

فجأة توقفوا. استكملوا قبض "الإكراميّة"، فذلك حقّهم، وأمروه: «انزل!»، تلعثم لسانه. أشهروا عليه، ورمَوه على قارعة الطريق، ومضوا بغنائم سوف يقتسمونها.

عندما دخل البيت انحنى على صغاره يحتضنهم، يبكي ويبكون.

فليحفظ الله له أغلى كنوز الحياة.

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ٢٩-١١-٢٠١٦

عباس الحامض.. يكتفي بأربعة محررين!

في أول أيام البعث، عندما أصدروا جريدة "الثورة"، سمعتُ البعثيّ المخضرم "علي الخشّ" يمزح أمام جلسائه في "مقهى الغاردينيا" (عام ١٩٦٦) ويقول منكّتًا: «جريدة "البعث" مثل جريدة "البرافدا" لسان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، وجريدة "الثورة" مثل "الإزفيستيا" لسان الحكومة هناك!».

أقول: وكَثُر المحررون والعاملون في كلّ من جريدتينا على نحو لم يعهده "الدراويش" المغلقةُ صحفهم مع طلوع شمس الثامن من آذار، حتى تراءى لصحفيّ مرموق كان يعمل في

الصحف البائدة، هو "عباس الحامض"، أن يدّعي أنهم لو عَهِدوا إليه بأن يتولّى إصدار جريدة "الثورة"، لاكتفى بأربعة محررين ليس إلا يختارهم هو، مفسحًا للحاكمين أن يكتبوا في السياسة ما يشاؤون!

رحم الله علي الخشّ، وعباس الحامض، الذي رأيته فيما بعد موظفا يتوارى خلف مكتب في "أمانة العاصمة"، وقد كانت نهفاته "الحلوة" تفتح النفس كفعل الليمون الحامض.

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ٢٩-١١-٢٠١٦

أيها العالم!

لماذا أنت ساكتٌ على الطائرات الروسيّة

تُيتّم الأطفال في وطني

وتُرمّل النساء

وتُدمّر الأحياء السكنيّة

وتُهجّر الملايين

بحجّة... محاربة "الإرهاب"!

هل أنت عاجزٌ عن فعل أيّ شيء؟

أم أنك متواطئٌ في كلّ شيء؟

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٢٩-١١-٢٠١٦

إذا كانوا يريدون حلب لإسكان أناس آخرين

إذا كانوا يريدون حلب لإسكان أناس آخرين

فلماذا يُدمّرونها؟

ليأخذوها "مفروشة"!

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٣٠-١١-٢٠١٦

توازُن

في أيام الطفولة وما بعدها، كنت أتساءل: لماذا الطاعنون في السنّ، عندما يمشون الهُوَينى، يَعقدون اليدين خلف الظهر؟

اليوم عرفت: ذلك، عند مَن انحنت ظهورهم، يُحدث توازنًا في السير!

بتُّ أفعل هذا.

دمشق الشام: مساء الأربعاء ٣٠-١١-٢٠١٦

- - - - - - - - - -

إضافة:

أحلى قامة كانت تعقد اليدين خلف ظهرها، هي للعمّ "حسين كيالي" (أبو لؤي)... رحمهما الله تعالى.

تأجيل الأمسية الأدبية في "النادي العربي"

تأجيل الأمسية الأدبية في "النادي العربي" من هذا اليوم إلى أجل يحدّد لاحقا

بسبب انقطاع التيار الكهربائي في المنطقة التي يقع فيها مقر النادي

تذكّروا، أيها الأصدقاء، أننا في زمن الحرب.

تحيتي لكم، ولنا لقاء.

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٣٠-١١-٢٠١٦

يوم تتكاثر "الأخطاء الطباعية" في كلماتي

أصدقائي

يوم تتكاثر "الأخطاء الطباعية" في كلماتي

فذلك يعني أني أزداد قربًا من كلال البصر

وأما إذا داخَل "الاضطرابُ" أفكاري

فاعلموا أنّ الزهايمر وصل

ولست في ذا حزينا

فأنا أعرف أني عشت حياتي.

دمشق الشام: مساء الخميس ١-١٢-٢٠١٦

الحكومات التي تحرص على سلامة شعوبها

الحكومات التي تحرص على سلامة شعوبها

تستهدف الخارجين على القانون بذواتهم

ولا تتجاوزهم إلى أن تمسّ المواطنين بأذى

دمشق الشام: ضحى الخميس ١-١٢-٢٠١٦

ويصبح زميلي سفيرًا

في شهر أيلول/ سبتمبر من العام ١٩٦١ ذهبت إلى مصر بمهمة اطلاعيّة قصيرة الأجل، يرافقني أو أرافقه زميل لي في العمل يناهزني سنًّا، اسمه "فريد العَرفان" (اسم مستعار للتمويه!)، وهو من كان اقترح على الوزارة القيام بهذه المهمة لاكتساب المعرفة، وكان يعمل في الإدارة المركزية في العاصمة، وأنا في مدينتي حلب..

نزلنا معًا في "بانسيون" في شارع عماد الدين. وكان لا بدّ من أن نتكلم في "هواية المثقفين" السياسة، في أويقات من النهار، أسمعه يردّد فيها على مسمعي أنه ناضل ضدّ الفرنسيين، وأنّ هذه الكتف (مشيرًا إلى كتفه اليسرى) يا ما تلقّت الضربات بأعقاب البنادق، ونظلّ نتحدث في السياسة وفي شؤون الحياة، حتى ونحن في سريرينا إلى أن يُثقل النعاسُ أجفانَنا. وقد رأيته عروبيّا، وبدا لي حَسنَ الرأي في رئيس الجمهورية العربية المتحدة، ولم أكن في هذه الثانية كذلك.

صباح يوم الخميس الثامن والعشرين من ذلك الشهر (٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٦١) ونحن بالقاهرة، وقع الانقلاب في دمشق، حيث أُعلن في "البلاغ رقم واحد" انفصال سورية عن مصر، فرأيت صاحبي مبتهجًا، وطفح حديثه بأخطاء الوحدة وعيوبها، ومنها أنّ الرئيس سلّم "الملف السوري" للمشير الذي لا يفقه في السياسة شيئا.

وما هي إلا ساعات حتى تبيّن لصديقي أنّ الانقلاب ليس لصالح الحزب الذي ينتمي إليه، بل "للرجعيّين"، وذلك ساعة طلعت علينا الأخبار بتكليف "الدكتور مأمون الكزبري" رئاسةَ الوزارة... فانقلب صديقي على الانقلاب.

وكان في برنامج مهمّتنا أن نزور بعض المحافظات، وهذا يُملي علينا أن نتوجّه للقاء "المحافظ" ساعة نصل إلى كلّ مدينة، للتعارف وتيسير المهمة. ورأيت صاحبي لا يكفّ عن التنديد، في كلّ مرة نقابل فيها محافظا، بالانقلابيين السوريين بحماسة بالغة، واصفًا إياهم

بالخيانة والعمالة للأجنبي، وأنّ سورية سوف تضيع على أيديهم، وكثير من هذا الكلام... ولست أدري ما إذا كانوا يصدّقونه أم أنهم في قلوبهم يكذّبونه كما أفعل أنا!

لما عدنا إلى الوطن افترقنا، أنا إلى مدينتي حلب وهو بقي في العاصمة. ولم أسمع عنه شيئًا إلا بعد سنوات من يوم الثامن من آذار/ مارس ٦٣: لقد أصبح سفيرًا لبلدنا في عاصمة من عواصم الدنيا.

ولعله يحسن القول إني بعد سنوات من العودة من تلك المهمة، انتقلت بوظيفتي إلى دمشق، وسكنت حيث أنا اليوم، وبعد عشرين سنة أو ثلاثين، اتفق لي أن لمحته في الشارع الذي يقع فيه بيتي (هل يسكن في حارتي وأنا لا أعلم؟)، رأيته "يردح" لسيارة مرّت بجانبه بدا أنها "أزعجته"... ما استغربته أنه ظلّ يردح لها بالصوت العالي حتى مغيبها عن الأنظار!

عمل زميلي في الوظيفة سفيرًا. وظللت أنا أكتب همومَ الناس!

دمشق الشام: فجر الجمعة ٢-١٢-٢٠١٦

هل توقّف التاريخ، أو تغيّر!

هل تعلمون أنّ "محمد على باشا"، الضابط العثماني الكبير الذي عهدت إليه الدولة بتحرير مصر من أيدي الفرنسيين، كان شيعيّا؟

وأنّ من الشيعة، البارزين في مصر حتى الأمس القريب، الشاعر الغنائي "أحمد رامي"، الذي طال تمنّيه أن يتزوج من "أمّ كلثوم"، وهي تتمنّع كسبًا لأن تُبدع عاطفته المتأجّجة قصائد تُغنّيها؟

وأنّ زوجة جمال عبد الناصر "تحيّة كاظم"، كانت شيعيّة ومن أصول إيرانية، وفد أهلها إلى مصر في تجارة السجاد؟ وأنّ من أسرتها اليوم الصحفية "شاهيناز كاظم"؟

أقول هذا لأؤكد أنّ الشيعة وأبناء سائر الطوائف والأديان، هم جزء لا يتجزّأ من فسيفساء المجتمعات العربية، يُثرونها ولا ينالون منها.

حتى اليهود كانوا مرحّبًا بهم، فبعض جيراننا بحلب، في "زقاق الزهراوي" ثمّ في "حيّ الجميليّة" (في أربعينيّات القرن الماضي)، كانوا من اليهود، وكانت بيننا وبينهم مودّات صافيات. ولا يفوتني أن أذكر أنّ في وسط حلب الشعبيّة، كان حيٌّ "البَنْدرة" المؤلفً من حارتين متجاورتين، تُسمّى إحداهما "بندرة الإسلام" والأخرى "بندرة اليهود".

فمن أين جيء اليوم بأنّ الأكثرية متغوّلة تريد أن تفتك بالأقليّات؟

هل توقّف التاريخ، أو تغيّر؟!

دمشق الشام: صباح السبت ٣-١٢-٢٠١٦

إلى متى تظلّ تُجرّب فينا أسلحتك "الذكيّة"

أيها الذكيّ بوتين؟

دمشق الشام: ضحى السبت ٣-١٢-٢٠١٦

إعلاميون من جريدة "تشرين" يزورونني

كتب الإعلامي «جواد ديوب»، هذا اليوم، في جريدة "تشرين" (العدد ١٢٧٩٨) ما عبّر فيه عن أدبه، ومودّته، وتميّزه الإعلامي، معطّرًا بتجلّيات ذاكرة متوهجة... له مني الشكر والتقدير، وللإعلاميين بديع صنيج وطارق الحسنية الودّ الجميل.

العنوان:

لم أُسعَد بالإقامة في أميركا أبداً فعدت إلى دمشق رغم بعض التخويفات

في بيت فاضل السباعي.. ذكرياتٌ مورقة ويومياتٌ متدفقة!

رقيق كماء النافورة التي تتوسّط حديقة بيته العتيق،

روحُهُ مورقةٌ كشجرة النارنج التي حدثنا عنها بحبّ،

ذاكرته، وهو في الثامنة والثمانين، أثارت غيرتنا، وكذلك همّته على متابعة كتابة مشاهداته ومذكراته القديمة وتلك «الأيام والليالي» التي كوّنت شخصيته كقاصٍّ وروائي غزير الإنتاج..

والأكثر إدهاشاً هو دقّته وحسن ترتيبه وتنظيمه لتفاصيل يومياته، وشكل تعامله مع الكتب التي ملأت الخزائن والرفوف والممرات والكنبة الوحيدة في مكتبه، وحتى السقيفة وكل الطاولات التي رقدت عليها أوراقه كمن في مشغلٍ سحريٍّ لإنتاج الحكايات!.

هكذا بدا الكاتب فاضل السباعي، في زيارتنا له، أنا وزميلاي الصحفي بديع صنيج، والمصوّر طارق الحسنية، إذ لكثافة ما رأيناه احترنا من أين وكيف تكون بداية حديثنا معه..

أَنفتتحُ اللقاءَ بتحريضه على استرجاع ذكرياتٍ حميمة بعد هذا العمر المديد والمئات من التجارب الحياتية؟ أم نسأله عن أفكاره وهواجسه كروائي وقاصّ نَحَتَ في صخر الحياة فأبدع العشرات من الكتب والتُحَف؟، أم نتركه يسترسل، كما يشاء، عن ولعه باللغة والثقافة والتاريخ وهموم الناس الذين جسّدهم في كتاباته بصدق الباحث، وهمّة المؤرّخ، وشغف الحكّاء، وقوة المناضل!؟.

أحرِّضه بدايةً بما قيل عن لغته «المنمّقة المترفة»، فيبتسم، ويطلب أن أزيده من الأسئلة التي أثارت عنده حماسةً للمتابعة والدخولِ في لعبة محاورةٍ حميمةٍ كانت أقرب إلى المُسارّة، إذ يقول

حين أذكِّره بمكان طفولته الأولى «حيّ وراء الجامع وسوق المدينة» في حلب: منذ ١٢ سنة كتبت الفصل الأول من طفولتي بعنوان «زقاق الزهراوي» وهو الزقاق الذي عشت فيه من ذاك الحي الكبير، كتبت ثلاثين صفحة نشرتها في مجلة «المعرفة» السورية، وقد أحدث ذلك ردّة فعل جميلة عند القراء، لأن الناس يحبّون أن يستمعوا إلى قصص عن طفولة الآخرين، بل يحبّون أن يستمعوا إلى طفولتهم أيضاً مجسّدةً في حكايات الآخرين المشابهة، وهذا ما يشجعني على المتابعة في استعادة تلك التفاصيل القديمة.

الشمسُ الحنون التي كانت رحيمةً بنا في ذاك اليوم الشتوي البارد والجافّ، بدأت تلملم خيوط ذهبها وتدفعنا لندخل إلى عالمه السحريّ؛ طاولته التي تبعثرت عليها أوراقه ونظّارته وبعض «فواتير الكهرباء والماء والهاتف» كتذكيرٍ له، ربما، بأن الحياة معجونةٌ من الخيال والواقع معاً.

دخلنا نتبع خطواته المتمهّلة كمن يقودنا إلى مغارة «علي بابا»، بينما «البورتريهات» التي رسمتْها ابنتاهُ (سهير وخلود) الفنانتان التشكيليتان، ترمقنا بعيونٍ مفتوحة فيها أنسٌ ومحبّة، لكنها عيونٌ ووجوه أقلّ معاناةً وحزناً من عيون ذاك الولد في لوحة لؤي كيالي المعلّقة بعناية إلى جوار صورتين لابنتيه، وكأنّ روح حَلَب، وشجنها، وعراقتها، وموسيقاها، ورائحة غارها وبيلونها تتصاعدُ من اللوحة وتغمر المكان الذي عاد إليه السباعي عودة السنونو المهاجر رغم تخويفات أصدقائه له من بعض المضايقات:

«لم أُرِدْ أبداً أن أقيم في أميركا، ذهبت إلى هناك لأنني بقيت وحيداً في البيت، كلُّ ذرّيتي سافروا، لذلك خافت أسرتي عليّ إن بقيت وحدي، فهيّؤوا لي أسباب السفر، لكنني لم أُسعَد هناك أبداً.. اشتقتُ للنافورة وصوتها، اشتقتُ أن أضعَ كأساً لتمتلئ بمائها.. إنه أطيب ماء في العالم.. وللحقيقة لم يكن الشوق وحده ما دفعني لأعود.. لقد أصدرت حتى الآن خمسة وثلاثين كتاباً بطبعات ثالثة ورابعة، بعضها تُرجم إلى لغات عالمية، وبقي لديّ هنا في مجلدات الأرشيف ما يقارب عشرة كتب

قيد الطباعة، لكنها متناثرة، وعليّ أن أوضّبها[١] وأنسّقها بنفسي، وأن أعدّها للنشر.. لن يقوم بهذا العمل أحدٌ غيري، فلا أحد يعرف ماذا لدي هنا، ابنتاي تعملان في الفن التشكيلي وليستا مهتمتين كثيراً بعالم الأدب، أما أنا ففي عمر الثامنة والثمانين وما زلت قادراً على الوقوف على قدميّ، ولدي ذاكرة تعمل بشكل جيد.. لذلك فالشوق للوطن والرغبة في متابعة كتاباتي هما مَا دفعاني للعودة.. ومؤخراً، قمت بعمل أعدّه مهمّاً جداً وهو أنني نشرتُ في مجلة «المعرفة» جزءاً من دراسة عن الكاتب «أديب النحوي»، المظلوم لجهة قلّة الدراسات عنه، المبدع الكبير في الواقعية السحرية، وخاصة في عمله الذي أبهرني «حكايا للحزن»، (راغبا في أن أنشر) الجزء الآخر في «الموقف الأدبي» التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب، وما فعلته حقيقة هو نوع من استكمال لما كنّا نفعله أيام الثمانينيات في الاتحاد، إذ بدأنا فكرة تكريم المبدعين وهم على قيد الحياة؛ بدلاً من الانتظار لما بعد موتهم واستذكار محاسنهم. لم يكن يومها ما نقوم به «تكريماً» بالمعنى الحقيقي، لكننا وضعناه تحت عنوان «قراءة في أدب فلان..»، وبدأنا نشاطنا، أنا واثنان من زملائي فقط، بقراءة في أدب الكاتب العزيز وليد معماري».

البردُ الذي بدأ يتسلّل إلى عظامنا، دفعنا لنصنع كأس شاي من ماء الفيجة الذي يروي سكان شارع نوري باشا حيث يسكن السباعي، ومع الدفء وحلاوة السكّر وسعادتنا بوجودنا معه، سألته عن: كيف يستقبل فكرة الموت؟، أجابني من دون تردّد:

«أنا لا أخاف الموت. أتوقّعه في كل لحظة؛ لكنني لا أخافه... الشيء الوحيد الذي يرعبني هو أن أصاب بالزهايمر، أن أفقدَ قدرتي على الكتابة بسبب «تهتّكِ الشبكيّة» في عينيّ، وما يؤلمني أكثر هو أنْ لا أحد مهتماً من أحفادي أو أولادي بإكمال مسيرتي».

---

(١) أُعِدّها. محرَّفة من العربية وظَبَ الشيءَ: تعهّدَه.

عدنا إلى الجريدة، تلاحقني أطيافُ شخصٍ متعدّد كشخصياته القصصية والروائية، متأنّق في تعامله مع الكتاب كأنه على موعدٍ مع فتاة، بل مخلص في جعل الكتب كائناتٍ تتنفّس. عدنا على أمل أن يجيبني قريباً على ما تبقّى من أسئلتي، التي طلب أن أمهله في الردّ عليها، لأنه يَعُدّ أجوبته اعترافات تستحقّ أن يكتبها بعناية وإخلاص.

تنويه: يمكنكم مشاهدة مقطع الفيديو المتضمن تفاصيل الزيارة على مواقع صحيفة «تشرين» وعلى تشرين أون لاين واليوتوب والفيس بوك والتلغرام.

جواد ديوب

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: صباح الأحد ٤-١٢-٢٠١٦

يا بوتين

خربت بلدي

الله يخرب بيتك!

دمشق الشام: ضحى الثلاثاء ٦-١٢-٢٠١٦

الفقير.. واللحمة

إذا كان الدخل الشهري الأدنى للمواطن في بلدي اليوم ٢٠ أو ٣٠ ألف ليرة!

وكيلو اللحمة بـ ٤ آلاف ليرة!

فكم مرة يستطيع الفقير أن يُدخل اللحمة إلى بيته؟

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٦-١٢-٢٠١٦

كنت.. في فلوريدا

مشاهد ومشاعر

أمسية أدبيّة

أتحدث فيها غدا الأربعاء ٧-١٢ عند الساعة الخامسة مساء

في «النادي العربي» بدمشق (فوق مقهى الهافاناه)

ينقطع التيار الكهربائي في المنطقة عند الساعة السادسة

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٦-١٢-٢٠١٦

أصدقائي الأعزّاء

أنا لست "شجاعًا" كما يحلو لبعض الأصدقاء أن يصفوني

إني فقط مواطن أملى عليه حبُّه لوطنه ألا يُتقن الصمت

وقد بدأت مسيرتي منذ ستينيّات القرن الماضي

في أول ما هنالك: كتابي "حزن حتى الموت"

الذي صدر بأربع طبعات في بيروت ودمشق

والخامسة في باريس مترجمًا إلى الفرنسية

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٧-١٢-٢٠١٦

فليكن اللقاء.. في إسطنبول!

بلغت صديقتُنا السنّ. وحيدةً تعيش. ابنُها الطبيب يعمل في إنكلترا، وابنتها الصيدلانيّة في ألمانيا. ولأنها لا تعرف من الألمانية إلا بعض الكلمات، فإنها تفضّل دائما أن تقوم بزياراتها المتكررة إلى ابنها في لندن، للحكمة والتداوي، ولأنها تُتقن الإنكليزية التي تُترجم عنها الكتب، مثلما تكتب الأدب وتبحث في تاريخه.

أنجزت الأوراق، وجعلت فيها موجزا "لسيرتها الذاتية"، لا تكتم فيه شيئا ممّا يطلبون، وهم بعنايةٍ يقرؤون السطور وما بين السطور، فإن تراءى لهم ما يمنع حجبوا تأشيرة الزيارة، وكثيرا ما باتوا يفعلون في الآونة الأخيرة، وهم في هذا - لفرط موضوعيّتهم - يُعلّلون السبب!

مما كتبت - تأكيدا لاعتيادها زيارة ابنها - أنها دخلت بلدهم في سنواتٍ عدّدتها واحدة واحدة، وكان عليها أن تذكر، هذه المرة، أنه في العام الماضي كان لقاءٌ جمع بينها وبين ابنَيها... في إسطنبول!

وتلقّت منهم اعتذارا، فيه مع التعليل أن... يتجدّد اللقاء في إسطنبول!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٧-١٢-٢٠١٦

أيها النظام

ارحم مواطنيك الأبرياء، ولا تدع موسكو تسرف في قتلهم!

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الخميس ٨-١٢-٢٠١٦

الذين دُمّرت مدنهم

لا يَظنّنّ أحد

أنّ مواطنًا ينتسب إلى الحزب الحاكم

وهو من أبناء درعا، أو حمص، أو حلب، أو.....

سوف يظلّ مواليًا

وهو يرى بلدته تُدَمّر

وسكانَها ينامون تحت الخيام الباردة

أو يفترشون الأرصفة العارية

أو يلتجئون إلى الأصقاع النائية

دمشق الشام: فجر الخميس ٨-١٢-٢٠١٦.

قصة "الأول».. من الذاكرة في «النادي العربي» أمس

قدّمت، في أمسيتي الأدبية أمس، نصوصا ممّا كنت كتبت وأنا في فلوريدا مقيمًا عند أبنائي والأحفاد وما كتبته عنها إثر عودتي إلى الوطن يوم الإثنين التاسع من حزيران ٢٠١٥.

أحبّ أن أقول إني في أثناء قراءتي ذلك، اقترح عليّ أحد الأصدقاء في الصالة أن أروي لهم - وإن كان من الذاكرة - قصتي «الأول» (كتبتها في عام ١٩٨٢ ونُشرت في مجلة «العربي» الكويتية عدد ديسمبر ١٩٨٣، قبل أن يضمّها كتابي «اعترافات ناس طيّبين» دمشق في طبعتيه ١٩٩٠ و٢٠٠٢)، وكانت لَقِيَتْ عند القراء صدًى بمقدار ما لقيته أمس من التجاوب عند جمهور الحاضرين، خاصة عندما يقول الممتحِن لطالب الطبّ النابغ (الذي نال في تخرّجه معدّلا

استثنائيا، ٩٩، ٩٩٪)، منذرًا إياه بالرسوب في هذا الامتحان الذي يؤدّيه المرشّحون لوظيفة "معيد": «إنّ تقارير الأمن الطلابي التي وردت إلينا من جامعتك تؤكد كلّها أنك لم تُشاهَد يوما وأنت تسير في مسيرة أو تهتف مع الهاتفين أو تصفق مع المصفقين!»... ما أكّد لي، للمرة الألف، أنّ أجمل الأدب هو هذا الذي ينقد الحياة بشفافية الإبداع.

شكرا للنادي العربي العريق في دمشق والوطن،

شكرا لرئيسه الحالي الأستاذ سمير الجاجة،

شكرا للصديق الذي قدّمني للجمهور - نثرًا وشعرا - الدكتور طارق عكاش، وقد قال لي يوما في طبّه الجميل: «والله الخَتْيَرة ما بتلبق لك!»،

والشكر الجزيل للجمهور الذي حضر، وأغلبه من سيدات دمشق المحبّات للأدب والثقافة.

دمشق الشام: مساء الخميس ٨-١٢-٢٠١٦

"تقرير" عفوي عن أمسية «أيام في فلوريدا" بالنادي العربي بدمشق

سبق لي أن حضرت كثيرا من المحاضرات وفي أماكن متعددة. غير أن محاضرة الأمس في "النادي العربي"، كانت وجدانية ورائعة، وكان المحاضر بمستوى متميّز، بجلال قدره وكبر سنّه، لم أستمع لمحاضر مثله من قبل. إنه الأستاذ الرائع فاضل السباعي (!).

وقد تناولت محاضرته التي شاء أن يسمّيها "أمسية أدبية" وعنوانها "ايام في فلوريدا"، كيف أنّ أولاده طلبوا منه مغادرة سورية والانضمام إليهم في الولايات المتحدة الاميركية بدلًا من البقاء بمفرده في دمشق مع كبر سنه.

لقد تحدث عن خواطره الحنونة لمغادرة وطنه، وكيف قضى تلك الشهور العشرين هناك،

ومن ثم قراره الجدّي والحاسم بالعودة إلى دمشق، رغم نصيحة كثير من أصدقائه بعدم العودة لخطورة الوضع، ولكنه صمم لعشقه أرض الياسمين... وروى لنا رحلة العودة وسهولتها بكل مراحلها إلا عند وصوله لبنان (الشقيق) ومعاملتهم للسوريين، وكيف اطمأن عليه ذووه بالمغترب عند وصوله منزله في حيّ الروضة بدمشق.

لك الشكر الأستاذ فاضل السباعي على التكرم بتقديم محاضرتك بالنادي العربي العريق، الذي قدم لك درعه من قبل السيد سمير الجاجة رئيس النادي، والشكر موصول لكل من تشرّف بالحضور.

دمشق: الخميس ٩-١٢-٢٠١٦ س ١٠: ٥٨ ص

فول.. بلحم الضان واللبن المتوّم

اتصل بي ضحى اليوم الصديق "أبو فؤاد" بالجوال ثمّ على الهاتف الأرضي، وأنا في حديقة بيتي، أعالج - برفقة المساعد "أبو تمّام" - ما خلّفته مطرة الأمس بدمشق، من أغصان كسّرتها الريحُ وغبارٌ كان متوضّعًا على أوراق الشجر صيَّره المطر طينا لازبًا تناثر على بلاط الحديقة... فانشغل بالُه عليّ، أنا المقيم هذه الأيام في البيت ولا مؤنس لي!

فهتف إلى ابنتي خلود، على "الواتس - آب"، وابنتي في زيارة لـ تونس تحضر معرضا للفنّ التشكيلي في مدينة "صفاقس"، وحدّثها عن أنّ الوالد لا يردّ على الهاتفين، فأَشغلَ بالَها!

فشرعت تهتف إليّ من تونس الخضراء... ولا ردّ كذلك.

فهتفت إلى ابنها "ماجد" في بيتها بضاحية "دُمَّر"، الذي قلق، فترك ما في يده من رسوم يشتغل فيها لقصة كتبها جدّه بعنوان: "أيتها القطّة اسمعي! " كانت كلّفته مجلة "العربي الصغير" رسمَ لوحتين لها، وراح يهتف للجدّ في بيته... ولما افتقد صوتي، هتف إلى محلّ للإلكترونيات

بجوار بيتي!

دقّ الجار عليّ الباب، فخرجت إليه مرحّبا، وإذا هو يُقبِل عليّ معانقا والفرحة تتلألأ في عينيه، لأنه... رآني أمامه منتصب القامة!

وهكذا عدت أتّصل بهم الثلاثة، حفيدي في دمّر، وابنتي في صفاقس، وصديقي أبو فؤاد في حيّ المهاجرين جادة ثانية!

وواقع الأمر أنّ أبو فؤاد هو أحد سبعة أصدقاء، اعتدنا أن نجتمع كلّ يوم أحد، إمّا في فيلا في "الصبورة" هجرها أصحابها إلى الخليج، وإما في حديقة بيتي، نتحلّق حول مائدة، نتحدّث في شؤون الحياة ونحن نتناول طعاما، نأتي به "من السوق" جاهزا أو يطبخه لنا صديقنا الذوّاقة أبو فؤاد.

كان صديقي يريد بهاتفَيه أن يسألني ما إذا كنت أفضّل اليوم الفروج المشوي نأتي به من مطعم في "ساحة الجسر الأبيض"، أم حبّ الفول المفرزن يطبخه بلحم الضان شرحاتٍ صغيرة نُغشّيه عند الأكل باللبن المتوّم، ما يَعرف أني أحبّه؟! الله عليك، يا أبو فؤاد! وطلب مني أن أقشّر "راس توم" وأهرسه هرسا جيدا!

عندما تحلّقنا حول المائدة في الحديقة كان حديثنا عن التهاتف بين الأقطار أكثر ممّا تناولناه من شؤون الحياة.

- - - - - - - - - - -

نُشرت في جريدة "تشرين" اليوم، العدد ١٢٨٠٤، في زاويتي "أيام وليال" بعنوان مختلف: "التهاتف بين الأقطار"!

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى الأحد ١١-١٢-٢٠١٦

مطالعة.. حتى كلال البصر

منذ اشتدّت وطأة الحرب في وطني، وأصبح مقبولا أن تُسمّى سورية "دار حرب" حسب المصطلح التراثي القديم، عمد القائمون على إصدار المجلات العربية إلى أن يوقفوا إرسال حصتنا منها.

وقد تكرّر - دون جدوى - التماسي من بعض الأصدقاء المقيمين خارج القطر، أن يزوّدوني بما يتيسّر لهم من هذه المجلات، حرصًا مني على مواصلة المطالعة والاطلاع، ومَنْعا لانقطاع التواصل بيني وبينها، قارئًا لها وناشرًا فيها بعض ما يجود به الخاطر من الخواطر.

منذ قريب وعدني صديق، من شأنه أن يتردّد بحكم عمله على بيروت بين الحين والحين، بأن يُسعفني في أمري، وكم أسعدني أن يطرق بابي يوم أمس، مقدّما إليّ بعض ما تاقت نفسي إليه من هذه المجلات، فأكببت عليها أقلّب صفحاتها بشوق وحنين، وكان أن تبيّنت مدى ما أحرزته الصحافة العربية في هذا الغياب، من تقدّم وتطوّر، تحريرًا وتبويبًا وتخصّصًا وإخراجًا وطباعةً وكلَّ شيء!

ولكني لاحظت، يا أصدقائي، أنّ البصر عندي بات قاصرًا عن القراءة بغير مكبّر أمشي به سطرًا سطرًا وكلمة كلمة... ما أدري: هل هو التقّدم في السنّ، أم أنها الحرب التي هدّتنا ولا تبدو لها نهايةٌ؟!

دمشق الشام: ليل الأحد ١١-١٢-٢٠١٦

زوجة مثالية

بعد أن كتبت الخاطرة أدناه عن شقيقتي "ضحوك"، أرسلتها إليها عبر الرسائل فجر اليوم

وهي في (مرسين التركية)، فجاءني منها "تحفّظ"، تقول: «لكني لا أعرف هل هكذا كلام يكون مناسبا، وحلب اليوم تُباد؟».

ومع ذلك أنشر الخاطرة، فإنّ من بين الأنقاض تنبع الرحمة أحيانًا.

- - - - - - - - - -

عندما أبلغها المستشفى أنّ معالجة زوجها (كتلة في الدماغ) تستوجب الإقامة في العاصمة شهرًا كاملاً لإجراء جلسات علاج بالليزر... قامت تهتف لأخيها، الساكن بدمشق منذ سنين، تسأله أن تقيم وزوجها عنده مدة العلاج؟

تركت بناتها الثلاث وابنها الوحيد "فريد" في حلب، وحلّت وزوجها في بيت أخيها الأكبر.

بعد الاتصال بالمستشفى الحكومي بدمشق والاتفاق على مواعيد المعالجة، راحت تبحث في الحارة وما حولها عمّن تتسوّق منهم ما تحتاجه من موادّ خلال هذه الإقامة الطارئة. تعرّفت على البقاليّات الأكثر توفيرًا لما تطلب، وعلى بائع الحليب الطازج (غير المعبّأ بالقناني)، وعلى الفرن الذي يصنع الخبز المرقّد والإفرنجي، وبائعي الخضرة والفاكهة، والصيدليات في محيط البيت، ولم تنس الاتفاق مع حلاق عجوز اسمه "أبو سعيد" تستدعيه هاتفيا لحلاقة ذقن زوجها!

تطلب التكسي بالهاتف ذهابًا إلى موعد المستشفى، وتعاني من الحصول عليه تحت وهج الشمس لدى العودة إلى البيت.

تطبخ في النهار، وتسهر على الزوج في الليالي الطويلة يخيّم عليها الوجع، متعلّلة بالأمل، أبدا لم تيأس بأن يعود زوجها إلى عمله الصحفي كاتبًا زاويته "والأمر لله"!

ولكن حمّ القضاء، ورحل الزوج وهو في الخمسينيّات، تاركا لها ثروة من الأبناء.

إنها شقيقتي الزوجة المثالية "ضحوك"، مدرّسة اللغة الإنكليزية في ثانويات حلب. ابنة "أبو

السعود السباعي"، الذي أنجب تسعة عشر من البنين والبنات (أحد عشر... وثماني)، والأحفاد والأسباط وأبناؤهم، يتّجهون إلى أن يكونوا مئة عددًا.

كانت الإقامة عندي في دمشق صيف ٢٠٠٣، ولم يمهل الموت صهري "سعيد فخرو" إلا أشهرًا. وآنَ لشقيقتي أن تتقاعد من عملها. وتحت وطأة الحرب الغاشمة، تبعثرت أسرتها الصغيرة في القارات: الابن في الرياض، والابنة "هلا" تحضّر أطروحة الدكتوراه بالصيدلة في... في "استونيا" (في بحر البلطيق)، والابنة "مروة" وبنوها الثلاثة لاجئون في فنلندا الباردة، والابنة "دانية" وزوجها يعملان في الولايات المتحدة، وشقيقتي تقيم في مرسين، بجوار شقيقتَيها الأكبر سعاد وسهام.

إنها الحرب، أيها الأصدقاء، التي جعلت العرب يُقتّرون في التألم على شعبنا جهلا منهم أو تغاضيًا، على حين بدا العالم كلُّه ما بين متواطئ وساكت عن الحق مثل شيطان.

\- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ١٣-١٢-٢٠١٦

النصر لحلب.. كيف؟

كتبت لي ظهيرة أمس: مبروك النصر لحلب

فسألتها: من المنتصر؟

فلم تُجب.

وما زلت أنتظر جوابها

\- - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأربعاء ١٤-١٢-٢٠١٦

ليس عندي مِن عُذر

ليس عندي مِن عُذر

للذين يفرحون بما يعتقدون أنه انتصار في قضية حلب

فإذا لم يكن لهم في السياسة فهم

أليس عندهم ضميرٌ يحزن لما تفعله الأسلحة الذكيّة من تقتيل وتهجير ودمار؟

دمشق الشام: صباح الخميس ١٥-١٢-٢٠١٦

أسرة حلبيّة

قالت لي على الهاتف:

"نجلاء" بنت بنتي... في الشارقة

"هاني" ابن ابني... في إسطنبول

"لينا" بنت بنتي... في بلجيكا

"باسم" ابن بنتي... في السويد

وأنا قاعدة بحلب... تحت الضرب!

دمشق الشام: ليل الخميس ١٥-١٢-٢٠١٦

لم أكن أعرف قبل اليوم

لم أكن أعرف قبل اليوم أنّ كلّ من سكن مدينتي إرهابي... حتى كشفت لنا ذلك الأسلحة الذكية!

أبكي لك عجزي، يا أختاه! (١)

دمشق الشام: عصر الخميس ١٥-١٢-٢٠١٦

كتبتْ لي من بعيد.. تقول

أستاذي الفاضل

أقرأ لك، وأخاف عليك

ابتعد عن المواضيع السياسة أرجوك

أنا كنت معتقلة ورأيت ماااا يشيب له الولدان!

أعتذر للتدخل.. لكن حرصًا عليك

تقبّل تحياتي

(..........) مساء الخميس ١٥-١٢-٢٠١٦ س ٠٥: ٠٨ م

- - - - - - - - - - -

فكتبت لها:

طيّب، والضمير؟

الوطن يحترق، يا أختاه.

ما قيمة القلم إن جفّ مداده، أو سكت صاحبه عن القول؟

إني من شهود العصر، أصف ما أرى.

---

(١) وكان قد شارك منشوراً من صفحة حلب اليوم لامرأة تمشي بانكسار وخلفها مشاهد الدمار والناس

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ١٦-١٢-٢٠١٦

سيدة من حلب.. تقول

سألتها على الهاتف: بردانين؟

قالت: مْبَوّظين[١]!

واستدركت أنهم طول اليوم يسخّنون الماء حتى درجة ٦٠ (قبل الغليان) على موقد الغاز، ويملؤون بالماء الساخن قناني الكازوز الفارغة، يجعلونها بين الكفّين استمدادًا للدفء، ثمّ ينزلون بها إلى القدمين.

دمشق الشام: فجر الجمعة ١٦-١٢-٢٠١٦

صَبيّة من حلب.. تقول

في المدرسة

لما بنسمع القصف

نترك قاعات الدرس، ونبتعد عن النوافذ، ونقف مكوّمين بجوار الحيطان السميكة

وبعد أن تمرّ القذيفة ولا تصيبنا، نفرح

أحيانا نرفع أصواتنا ونصيح: هيييييه!

دمشق الشام: صباح الجمعة ١٦-١٢-٢٠١٦

---

(١) متجمدين.

حلب.. الأستاذة في فنّ العمارة ببلاد الشام

بعد هجمة "التأميم" في العام ١٩٦١، والتي تجدّدت بعد عامين، توقفت النهضة الصناعية والعمرانية في سورية وفي حلب التي كانوا يطلقون عليها "مانشستر الشرق"، وأحجم المتموّلون عن أن يُشيّدوا المباني الفخمة، التي عُرفت بها هذه المدينة منذ القديم (قلعة حلب مثالا) إلى البيوت الحلبية المشغولة بإزميل الفن الرفيع... أحجموا خشية من هجمة تأميم أخرى تطال العقارات، إلى أن استوثقوا من أنّ هذا لن يكون، فتهمّم الحلبيون، في أوائل سبعينيّات القرن العشرين، في بناء الدارات (الفيلات)، في ذلك الحيّ الجديد الذي أنشئ غربيّ المدينة وسمّي "حيّ الشهباء"، فأبدع المهندس الحلبي في البناء أشكالا وألوانا، حتى أصبح هذا الحيّ... فرجة للناظرين.

أقول: "فرجة للناظرين" وأنا أقصد المعنى في كلّ حرف في هذه الكلمة!

أذكر أنّ "معهد التراث العلمي العربي" (التابع لجامعة حلب)، يديره الدكتور خالد الماغوط، كان يقيم كلّ عام مؤتمره في "تاريخ العلوم عند العرب"، يشارك فيه باحثون وعلماء سوريون وعرب وأجانب من كلّ أنحاء المعمورة (وكنت أشارك فيه بما أكتب من بحوث في تاريخ الطبّ الأندلسي)...

أذكر أنّ القيّمين على هذا المؤتمر كانوا يدركون روعة فنّ العمارة في هذا الحيّ الجديد، فيُتيحون للعلماء الزائرين فرصة أن يتفرّجوا، وسيارة البولمان تتهادى بهم في شوارعه والدروب والمنعطفات، فيُكحّلوا أعينهم بالنظر إلى الدارات التي سكب فيها المهندس الحلبي خلاصة فنّه الخلاق، فأبدعها بما تتّسم به من جمال وأناقة ورهافة ورفاه، في اختلاف الأشكال، مقرونًا ذلك كلّه بفخامة تبهر الأبصار.

وأذكر مرة أن رحلة قام بها أعضاء من "جمعية أصدقاء دمشق" إلى "سدّ الفرات" بعد إنشائه (وكانت بينهم ستّ الشام الأديبة ألفة الإدلبي)، قد جعلوا في برنامجهم، أن يتجوّلوا، في أثناء مرورهم بحلب، في أرجاء هذا الحيّ الذي يتمتّع بالجدّة والعراقة.

إنها حلب، الصناعة والتجارة، والطرب والأدب، وفنّ العمارة الخالد.

إنها المدينة التي تنهض في كل مرة من تحت الأنقاض أقوى ممّا كانت... لتتجدّد.

حلب، يا من رأيت النور في بيت في أزقتك العريقة... إنّ بكائي اليوم على ما يُحَلّ بك، ما هو إلا حزنٌ عابر... وأنا أعلم أنك من أقدم المدن في العالم، التي ظلت معمورة مأهولة.

دمشق الشام: صباح السبت ١٧-١٢-٢٠١٦

إنها "الحرب الكونيّة"، يا أمي!

جعل يترجّى أمّه ألا تعتب عليه لتأخّره في زيارتها.

• فهو من يوم سقوط الصاروخ قريبًا من بيته، يعمل في "الترميم". الزجاج تكسّر، ونزل مصراع الأباجور إلى تحت. سدّ الشباك بقماش من نايلون.

• في هذا البرد الصقيع لا يشعلون المدفأة إلا قليلاً، لنقص "المازوت".

• الماء في خزّانهم على السطح قارب النفاد، فذهب إلى الجيران - الذين نزحوا من يوم الصاروخ إلى بيت أقارب لهم - يستأذنهم بأن يأخذ ماء من خزانهم، فصعد إلى السطح ينقل الماء، بمعاونة ابنه وابنته اللذين تركا الكتب الجامعية، بالسطول من خزان إلى خزان.

• والكهربا، يا أمي.....

أوقفه عن الاسترسال أنْ لمح دموعا تسيل من العينين الحنونتين، وغُصّ فلم يقو على أن يقول: إنها "الحرب الكونية"، التي أشعلوها في بلدنا، يا أمي!

دمشق الشام: ليل السبت ١٧-١٢-٢٠١٦

يا شرفاء العالم!

يا شرفاء العالم!

إنّ حزنَكم العظيم على سورية

ودموعَكم التي تسفحونها على حلب

ووقوفَكم في زمهرير الشتاء وتحت وابل المطر

أمام السفارات والقنصليّات

احتجاجًا، وهتافًا، وتعبيرًا...

ذلك كلّه

لا يأتي نقطةً في بحر تواطؤ حكامِكم

وتآمرهم

من مغرب إلى مشرق

في السرّ وفي العلن

ليروا بلادنا، مهدَ الحضارات

يسودها الدمار والخراب

وتفوح منها رائحة الموت

وتَنْعب على أطلالها الغربان

إنها "ثارات الحضارات"

أيها الشرفاء!

دمشق الشام: عصر الإثنين ١٩-١٢-٢٠١٦

كلام في "ملفوف اللَخَنَة"

الملفوف كلمة عربيّة، تعني ذلك النبات ذا الورق يلتفّ حول محور فيه، يُسلق ورقه ثمّ يلفّ في حشوة المحاشي المعروفة في بلاد الشام. ويغلب أن يُسمّيه أهل حلب "اللَخَنَة" (من التركية عن اليونانيّة Lakhno)، وفي غير حلب يُسمّى "الكرنْب"، ورأيتهم بدمشق يستبدلون باللام حرفَ الياء: "يَخَنَة"، وفي مصر قالوا أيضا: الكُرنْب، وفي عاميّتهم: "أبو رُكْبة" لأنه يقوّي الرَّكب! والاسم في المصادر العلمية Brassica. وغنيّ عن القول أنّ الملفوف - كما ورد في كتب الأوّلين - «يُطلِق البطن» (يُمشّي الأمعاء).

وأحبّ أن أورد هنا ما ذكره العلامة الأسدي في "موسوعة حلب المقارنة"، أكلةً سمّاها "اليخْني" (من التركية عن الفارسية: "يَخْني")، خضرة يابسة يغلب أن تُطبخ بحلب مع لحم الدجاج، والبصل والحمّص والبندورة.

أقول:

خرجت أمس من المستوصف مهموما، وعرّجت في طريقي على بيت يجاوره، يسكنه صديقي الحميم "حيدر"، الذي جرينا على أن نتشاكى حول علل الشيخوخة، ومع أنه يصغرني ببضع سنوات، فإني ما أزال قادرا على المشي وهو يمشي بصعوبة، ومنه استوحيت يوما خاطرة من قولته لي على الهاتف: «لسّه بتمشي؟»، ودعاني لحظتئذ إليه، وزرته من فوري وكتبت ما سرّ الأصدقاء حتى التعاطف، وبعضهم بادروا إلى حضّي على زيارته قبل أن يصلوا في قراءتهم الخاطرة إلى حيث بيّنت أني فعلت ذلك!

عندما هممت بالانصراف سألني صديقي "أبو خالد": «بتتغدّى معي يَخَنَة؟ "، ودون تردّد قلت: «نعم!». وحضرت مائدة صغيرة لكن غنيّة: الملفوفات مستلقيات في الصحن، متوازيات. وبدأنا. اشتهيناكم والله. نصحني مضيفي بأن آخذ قطعة من خبز، أمدّد عليها ملفوفات، أطوي الخبزة على مثال شطيرة صندويش. والمرق، آه يا أمّ خالد الشاميّة، ما أطيب نَفَسك في الطبخ وفي كلّ شيء، أغرف بالملعقة من الزبديّة. والفليفلة الخضرا، الفرنجية. وزادَ من طيبها الكمونُ الذي تحرص ربّة البيت الدمشقيّة على أن تتبّل به كلّ أصناف المحاشي، خلافًا لشقيقتها الحلبيّة.

غدائي اليوم في بيت صديقي حيدر البني، ذكّرني بـ"ورطة" كنت أوقعت فيها ابنة أختي "المهندسة سوسن نعمة" قبل نحو عشرين عاما. جاءتني من حلب للمشاركة في معرض للفنّ التطبيقي يقيمه الاتحاد العام النسائي، سألتها: «تطبخين ملفوف اليخنة!»، قالت: «حاضر خالي!» (بنات الأخوات يُحببنَ دائما الأخوال، فهم من ريحة الوالدة). فأتيت لها برأس ملفوف، بدا كبيرًا. ساعدتها، أقطّع أوراق الملفوف وأرميها في ماء قِدرٍ على النار، سَلقة صغيرة، وتلفّ. خلصت التبلة[1]، عملنا أخرى. إلى أن رُفعت الطبخة على النار. سوسن - يا عيني عليها - لم تذق طبخ يديها، فموعد السفر بالكرنك إلى حلب كان قد حان.

دمشق الشام: فجر الجمعة ٢٣-١٢-٢٠١٦

اقبلوا اعتذاري!

اسمحوا لي، أصدقائي، أن أعبّر عن بالغ أسفي وحزني لأني أتحدّث بهذه الاستفاضة عن

(١) حَشوة المحشي: الرز واللحم والتوابل.

الطبخ...

وحلب في أقسى حالات المعاناة

فسكان المنطقة الشرقية فيها، نحو مليون نسمة أكثر أو أقلّ، يتحوّلون هذه الأيام، إلى "نازحين"... لأنهم... لأنهم عائلات تحتضن إرهابيين!

دمشق الشام: مساء الجمعة ٢٣-١٢-٢٠١٦

حالات إنسانية.. من "الفوعة" إلى حلب

أفهم أن تعود حلب المنكوبة إلى حضن الوطن.

ولكني عجَزت عن أن أفهم أن تكون هذه المنكوبة منتجعا، موئلا، مكان استشفاء، تُحمل إليه "حالات إنسانية"، من جرحى ومرضى وأطفال ونساء، عبر حافلات على دفعات من بلدتَي "كفريا" و"الفوعة" (بلدة الطبيب العَشّاب القديم "داود الأنطاكي")، تتولّى محافظة حلب أن تجهّز لهم منازل مزوّدة بجميع الاحتياجات والمواد الأساسية والطبية.

أنا لا أسأل في ذا أحدًا.

ولكني أتساءل بيني وبين نفسي: لماذا لا تتوجّه الحافلات بهذه الحالات الإنسانية، إلى مكان أدفأ، مسبَق التجهيز، بعيدًا عن زمهرير الشمال، وثلجه، وصقيعه؟

إنه وطني، أنا أيضًا، يا سيدي النظام.

دمشق الشام: عصر السبت ٢٤-١٢-٢٠١٦

زواج السوريين وراء الحدود

سألتها على الهاتف، وهي المقيمة في تركيا:

- يعني ابنك اللي مالك غيره، المقيم في السعودية عزّابي من خمس سنين، ما تدبّري له بنت سورية من اللي حولك؟

أجابتني منفعلة:

- يهدّنْ... ما بيعطوا إلا لسوري مقيم في تركيا!

دمشق الشام: مساء الأحد ٢٥-١٢-٢٠١٦

أنا ابنُكم، يا أسلافي الأندلسيين

ظلّت "الممالك المسيحية" في شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا اليوم) تحارب الأندلسيين قرونا متمادية فيما سمّته "حروب الاسترداد"، إلى أن كان سقوط غرناطة عام ٨٩٥ للهجرة/ ١٤٩٢م.

ثمّ بدا أنّ أوار غضبهم على بناة تلك الحضارة في ذلك الصقع من العالم، لم يهدأ، فمارسوا على المغلوبين أنواعا من القهر، بدءًا من "محاكم التفتيش" (والصواب "دواوين التحقيق")، مرورًا بالتنصير القسري، وانتهاءً بالتغريب والترحيل... وما درَوا أنّ الأكثرية الساحقة من أبناء "الأمة الأندلسية" - إن جاز التعبير في المصطلح القومي اليوم - كانوا في أغلبيتهم الساحقة يحملون في شرايينهم "الدم الإسباني" قبل أن يتأسلموا ويتعرّبوا، ويُسهموا في بناء حضارة يعربيّة إسلامية في كلّ تفاصيلها ومنحنياتها.

وقد فطن قومٌ من نُخَبهم فيما بعد إلى هذه الحقيقة، فنظروا إلى التراث الأندلسي (وظلّ الاستشراق الغربي يستبعد تسمية "الأندلس" التي ابتدعها الفاتحون، مستعيضًا عنها بـ"إسبانيا الإسلامية")، إلى أنّ التراث المخطوط الباقي بين أيديهم قد خطّته أنامل "أسلافهم" الأندلسيين، فهادنوا، وأقبلوا عليه، قراءة، وتمحيصًا، وإعجابا.

وهكذا تميّزت حركة الاستشراق في إسبانيا بغير قليل من الودّ نحو التراث الأندلسي،

ونشأت في ظلّ ذلك "مدارس" فيها، لعلّ في طليعة أولئك كونديه CONDE (المتوفى ١٨٢٠م)، مرورًا بـ كوديرا CODERA (ت ١٩١٧م)، لأصل إلى المستشرق المعاصر البروفسّور خوان بيرنيتJuan VERNET، الذي تولّت دار إشبيلية بدمشق نقل كتابه إلى العربية تحت عنوان "فضل الأندلس على ثقافة الغرب". (١٩٩٧).

لقد أبدى الأوسط فيمَن ذكرتُ، كوديرا، اهتماما غير مسبوق بالتراث الأندلسي. تُحدثنا المراجع المعاصرة عن أنه، وقد رأى في الأندلسيين أجدادا له، قام ينفّذ مشروعا طموحا، هو ترجمة أمهات من الكتب الأندلسية - وكانت مخطوطة لم تزل، غير مطبوعة - إلى اللغة الإسبانية، حتى يقرأها الإسبان في زمنه ويعرفوا المزيد عن أسلافهم الناطقين بالعربية المعتنقين للإسلام، وأعني تحديدًا الكتب التي تُترجم سِيَر حياة العلماء والأدباء والشعراء، من النُّخب التي كانت تستنشق أنسام الأندلس، ألّفها كبار العلماء والمصنّفين، وهم "ابن الفَرَضي" و"ابن بَشْكُوال" و"الضبّي" و"ابن الأبّار" الذين عاشوا ما بين القرن العاشر الميلادي حتى الثالث عشر. وكان يستعين في ذلك ببعض تلاميذه الذين يجارونه في عاطفة الودّ نحو الأندلسيين، يدفع لهم أجورًا من مرتّبه، وهو يدرّس في معاهد الاستشراق الإسبانية، بلغ تعداد تلك الكتب عشرة مجلدات.

أقول: وفي تماهي كوديرا مع رجال الأندلس، بدا لنفسه كما لو أنه ينتمي إليهم نسبًا، فأجرى في اسمه تعديلا قاصدًا أن يكون لفظه أقرب إلى العربية، فـ«فرنشيسكو كوديرا اي ثايدين» أصبح «فرنشيسكَهْ قَدارة زيدين»... وكأنه يريد أن يقول للعلماء الذين قضى عمره يلازم مخطوطاتهم: أنا ابنكم البارّ، أيها الأندلسيون!

دمشق الشام: ٢٥-١٢-٢٠١٦

(نُشرت في جريدة "تشرين" العدد ١٢٨١٦ الصادر صباح اليوم، في زاويتي "أيام وليال")

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: عصر الأحد ٢٥-١٢-٢٠١٦

يا سيدي النظام

الذين يمنعون ويسرقون

إن كانوا جندا في الجيش فكفّوا أياديهم

فإن كانوا يصطنعون اللباس العسكري فأوقفوهم

وجعٌ للناس كان

فزاد بعد التحرّر والتحرير

دمشق الشام: ظهيرة الاثنين ٢٦-١٢-٢٠١٦

الذين كانوا في وجَع الحصار

الذين كانوا في وجَع الحصار

يُرغَمون اليوم على الخروج

والذين كان الخوف هجَّرهم

يُمنَعون من الدخول

و"التعفيش" يملأ الدروب

ويملا الآفاقَ... التغنّي بالنصر العظيم

دمشق الشام: صباح الاثنين ٢٦-١٢-٢٠١٦

لم نعد نصدّق أنّ ما ينزل من السماء يمكن أن يكون هدايا!

دمشق الشام: فجر الاثنين ٢٦-١٢-٢٠١٦

المشكلة عندي

المشكلة عندي

أنه إذا وصل إليّ "التعفيش"

ودخل الأعاجم البيت

فلن يجدوا فيه إلا الكتب

مصفوفةً بعناية

على رفوف خزائن تُغطّي كلّ الجدران! دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٢٧-١٢-٢٠١٦

وحدة

وحدة،

أوجاع شيخوخة،

بردٌ ولا تدفئة،

لا ماء يرشح من الأنابيب

هذا وطني، أيها الأصدقاء!

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٢٧-١٢-٢٠١٦

فجر اليوم، وأنا في ساعة أرق، خطر لي:

لو أنّ الفتح الإسلامي لم يصل بلادَ الشام والرافدين، وظلّ الناس هنا، سريانا وآشوريين وكلدانيين، يَدينون بالمسيحية

هل كان الغرب اليوم، يقف مكتوف الأيدي إزاء ما يقع في هذه البلاد؟

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٢٧-١٢-٢٠١٦

أيها الراقصون في حلب

أترونه انتصارا يليق بالفرح رقصًا وفقشًا

عندما يُدمَّر نصف مدينتكم الأعرق

ويُرحَّل المدنيون المحاصَرون إلى المجهول

وتُمنع عودة المهجّرين إلى ديارهم

وتُطلق يد الغرباء في محتويات البيوت

التمسوا الرحمة لغيركم

وقبل ذلك المعرفةَ لأنفسكم

أيها الراقصون في ظلمة الأحداث!

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٢٧-١٢-٢٠١٦

في كثير من الصور، التي يعرضها أصدقاء التواصل الاجتماعي

في كثير من الصور، التي يعرضها أصدقاء التواصل الاجتماعي في صفحاتهم، تحتضن عيونُنا

أزهارًا وورودا حتى ليملأ عبيرُها صدورنا، ومناظرَ للطبيعة خلابة نجد أنفسنا نجوس في دروبها...

وفي وطني... لا أرى إلا دماء قانية تسيل، وبنايات شاهقة تهبط، وقوافل من المواطنين يهيمون في العراء بحثا عن مأوى...

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٢٧-١٢-٢٠١٦

بعرق الجبين.. يُعفّشون!

في خمسينيات القرن الماضي، وأنا موظف في الشؤون الاجتماعية بحلب، كان من مهامي الوظيفية أن أتفقّد الجمعيات، وكثيرٌ منها خيريّة تتبع كلّ لطائفة من الطوائف الدينية المختلفة.

حضرت مرة، في العام ١٩٥٧، حفل توزيع هدايا في جمعية على أبناء الطائفة بمناسبة عيد الميلاد، وكان متلقّوها يُعبّرون عن سرورهم وشكرهم، وبعضهم يحتجّون لأسباب ما.

فاستوحيت من ذلك قصة سمّيتها "هدايا في عيد الميلاد"، نشرتها في مجلة "الرسالة" (بيروت، آذار/ مارس ١٩٥٨) قبل أن تضمّها مجموعتي القصصية "مواطن أمام القضاء" (سلسلة "اقرأ" العدد ٢٠٠، صيف ١٩٥٩، دار المعارف بمصر).

تذكرتها وأنا أسمع أخبار "المعفّشين" في هذا الزمان:

يُقرّب موضوع قصتي منهم أنهم يحوزون "هداياهم" في أيام عيد الميلاد،

ويُبعدها عنهم أنهم مِن بيوتٍ، يدخلونها من غير أبوابها، يختارونها بأنفسهم، ولا شكر ولا احتجاج، ولا مِنّة لأحد عليهم فبعَرق الجبين ينالونها!

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ٢٧-١٢-٢٠١٦

بعد حلب

جاء دور دمشق تعطيشًا

ولكن أين المفرّ؟

دمشق الشام: ليل الخميس ٢٩-١٢-٢٠١٦

في انتظار الماء!

أُعلِنَ أنّ ضخّ الماء للحارة سيكون عند العاشرة صباحا، فظلوا في العشية ساهرين، يوزّعون العمل:

من يُسرع إلى غسل الصحون

من يقوم بمسح الأراضي

من يتولّى أمر الغسّالة

والاستحمام للنصف منهم، يبلّ الواحد جسده بطاستين ثلاثة ويترك الدور لغيره...

ولكن الماء لم يأت!

قال أحدهم يُنكّت: يمكن ع الطريق أخدوا الميّ لحارة مسؤولين!

ومنعهم إحساسهم بالمرارة من أن يضحكوا لهذه النكتة، الثقيلة.

دمشق الشام: مساء السبت ٣١-١٢-٢٠١٦

ففي المسألة.. وطن

نساء سورية، من شابات وعجائز، اللواتي كنّ لا يعبأن بالسياسة كثيرا

أصبحنَ اليوم يَخضنَ فيها

ففي المسألة إقامة أو نزوح

ووطن يحيا أو يموت

دمشق الشام: عصر السبت ٣١-١٢-٢٠١٦

يا سوريّي الخارج لا تسرفوا في أحزانكم علينا!

صديقة لي، دمشقية، تسكن وأسرتها الولايات المتحدة، اسمها الجميل "هديل"، متعددة المواهب، تكتب وترسم وتغنّي في الليالي الملاح في الحفلات السورية أغنيات فيروز وأم كلثوم...

كتبت إليّ اليوم، تهنئني بعيد رأس السنة، وتُمطرني بالأمنيات السعيدة، وما فاتها - وقد قرأت خاطرتي «وحشة، وأوجاع شيخوخة، وانقطاع كهرباء...»، أن تُبدي حزنها عليّ وعلى أبناء الوطن، وتقول إنّ قلوبهم وعقولهم معنا...

فكتبت أردّ على رسالتها الحزينة:

نحن "سوريّي الداخل"، قد عوّدتنا الأحداث على تحمّل المصائب والمكاره والمحن، من انقطاع كهرباء وماء، وقطع أرزاق وأعناق، وتقطيع أوصال الحياة وشرايينها...

فيا أيها السوريون المقيمون وراء الحدود

قريبين منّا أو بعيدين عنّا

لا تُسرفوا في أحزانكم علينا

فإننا بقدرة من الله ما زلنا عايشين ومتمسكين بتلابيب الوطن.

دمشق الشام: ظهيرة السبت ٣١-١٢-٢٠١٦

المحتويات

١-شجرة توت عتيقة على ضفّة نهر "تورا" ٣
٢-شجرة توت عتيقة على ضفّة نهر تورا ٤
٣-شجرة توت عتيقة على ضفّة نهر تورا ٧
رسالة من طالب سوري في ألمانيا ١٠
بس لا تقولوا لحدا........ ١٠
تصحيح أخطاء السفيرين ١٢
لا للطائفية. لكن كيف؟........ ١٢
حديث عن أكلة "اللحمة بالكرز" ١٣
لا سير على الأرصفة........ ١٥
انتظارًا لبدر منير ١٦
الشحرور القادم من الغابة........ ١٧
وتكسّرت النصال... .... ٣٢
في دهاليز البنك! ٣٣
أحزانُ العرب الآتية!........ ٣٤
هكذا تكلم هذا الرجل! ٣٥
من اللحمة بالكرز.. إلى الحديث عن الهمّ الوطني ٣٦
حلب العطشى ٣٨
بهذا القدر كانت أحلامي وأنا طفل صغير........ ٣٩
وزرت، قبل خمسين عامًا، جامعة حلب لأتعرّف.. .... ٣٩
ما أنجزناه ليلة أمس!........ ٤٢
من فلوريدا الخضراء إلى دمشق الفيحاء........ ٤٢
«اِجتْ الكهربا»........ ٤٤
والله والله ٤٤
ثقافة الفراق.. ثقافة الموت! ٤٥

من فلوريدا إلى دمشق على "كرسي مُدَولب"! ٤٦
أرخص الأرواح ٥٣
نومة أهل الكهف........ ٥٣
مروحة كرتونيّة في سقف المكان ٥٤
مصوّر المقهورين في "مونمارتر"!........ ٥٥
بريد زمن الحرب........ ٥٧
لأنه الوطن........ ٥٨
وتلقّى الغَرْبُ الفلسفة اليونانية من العَرَب!........ ٥٩
يا أشرار العالم!........ ٦٠
«الماعون» باللهجة الحمصيّة!........ ٦١
وتمرّ الصواريخ من فوق رؤوسنا........ ٦١
اغمسْ قلمَك بالحبر واكتب ٦٢
من ميشيل وجوزفين ربّاط إلى فاضل السباعي........ ٦٣
وممّا يجعل الناس في وطني........ ٦٤
أفكار مؤجّلة! ٦٤
إلى الذين انتابهم الفرح........ ٦٥
إلى أصدقائي في الشبكة العنكبوتية........ ٦٥
بطاقة (C V)........ ٦٦
القذائف فوق رؤوسهم، وهم يتابعون أكل الصبّارة ٦٨
أيها الغرب!........ ٦٩
أنا لم أهجرك، يا شام!........ ٦٩
هم يعرفون! ٧٠
الشمس والحرية ٧٠
في بيت الكَنّة.. في بيت الصِّهْر........ ٧١
حوار على إيقاع "كيس التفريك"!........ ٧٢
مثلما تألف الزوجةُ مزايا زوجها ٧٤

أتكون منابع النفط الغنيّة.......... ٧٥
عندما يُضطهَد المواطن في وطنه الحبيب ٧٥
عندما كنت أنتقد أمي!.......... ٧٥
القراءة زمن الحرب.......... ٧٦
نصيحتي، لا تعُد إلى الشام!.......... ٧٦
«هل وحدي.. الذي بقي! » ٧٨
الذين ذهبوا ٧٩
. وداعش التي من العدم خرجت.......... ٨٠
وكنت أستظلّ «علم الاحتلال» وأنا لا أدري!! ٨٠
يتوقّع الأمريكان أن يكون تورُّط قيصر الكرملين ٨٢
وممّا يُطمِع ساكنَ الكرملين بالتمدُّد.......... ٨٢
أخبار الأهل.......... ٨٢
على هامش الحياة.......... ٨٤
ذهب الربيع ٨٤
فكّري، يا «فكريّة»! ٨٥
«عقدة الغُبن» عند فاضل السباعي! ٨٦
البنايةُ – الوطن!!.......... ٨٩
أنا ومجلة «الأديب» اللبنانية منذ الخمسينيّات.......... ٩٠
الأدباء يكتبون طفولتهم.......... ٩٢
مخيَّم صغير، سقفه من إسمنت!.......... ٩٤
نذكر وحيد صقر.......... ٩٥
زمن الحواجز.......... ٩٥
نكهةُ أدب مختلفة.......... ٩٥
نهاية اللقاء في اسطنبول.......... ٩٦
رذاذ المطر ٩٧

في ارتفاع أسعار اللحوم! ٩٧
صناعة سورية في ظلال الحرب! ٩٨
لا تريد إسرائيل أن يُعلن أحدٌ في العالم كلمة حق! ٩٨
على باب الجامع........ ٩٩
رئيس مخلوع ٩٩
تعريف بطريقة مختلفة! ١٠٠
اللحمة من عند اللحّام ١٠٢
الرفق بالشجر ١٠٢
دمعة حزن ١٠٥
أمس مجزرة في سوق شعبي بأريحا ١٠٥
هل التأخر والتقدم، مردّهما إلى أحوال الشعب ١٠٦
كيف؟! ١٠٦
يا مَلَك الموت! ١٠٦
وتذكرتُ تولستوي، مؤلّف بوليكوشكا! ١٠٧
الحريّة والحياة ١٠٨
عن الذين يقبّلون الحذاء العسكري ١٠٨
العينان في الأفق الشرقي-١ .... ١٠٩
العينان في الأفق الشرقي........ ١١٤
العينان في الأفق الشرقي ٣من٥ .... ١٢٠
العينان في الأفق الشرقي-٤ .... ١٢٤
العينان في الأفق الشرقي ٥من٥ .... ١٣٠
مدينة بلا شباب ١٣٥
رئيس اتحاد الكتّاب.. ٢٨ سنة ١٣٦
"أبو علي بوتين" ١٣٧
وآه، يا وطني! ١٣٧
خمس قُطَب في مشفى الطلياني ١٣٨

لماذا بكى الرجل في حضرة الصغار؟ ١٣٩
لا تدقّقوا مع الأصدقاء في مواعيدهم معكم........................ ١٣٩
جسّ الطبيب نبضي، ومشّاني على أصابعي والكعبين!........................ ١٤٠
هل نودّع العام؟........................ ١٤١
أربعة أعوام قبل الرحيل ١٤٣
يعرف القَدْر.. ويهمل! ١٤٥
لا مقابر بحلب!........................ ١٤٥
عندما يعانقني كلّ هذا الحبّ ١٤٥
هل تعرفون الكلمة التي يتصايح بها السوريون فرحًا؟ ١٤٦
الزمن الجميل! ١٤٦
في بلدي سورية........................ ١٤٦
ليس للطبيب، وإن كان نَطاسيّا........................ ١٤٧
بائع الزيتون ١٤٧
ومن النبات ما رحل........................ ١٤٨
في ظلال الياسمين ١٤٨
عندما تأتي الكهرباء........................ ١٥٢
دموع ابنة أختي ''دانية''!........................ ١٥٢
سؤال بريء ١٥٥
تربية.. سبع نجوم!!........................ ١٥٦
كيف الحال؟........................ ١٥٧
«حوار مع فاضل السباعي».. قديم! ١٥٧
العودة إلى زمن الطفولة ١٦٠
الفنان التشكيلي الراحل «لؤي كيالي» في سطور ١٦١
كبّاد، وفنجان قهوة، وصُوَر! ١٦٦
لم أكن أعرف ١٦٧

نعرف أنّ العالم متواطئ علينا ١٦٨
هل هي أُمنية تاريخيّة ١٦٨
كلما تذكّرت ١٦٨
ما خاب ظنّي بإعلاميٍّ انتقل من موقف إلى نقيضه ١٦٩
فاضل السباعي لجريدة «الوطن» الدمشقية: ١٦٩
أولى رسائلي (١٩٥٣) إلى مجلة ''الأديب'' اللبنانية أعرض نشر قصة لي! ١٧٦
«عفوًا، أيها الزملاء.. مقالاتكم وصلتني متأخرة!» ١٧٨
لسّه بتمشي؟ ١من٣ .... ١٧٩
وقال في نفسه: وبيتذكّر كمان! ٢من٣ .... ١٨٠
قولكُنْ... ممكن يكون النظام ١٨١
وشاركت صديقي.. فرحته ٣من٣ .... ١٨٢
المستعربة البولونية "بياتا سكوروبا" ورواية "ثم أزهر الحزن" ١من٣ .... ١٨٣
المستعربة البولونية "بياتا سكوروبا" ترسم صورة لدمشق ٢من٣ خيال يجري نحو الشرق ١٨٤
«قَطَفَ جان زهرةً» ١٨٧
المستعربة البولونية الشابّة ٣من٣ واليمام الذي يمشي أمامها مطمئنًا! ١٨٨
وزيرُ عدلٍ.. يستقيل! ١٩٠
برسم اتحاد كتّاب بلدي ١٩٠
رحيل الفنان المبدع "نذير نبعة" ١٩١
حديثنا اليومي، وحدثنا اليومي... يا لحلب ما أثخن جراحك! ١٩١
تربية، وإيفاد، وابن عيلة! ١٩١
«من على سرير المرض أكتب إليك» ١٩٢
ما فيه مشكلة! ١٩٣
في الاشتراكيّة ١٩٤
أيها الأسمر الساكن في البيت الأبيض ١٩٤
الجرح الذي أراده الغرب.. مفتوحًا ١٩٥
وكان أبي.. مزواجا ٢من٣ .... ١٩٦

أبي.. في "حديقة العشّاق"! ٣من٣ .... ١٩٨
بيني وبين «عزيزة هارون».. وراء الميكرفون........................ ١٩٩
وهجاني بقصيدة.. قبل خمسين سنة ٢٠٠
الدبّ الروسي.. يسعى! ٢٠٢
بلاد العُرب أوطاني ٢٠٣
العودة إلى العبوديّة ٢٠٣
العالم كلّه........................ ٢٠٤
لم يستطع رئيس المخابرات........................ ٢٠٤
مقطوعة.. نظمتها قبل سبعين عامًا! ٢٠٤
ظلّ يُضحكنا خمسين سنة........................ ٢٠٦
الإبداع بالقلم والريشة.. والإبداع في السياسة ٢٠٦
لله كم أحببت "تيم"... ابن حفيدي "مازن سعود"! ٢٠٧
رذاذ المطر........................ ٢٠٨
عن الدولار ٢١٢
تخرج في كلية الهندسة بحلب ويتغنى بالأدب العربي في سويسرا........................ ٢١٢
والمعاش التقاعدي.. يعادل خمسين ٢١٣
اتّقاءً لأذى "الشمولية" لجأت إلى فنّ الفانتازيا في قصصي!........................ ٢١٤
حرب.. وإعمار! ٢١٦
البكاء.. أمام كلمات الأب! ٢١٦
«بدون زَعَل» ٢١٧
لأنهم لا يحبّون سماع الصوت الآخر! ٢١٨
رحيل رجل المواقف........................ ٢١٩
منتجع صحي.. في مفترق طرق ٢١٩
الروحاني جوزيف نصر الله يقرأ كفّي ٢٢٠
حول مائدة "الكريم كاراميل" ذكرى مستعادة! ٢٢٤

وقد أستطيع قول.. ما لا يستطيعون!.. ٢٢٦
سؤال.. للدبّيكة؟.. ٢٢٦
زائري.. ساعة الفجر!.. ٢٢٧
لكِ أغنّي.. ٢٢٨
فرسان القرية!.. ٢٢٩
الحرية لـ طلّ الملوحي ولمعتقلي سورية.. ٢٢٩
ما فاز إلّا النُّوَّمُ!.. ٢٣٠
أعتذر لعدم قدرتي على كتابة الردود!.. ٢٣٠
لا فنادق تقام غدًا.. في "العصرونية".. ٢٣٠
بعد رحيل الجدّة.. ٢٣١
بسلامة نظرك، يا أمّي!.. ٢٣١
الشوق... لجلبة الأولاد يلعبون بالحارة.. ٢٣٢
بوتين!.. ٢٣٢
حلب.. ٢٣٣
سؤال بسيط للنظام:.. ٢٣٣
"تفوير" الفول!.. ٢٣٣
كان النداء في ٤-٥-٢٠١٥.. ٢٣٤
الاجتماع.. في بيت الطفولة!.. ٢٣٥
ضمير مؤرّق.. حتى البكاء!.. ٢٣٥
شاء "محافظ المدينة".. ٢٣٧
أخي الدكتور عصام السباعي.. ٢٣٧
أطفال سورية الذين يتلقّون العلم، والقصف، في آن معًا.. ٢٣٧
الدولار.. يحلّق في سماء الوطن!.. ٢٣٨
لا تكتب الاسم في الفيس بوك!.. ٢٣٩
الذين ينقدون "على الهويّة"!.. ٢٤٠
عندما يفقد الجلاد موقعه.. ٢٤٢

أحبّ موسى، وعيسى، ومحمد.. ٢٤٣
«كنّا متل أحجار الشطرنج!».. ٢٤٣
بيني وبين مجلة "المعرفة".. عام ١٩٦٥ .... ٢٤٤
بجوار البركة.. عند الفجر.. ٢٤٥
إلّا أنا.. إلّا أنا! ٢٤٦
المشمش محمرّ الوجنات من خجل ٢٤٧
من يشتري الدولار مني! ٢٤٧
في سويسرا افتتح بالأمس متحف حضارات الإسلام.. ٢٤٨
يا مستر "مارك".. يسعد صباحك! ٢٤٩
حوار مع الكاتب السوري فاضل السباعي.. ٢٥٠
طبلة المسحّر.. وطبول الحرب.. ٢٦٥
ويُثير الناقد.. "شُبهات"! ٢٦٦
المسؤول.. الذي نوَّر الشارع ٢٦٨
الباعة.. في زمن الحرب ٢٧٠
هل صدق حدسي فيما كتبت قبل عقود من سنين!.. ٢٧٠
مهداة للباعة.. في وطننا الحبيب ٢٧١
الرحيل إلى كوكب آخر ٢٧٢
ونستعيد أغنيات الطفولة.. ٢٧٦
زملاء في التجهيز الأولى بحلب تشكيلي، وشعراء، وعسكر ٢٧٧
ما آخرُ ما كتبتَ لنا؟.. ٢٧٩
وكأني بلسان حالهم يقول.. ٢٧٩
الحنان في كل مكان... إلّا في سوريّة! ٢٨٠
لا يموت السوري من جوع ٢٨٠
أصحيح، أيها النظام ٢٨٠
نعم، لقد نقل السريان ٢٨٠

النزول إلى القاع: سيد درويش، لؤي كيالي.............................. ٢٨١
ويتواصل الحديث عن أكلة "اللحمة بالكرز" ٢٨٢
طفل من حلب.............................. ٢٨٥
وهل أقول:.............................. ٢٨٦
فقط.. لا تقصفوا الأزهار.............................. ٢٨٦
السفير.. الذي كان في وداع الملك.............................. ٢٨٦
والمعامل.. مَلَكَها الشعب.............................. ٢٨٧
حلم.. سوري.............................. ٢٨٧
قَصّة شَعر!.............................. ٢٨٨
أكره المساواة! رسالة من بلاد الهجرة.............................. ٢٨٩
سوق مستحدث أنيق!.............................. ٢٩٠
بالأمس... رحل مواطن ألماني.............................. ٢٩٢
هل يريد الطيران الروسي لأهل حلب.............................. ٢٩٢
«الله يرضى عليك.. دبّرها بهذا المبلغ!».............................. ٢٩٢
توفي عند الساعة الخامسة من مساء أمس.............................. ٢٩٣
بالحبر الأخضر!.............................. ٢٩٤
لا يعرفون.. مجلة "المعرفة"!.............................. ٢٩٤
وتحت القصف.. تمارس الحياة بكلّ تفاصيلها!.............................. ٢٩٥
تواضع.. وعنفوان!.............................. ٢٩٦
يتقاسمان البطولة:.............................. ٢٩٦
أيها الشعب التركي.............................. ٢٩٧
من حقك، يا تركيا.............................. ٢٩٧
وكان المتهوّرون.............................. ٢٩٧
عندما يقع انقلاب في دولة ما.............................. ٢٩٧
الرصاص.............................. ٢٩٨
عملوها في ١٥ تموز/ يوليو... فخابت.............................. ٢٩٨

يا شعوب العالم ٢٩٩
صرخة في الضمير.. تؤرّقني! ٢٩٩
رحيل محمود فاخوري وذكريات حميمة ٣٠٠
إنهم يجْزِرون! ٣٠٣
الذين يبكون خوفًا على جنرالات الانقلاب ٣٠٣
أيظلّ الغرب.. يخاف الإسلام؟ ٣٠٤
إنّ من تبنّى حزبُه التنمية السليمة والاقتصاد الهادئ ٣٠٤
وقال اللامثقفون المتاجرون ٣٠٥
مدينة سورية شرقي حلب ٣٠٠٠٠٠ مدني محاصر ٣٠٥
يا عزيزنا رجب طيب أردوغان ٣٠٦
أربحُ الناس، في هذا الزمن السوري الحزين ٣٠٦
الخوف ٣٠٦
قبل ثلاث سنوات.. تأمّلوا!! ٣٠٧
وُلد اوباما لوالدين مسلمَين ٣٠٧
الرئيس المنتخب في الاعتقال ٣٠٨
اتجه نحو الشمال ٣٠٨
جاءه ملبّيًا دعوته. ٣٠٩
وعندما رأى الغرب في تركيا ٣٠٩
أنا... في دمشق ٣٠٩
الخزي للدول الأوروبية ٣٠٩
في بلاغهم "رقم واحد" ٣١٠
يا "صفيّة بيات" ٣١٠
وفيما أنا أبكي على ما لحق بمسقط رأسي ٣١١
حلب... عاصمة الألم والغضب! ٣١١
ومن أعجب ما يلاحظه العالمُ ٣١١

أسلحته الذكية.. ٣١٢
بطاقة سفر!.. ٣١٢
رآه صديقُه عائدًا من السوق ٣١٣
كان أحمد زويل عالما متميزا ٣١٣
كتبت له: ٣١٤
أبناء الملّة الواحدة ٣١٤
هل يعلم المسلحون.. ٣١٥
إلى متى.. ٣١٥
الجيش يحمي الوطن ٣١٥
جارتنا الآنسة جورجيت ٣١٦
مقياس جديد لحرية التعبير.. ٣١٧
الوطن عزّ، أيها الأصدقاء!.. ٣١٧
جيراننا اليهود بحلب ٣١٨
وإني لأرى بين الناس ٣١٩
المعارض.. الذي يُثير الضحك!.. ٣٢٠
ما أبلغ حزنك، أيها السوري! إنه حزن تاريخي... .... ٣٢١
يا دول الغرب! ٣٢١
أعرف جيدًا أنّ بعض أصدقاء الفيس.. ٣٢١
وتساءل أحمد شوقي.. ٣٢١
التجوّل في شارع إسكندرون، في الأربعينيّات ٣٢٢
سؤال قليل البراءة: لماذا يُسمح للطيران الروسي بقصفنا؟ ٣٢٢
ومن الصبايا اليهوديات ٣٢٣
"جميل".. و"انترانيك" ٣٢٣
عرفت السيدة ناريمان رفاعي.. ٣٢٤
حتى إنْ بلغ الجَوْر قتلي وإبادةَ أولادي ٣٢٤
ألا تلاحظون أمرا عجيبا! ٣٢٥

رُبَّ "وامُعْتَصِماهُ" انطلقت ٣٢٥
أليس غريبا جدا "١" ٣٢٦
أليس غريبًا جدا "٢" ٣٢٦
أليس غريبًا جدا "٣" ٣٢٦
أليس غريبًا جدا "٤" ٣٢٧
أين يجثم العدوّ! ٣٢٧
فاضل السباعي.. خارج السِّرب! ٣٢٨
يا أستاذ لا تضربنا! ٣٣٠
في البوسنة ٣٣٠
حَمَل وديع.. آخر! ٣٣١
الصمت الذي لا يُقهر ٣٣١
أصدقائي الأعزاء ٣٣٢
الذي فعلوه.. بنا! ٣٣٢
يبدو أنّ تدمير سورية، وإفراغَها من سكانها ٣٣٣
نعلم أنّ أجهزتهم ترصُد أدقّ الأفكار ٣٣٣
أيها القاصفون بلادَ الشام ٣٣٤
قهر وفقر ٣٣٤
الرأسمالي لا يشبع ٣٣٥
ولما عدت إلى الوطن... وجدته أكثر تضرّجًا بالدماء! ٣٣٥
ويتحدثون عن سقوط القذائف وكأنها "أسنان العجوز"! ٣٣٥
ويختصر الانتفاضة بأنّ «السوريين يتقاتلون على السلطة»! ٣٣٦
اعتقال مواطن وابنته طمعًا بالابتزاز ٣٣٧
"أبو جورج" و"أبو حسين" ٣٣٨
سرق قصة لي، وفاز بها في مسابقة! ٣٣٨
عندما يسود العدل ٣٤٠

عمران.. يتلمّس قاعدة الكرسي ٣٤٠
مأمون الجابري المبدع في حياته وفنّه.. وداعًا ٣٤١
إعداد وجبة الطعام.. ٣٤٣
أنا خائف.. أم مخيف!.. ٣٤٤
بين دمشق والإسكندرون.. نتذكّر الطفولة.. ٣٤٤
دمشق –«القدس العربي».. ٣٤٦
ليس في العالم، اليوم، من هو أسعد قلبا من إسرائيل! ٣٥٣
إلى مثواه الأخير.. ٣٥٣
في "قلب العروبة النابض" ٣٥٤
القلب.. والقلم. ٣٥٤
وماذا بعد، أيها النظام؟.. ٣٥٥
آه، يا جولان!.. ٣٥٥
ذات يوم كتبت لي ٣٥٥
نحن.. خارج "اللعبة"! ٣٥٦
قبر، في «الدحداح»، مريح!.. ٣٥٦
تلقيت الساعة رسالة وردت ٣٥٨
«ياسمينة» تُغنّي لأهل الدار ٣٥٨
وبالعدل احكمونا.. إلى الأبد ٣٦١
تجديد "الولاية".. الأخير!.. ٣٦٢
لذّة المضغ.. ولذّة التعذيب.. ٣٦٢
أليس غريبًا ٣٦٣
ويقصفون القبور.. أيضا! ٣٦٣
المحامي "صلاح الدين أبو الخيرات"!.. ٣٦٤
حلب، يا حلب! ٣٦٥
أكلة «فريكة» في مطعم! ٣٦٥
رسالة من سيدة سورية.. تعاني أوجاع الاغتراب ٣٦٨

إنّ الإنسان لتتملّكه الدهشة.. ٣٧٠
تأكد لي ٣٧٠
وعد.. ٣٧٠
إني أكاد أشفق ٣٧١
ناصر.. والانتصار للشعب السوري.................................... ٣٧١
يعرف القَدْر.. ويهمل! ٣٧٢
لا مقابر بحلب!... ٣٧٢
عندما يعانقني كلّ هذا الحبّ ٣٧٢
هل تعرفون الكلمة التي يتصايح بها السوريون فرحًا؟ ٣٧٣
الزمن الجميل! ٣٧٣
قلوبنا في الخمسينيات.. وقلوب الجزائريين اليوم.......................... ٣٧٤
عندما كان بعض البعثيين يستيقظون.................................. ٣٧٤
الضفّة.. راحت!... ٣٧٤
سورية الغد.. ٣٧٥
ويأتي الإعجاب.. من بعيد ٣٧٥
أصبح قول أحدهم لك "كل عام وأنت بخير" لا معنى له!................... ٣٧٦
علّمتنا الانقلاباتُ العسكرية... ٣٧٦
«المحكّمون.. منكم وإليكم!»... ٣٧٧
لا يفرّقون بين النظام الذي يحكم وبين الشعب المحكوم ٣٧٨
يوم قام بتقليم الأشجار الكثيفة ٣٧٨
قصف قافلة المساعدات ٣٧٩
في باريس ٣٧٩
لماذا يريد العالم.. ٣٨٠
زهرة نرجس تُزيّن صفحتي ٣٨٠
كتب له: ٣٨١

وكنّا من.. "جيل الخمسينيّات"! ٣٨١
من يستطيع أن يقول! ٣٨٢
صديقي يعيش وحيدًا ٣٨٢
بارود.. اهربوا! ٣٨٣
في حمّام مسؤول كبير ٣٨٤
يا أوباما! ٣٨٥
هل صحيح، يا سيدي النظام ٣٨٦
كاتبٌ أعرفه وتعرفونه ٣٨٦
رجال الإسعاف والدفاع المدني بحلب ٣٨٧
ألا ترون، أيها الأصدقاء ٣٨٧
في حمّام النسوان: "هاي مو فتايل وسخ! " ٣٨٧
هل نضع جزءا من ثقتنا في هيلاري كلنتون ٣٨٨
عنفوان الشاعر ٣٨٨
ولقد وصل مرضُ الفُصام النفسي ٣٨٩
ويمكن القول ٣٨٩
شكله برجوازي ٣٨٩
قال الحبر الأعظم ٣٩٠
يبدو أنّ بوتن.. "تَخَنّها"! ٣٩٠
كيري يقول ٣٩١
وبدا أنّ أمريكا والغرب ٣٩١
وكان حلمُنا بالحرية متواضعًا ٣٩٢
ونزلتُ ضيفًا على اتحاد الكتّاب السوفيات ٣٩٣
في انتظار الأنامل الذهبية ٣٩٥
كناري.. من يد أديب إلى بيت أديبة ٣٩٦
روسي متطرف يترجّى بوتين مسح سوريا من الخريطة! ٣٩٧
تساؤل لطيف ٣٩٨

لافروف.. والأصالة! ٣٩٩
حتى ألعاب الأطفال.. يا بوتين! ٤٠٠
٣٠ مليار ثروة بوتن... .... ٤٠٠
خفّ من صوف.. لمعتقل في صيدنايا ٤٠٠
إنّ لشيوعيّي العهد السوفياتي فضيلتين ٤٠١
كنّا ظننّا أنّ ساكن قلعة الكرملين ٤٠١
صرخة زهراء من سيدة سورية ٤٠٢
عندما يُغنّي الأطفال في رحلة مدرسيّة ٤٠٣
الرجاء التعريف بكيفية طبخ السفرجلية ٤٠٤
فئة من الناس ٤٠٥
يا أصدقائي ٤٠٥
وظل عمرو موسى والبرادعي وصبّاحي ٤٠٥
لو أنّ أمير الشعراء بيننا اليوم! ٤٠٦
أشهد أنّ الجزائريين يحبّون بلاد الشام حبًّا جمًّا ٤٠٦
ليت أمّه ما وَلَدته! ٤٠٧
غروزني – حلب! ٤٠٧
هل يُنجب الأديب أديبا؟ ٤٠٨
ضاعت ليبيا من يد الروس ٤٠٨
وتربّيتُ على الطرب صغيرا ٤٠٩
ما رأيت مثل المرأة ٤١٢
تشابه أسماء.. تشابه أدوية! ٤١٢
قولي أحبّك... .... ٤١٤
بوتين.. ما أقسى قلبك وما أرقّه! ٤١٥
رقابة ذاتية! ٤١٦
الشاعر "ممدوح مولود".. في أول شبابه ٤١٦

حضارة.. وحقارة ٤١٧
يوم أطلقنا سراح ذوي اللحى السوداء! ٤١٨
جمال قطب... وداعًا ٤١٨
أبناء أصدقائي! ٤١٨
"لعبة الأمم".. الصغيرة! ٤١٩
الفن.. مين يعرفه؟ ٤٢٠
مواطن.. في دائرة التهميش ٤٢١
نكتة النوافذ المكسّرة! ٤٢٢
عالم «أديب نحوي» القصصي ٤٢٣
أشتهي فروج مشوي ع الفحم! ٤٢٥
الروائي السوري أديب نحوي مؤرخ المجتمع المعذّب ٤٢٦
محظوظ! ٤٢٧
أنا لست ضعيف الرأي، يا بوتين! ٤٢٨
حفلة شواء في حديقة منزلية ٤٢٨
حلب.. لليوم الرابع تحت القصف ٤٢٩
في يوم مولدي ٤٣٠
وقع لي.. على ضفّة "نهر تورا" ٤٣٠
وغمزني السفيرُ الأمريكي بعينه! ٤٣١
مجلة "صوت الطالب" في ثانوية المأمون بحلب ١٩٥٠ .... ٤٣٤
الإعلامي "إبراهيم الجبين".. يُصدر رواية ٤٣٦
أعترف للأصدقاء ٤٣٦
يوم تطلّعت لرئاسة مجلة "التراث العربي" ٤٣٧
أرأيت إلى الشجر ٤٣٨
في الأندلس.. أجرة الطبيب كانت مشروطة بالشفاء! ٤٣٨
"طوني".. الذي "يُصفّر" لعروسه! ٤٣٩
أمام بيته تقف سبع سيارات، فارهة ومتوسطة وعادية ٤٣٩

عاجل! ٤٤٠
وتأخذه.. إلى آخر الدنيا! ٤٤٠
محْلاها عيشة الفلاح! ٤٤١
في الطريق إلى مقرّ "الاتحاد" ٤٤٥
خيال صديقي.. عند بائع الفروج! ٤٤٦
عندما ننشر في الدوريات... ٤٤٧
لحظة همّ بالتوجّه إلى مقرّ الجريدة.. ٤٤٧
"مؤامرة كونيّة"! ٤٤٨
عدت إليك، يا وطني... ٤٤٨
زرت بالأمس صديقا في عودته من السفر ٤٤٩
إنّ دمشق.. ٤٤٩
"السَّفَرْجَلِيّة".. لـ حلب! ٤٥٠
يظلّ الآباء يجاهدون في السياسة ٤٥٢
أنا.. وسائق التكسي ٤٥٢
من فيض رواتبه! ٤٥٣
تعليق على: "السَّفَرْجَلِيّة لـ حلب! " ٤٥٣
مهاجرون سوريون.. نادمون! ٤٥٥
صديقي عادل جاموس.. وداعًا، أيها الطيّب ٤٥٥
مجتمع بلا شبّان!... ٤٥٨
أسلحة الغرب.. الذكيّة! ٤٥٩
ويتنزّه الطلاب الضباط ما بين شارع إسكندرون ومتنزّه السبيل ٤٥٩
في بعض المدارس... ٤٦٠
سأبدأ اليوم بالكتابة! ٤٦١
بعد عشرين عصا على القدمين ٤٦٣
كان يريد أن يتحدّث إلى شقيقته، التي ظلّت تحت سقف الوطن ٤٦٤

يوم غنّى "كارم محمود" في حلب ٤٦٤
ليس دفاعًا عن.. "الأغنياء"! ٤٦٦
السؤال عن الصحة ٤٦٦
عند طبيب الأسنان.. في واشنطن ٤٦٧
إننا نحن الشعب سنعيش، يا توم! ٤٦٧
عنصريّةٌ في السؤال، وطائفيّه! ٤٦٩
أنا ماني شحّادة! ٤٦٩
أصدقائي ٤٧٠
ووضعنا الجولان على الرفّ ٤٧٠
من أصعب المواقف ٤٧٠
البكاء.. حتى نهاية الحياة! ٤٧١
بعد أن حلّقوا في الطائفية يستاؤون إن ورد اسم طائفتنا على شفاهنا ٤٧٢
الطير البديل.. حَسّون من الأغوار ٤٧٣
هل تُباع المدن؟ ٤٧٤
في اللاذقية ضجة جميلة ٤٧٥
من أخلاق الحرب: مليونان وأثاث بيت ٤٧٥
عباس الحامض.. يكتفي بأربعة محررين! ٤٧٦
أيها العالم! ٤٧٧
إذا كانوا يريدون حلب لإسكان أناس آخرين ٤٧٧
توازُن ٤٧٨
تأجيل الأمسية الأدبية في "النادي العربي" ٤٧٨
يوم تتكاثر "الأخطاء الطباعية" في كلماتي ٤٧٩
الحكومات التي تحرص على سلامة شعوبها ٤٧٩
ويصبح زميلي سفيرًا ٤٨٠
هل توقّف التاريخ، أو تغيّر! ٤٨١
إلى متى تظلّ تُجرّب فينا أسلحتك "الذكيّة" ٤٨٢

إعلاميون من جريدة "تشرين" يزورونني ٤٨٢
يا بوتين........ ٤٨٦
الفقير.. واللحمة........ ٤٨٦
كنت.. في فلوريدا ٤٨٧
أصدقائي الأعزّاء........ ٤٨٧
فليكن اللقاء.. في إسطنبول! ٤٨٨
أيها النظام ٤٨٨
الذين دُمّرت مدنهم........ ٤٨٩
قصة "الأول».. من الذاكرة في «النادي العربي» أمس ٤٨٩
"تقرير" عفوي عن أمسية «أيام في فلوريدا" بالنادي العربي بدمشق ٤٩٠
فول.. بلحم الضان واللبن المتوّم........ ٤٩١
مطالعة.. حتى كلال البصر........ ٤٩٣
زوجة مثالية ٤٩٣
النصر لحلب.. كيف؟ ٤٩٥
ليس عندي مِن عُذر ٤٩٦
أسرة حلبيّة........ ٤٩٦
لم أكن أعرف قبل اليوم ٤٩٦
كتبتْ لي من بعيد.. تقول ٤٩٧
سيدة من حلب.. تقول ٤٩٨
صَبيّة من حلب.. تقول........ ٤٩٨
حلب.. الأستاذة في فنّ العمارة ببلاد الشام ٤٩٩
إنها "الحرب الكونيّة"، يا أمي! ٥٠٠
يا شرفاء العالم! ٥٠١
كلام في "ملفوف اللَخَنَة"........ ٥٠٢
اقبلوا اعتذاري! ٥٠٣

حالات إنسانية.. من "الفوعة" إلى حلب ٥٠٤
زواج السوريين وراء الحدود ٥٠٤
أنا ابنُكم، يا أسلافي الأندلسيين ٥٠٥
يا سيدي النظام ٥٠٧
الذين كانوا في وجَع الحصار ٥٠٧
لم نعد نصدّق أنّ ما ينزل من السماء يمكن أن يكون هدايا! ٥٠٨
المشكلة عندي ٥٠٨
وحدة ٥٠٨
فجر اليوم، وأنا في ساعة أرق، خطر لي: ٥٠٩
أيها الراقصون في حلب ٥٠٩
في كثير من الصور، التي يعرضها أصدقاء التواصل الاجتماعي ٥٠٩
بعرق الجبين.. يُعفّشون! ٥١٠
بعد حلب ٥١١
في انتظار الماء! ٥١١
ففي المسألة.. وطن ٥١١
يا سوريّي الخارج لا تسرفوا في أحزانكم علينا! ٥١٢